جائزة نوبل ١٩٩٨

عام وفاة ريكاردو ريس

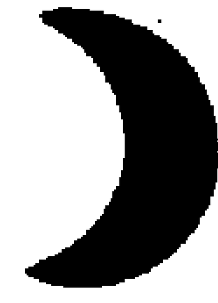
٥٠ عاما
روايات الهلال

خوسيه ساراماجو



روايات الهلال

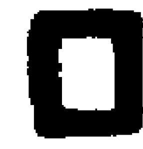
Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩



رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم



ثمن النسخة

سوريا ٢٥٠ ليرة / لبنان ٧٥٠٠ ليرة/ الأردن ٣ دينار/ الكويت ٢ دينار/ السعودية ٢٠ ريالا/ البحرين ٢ دينار/ قطر ٢٠ ريالا / دبي / أبو ظبي ٢٠ درهما / سلطنة عمان ٢ ريال

العدد ٦٠١
يناير ١٩٩٩ ● رمضان ١٤١٩ هـ
No - 601- JA - 1999

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه
الاسكندرية

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار. القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط المكاتبات : ص . ب ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469

عام وفاة ريكاردو ريس

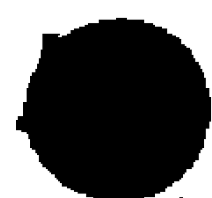
بقلم :

خوسيه ساراماجو

نوبل ١٩٩٨

ترجمة :

عبد الحميد فهمى الجمال



دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية :

Ano DA Morte De Ricordo Reis

وبالانجليزية :

The Year of the Death of Ricardo Reis

by:

José Saramago

- جائزة Independent في بريطانيا ١٩٨٨.
- جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٨ .

الغلاف للفنان :
حلمي التوني

قبل أن تقرأ

أشار خوسيه ساراماجو في حديث صحفي أدلى به مؤخراً إلى أن روايته المهمة «عام وفاة ريكاردو ريس » (١٩٨٤) لن يعجب بها اعجابا عظيما سوى شخص برتغالي ، فهذه الرواية تتطلب معرفة كبيرة بتاريخ وثقافة البرتغال ابتداء من أزمنة المجد والامبراطورية حتى الفصول الأولى المشئومة للدكتاتورية التى مارسها سالازار . ورواية «عام وفاة ريكاردو ريس» شأنها شأن معظم الروايات المليئة بالثراء يمكن تفسيرها بطرق عديدة ومختلفة .

لقد كان ريكاردو ريس هو أحد الأسماء المستعارة التي استغلها الشاعر البرتغالي فرناندو بسوا (١٨٨٨ - ١٩٣٥) والحوارات العديدة التى جرت بين بسوا وريس فى جميع أرجاء الرواية تشكل كمية شاملة ومميزة لحياة وأعمال أشهر شاعر في البرتغال منذ كاموس . ولقد أشار بسوا إلى أن اسماءه المستعارة الثلاثة الرئيسية وهى (ألفارو دى كامبوس ألبرتو كايرو ريكاردو ريس) لم تكن مجرد أسماء مستعارة وإنما هي دليل على الشخصيات المتعددة التى نمتلكها نحن جميعا فهى بمثابة أوجه ومظاهر متغايرة لأنفسنا التى لا تحصى ولا تعد . ومن خلال تأثر ساراماجو بما حدده بسوا على أنه «ميل دائم وأساسي نحو تخفيض طابع الشخصية وطابع الادعاء» فإنه يستغل فى صراحة العلاقة بين كل من : بسوا وريس وذلك من خلال السماح للنفس الثانية بأن تعيش لفترة أطول من حياة خالقها بتسعة شهور مع استدعاء بسوا فى نفس الوقت من قبره لكى يجدد صداقته مع ريس الذى عاد إلى البرتغال بعد أن أمضى ١٦ عاما من النفى السياسى في البرازيل .

والملامح الفيزيقية لبسوا تعتبر دقيقة في تفاصيلها : فهو شخص نحيل ومثقف له نظارة ذات اطار ذهبى وهو لطيف وعصبى بعض الشىء فى تصرفاته وأنيق

الملبس وله طريقة في المشي مميزة . وبسوا لم يتزوج على الاطلاق . وباستثناء صلة حب واحدة مع أوفيليا كويروز كانت هناك تلميحات غامضة عن ازدواجية جنسية . ومن الواضح أنه كان يفضل الرفقة على الحب لأن الرفقة أقل اتساما بالألم وأقل تطلبا للعناية الكبيرة . ويركز ساراماجو على التعقيدات والطابع السرى اللذين ساهما فى غموض بسوا أثناء فترة حياته وجذبا المزيد من الانتباه في السنوات الأخيرة . ولقد كانت اهتمامات بسوا موسوعية وشاملة . اذ كانت تنصب على : الشعر / القصص البوليسية / العلوم السياسية / التنجيم / والإيمان بالقوى الخفية / السحر / الماسونية . ونظرا لأنه مناهض للتماثل نجد أن آراءه السياسية كانت مثيرة للجدل والخلاف في الرأى . ولقد كانت آراؤه الفلسفية انتقائية ومؤلفة من عناصر مختلفة وغير منظمة وغير منهجية ، وكانت نظرياته الأدبية واقعة تحت تأثير الرواد الأوائل الأوربيين وتأثير تجارب الاشتراكيين الجدد والتكعيبيين والمستقبليين وغيرهم . بل وتوسع بسوا فى البيان الشعرى الخاص به الذى حدده بأنه بمثابة بوليزمو Poulismo . ونظرا لأنه كان مصرا أن يكون هناك المزيد من التفاعل بين الأشياء المجردة والأشياء المادية الملموسة وما بين المشاعر الداخلية للشاعر والحقيقة المادية فإنه قدم البوليزمو ومارسها فى مساهماته مع الجرائد العصرية التى تطبع وتنشر فى لشبونة . والصورة الدائمة عن بسوا على النحو الذى نقله لنا ساراماجو هى صورة الخصوصية المتسمة بالحذر وتناقضات العقل والروح غير المحسومة والوعى الذى لا يمكن الهجوم عليه والمتعلق بعزلته الداخلية . فهو شاعر أفضى بدخيلة نفسه إلى أصدقائه ووثق فيهم عندما قال لهم : «إننى لا أعرف من أكون أنا ولا أعرف ما هى الروح التى أمتلكها » .

* وريكاردو ريس يمثل مظهراً حيويا لطبيعة بسوا فهو شخصية خيالية تنطق بأفكار بسوا وهو إلى حد ما اشبه بممثل يعيد نصاً دراميا إلى الحياة . ويعتمد ساراماجو على التفاصيل الواقعية الحقيقية عن ريس والتى يقدمها بسوا نفسه . ولد ريكاردو ريس فى أوبورتو عام ١٨٨٧ وتلقى تعليمه على أيدى الجزويت .

وتخرج فى كلية الطب وأصبح ممارسا عاما بينما كان يكتب الشعر . وآثر النفى السياسى بسبب تعاطفه مع نظام الحكم الملكى . وعلى نحو يمكن التنبؤ به يكشف ريس عن علاقات روحية معينة مع اسمين مستعارين آخرين لبسوا وهما : كامبوس وكايرو ولكن الشك الراديكالى لدى ريس يتم التأكيد عليه أكثر من ذى قبل . وريس من حيث هو شخص محب للفن والجمال فإنه يحاول التوفيق ما بين وضوح العقل وغموض عالم الأحلام (فى بعض الأوقات يصل إلى حافة الجنون) ويواجه المجهول والأمور التى لا سبيل إلى معرفتها فى رباطة جأش واتزان كاملين . وهو ملحد ومؤمن بالقضاء والقدر وبالتالى فهو يميل بشكل مكشوف إلى معاداة المسيحية الأرثوذكسية بسبب طبيعتها الاقصائية التى لا تبيح للأعضاء الجدد الانضمام إليها بسهولة . وهو مؤمن بالسيد المسيح ولكن إيمانه لا يزيد أو ينقص عن إيمانه بكافة الآلهة الآخرين . وهو يعرِّف الحرية بأنها الوهم أو الشعور الكاذب بالحرية ويعرف السعادة بأنها الوهم أو الشعور الكاذب بالسعادة . وهو يشير إلى أن الحقيقة لا يمكن معرفتها . ويؤمن ريس إيمانا عميقا بأن القدر كلىّ القدرة . وبذلك يؤمن بأن الرجل الحكيم هو الذى يستمتع بكل لحظة فى حياته كما لو كانت هى آخر لحظة ويتخذ حالة من التقبل الهادىء وليس حالة من الاستمتاع النشيط .

وقصارى القول أن ساراماجو يدعونا لكى نتأمل فى البرتغال والعالم أثناء الثلاثينات المائجة بالاضطراب من خلال عينى ريكاردو ريس الذى هو الاسم المستعار لفيرناندو بسوا : وهى فترة السنوات العشر التى أصابتها آفة الفاشية والتاكتيكات الوحشية لدى صراع الدول على السيادة . ويقوم ساراماجو بربط الوثائق التاريخية الحقيقية مع التعليقات الخاصة التى يقولها ريس أو بسوا . والكلام التهكمى الساخر الذى يقوله المؤلف يضيف بعداً آخر لهذا التقييم الجديد لمصائر البرتغال . وساراماجو – على العكس من ريس – غير قانع بمجرد التأمل فى العالم . فهو من خلال الحدس يرتاب فى قيم العالم . والتفسير الذى يقدمونه عن تاريخ البرتغال الذى خضع لتقلبات متواصلة يكشف عن التزام عميق بالمثل

العليا الانسانية لكن بدون بذل محاولات لاخفاء تحيزاتهم السياسية والاجتماعية فالمؤلف والشخصيات بالرواية يقرون بالطريقة الخاصة بهم التناقضات الفاضحة الكامنة فى الأمة البرتغالية والحالات النفسية المتقلبة لمحو الذات الذى هو تصرف كامن وفطرى . وهناك أبيات من قصائد بسوا الغنائية تستخدم فى النص ، وغالبا ما تكون فى شبه حوار مع أصداء متواترة للهم والكرب الوجودى فى مواجهة شناعة الحياة وخياناتها المستمرة .

وموضوع الحب الذى يظهر فى الرواية لا يعتبر بمثابة الحبكة الثانوية وإنما هو تحليل عميق للعلاقات الانسانية . فهناك امرأتان متناقضتان تماما تجذبان ريكاردو . الأولى هى ليديا الوضيعة المسئولة عن غرف النوم بالفندق والتى تقدم إعادة الطمأنة الجنسية وتدبير الشئون المنزلية على نحو نموذجي فمن حيث أنها ليست لها مطالب ملحة ومليئة بالحيوية وصريحة ليست مختلفة كثيرا عن ليديا المثالية الروحانية غير المادية التى استحضرها ريس فى قصائده الغنائية . وهناك علاقاته أيضا مع مارسيندا المتاعة الحذرة الواعية وهى فتاة من بيئة أرستقراطية تحطمت آمالها فى العيش فى حياة طبيعية بسبب التشويه المخجل والأعراض غير القابلة للشفاء لذراعها الذابل المشلول . وليديا ومارسيندا تمثلان الفجوة ما بين الرغبات الشهوانية للرجل والمناشدات التى لا يمكن مقاومتها لمثل أعلى يتعذر الوصول إليه . ولا يكون بمقدور كلا المرأتين حسم الصراع الذى يعيشه ريس ما بين ميوله الخاصة والخصائص الاجتماعية وهو صراع تعمق أكثر من خلال عدم التلاؤمات الخاصة به من حيث هو محب حذر دائما ومغرور وأنانى وغير راغب فى الدول فى أى ارتباط أو التزام وطيد وقوى . وتدخل أفكار ريس المضطربة فى صميم مناقشات الذكورة / الأنوثة فى البرتغال المرتكزة على العادات والتقاليد فى خلال الثلاثينات .

ويتداخل الشعر والفلسفة فى هذه الرواية . والمسائل التى تم تناولها ومناقشتها بمعرفة فرناندو بسوا ونفسه الثانية ريكاردو ريس تساعد على توضيح

العلاقة المتناقضة بين ساراماجو وريكاردو ريس . فالروائي اعترف باعجابه بالصرامة الذهنية والنظام الرسمي الذي يمكن العثور عليه في القصائد الغنائية لريس . وهو أيضا يتطابق تماما مع رواقية الشاعر ومع مذهب الشك لديه . ولكن الشيء الذي لا يستطيع أن يتقبله هي اللامبالاة التي يجاهر بها ريس عندما يواجه بالمشاهد المثيرة للعالم وهي لا مبالاة تكون على نحو غير مريح أقرب إلى فتور الشعور . فالحوارات الحادة التي يديرها ساراماجو بين بسوا وريس تكشف عن نقاط التقارب والاختلاف في مفاهيمهما الذهنية عن الفن والحياة . وتكون المناقشات على نطاق واسع ويستخدم الحوار هنا كوسيلة فعالة للتفحص الدقيق والتنفيس الروحاني . ويقوم كل من بسوا وريس باستكشاف متاهات ذهنية تشبه كثيرا تلك التي وردت في كتاب Ficciones بقلم بورخيس . وتأثير الكاتب الأرجنتيني تتمثل في تكرار الاشارة إلى كتاب «إله المتاهة» بقلم هربرت كوائين وفي اختيار ساراماجو للمجاز والاستعارة : المرايا + نهر الزمان والتدفق الأبدي + رقعة الشطرنج + العداد ة (*) Numerology الخفية الغامضة + لعبة الفرصة والمجازفة + أساطير واقعة تحت سيطرة آلهة متحفظة وماكرة . ونجد أن ساراماجو – شأنه شأن بورخيس – يقوض الحقائق اليقينية الراسخة لصالح تدعيم الاحتمالات الممكنة . ولكي يجتاز الانسان المتاهة فإن عليه أن يسير بطريقة عشوائية عبر الزمان والمكان وهذه مغامرة إنسانية تتطلب شجاعة وخيالا إبداعيا .

والرؤية عن الجنس البشري المقدمة هنا تكون معقدة وشاملة . فبطل الرواية على النحو الذي قدمه لنا ساراماجو هو كيان محفوف بالمخاطر ومسكون بأصوات غريبة ومنساق وراء الرغبات ومدرب من خلال المصلحة الشخصية فهو مخلوق غير عادي وتراجيدي . وكل كائن بشري يعتبر بكل تأكيد متفردا وقائما بذاته حتى عندما يكون شبيها بكل آدمي آخر . فنحن جميعا متفردون ومع ذلك فنحن لا نعد

(*) العدادة : دراسة معاني الاعداد السحرية أو التنجيمية .

أو نحصى . وآلهة ساراماجو لا تعد ولا تحصى أيضا ولا يكونون أبداً إلهاً واحدا غير مقسم . وهذه الشخصية المتعددة العناصر تزيد من مشكلة الهوية الذاتية وتؤكد على التشظية الخاصة بنا . وكما يقول ساراماجو : «نحن جميعا نعانى من بعض التوعك والقلق والانزعاج ونعانى من قلق ما جوهرى غير قابل للانفصال عماً نحن عليه فهو قلق يجعلنا على ما نحن عليه : وربما يكون من الأكثر دقة أن نقول أن كل واحد منا هو القلق الخاص بنا لأننا بسبب ذلك القلق نكون قليلى العدد للغاية وبسبب ذلك القلق أيضا ننجح فى أن نكون كثيرين للغاية » .

ورواية «عام وفاة ريكاردو ريس» والتى تشبه كتابا ما عظيما عن الحياة تتناول فى دقة المسائل التى لا يمكن لرجل عاقل أو فنان أن يتجاهلها : الحقائق والدوافع وسرعة الزوال والانعزال والعدم . ويغوص كل من : بسوا وريس على نحو متزايد فى إعياء وارهاق لا نهائى لدى كفاحهما من أجل التوصل إلى تفاهم مع القدر أو المصير الانسانى ، فالفكرة المسيطرة المتكررة بالرواية هى :« لا أحد يهرب من مصيره» فبسوا الميت يحذر ريس . ومن المؤهل على نحو أفضل لكى يؤكد على الحد الفاصل الدقيق ما بين صدمات الحياة والموت ؟ ويقول الشاعر لريس فى تأكيد : «الحائط التى تفصل الأحياء وتعزلهم عن بعضهم البعض ليست أقل تعتيماً من تلك الحائط التى تفصل الأحياء عن الموتى» .

كانت البرتغال فى الثلاثينات قد انخفضت أهميتها وأصبحت تقوم بدور غير مهم فى أوربا ، ويشير ساراماجو إلى «*الصوت الجبان الخائف للبرتغال*» وهو صوت ربما كان جبانا ، لكنه صوت متفرد على نحو مذهل . وهو صوت ذو نغمة منخفضة على نحو يمكن التنبؤ به ولكنه صوت يدرك أمجاد البرتغال الماضية وقيمتها الثابتة . فقدوة وروح أبطال البرتغال وقديسيها وشخصياتها المثالية وشعرائها مازالت مفعمة بالحياة النابضة فهذه هى أرض كاموس وأرض العملاق أداما ستور وأرض دوم سيباستيو . وكما يذكر ساراماجو قراءه فإن : «تاريخ

البرتغال ليس هو تاريخ أوربا ولكن تاريخ أوربا لا يمكن تخيله أو تصوره بدون تاريخ البرتغال» . وبعد أن أصبحت البرتغال قزما محاطا بجيران أقوياء وبعد أن نضبت واستنزفت مستعمراتها نجد أن «الدولة الجديدة» الخاضعة لـ سالازار قد أخضعت الأمة لنظام حكم صارم يرتكز على رُهاب الأجانب الذى يتعارض مع القومية الصحية التى قدر لها أن تنتهى إلى قمع وكبت وعزلة معوقة . ويقول ساراماجو : «صحيح أن الفضيلة المحددة الواضحة للوطنية تغتفر كل التجاوزات وتبرر كل التناقضات» إلا أن الانطباع النهائي هو انطباع عن أناس متسمين بسهولة التكيف والصبر والاجتهاد الشديد فى العمل ، أناس مزودين بموارد داخلية للشجاعة والايمان وهى خصائص تجعل منهم روادا طبيعيين ومهاجرين .

ولقد غيرت الأحداث السياسية وجه أوربا على نحو درامى . وكان لدى البرتغال ما يدعوها لأن تشعر بالقلق عندما تفجرت الحرب الأهلية فى أسبانيا وعندما تصاعدت الفاشية إلى الذروة فى أيطاليا وألمانيا .. ولقد جعل المؤلف الفترة الزمنية لروايته مقصورة على عامي ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ وراح يشيِّد من جديد من خلال نشرات الأخبار فى تلك الفترة جو الاحباط وعدم اليقين الذى دعم طموحات سالازار . ونظرا لأن البرتغال كانت محاطة بدول منذرة بالتهديد وبحلفاء مشكوك فى أمرهم فإنها شعرت بنفسها – مثل العملاق أداماستور مطمورة فى الصخر وواقعة فى مصيدة من خلال النفاق والاحتيال . وبذلك أصبح «الصوت الجبان» للبرتغال غير مسموع إلى حد بعيد فى المهزلة التراجيدية التى نشأت نتيجة لذلك .

وهذا هو الجو الذى يعود إليه ريكاردو ريس عقب قضاء ١٦ عاما فى المنفى . ومن حيث النواحى المرئية فإن لشبونة لم يطرأ عليها تغيير إلا بقدر ضئيل للغاية . إذ نجد أن نفس المعالم ونفس الأصداء المألوفة تعمل على إعادة ربط ريس مع فترة شبابه . ولشبونة من منظور ساراماجو ليست مجرد ستارة المسرح الخلفية

وإنما هي بمثابة المركز العصبي أو مركز القيادة والنفوذ للبرتغال ، ويصحبنا ريس عبر هذه المدينة ابتداء من ألتو دي سانتا كاتارينا الرفيعة المرتفعة حتى الشوارع المفعمة بالنشاط والحيوية بمنطقة بايكسا المنخفضة . ومع ريس نقوم باستكشاف مدينة واقعة تحت سيطرة مينائها وتحت نفوذ مياه التاجوس .. مدينة غنية بآثارها التاريخية وكنائسها ومسارحها ومطاعمها ومقاهيها ، مدينة تنتقل فيها العين باستمرار من السماء إلى البحر وهما قوتا الجذب والصد في جميع أرجاء الرواية . فآفاقهما غير محدودة ولا نهائية وكلاهما يبشر بطرق تؤدي إلى تجربة جديدة وإلى مستقبل أكثر اشراقا ولكن يمكن لهما أيضا أن يضللانا ويسببان لنا الدمار .

ويعتقد ساراماجو أن العالم بمثابة مسرح كبير نحقق فيه مصائرنا وأقدارنا المتعددة . ويتم التركيز على الدراما والتعبير المسرحي في جميع أنحاء الرواية . وفي شغف وحب استطلاع شديد يتردد ريكاردو ريس على المساح ودور السينما في لشبونة . فهذان الشكلان للفن : المسرح والسينما يدعمان الحقيقة مع مصادر الخيال . وفي نفس الوقت نجد أن المؤلف حريص على أن يذكرنا أن البرتغال توجد بشوارعها قدر كبير من الدراما مثلما هو الحال في أي مسرح . فبرغم كل شيء نجد أن هذه أمة ميالة إلى الاستعراضات والمواكب والاحتفالات والأعياد الدينية . بل إن مجرد توزيع الصدقات على الفقراء في هذه الدولة يتخذ كافة الزخارف والاثارة التي توجد في المهرجانات الوقورة . وساحة السوق والكرنفال والحج إلى سانت فاطيما والمناورات الحربية والغارات الجوية الوهمية والتدمير السري وأنشطة البوليس السري لسالازار والاجتماعات الحاشدة السياسية تمثل كلها مظاهر مختلفة للدراما القومية الجماعية ، تماما مثلما أن فندق براجانسا وحجرة العمليات الجراحية والمنتزه العام وغرفة النوم في شقة ريس تصبح تجهيزات المسرح من أجل مشاهد متسمة بالدفء للتراچيديا والكوميديا السوداء .

وساراماجو من حيث هو مراقب ذكى للطبيعة البشرية ينقلنا عبر الأطوار الحياتية لرجل لديه بعض التصويرات البارزة عن فترة الطفولة والشيخوخة وعن براءة وتلقائية أطفال يقفون فى تناقض حاد مع المخاوف والهواجس التى تجتاح الناس الذين هم في مرحلة الكهولة . وكل كلام بشرى وكل حركة وكل تعبيرات للوجه تنقل الحالة النفسية ودرجة الشعور الخاصة بها . والعينان والشفتان تكونان معبرتين بصفة خاصة بل إن مجرد قبلة بسيطة تصبح طقوسا جنسية شهوانية ، وتكون لساته ناجحة عندما يصف لنا الاهتياج الداخلي المتولد من خلال الكراهية والخوف وفقدان الثقة وعدم الثقة فى الذات . والشخصيات فى رواية «عام وفاة ريكاردو ريس» تكشف عن أسرارها فى سلسلة متتابعة من مناجاة النفس والحوارات لدى تفاعلها وتأثيرها فى بعضها البعض على نحو جوهرى . وتكون العلاقات الانسانية مليئة بالمتناقضات وسوء الفهم والأنانية والنفاق مما يتسبب فى كثير من الأحيان فى تدمير أى صداقة أو حب حقيقى . ودائما ما يذكرنا المؤلف بأنه : «لا ينبغى أن نثق فى الطبيعة البشرية» . وفى هذه البيئة نجد أن فتاة أمية مسئولة عن غرف النوم بفندق يكون لديها ما تقدمه فى مجال الغيرية والإخلاص والوفاء على نحو يفوق ما يقدمه ريس الداهية المهذب . وعلى نحو يدعو للسخرية نجد أن ليديا القليلة المطالب والتى تتعرض للكثير من الاستغلال هى التى تمتلك بكل وضوح الروح الأكثر تحررا . وعدم اتسامها بالغش والحنكة هو الذى يساعدها على تقبل الحياة في هدوء داخلي لا يعرفه ريس .

وفيما يتعلق بمسائل التكنيك نجد أن رواية «عام وفاة ريكاردو ريس» تكشف عن ربط فردى بين عناصر تقليدية ومعاصرة . وعندما يصبح التفحص الفلسفى عميقا بصفة خاصة يعتمد ساراماجو على فصاحة ودقة النثر فى فترة ما بعد عصر النهضة حيث يتم استغلال التصورات الرائعة والاطنابات العديدة وأسلوب التعبير المتناسق والهجاء اللاذع استغلالا كاملاً . والمعرفة الواسعة الرائعة للمؤلف علاوة على مراجعه الثقافية العديدة تسمح له بالتحرك فى سهولة ويسر من

الماضى إلى الحاضر وتتوافق تبعاً لذلك التسجيلات والانتقالات من نغمة لأخرى فى المعالجة الموضوعية . وتمكنه الرائع من التطورات التاريخية والسياسية يجعله قادراً على إعادة تقييم المواقف وعقد المقارنات بينها علاوة على الكشف عن سخرية الظروف وتقلبات القدر . ومثلما هو الحال مع كبار الهجائين نجد أن مراقبته للعالم تقاد من خلال أمانة ملطّفة ومزيلة للنقمة ومن خلال عين قاسية على كل ما هو زائف ومتسم بالنفاق . وفى شجاعة ونزاهة وهدوء يتم تفحص ومراجعة كافة الأمور الانسانية والإلهية .

وساراماجو – شأنه شأن بورخيس – يحاول أن يقنعنا بأنه «لا توجد هناك متعة أعظم من متعة الفكر . وساراماجو الواثق من نفسه من الناحية الفنية والمتمتع بموهبة شعرية عظيمة ينتقل فى سهولة ويسر من الوصف إلى التعليق ومن التأمل الدقيق إلى الحكمة الشعبية ومن الاستعارة والمجاز إلى العبارات البسيطة الانسانية .

وهو مع استخدامه لقماشة عريضة للرسم نجد أنه يجاهد من أجل التوصل إلى نموذج ثرى من الموضوعات والأفكار المتناسجة فى تشابك.. ومناجاة النفس والحوارات العديدة تعيد إحياء المفاهيم التقليدية للقالب القصصى ومع ذلك نجده فى مكان آخر يفضل اتخاذ التقنيات التجريبية المرتبطة برواية القرن العشرين وبالانتقالات الفجائية المتسمة بحرية التصرف المتعلقة بالزمان والمكان وببؤرة الاهتمام المتعددة والارتجاع الفنى «فلاش باك» والفن التلصيقى Collage والمعارضة اللغوية ومجرى الشعور. ففى نهاية الأمر نجد أن الحالة النفسية لها أهمية جوهرية للرواية تماما مثل أهمية الحبكة القصصية أو سلسلة الأحداث وفى جميع أرجاء الرواية توجد نغمة سائدة عن قرب حدوث تغييرات بل وتوجد تلميحات واضحة عن قوى مهددة وقدر مشئوم يتجاوز الحدود وينتهك الحرمات. والمشاعر والانطباعات التى تمر بها الشخصيات تتأثر فى عمق من خلال العوامل الجوية والأمطار المستمرة وفترات العاصفة ومن خلال الشمس الحارقة وبلادة أيام

الـشعْرَى [1] الشديدة الحرارة والرطوبة. والتناسق والطباق [2] هما ملامح الأسلوب الرئيسية. فالعبارة الافتتاحية الموحية المثيرة : «هنا ينتهي البحر وتبدأ الأرض» تجد إجابة لها في العبارة الأخيرة «هنا حيث البحر قد انتهى وحيث الارض تنتظر». والشهور التسعة التي منحت لفرناندو بسوا لكى يتجول هائماً على وجهه عقب خروجه من قبره تكون متوازنة مع الشهور التسعة الأخيرة من حياة ريكاردو ريس. كما يوجد توازن آخر ما بين التسعة شهور التى تنقضى ابتداء من الحمل حتى الميلاد والشهور التسعة التى تسلب من بسوا أى أثر للحياة . كما يلاحظ التناسق والطباق ايضا متمثلا في العلاقة بين الأحداث العامة والأحداث الخاصة وما بين المشاهد الجماهيرية الملحمية ومشاهد المودة والصداقة الهادئة. وفي نوع من الحذر والاحتراس نجد أن المؤلف يقحم عبارات تفسيرية وأفكارا متكررة كما لو كان يضع ألحانا موسيقية للأوركسترا. كما يحدث الوصف التصويرى خواطر أو معانى متداعية : فعندما تسقط ليديا على نحو فجائى غير متوقع طبقا فيتحطم الى شظايا صغيرة فان هذا يثير في الأذهان على الفور الاكتشاف المرهق للأعصاب بأنها حامل.

ونظرا لأن هذه الرواية تتعلق بالأفكار أساساً فان المحادثة تسود في جميع أرجائها . وأشكال وقوالب الكلام تشتمل على كل مستوى من مستويات الخلفية الثقافية والاجتماعية. والملامح اللغوية تتراوح من التجنب الفعلي للتهذيب الشديد إلى الأمور المبتذلة وتتراوح من العبارات الشعرية إلى حضور البديهة التى تذكر بحياة المشردين وتتراوح من الأسلوب الكلاسيكى إلى التبادلات القذرة للطبقات المنخفضة.

ورواية «عام وفاة ريكاردو ريس» شأن معظم الروايات المهمة – تحدثنا كثيرا عن حرفة الأدب القصصى ومتطلبات النثر الخلاق.. وسارا ماجو من حيث هو متكلم بلغات عديدة ومترجم يفكر كثيرا في مشكلة اللغة وقيودها وعدم ملاء متها.

---

(١) الفترة بين أوائل يوليو وأوائل سبتمبر وتتميز بجوها القائظ الشديد الرطوبة فى نصف الكرة الشمالى .

(٢) فن مزج الألحان – المترجم .

وتعليقاته عن كفاح الكاتب مع الكلمات تعتبر تعليقات متسمة بالتنوير والتثقيف. إذ يشير في تعليقاته قائلا «لقد منح الانسان الكلمات لكي يتمكن من إخفاء افكاره» فهو يرى أن الكلمات عنيدة ومعاكسة ومضللة لأنها تنقل الحقائق والأكاذيب في نفس اللحظة . وسد الثغرة الموجودة ما بين التعبير والمعنى يمكن أن يتسبب في إحباط لا نهائي. وعدم مصداقية الكلمات تؤرقه وتستحوذ على تفكيره بل ويمكن للأسماء أن تصبح عديمة المعنى إذا تم فصلها عن المحتوى الانساني. وهو يدعى : «نحن لسنا ما نقوله وإنما نحن التصديق أو الاعتماد الذى يقدمه الآخرون لنا» وفي موضع واحد نجده يصل إلى الرأى الاستفزازى القائل بأن «أفضل الكلمات هى تلك التى لا تقول أي شيء.. ومع ذلك نجد أن حشرات الحصاد البكماء الخرساء التى وردت فى الرواية تخلق لنفسها الأغنية المميزة لها بشكل واضح. واللغة البرتغالية – شأنها شأن اللغة الأسبانية – تميل لأن تكون لغة إطناب ممل علاوة على الاسراف فى الزخارف والغنى فى العواطف إلا أن نفس هذه الخصائص يمكن أن تصبح قاهرة للذات وجعلها من الناحية المفاهيمية غامضة ومشوشة وغير دقيقة . وساراماجو يتألق بين جيل جديد من الكتاب البرتغاليين الذين ينقلون تبصرات غير عادية بدون أى فقدان للوضوح أو الدقة.

والمشكلات التى يضعها ساراماجو أمام المترجم هى مشكلات كبيرة. فهو يتغاضى عن الاعراب والترقيم كما أنه يفضل السياق المتواصل لفقرات ممتدة ومطولة . والتوقفات يشار اليها دائما من خلال الفواصل وعلامات الوقف الكاملة أما كافة اشكال الترقيم الأخرى مثل علامة الترقيم بنقطتين « : » أو بعلامة الاستفهام أو علامة التعجب فيتم تجاهلها . وفي بعض المواضع يتم الاستغناء تماما عن الترقيم . أما حروف وكلمات الربط مثل : و . أو . لكن . فهى نادرا ما تستخدم. ومن ناحية أخرى نجد أنه كثيرا ما يستخدم الحال أو الظرف كثيرا من أجل أن يشير إلى عدم اليقين أو التفكير والتأمل. وبالنسبة للأزمنة فانها تكون مثيرة للشكوك وذلك بسبب الانتقالات غير التقليدية وغير القويمة إلى الوراء والأمام من الماضى إلى الحاضر. كما نجد أيضا أن الحوارات غير الخاضعة للترقيم

تنتقل على نحو غير متوقع من الشخص الأول إلى الشخص الثانى إلى الشخص الثالث أو تنتقل من الكلام المباشر إلى مونولوجات داخلية .

وتشتمل الرواية على مساحة واسعة من المفردات اللغوية المتخصصة : كل شيء ابتداء من الطقوس الكنسية حتى الصراع الاستراتيجي وابتداء من الدعاية السياسية حتى النقاط الدقيقة المتعلقة بالمصارعة. ولذلك فانه ينبغى على المترجم أن يميز ما بين المثقف والمثقف الزائف ويفرق ما بين المتعلم والبدائى وما بين كلام الأحياء والأصوات الشبحية . ويجب على المترجم أن يعثر على مترادفات ملائمة من أجل مواجهة الأمثلة الشعبية التى لا حصر لها والتوريات والتلاعب بالألفاظ ومواجهة الأمثلة البارعة للتلاعب بالكلمة . كما أن التذبذبات ما بين الاستبطان الجاد والكلام الذى يقوله المهرج على انفراد وما بين البلاغة الشامخة واللغة العامية البليغة تستدعى وجود توافقات دقيقة إذا كان المترجم يأمل فى أن يتوافق مع الفصاحة ومع الايقاع الرشيق الذكى للنص الأصلى .

وأخيراً يوجد هناك أمر بالغ الأهمية يتعلق بنماذج الصوت والمعنى فبالنسبة لساراماجو يكون للون ودرجة الحرارة والموسيقى نفس أهمية الأفكار وصوته المتميز قد خلق «موسيقى الكلمة » الخاصة به الزئبقية الملائمة المتوافقة المعبرة فى صدق شديد .

ونظرا لأن ساراماجو مقتنع بأن مهمة أى شخص يمتهن مهنة الكتابة هى أن يعمل على «توسيع العالم» فانه يدعم رؤيتنا للطبيعة والجنس البشرى بل ويذهب إلى ماهو أبعد من ذلك من خلال وخز ضميرنا وتحريك مشاعرنا . وفى النهاية فنحن نهتم اهتماما كبيرا بـ «الصوت الجبان للبرتغال» ونصادق على مناشدته لأن يُسمع فى بيئة عالمية .

جيوفانى بونتيرو

(١)

هنا ينتهى البحر وتبدأ الأرض ، يتساقط المطر فوق المدينة الشاحبة. مياه النهر ملوثة بالطين وضفاف النهر فاضت بالمياه. يصعد مركب داكن اللون ويسمى «هايلاند بريجيد» على النهر المعتم وهو على وشك أن يرسو عند رصيف ميناء القنطرة . والباخرة انجليزية وتنتمى لخطوط البريد الملكية. وهى تعبر المحيط الاطلنطى مابين لندن وبيونيس أيريس مثل مكوك النسيج فوق الطرق العامة للبحر جيئة وذهابا مع التوقف فى نفس الموانى : لا بلاتا نتفيديو ، سانتوس ريودى جانيرو ، بيرنامبوكو، لاس بالماس وفق هذا الترتيب أو بالعكس وإذا لم تتعرض هذه الباخرة للتحطيم فانها ستتوقف أيضا عند فيجو . وبولونى - سير - مير قبل أن تدخل إلى التميز مثلما تدخل الآن إلى التاجوس . ولا أحد يسأل عن أى النهرين أعظم أو أى المدينتين أعظم. وهى ليست مركبا كبيرا إذ تبلغ حمولتها ١٤ ألف طن ولكنها صالحة للابحار تماماً وقادرة على مواجهة العواصف على النحو الذى كان يتم أثناء هذا العبور عندما - على الرغم من الطقس الردىء بصفة دائمة - لم يكن يتعرض لدوار البحر إلا أولئك الاشخاص غير المعتادين على رحلات المحيط أو أولئك المعتادين ولكنهم يعـــانون من متاعب فى المعدة غير قابلة للشفاء .

ونظرا لأن هذه الباخرة تتميز بالجو العائلى علاوة على توفر وسائل الراحة بها فانها أصبحت مشهورة بأنها - شأن الباخرة التى تسمى «هايلاند مونارش» - باخرة العائلة . فكلتا الباخرتين مزودتان بظهر فسيح من أجل ممارسة الألعاب الرياضية وأخذ حمام شمسى بل أن لعبة الكريكيت وهى رياضة تحتاج لملعب ميدانى يمكن أن تمارس أيضا على ظهر الباخرة مما يدل على أنه لا يوجد

مستحيل بالنسبة للامبراطورية البريطانية . وعندما يكون الطقس معتدلا تصبح «الهايلاند بريجيد».. بمثابة حديقة للأطفال وجنة للكبار ، ولكن ليس اليوم لأن المطر يتساقط وهذه هي آخر فترة ما بعد الظهر لنا على متن هذه الباخرة وخلف الألواح الزجاجية للنوافذ المصطبغة بالأملاح يقوم الأطفال بالحملقة الى الخارج نحو المدينة الرمادية. التى تقع منبسطة فوق التلال كأنها شيدت من منازل تتكون من طابق واحد. وربما هنالك يمكنك أن تلمح قبة عالية وجمالونا بارزا من نوع ما وخطا حدوديا يوحي بوجود أطلال قلعة اللهم إلا إذا كان هذا بكل بساطة بمثابة وهم وانخداع وسراب ناجم عن الستارة المتحركة للمياه التى تسقط من السماء الرصاصية اللون والاطفال الاجانب الذين منحتهم طبيعتهم في مزيد من الكرم فضيلة حب الاستطلاع متلهفون لأن يعرفوا اسم الميناء . فيقوم أباؤهم وأمهاتهم بإخبارهم أو تقوم مربياتهم بتهجي الحروف أو ربما يقوم بالارشاد بحار متجه فى طريقه نحو القيام بمناورة ما. ليشبوا Lisboa أو ليشبون Lisbon أو ليشبون Lisbonne أو ليسابون Lissabon إذ توجد أربعة طرق مختلفة للنطق بهذه الكلمة إذا تركنا الاشكال المتنوعة والخاطئة .

وبذلك يبدأ الاطفال في معرفة أشياء لم يعرفونها من قبل ، وهذا هو ما عرفوه بالفعل : لا شيء مجرد اسم.. مما سبب المزيد من التشويش في عقولهم الصبيانية اسم ينطق باللهجة الغريبة على أهالي الارجنتين إذا تصادف أن كانوا من الارجنتين أو غريبة على أهالي اراجواى أو البرازيل أو أسبانيا .

ولدى خروج المسافرين من الباخرة ووضع أقدامهم على الأرض سارعوا الى الاحتماء من الامطار التى بدأت تهطل. ويتكلم الأجانب فى غمغمة عن العاصفة كما لو كنا مسئولين عن الطقس الردىء ويبدو عليهم وكأنهم ينسون أن معشوقتهم فرنسا أو انجلترا عادة ما يكون الطقس بها أسوأ من ذلك بكثير ، وباختصار فانهم يستخدمون أبسط الذرائع بما فى ذلك المطر الناجم عن الطبيعة لكى يعبروا عن احتقارهم للدول الفقيرة . ونحن لدينا أسباب جادة تدعونا للشكوى إلا أننا نظل ملتزمين بالصمت . يتم نقل الحقائب والأمتعة من الباخرة . والبحارة الذين

يرتدون الكاب وهو رداء خارجي بلا كمين يطرح على الكتفين يبدون مثل السحرة المرتدون قبعة برنس على الرأس ، بينما يوجد أسفلهم العتالون البرتغاليون الذين يتحركون بسرعة وهم مرتدون قبعاتهم المستدقة وستراتهم القصيرة الواقية بين الماء غير مبالين بالامطار الغزيرة حتى أنهم يثيرون دهشة كل من يشاهدهم. وربما هذه اللامبالاة بالراحة الشخصية ستؤدى إلى تحريك أكياس نقود المسافرين لكي تشفق عليهم وبحيث تتحول هذه الشفقة إلى بقشيش. ويمر المسافرون علي الجمارك بأعداد قليلة ولكنهم سيستغرقون بعض الوقت قبل أن يخرجوا حيث توجد استمارات عديدة ينبغي ملؤها . الجو يتجه نحو الظلام رغم أن الوقت لم يتجاوز الساعة الرابعة وبعد تكون المزيد من الظلال الأخرى القليلة سيحل الليل ولكن هنا يكون الليل متواصلا دائما ، ولذلك فان المصابيح المعتمة تكون مضاءة طوال فترة النهار مما جعل بعضها يتعرض للاحتراق. وتلك اللمبة قد ظلت محترقة على مدى أسبوع ولم يتم استبدالها حتى الآن. والهواء الثقيل له رائحة الملابس الرطبة ورائحة الامتعة الزنخة ورائحة القماش الرخيص للزى الرسمى ولا يوجد أثر للسعادة في هذه العودة للوطن.

يقوم شخص أشيب نحيل للغاية ، جلد على عظام ، بالتوقيع على الاستمارة الأخيرة. ولدى تلقى المسافر نسخا من الاستمارات فانه يمكن له أن يذهب ويستأنف حياته على اليابسة يصطحبه عتال لا يحتاج مظهره الخارجي لأن يوصف بالتفصيل . يكفى أن نقول أن هذا العتال أشيب ونحيل وداكن اللون وحليق الذقن تماما مثل الرجل الذى يصطحبه . ومع ذلك فهما مختلفان تماما : أحدهما مسافر والآخر عتال ، والأخير يسحب حقيبة كبيرة موجودة فوق عربة كارو معدنية. بينما الحقيبتان الأخريان الصغيرتان نسبيا معلقتان فى رقبته بشريط يلف حول القفا مثل ياقة رداء الراهب. وما أن يصبح خارج المبنى يضع الأمتعة على الارض تحت حماية السقف الناتىء ويذهب للبحث على تاكسى . وعادة ما تكون التاكسيات منتظرة هنا عندما تجيء باخرة. وينظر المسافر إلى السحب المنخفضة وبرك الماء الموجودة على الارض وإلى المياه القريبة من رصيف

الماء والملوثة بالزيت وإلى القشور والنفايات والفضلات من كل نوع ثم يتراءى له وجود العديد من السفن الحربية التي تعترض سبيل أيّ شئ . انه لم يتوقع رؤية هذه السفن الحربية هنا . فالمكان الملائم لمثل هذه السفن هو عرض البحر أو عندما لا تكون مشتبكة فى حرب أو مناورات عسكرية ينبغى أن توجد عند مصبّ النهر المتسع للغاية بحيث يمكن أن يضمّ كافة الأساطيل بالعالم . ويزغ مسافرون أخرون من مبنى الجمارك مصحوبين بالعتالين التابعين لهم ثم ظهر التاكسى مطرطشا الماء تحت عجلاته . ويقول المسافر : ليس لدى سوى نقود انجليزية، فيقول العتال : هذا رائع ثم شاهد عشرة شلنات توضع فى يده اليمنى وقد سطعت العملات المعدنية في بريق يفوق بريق الشمس ذاتها . وادرك العتال أن المسافر يعتبر كريماً للغاية فأراد أن يردّ على الكرم بأن يدلى ببعض المعلومات عن السفن الحربية : إنها زوارق طوربيدو . إنها تابعة لنا . انها برتغالية . فهذه هى التيجو والداء و والليما ،الفوجا والتاميجا والداء و هى أقرب زورق حربى اليك. ولم يكن بمقدور أحد أن يعرف الفارق بينها فهى تشبه بعضها البعض ومتماثلة ومطلية كلها باللون الرمادى الكئيب ومغسولة بسبب سقوط الأمطار ولا يوجد على متنها أىّ دليل للحياة وأعلامها منقوعة في الماء مثل الأسمال البالية . ولكن لا يُقصد من وراء ذلك أى عدم احترام ونحن نعرف أن أسم هذه المدمرة هو الداء و . وربما سنحصل على أنباء عنها فيما بعد .

ويرفع العتال قبعته للتحية ولشكره . ثم انطلق التاكسى . إلى أين ؟ . وهذا السؤال الطبيعى للغاية البسيط للغاية المتلائم تماما مع المكان والظروف يأخذ المسافر على حين غرّة كما لو أن التذكرة المشتراة في ريودى جانيرو ينبغى أن تقدم الاجابة على مثل هذه الأسئلة بل وعلى الأسئلة التى وجهت فى الماضى والتى قوبلت فى ذلك الوقت بالصمت . والآن يرى المسافر الذى نزل توا من الباخرة أن هذا السؤال ليس على ذلك النحو ربما بسبب أنه قد سئل بأحد السؤالين القدريين، إلى أين . أمّا السؤال القدرى الآخر والذى يعتبر أسوأ بكثير فهو : لماذا . فنظر سائق التاكسى فى المرآة الخلفية بعد أن أعتقد أن المسافر لم يسمع تساؤله . وبدأ

يفتح فمه لكي يكرر السؤال : إلى أين ولكن الاجابة وصلته أولاً . إلاَّ أن الاجابة اتسمت بالتردد وعدم الحسم : إلى فندق . أى فندق . لا أعرف . وما أن قال المسافر لا أعرف حتى أدرك على الفور وفي دقة ما كان يرغب فيه وأدرك ذلك في اقتناع شديد كما لو كان قد أمضى رحلته كلها في اتخاذ القرار . انه فندق قريب من النهر ويقع فى هذا الجزء من المدينة . والفندق الوحيد القريب من النهر هو فدق براجانسا والذى يقع عند بداية شارع روا دو الكريم . إننى لا أتذكر الفندق ولكننى أعرف مكان الشارع . فقد اعتدت أن أعيش فى لشبونة فأنا برتغالى . آه أنت برتغالى . من لهجة كلامك اعتقد أنك ربما تكون برازيليا . هل اللهجة البرازيلية لدى واضحة للغاية . حسنا يوجد قدر ضئيل من اللهجة يكفى لمعرفة الفارق . إننى لم أعد إلى البرتغالى منذ ستة عشر عاما . ستة عشر عاما تعتبر فترة طويلة . سوف تكتشف أن الأشياء تغيرت هنا كثيرا . وعقب قول السائق لهذه الكلمات لاذ بالصمت على نحو فجائى .

لكن المسافر لم يتكون لديه انطباع عن حدوث تغييرات كثيرة . فالطريق الذى انطلقا عليه كان على النحو الذى يتذكره إلى حد كبير . كل ما هنالك أن الأشجار على جانبى الطريق بدت أكثر طولاً ولا عجب فى ذلك حيث كان أمامها ١٦ عاما لكى تنمو . لقد تلاشى المطر لم يعد يسقط سوى قطرات قليلة متفرقة ولكن فى السماء لا يوجد أى أثر للون الأزرق لأن السحب لم تنقشع وانما شكلت سقفا شاسعا واحدا له لون رصاصى . وتساءل المسافر :أكانت هناك كميات هائلة من الأمطار؟. أجاب السائق وهو يوقف تشغيل مساحات الزجاج الأمامى : ظلت تمطر على مدى الشهرين الأخيرين مثل فيضان هائل . وكانت السيارات تمر بأعداد قليلة والترام بأعداد أقل والمترجل فى الشارع بطريق الصدفة أغلق مظلته فى إعياء وعلى طول أرصفة الشارع كانت توجد بركات كبيرة من الماء ناجمة عن البالوعات المسدودة . والعديد من البارات كانت مفتوحة وموجودة إلى جوار بعضها البعض وضبابية وكانت أنوارها اللزجة محاطة بالظلال وتوجد الصورة الصامتة لكأس خمر قذرة موجودة على كاونتر من الزنك . وهذه الواجهات هى

الجدار الهائل الذى يحجب المدينة والتاكسى يطوف بها بدون تسرع كما لو كان يبحث عن انكسار ما أو فتحة أو بوابة يهوذا الاسخربوطى الذى خان السيد المسيح او يبحث عن المدخل المؤدى الى متاهة . ويمر القطار القادم من كاسكيس فى بطء ولكن بسرعة تكفى لأن يتخطى التاكسى إلا أنه بعدئذ يبطىء أكثر من سرعته ويدخل إلى المحطة فى اللحظة التى يتجه فيها التاكسى الى الميدان. ويقول سائق التاكسى له : الفندق هو الذى ستراه لدى دخولك الى الشارع. ثم توقف أمام مقهى وأضاف قائلا: عليك أن تسأل عما إذا كان لديهم أى غرف شاغرة ويمكننى ايقاف السيارة فى المكان المخصص بعيدا عن باب الفندق وذلك بسبب وجود الترام. فخرج المسافر من التاكسى وألقى نظرة خاطفة على المقهى الذى كان يسمى «رويال» وهو نموذج تجارى للحنين للنظام الملكى فى عهد جمهورى ومتنكر هنا تحت ظل اللغة الانجليزية أو الفرنسية. إنه موقف عجيب. المرء ينظر الى كلمة رويال بدون أن يعرف ما إذا كان ينبغى أن تنطق وكان لديه متسعا من الوقت لكى يفكر فى هذه المشكلة لأن المطر كان قد توقف تماما ولأن الطريق كان يتجه صاعدا . وبعدئذ تخيل نفسه هابطا وعائدا من الفندق بعد أن يكون قد حصل أو لم يحصل على غرفة فلا يرى أى أثر للتاكسى لأنه قد اختفى وبه كل أمتعته وملابسه وأوراقه وتعجب كيف يمكنه أن يوجد بعد أن حرم من هذه الاشياء ومن كافة أموره الدنيوية . ومع صعود السلالم الأمامية للفندق أدرك أنه من خلال الاستغراق فى التفكير على ذلك النحو كان مرهقا وكان يعانى من تعب شديد وتعب لانهائى من احساس باليأس إذا كنا نعرف حقا معنى كلمة يأس عندما ننطق بها .

ولدى دفعه باب الفندق لكى يفتح دوى أزيز كهربائى . فى فترة ما بالماضى كان يوجد مجرد جرس صغير عادى ولكن ينبغى على المرء أن يعتمد دائما على التقدّم والتطور والتحسينات. وظل المسافر يصعد على سلالم لا نهائية.

وبدا من غير المعقول أنه ينبغى على المرء الصعود إلى هذه المسافات الطويلة لكى يصل إلى الطابق الأول، وكان الأمر أشبه ما يكون بالصعود إلى قمة جبل

إفريست وهو عمل بطولي فذ مازال حلما ويوتوبيا بالنسبة لكل متسلق للجبال. وشعر بالارتياح لدى ظهور رجل له شارب عند قمة السلالم يقدم كلمات التشجيع: إذن فقد تمكنت من الصعود. ولم يقل الرجل هذه الكلمات لكنها يمكن أن يكون تفسيرا للنظرة التي بدت على وجهه لدى استناده على سلم المبنى لكي يتفحص الرياح المواتية والأوقات العصيبة التي أدت إلى احضار هذا الضيف. مساء الخير يا سيدي. فرد: مساء الخير لم يكن قد تبقت لديه أنفاس تعينه على قول المزيد من الكلمات. ابتسم *الرجل ذو الشارب* في صبر. *أنت بحاجة الى غرفة*. وتصبح الابتسامة شبيهة بابتسامة شخص يعتذر وهو يضيف قائلا: لا توجد غرف في الدور الأول. إذ لا توجد به سوى صالة الاستقبال وصالة الطعام وردهة الانتظار، ومن هنا يوجد المطبخ والمخزن وحجرة الأطعمة الباردة فالغرف في الدور العلوي، ولكي نتفحصها علينا الصعود الى الدور الثاني، هذه الغرفة ليست ملائمة فهي صغيرة وكئيبة ولا هذه الغرفة أيضا فهي تطل على المنظر الخلفي وهما مشغولتان. إنني أريد غرفة مطلة على النهر. آه في هذه الحالة فإن الغرفة رقم ٢٠١ سوف تعجبك وهي قد أخليت في هذا الصباح فقط ولسوف أريك إياها الآن.

وافق المسافر على الغرفة أو الغرفتين اذا توخينا الدقة لأنهما غرفتان متصلتان بمدخل له قنطرة حيث يوجد على ذلك الجانب غرفة النوم والتي كانت توصف ذات يوم بأنها فجوة في جدار وعلي هذا الجانب توجد غرفة الجلوس وهي تعتبر شقة ملائمة مثل أي شقة وبها أثاث داكن من الخشب الماهوجاني وبها ستائر على النوافذ وكمّة للمصابيح. سمع المسافر صراخ ترام ينطلق صاعدا على الشارع. لقد كان سائق التاكسي على صواب. وبدا الأمر وكأن فترة طويلة للغاية قد انقضت منذ أن ترك *المسافر التاكسي* منتظرا وابتسم لنفسه عندما تذكر المخاوف التي راودته عن احتمال قيام سائق التاكسي بسرقته. هل تعجبك هذه الغرفة؟ نعم. إنها على مايرام. سآخذها. وما هو عدد الأيام التي ستمضيها هنا. لا استطيع أن أخبرك فذلك يتوقف على *الوقت الذي* تستغرقه تسوية شئوني. انه الحوار العادي. انه الحوار الذي يتوقعه المرء في مثل هذه المواقف. ولكن في هذه

المرة يوجد عنصر للكذب لأن المسافر ليس لديه شئون تتطلب التسوية فى لشبونة ولا يوجد لديه شئون تستحق كلمة شئون. فهو قد قال كذبة وهو الذى أعلن ذات مرة أنه يحتقر عدم الدقة.

هبطا إلى الدور الأول وقام المدير باستدعاء موظف وهو ساعي وشيّال للأمتعة وأرسله لكي يذهب ويحضر حقائب الجنتلمان. وكان التاكسي منتظرا أمام المقهى ونزل المسافر معه لكي يدفع أجرة التاكسي. وصعد الشيال وهو يحمل الأمتعة على كتفيه. وقال المدير: عليك بالصعود يا بيمينتا إلى الغرفة ٢٠١ في هذه المرة الحظ يحالف بيمينتا لأنه لن يضطر إلى الصعود إلى الأدوار الأكثر ارتفاعا.

وفى تلك الأثناء يعود الضيف إلى مكتب الاستقبال وهو لاهث الأنفاس بعد أن بذل كل ذلك المجهود. ويأخذ القلم ويسجل البيانات الرئيسية عن نفسه فى السجل الخاص بالقادمين إلى الفندق حتى يعرف من يكون هو وذلك فى الاطار الملائم الموجود على الصفحة المليئة بالسطور

الاسم. ريكاردو ريس

العمر: ٤٨ سنة.

مكان الميلاد: أوبورتو

الحالة الاجتماعية: أعزب

المهنة: دكتور.

آخر مكان كان يقيم فيه: ريو دى جانيرو / البرازيل ووصل من هناك على ظهر الباخرة: «هايلاند بريجيد». هذا يبدو مثل بداية اعتراف أو مثل سيرة ذاتية متسمة بالطابع الشخصي للغاية. كل ما هو مخبأ يكون متضمنا فى هذه السطور المكتوبة بخط اليد والمشكلة الوحيدة تكمن فى تفسيرها. والمدير الذى كان يمد رقبته لكى يتابع الربط بين الكلمات مع التوصل الى المعنى فى نفس الوقت يعتقد أنه يعرف كل شيء تقريبا. وهو يعرف نفسه مبتدئا بكلمة: دكتور ولا يقصد بهذا التملق والاطراء وانما كدليل على الاحترام بعض الشيء. فيقول المدير: اسمى سلفادور وأنا المسئول عن هذا الفندق واذا كنت ترغب فى أى شيء يادكتور عليك فقط بأن

تخبرني بما تريد. في أي وقت تقدمون وجبة العشاء. يقدم العشاء في الساعة الثامنة يادكتور وأمل أن تجد مطبخنا مرضيا ونحن نقدم أيضا الأطباق الفرنسية. ويومىء الدكتور ريكاردو ريس برأسه بما يفيد أنه يشارك في ذلك الأمل ثم يسترد قبعته ومعطف المطر الخاص به من فوق كرسي وينسحب.

وكان الحمال في انتظاره في المدخل المفتوح لغرفته. وأدرك الحمال من خلال خبرته الطويلة أن البقشيش كبير وذلك بدون أن ينظر إليه فظهر على وجهه الرضا والارتياح وقال: شكرا جزيلا يادكتور. ولا نستطيع أن نوضح كيف عرف لأنه لم يشاهد سجل القادمين للفندق.

وجلس ريكاردو ريس على كرسي وراح ينظر فيما حوله. هذا هو المكان الذي سيعيش فيه ومن يدري كم عدد الأيام التي سيقضيها هنا وربما سيقوم باستئجار منزل وفتح غرف للاستشارة أو ربما سيقرر العودة الى البرازيل. ولكن بالنسبة للوقت الحالي سيفي الفندق بالغرض المطلوب. فهو مكان محايد ولا يتطلب أي التزامات. انه في فترة ترانزيت انتقالية وحياته معلقة. والي ما وراء الستائر الناعمة أصبحت النوافذ مضيئة على نحو فجائي وهو تأثير ناجم عن مصابيح الشارع. أصبح الوقت متأخرا للغاية ولقد انتهى هذا اليوم وما يتبقى يرفرف في المسافة البعيدة فوق البحر ويهرب بسرعة. ومع ذلك فمنذ ساعات قليلة فقط كان ريكاردو ريس مازال مبحرا فوق المياه والآن يوجد الأفق على مسافة ذراع ويجسد من خلال حوائط وقطع أثاث تعكس الضوء مثل مرآة سوداء وبدلا من الذبذبة العميقة لماكينات الباخرة يكون بمقدوره سماع همس وتمتمة المدينة. ستمائة ألف شخص يتنهدون ويصيحون وينادون من على مسافة. ثم يترامي صوت وقع أقدام حذرة في الطرقة وصوت إمرأة تقول سأجيىء على الفور. هذه الكلمات وهذا الصوت من المؤكد إنها الخادمة. قام بفتح إحدى النوافذ ونظر إلى الخارج. لقد توقف المطر تماما. الهواء المنعش الرطب مع الرياح التي كانت تجتاح فوق النهر انتشر في أرجاء الغرفة وأزال الرائحة العفنة وهي رائحة الملابس الكتانية القذرة التي نسيت في أحد الأدراج.

وترك النافذة مفتوحة وذهب لكي يفتح نافذة أخرى وبعد أن انتعشت أكمام قميصه استعاد نشاطه على نحو فجائي. ففي خلال نصف ساعة كان قد أفرغ محتويات حقائبه ونقل ملابسه الى خزانة الملابس ذات الأدراج ، ونقل أحذيته الى الحامل الخاص بالأحذية ، وحلله الى المشاجب الموجودة في الدولاب ثم نقل حقيبته السوداء المحتوية على الأدوات الطبية الى فجوة مظلمة في داخل الدولاب. أما الكتب القليلة التي أحضرها معه فإنها وضعت على رف بعض الكلاسيكيات اللاتينية التي حصل عليها بدافع عادة القراءة وبعض الدواوين الخاصة بالشعراء الانجليز المفضلين لديه وثلاثة أو أربعة كتب من تأليف كتاب برازيليين وأقل من ١٢ كتابا برتغاليين. ووجد بين الكتب كتابا كان قد استعاره من مكتبة الباخرة «هايلاند بريجيد» ونسي أن يعيده. لو أن أمين المكتبة الايرلندي اكتشف ضياع الكتاب سيوجه اتهامات خطيرة ضد الأمة اللوزيتانية التي هي أراضي العبيد واللصوص وقطاع الطرق مثلما قال الشاعر بايرون عنها في سخرية ومثلما سيتفق معه في الرأي أوبريان. فالتعديات والانتهاكات البسيطة المحلية غالبا ما تؤدي الى نتائج مدوية وعالمية. ولكنني بريء وأقسم أن المسألة كانت مجرد نسيان من جانبي ولا شيء أكثر من ذلك. ووضع الكتاب بجوار سريره على أمل أن ينتهي من قراءته خلال أحد هذه الأيام. انه كتاب تحت عنوان «إله المتاهة» من تأليف هربوت كوائين وهو ايرلندي ، ومن المؤكد أن عنوان هذا الكتاب قد جذب انتباهه.. متاهة مع إله .. ترى من يكون ذلك الاله وما هي تلك المتاهة وما هو ذلك الاله المتاهي. وفي النهاية اتضح أن الكتاب مجرد قصة بوليسية بسيطة قصة عادية عن حالة وفاة وتحريات وعن القاتل والضحية وأخيراً البوليس السري.

وهناك أيضا وثائق ينبغي صيانتها وهي أوراق مكتوب عليها شعر بخط اليد وأقدم هذه الأوراق مؤرخ بتاريخ ١٢ يونيو ١٩١٤ وكانت الحرب العظمى على وشك الاندلاع ولقد سميت بالحرب العظمى الى أن عاش الناس تجربة حرب أخرى أكثر عظمة . وكانت أحدث وثيقة مؤرخة بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٣٥ وقد جاء بها ما يلي: «أناس لا حصر لهم يعيشون بيننا. اذا كنت أفكر وأشعر فانني لا أعرف من الذي

يفكر ويشعر فأنا لست سوى المكان الذى يوجد به التفكير والشعور». وقام بتجميع هذه الأوراق مع بعضها البعض ووضعها فى أحد أدراج المكتب الصغير الخاص بالكتابة. ثم أغلق النوافذ وذهب ليفتح المياه الساخنة لكى يأخذ حماما. كان الوقت قد تجاوز الساعة السابعة.

وعندما دقت الساعة الثامنة فى ساعة الحائط البندولية التى تزين الحائط فوق مكتب الاستقبال نزل ريكاردو ريس الى غرفة الطعام. فابتسم المدير سلفادور رافعا شاربه فوق أسنانه غير النظيفة لدى إسراعه للأمام لكى يفتح الباب المزدوج الذى كتب على لوحته الزجاجية حرف H وحرف B بطريقة زخرفية مما أضفى الوقار على هذا الفندق المتواضع. وقاد الطريق المتر دى أوتيل. لم يكن يوجد نزلاء آخرون فى صالة الطعام. وكان بالمستطاع سماع أصوات مترامية من خلف باب حجرة إعداد الأطعمة. وكانت توجد أضواء معتمة قليلة على السقف والحوائط ومفارش من القماش الأبيض على المناضد وأصبح ريكاردو ريس جالسا الآن. ويقول له المتردو تيل أصناف الطعام المذكورة فى قائمة الطعام. الحساء والسمك واللحوم اللهم الا اذا كان الدكتور يفضل شيئا ما أخف أى يفضل نوعا آخر من اللحوم والسمك والحساء ، وينبغى علىّ أن أنصحك بتناول هذا الطعام الخفيف الى أن تصبح معتادا على تناول هذا الطعام الجديد طالما أنك رجعت توا من المناطق الاستوائية عقب غياب دام ستة عشر عاما. اذ فهم حتى فى المطعم والمطبخ يعرفون كل شىء عنه. وفى تلك الأثناء فُتح الباب الموجود ما بين المطعم ومكتب الاستقبال ودخل الى المطعم رجل وزوجته وطفلان صغيران ولد وبنت كلاهما فى لون الشمع رغم أن والديهما كانا متوردين وكان رب الأسرة يسير فى الأمام لكى يرشد ويوجه قبيلته بينما الأم تدفع طفليهما إلى الأمام من الخلف. ثم ظهر رجل ممتلىء وثقيل الوزن وتوجد على بطنه سلسلة ذهبية ممتدة من جيب صديريته إلى جيب آخر. ثم ظهر بعده على الفور رجل آخر نحيل للغاية قد ارتدى رباط عنق أسود اللون وشريط حداد على ذراعه. ولم يظهر أى شخص آخر على مدى الربع ساعة التالية. وكان بالمستطاع سماع صليل سكاكين المائدة لدى

ارتطامها بالأطباق . وقام والد الطفلين بالطرق بالسكين على كأس الخمر لكي يستدعي النادل فانزعج الرجل النحيل الحزين وألقى نظرة قاسية عليه ولكن الرجل الممتلىء استمر في مضغ الطعام في هدوء. وترامى صوت تشويش واقع على زجاج النوافذ مما جعله يدرك أن المطر قد بدأ في الهطول مرة أخرى. هذه النوافذ لا تطل على شارع روا دو الكريم. ترى ما اسم هذا الشارع الآخر . ولا يستطيع تذكر اسمه ولكن النادل الذي جاء لكي يستبدل أطباقه قال قبل أن يسأله ريكاردو ريس انه شارع «روا نوفا دو كارفالهو» يادكتور هل أعجبك الحساء ومن النطق الجيد للجرسون يمكن للمرء أن يقول أنه من بلاد الغال الفرنسية.

دخل رجل كهل طويل ذو مظهر متميز وله وجه مستطيل ومعه فتاة نحيلة في العشرينات من عمرها . شقا طريقهما نحو المنضدة المواجهة لريكاردو ريس ثم اتضح ان المنضدة كانت في انتظارهما من المؤكد انهما زبونان منتظمان ولربما يكونا الشخصين اللذين يمتلكان الفندق. وهذان الشخصان سواء أكانا مالكي الفندق أم لا عبرا صالة الطعام في حرية كبيرة كما لو كانا في داخل منزلهما . مثل هذه التفاصيل يمكن لك أن تلحظها اذا ركزت انتباهك. وجلست الفتاة في بروفيل جانبي بينما جلس الرجل معطيا ظهره نحو ريكاردو ريس وراحا يتحدثان في همس ولكنها رفعت صوتها عندما قالت له في تأكيد: لا ياوالدي فأنا على مايرام. اذن فهما أب وابنته. اقتران غير عادي في أي فندق في هذه الأيام. وجاء الجرسون لكي يقوم بالتخديم عليهما وقد ظهر عليه الوقار وروح الصداقة في آن واحد ثم انصرف. ودب الصمت في غرفة الطعام مرة أخرى ولا حتى الأطفال رفعوا أصواتهم. انتهت الفتاة النحيلة من تناول الحساء ووضعت الملعقة وبدأت يدها اليمنى في التربيت على يدها اليسرى كما لو كانت كلبا صغيرا مستلقيا على ركبتيها . ويندهش ريكاردو ريس من هذا المنظر ثم أدرك أن يدها اليسرى لم تتحرك ابدا ويذكر أنها استخدمت يدها اليمنى فقط لكي تطوي ورقة السفرة الخاصة بها وهي الآن تمسك باليد اليسرى لكي تضعها على المنضدة في رفق شديد وكأنها تتعامل مع بللور رقيق للغاية وقابل للانكسار ولاحظ ريكاردو ريس

ان الأطباق التى تجىء للفتاة جاهزة للتناول إذ تكون عظام الأسماك قد أزيلت من السمك وتكون قطعة اللحم مقطعة إلى مكعبات صغيرة وتكون الفاكهة مقشورة ومقطعة إلى شرائح . ومن الواضح أن هذه الأبنة وأباها معروفان تماما للعاملين فى الفندق ولعلهما مقيمان فى الفندق بصفة دائمة . انتهى ريكاردو ريس من تناول طعامه ولكنه تلكأ قليلاً لكى يسمح للوقت ولكن أىّ وقت ولماذا . وأخيراً نهض واقفا وجذب كرسيه إلى الوراء محدثا صوتا ربما كان عاليا للغاية مما جعل الفتاة تستدير وهى إذا شوهد وجهها بالكامل تبدو أكبر فى السن من عشرين عاما ولكن فى البروفيل يرجع شبابها على الفور ، إذ تبدو رقبتها طويلة وهشة ويبدو ذقنها مشكلاً على نحو جميل وخرج ريكاردو ريس عن المنضدة واتجه نحو الباب الزجاجى واضطر لتبادل التحية مع الرجل الممتلىء الذى يغادر المكان أيضا فى نفس اللحظة. شكرا لك ياسيدى. لو سمحت سوف أخرج بعدك. وكان ينبغى أن يمر ريكاردو ريس من الباب أولا لأنه يضم فى كيانه أناسا عديدين وفق الفهم الخاص به عن نفسه.

المدير سلفادور ممسك بالفعل بمفتاح الغرفة رقم٢٠١ ويقوم بحركة متسمة بالقلق كما لو كان بصدد تسليم المفتاح لريكاردو ريس لكنه يتراجع عن ذلك فى خبث. ربما الضيف فى التسلل خارجا من الفندق فى هدوء لكى يعيش فى أجواء لشبونة بالليل وفى مباهجها السرية بعد أن أمضى سنوات عديدة للغاية فى البرازيل وأياما عديدة للغاية عابرا المحيط الاطلنطى رغم أن الليالى الشتوية تجعل الجو الدافىء فى قاعة الانتظار بالفندق اكثر متعة اذ تتوفر به الكراسى الفوتى العميقة الجلدية ذات الظهر العالى، كما توجد تلك المرآة الكبيرة التى تطوق القاعة بأكملها وتضاعفها فى بعد آخر. وهنا يتأمل ريكاردو ريس فى أعماق المرآة ويشاهد نفسه متكررا فى شكل أشخاص لا حصر لهم فى داخل المرآة بينما يطل الارهاق والتعب من جميع وجوههم. سأصعد الى غرفتى. اننى مرهق عقب الرحلة التى قمت بها حيث أمضيت أسبوعين كاملين مليئين بجو رهيب للغاية ألديك من قبيل المصادفات أية جرائد فأنا أريد القاء نظرة سريعة على الأنباء الوطنية إلى أن

أشعر بالرغبة في النوم. الجرائد والصحف موجودة يادكتور. خذ منها مايروق لك. وفي هذه اللحظة دخلت الفتاة ذات اليد المشلولة ومعها والدها الى قاعة الانتظار وهو يسير أمامها ويسبقها بخطوة واحدة كان ريكاردو ريس قد التقط بالفعل مفتاحه والجرائد التي كانت في لون الرماد والتي كانت حروف طباعتها ضبابية وغير واضحة.

الأريكة في غرفته مريحة، ومجموعات الزنبرك التي اضطجعت عليها أجساد عديدة للغاية تشكل تجويفا بشريا والضوء الصادر عن المصباح الواقف على منضدة الكتابة ينير الجريدة عند الزاوية الصحيحة. هذا الوضع شبيه بالوجود بالمنزل في حضن العائلة وبجوار الموقد الذي لا أمتلكه وربما لن أمتلكه ابدا في أي وقت من الأوقات. هذه جرائد بلدي البرتغال وتخبرني هذه الجرائد بأن رئيس الدولة قد افتتح معرضا تكريما لموسينهو دي ألبوكيركيو في المكتب الاستعماري فالمرء لايسمح له بأن ينسى الشخصيات الاستعمارية. وهناك ما يثير القلق في جوليجا بل أنني لا اتذكر المكان الذي توجد فيه آه نعم انها في مديرية ريباتيجو لأن الفيضانات قد تفجر السد الذي يعرف باسم فينتا وهذا اسم عجيب للغاية، ترى من أين جاء هذا الاسم. لسوف نرى تكرارا لكارثة عام ١٨٩٥ . في عام ١٨٩٥ كان عمري ثماني سنوات ومن الطبيعي الا أتذكر. أطول امرأة في العالم هي الزا درويون حيث يبلغ طولها مترين ونصف المتر ، ولم ترتفع المياه كثيرا الى هذه الدرجة، وتلك الفتاة ترى ما اسمها تلك اليد المشلولة اللينة للغاية ربما كان ذلك ناجما عن مرض أو حادثة. المسابقة القومية الخامسة للجمال للأطفال الرضع. نصف صفحة من الصور الفوتوغرافية للأطفال العارية تماما وطيات الشحوم بارزة فقد تغذوا على لبن البودرة. بعض هؤلاء الأطفال سيكبرون لكي يصبحوا مجرمين ومتشردين ومومسات. العمليات الحربية في أثيوبيا تستمر. ما هي الأخبار عن البرازيل. لا شيء جديد بعد أن تدمر كل شيء تقدم شامل للقوات الايطالية لا توجد قوة بشرية قادرة على ايقاف الجندي الايطالي في هجومه البطولي والذي يمكن أن تحققه البندقية الحبشية ضد الجندي الايطالي. المحامي

الخاص بلاعبة رياضية قد أعلن انها أجريت لها عملية جراحية كبيرة لكى تغير جنسها فى خلال أيام قليلة ستصبح رجلا وهى لا تنسى أن تغير اسمها أيضا ما هو الاسم انه بوكاج أمام محكمة التفتيش المقدسة. ورسم بريشة الفنان فرنانّو سانتوس فالفنون الجميلة متقدمة فى هذه الدولة. وفى كوليو يعرضون الاعجوبة الأخيرة مع فانيس ميرليس وهى شكل شبيه بالتمثال مغلف بالفضة وهى قطعة فنية برازيلية مشهورة.

لقد فاتنى أن أشاهدها فى البرازيل. إنها غلطتى. وهنا فى لشبونة يمكن للمرء الحصول على مقعد فى صالة عرض مقابل ثلاثة اسكود والحصول على مقعد أمامى بالمسرح فى مقابل خمسة اسكود. ويوجد هناك عرضان يوميا وعروض ماتينيه فى أيام الأحد. ومسرح البوليتيميا يعرض مسرحية الحروب الصليبية وهى ملحمة رائعة ومثيرة. فرق عديدة من القوات الانجليزية قد دخلت الى مدينة بورسعيد .. كل عصر له الحروب الصليبية الخاصة به وهذه هى الحروب الصليبية للأزمنة الحديثة وهناك شائعات تفيد أنهم يتجهون نحو حدود ليبيا التى يحتلها الايطاليون ، توجد قائمة باسماء البرتغاليين الذين ماتوا فى البرازيل أثناء النصف الأول من ديسمبر. هذه الأسماء غير معروفة لى. لست بحاجة لأن أعبر عن تعاطفى أو ارتداء ملابس الحداد ولكن من الواضح أن عددا كبيراً من المهاجرين البرتغاليين يموتون هناك. مهرجانات المؤسسات الخيرية مع تقديم العشاء المجانى للفقراء فى جميع أرجاء البلاد لقد تحسنت نوعية الطعام فى التكيات التى يقيم فيها الفقراء، والكهول يعاملون معاملة جيدة للغاية فى البرتغال ناهيك عن الأطفال المشردين حيث تترك بعض الأزهار من أجلهم فى الشوارع.. ثم هذا الخبر : رئيس مجلس مدينة أوبورتو بعث ببرقية للسيد وزير الداخلية، فى جلسة اليوم قرر المجلس الذى أترأسه – عقب المناقشات التى دارت بشأن القرار الخاص بتقديم المساعدات للفقراء طوال فترة الشتاء – تهنئة سيادتكم على هذا المشروع المثير للاعجاب. وأخبار أخرى. تلوث أحواض مياه الشرب بروث الماشية وانتشار مرض ... فى ليبوكادو وفى فاتيلا وانتشار الانفلونزا فى بورتا ليجر

وانتشار حمى التيفود فى فالبوم وفتاة تبلغ من العمر ١٦ عاما ماتت بسبب اصابتها بمرض الجدرى. زهرة ريفية فُلَّة فصلت فى قسوة عن ساقها قبل الأوان. لدىّ كلبة من نوع الفوكسهاوند وهى ليست صريحة النسب. وهى قد ولدت مرتين وفى كل مرة اكتشف أنها كانت تأكل صغارها كلهم بدون أن يتمكن أى واحد من الصغار من الهرب فقل لى يادكتور : ما الذى ينبغى علىّ أن أفعله . ردا على سؤالك ياعزيزى القارىء نقول أن أكل الحيوان لحوم حيوان من نفس جنسه وأكل الكلبة لصغارها يرجع عادة الى سوء التغذية أثناء فترة الحمل. فالكلبة ينبغى أن تطعم جيدا باللحوم حيث أن اللحوم هى غذاؤها الرئيسى ثم يستكمل الطعام بتقديم اللبن والخبز والخضراوات بحيث يكون الطعام متوازنا.. فإذا لم تغير هذه الكلبة من عاداتها وطبائعها عندئذ لا يكون هناك علاج مفيد لها. وعليك أما أن تدمر هذه الكلبة أو لا تسمح لها بالتزاوج وممارسة الجنس واجعلها تصبر على الاهتياج الجنسى، والآن هيا بنا لكى نحاول أن نتخيل ما يمكن أن يحدث لو أن النساء اللائى تعانين من سوء التغذية أثناء فترة الحمل وتعانين من الحرمان من اللحوم والخبز والخضراوات وهو أمر شائع بعض الشىء سيبدأن أيضا فى أكل أطفالهن الرضع.. وبعد أن نحاول تخيل ذلك وبعد أن يتأكد لنا ان مثل هذه الجرائم لا تحدث يصبح من السهل علينا أن نشاهد الفارق بين الناس والحيوانات، الناشر لم يقم باضافة هذه التعليقات ولم يفعل ذلك ريكاردو ريس الذى يفكر فى شىء ما آخر ألا وهو إعطاء باسم لهذه الكلبة.. انه لن يطلق عليها اسم ديانا أو لامبرادا وإنما سيعطيها اسم من أجل القاء الضوء على جريمتها أو دوافعها وهل هذه المخلوقة الشريرة ستموت إذا تم تقديم طعام مسموم لها أو إذا قام صاحبها باطلاق النيران عليها من بندقية. ويصر ريكاردو ريس وأخيرا يعثر على الاسم الملائم.. انه اسم يجىء من أوجولينو ديلا غيرار ديسكا وهو ذلك النويلمان الشديد الوحشية الشهوانى الذى أكل أطفاله وأحفاده حيث توجد شواهد ودلائل على ذلك وردت فى كتاب تاريخ أفراد العائلة الملكية الالمانية

والغيباليون وأيضا فى كتاب «الكوميديا الالهية» بالفصل الثالث والثلاثين الذى يتناول الجحيم.

ولذلك يمكن أن نطلق على الكلبة التى تأكل صغارها اسم أوجولينا فهى شاذة للغاية لدرجة ان قلبها لا يعانى من أية عاطفة لدى قيامها بتمزيق صغارها الذين لا حول لهم ولا قوة بفكيها وذبحهم وتكسير عظامهم الهشة وهم يعوون وينتحبون ويهلكون بدون أن يعرفوا من الذى يلتهمهم وبدون أن يعرفوا أن الأم التى انجبتهم هى التى تلتهمهم ، يا أوجولينا لا تقتلينى فأنا من نسلك .

الصفحة التي تقص في هدوء هذه الاهوال تقع فى حجر ريكاردو ريس.. انه قد استسلم للنوم العميق. هبة ريح فجائية تخشخش على زجاج النوافذ، الأمطار تهطل مثل الطوفان . وتجوس الكلبة أوجولينا فى خلسة عبر شوارع لشبونة المهجورة بينما لعابها يسيل مختلطا بالدماء وتتشمم فى مداخل البيوت وتعوى فى الميادين والحدائق العامة وتعض فرجها حيث أنها على وشك أن تصبح حبلى فى المرة التالية.

(٢)

عقب انقضاء ليلة من الشتاء القاسي والعاصفة العنيفة، الكلمتان الاخيرتان وهما: العاصفة العنيفة قد ارتبطتا مع بعضهما البعض منذ بداية استخدامهما أما كلمتا: الشتاء القاسي فلم ترتبطتا كثيرا ولكن التعبيرين متلائمان للغاية مع الظروف حيث يوفران على المرء الجهد اللازم من أجل اختراع وابتكار كلمات جديدة ، كان من المتوقع أن يشرق النهار فى شمس ساطعة وسماء زرقاء ورفرفة بهيجة للحمام أثناء طيرانه.. ولكن لم يكن هناك أى تغير فى الجو، طيور السنونو تستمر فى التحليق فوق المدينة والنهر لا يمكن للمرء أن يثق فيه والحمام نادرا ما يغامر بالطيران هناك.

فالمطر مستمر فى التساقط ولكن على نحو يسمح للمرء بالخروج بدون معطف

مطر وبدون مظلة والرياح بالمقارنة مع العواصف الهوجاء التي سادت في وقت مبكر من هذا الصباح تعتبر مجرد تربيت خفيف على خد المرء.. وغادر ريكاردو ريس الفندق مبكرا وذهب الى البنك التجارى لكي يستبدل بعض النقود الانجليزية الموجودة معه الى عملة الاسكود البرتغالية وتلقى عن كل جنيه استرليني ١١٠ ألف «ريس»(*) .. من المؤسف ان هذه الجنيهات الانجليزية لم تكن ذهبا والا لكان قد استبدلها بضعف هذه الكمية تقريبا، ومع ذلك لم يكن لدى المسافر العائد سبب حقيقي يدعوه للشكوى بعد أن أصبحت محفظته وهو خارج من البنك ممتلئة بخمسة آلاف اسكود وهو مبلغ يعتبر بمثابة ثروة في البرتغال ومن شارع دى كوميرسيو الذى يجد نفسه موجوداً فيه فان التيرو دو باكو لا يبعد الا على مسافة امتار قليلة لكن ريكاردو ريس لن يغامر بعبور الميدان، انه يتفحص المسافة وهو واقف تحت حماية صف الاعمدة فالنهر مظلم ومتلاطم الأمواج والفيضان عالي.. وعندما ترتفع الأمواج الموجودة بعيدا عن الشاطيء يتخيل المرء انها على وشك ان تغرق الميدان بحيث يغوص تحت الماء الا أن هذا بمثابة خداع بصرى ، فالامواج تتشتت على السور.. وهو يتذكر انه جلس هناك في أيام ماضية أيام بعيدة للغاية حتى انه يشك فيما إذا كان قد شهد تلك الأيام بالفعل. وربما كان هناك شخص ما آخر نيابة عني وربما كانت له نفس ملامح الوجه ونفس الاسم ولكنه شخص ما آخر . قدمان مبللتان وباردتان وهو ايضا يشعر بمسحة من الحزن والكآبة تمر على جسده وليس على روحه وأنا أكرر ليس على روحه، فالانطباع فيزيقى إذ كان بمقدوره أن يلمسه بيديه لو لم تكن يداه مشغولتين بالامساك بمقبض المظلة التى لا يتطلب الوضع فتحها . هذه هى الكيفية التى يبعد بها الانسان نفسه عن العالم مما يعرض إلى السخرية من جانب شخص ما يمر ويقول مازحا: أيها السيد الدنيا لا تمطر في تلك البقعة ولكن ابتسامة الرجل تكون تلقائية وبدون خبث

(*) وحدة نقد برتغالية قديمة – المترجم .

ويبتسم ريكاردو ريس من تشتته الذهني ويدون أن يعرف السبب يتمتم بأبيات شعرية من قصيدة من تأليف جاوبوديوس ومعروفة لكل طفل في الحضانة . تحت صف الاعمدة هذا يمكن للمرء أن يمضى الليل في راحة.

لقد جاء إلى هنا لان الميدان كان قريبا للغاية ولكى يتحقق أثناء مروره مما إذا كانت ذاكرته عن المكان تحمل أى تشابه مع الحقيقة الواقعة. مساحة رباعية الزوايا محاطة بمبان على ثلاثة جوانب وتمثال يمثل شخصا ملكيا على ظهر جواد موجود في وسط الميدان وقوس نصر لا يستطيع مشاهدته من الموقع الذى يوجد فيه . ولكن كل شىء مشتت وضبابى والمبانى ليست سوى خطوط مشوشة . من المؤكد أن السبب فى ذلك هو الطقس وهذه الساعة من النهار وقوة ابصاره التي تخذله.. لا شىء يبقى سوى عيون الذاكرة التى تكون حادة مثل عيني الصقر، الساعة الحادية عشرة تقريبا ويوجد الكثير من النشاط تحت صف الاعمدة، ويسير ريكاردو ريس فى اتجاه شارع دوكرو سيفيسكو ويقاوم إلحاح بائع ورق اليانصيب الذى يحاول أن يبيع له تذكرة من أجل السحب القادم ، التذكرة هى رقم ١٣٤٩ ولسوف تدور العجلة غداً، ذلك ليس هو الرقم والعجلة لن تدور غداً.. ولكن على هذا النحو تسير أغنية العراف.

أرجوك يا سيدى أن تشترى تذكرة اذا رفضت الشراء سوف تندم على ذلك صدقنى انها تذكرة رابحة يوجد إلحاح وتهديد متسم بالخبث والحيلة.. ويدخل ريكاردو ريس الى شارع جاريت.. ويصعد الى الشيادو حيث يوجد أربعة من الشيالين المستندين على قاعدة التمثال بدون اهتمام بالمطر المتساقط فى رذاذ . هذه هى جزيرة الغاليين Galicians وعلى مسافة الى الأمام كان المطر قد توقف بالفعل . توجد رقعة بيضاء من الضوء خلف لويس دى كاموس سحابة يسيح منها المطر Nimbus وهذه هى المشكلة مع الكلمات فكلمة Nimbus بمعنى المطر وبمعنى السحابة وبمعنى الهالة.

ويذهب ريكاردو ريس إلى ارشيف الجرائد.

بالأمس أخذ ملحوظة بالاتجاهات قبل الذهاب للنوم.

لا يوجد سبب يدعوه للاعتقاد انه نام نوما رديئا وانه وجد السرير أو الدولة غريبا ، عندما ينتظر المرء النوم فى صمت غرفة مازالت غير مألوفة له ومصغيا للمطر بالخارج فان الاشياء تتخذ بعدها الحقيقى وتصبح كلها هائلة ووقورة وثقيلة. الشيء المخادع هو ضوء النهار حيث يحول الحياة الى ظل يصعب ادراكه. والليل وحده يكون رائقا وشفافا وصافيا ولكن النوم يتغلب عليه ربما من أجل هدوئنا وراحتنا وراحة أرواحنا.. يذهب ريكاردو ريس الى ارشيف الجرائد.. حيث ينبغى أن يذهب اليه كل شخص يرغب فى معرفة الأمور التى حدثت لانه هنا فى البيرو ألتو يمر العالم كله تاركا آثار أقدام وأغصانا مكسورة وأوراقا منسحقة بالقدمين وكلمات منطوقة، وما يتبقى هو هذا الابتكار الضرورى حتى يمكن من العالم المذكور آنفا الحفاظ على وجه وعلى نظرة وعلى ابتسامة وعلى كرب مميت ، ولقد تسبب الموت غير المتوقع لفرناندو بسوا الكثير من الحزن فى الدوائر الثقافية ، الشاعر الذى ألف أورفيو.

وهو شخصية تدعو للاعجاب ولم يؤلف الشعر فقط فى اشكاله الاصلية وإنما كتب أيضا مقالات نقدية قد مات فى صمت أمس الاول مثلما عاش دائما فى صمت. ونظرا لانه لا يوجد أحد فى البرتغال يستطيع أن يكسب عيشه من كتابة الادب فان فرناندو بسوا عثر على وظيفة كاتب فى شركة تجارية.

والمزيد من السطور الأخرى: وقام أصدقاؤه بوضع أكاليل الزهور تحية لذكراه الى جوار مقبرته. ولا تقدم الجريدة المزيد من المعلومات. وتشير صحيفة أخرى الى نفس الموضوع ولكن مع استخدام كلمات مختلفة: فرناندو بسوا الشاعر غير العادى ومؤلف قصيدة «المنساجم» وهى قصيدة مليئة بالحماس الوطنى ومن أجمل ما كتب فى عالم الأدب قد دفن بالأمس حيث اختطفه الموت فجأة فى سرير فى مستشفى سولويس أثناء الساعات الأخيرة من ليلة السبت وهو فى شعره لم يكن فقط فرناندو بسوا وانما كان ايضا ألفارو دى كامبوس وألبرتو كايرو وريكاردو ريس . فى تلك المسألة توجد غلطة ناجمة عن عدم الانتباه ناجمة عن كتابة ما سمعه المرء بطريق الخطأ لاننا نعرف جيدا ان ريكاردو ريس هو

الرجل الذى يقرأ الجريدة بعينيه المفتوحتين المفعمتين بالحياة وهو طبيب يبلغ من العمر ٤٨ عاما وهو اكبر بسنة واحدة من فرناندو بسوا عندما أغلقت عيناه وهى عينان كانتا ميتتين بدون ادنى شك.. ولا يحتاج الامر لأية براهين أو دلائل أخرى للبرهنة على اننا لا نتعامل مع نفس الشخص واذا كان هناك شخص ما مازال يموج بالشك فعليه ان يذهب الى فندق براجانسا ويتحدث مع المدير سنهور سلفادور ويسأله عما اذا لم يكن يوجد جنتلمان مقيم بالفندق يسمى ريكاردو ريس ويعمل طبيبا ووصل مؤخرا من البرازيل ، انه سيرد قائلا: نعم والدكتور قال انه لن يرجع الى الفندق من أجل تناول طعام الغذاء ولكنه سيتناول طعام العشاء بكل تأكيد هنا فى هذا المساء إذا كان يهمك ان تترك رسالة فاننى سأحرص على أن يتسلمها، والآن من الذى يجرؤ على تكذيب كلام مدير فندق وهو خبير فى علم الفراسة ومترسخ في تحديد الهويات، ولكن بدلا من من ان نقنع أنفسنا بكلمة رجل لا نستطيع أن ندعى أننا نعرفه عن كثب فانه توجد هنا صحيفة أخرى أوردت النبأ فى صفحة الوفيات والنعى حيث يتم تناول مراحل حياته الوظيفية بالتفصيل . بالأمس جرت مراسم جنازة فرناندو انطونيو نوجيرا بسوا وهو أعزب يبلغ من العمر ٤٧ عاما ولا تنس أن عمره ٤٧ عاما وقد ولد فى لشبونة ودرس الأدب فى جامعة انجليزية واصبح راسخا ككاتب وشاعر فى الدوائر الادبية وعلى نعشه وضعت أغصان من الازهار البرية وهى لسوء الحظ أزهار تذبل بسرعة كبيرة. وأثناء انتظار الدكتور ريكاردو ريس للترام الذى سينقله الى البرازيريس قرأ الخطبة الجنائزية التى ألقيت بجوار القبر بالقرب من مكان شنق فيه رجل كما يعرف الجميع منذ ٢٢٣ عاما أثناء حكم الدوم جو الخامس الذى لم يذكر اسمه فى قصيدة المنساجم . فهم قد شنقوا شخصا من مدينة جنوه متسما بالغش والخداع حيث انه قام بقتل واحد من أهالينا من أجل قطعة من القماش بأن طعنه فى رقبته بسكين علاوة على قتل زوجة الرجل الميت بنفس الطريقة والتى ماتت فى نفس الموقع ثم أصاب خادمها بجرحين لم يكونوا مميتين ثم فقع عين شخص آخر كما لو كان أرنبا وتم القبض على هذا القاتل وحكم عليه بالاعدام شنقا هنا نظر

لانه قريب من المكان الذى ارتكب فيه جرائمه وتم الشنق فى حضور الجماهير التى احتشدت لكى ترقب عملية الشنق.

وجاء الترام ثم تحرك منطلقا وعثر ريكاردو ريس على مقعد طويل شاغر فجلس فيه بمفرده ، وعندما وصل ريكاردو ريس الى الجبانة كان الجرس عند البوابة يدق فى جلبة ملأت الهواء بصوت برونزى رفيع حاد.. وكان نعش محمولا على الايدى على وشك ان يختفى وكانت ستائره الجنائزية تتمايل وكانت أوجه النساء مغطاة بالشال الاسود وكان الرجال مرتدين أفضل ثياب يوم الاحد الخاصة بهم وقد وضعوا على أذرعهم زهرات الاقحوان الارجوانية اللون مع وجود المزيد من الاقحوان على الارفف العلوية الناتئة للنعش.. واختفى النعش فى الاعماق وذهب ريكاردو ريس الى مكتب التسجيل لكى يسأل عن كيفية العثور على قبر فرناندو انطونيو نوجيرا بسوا الذى مات فى الثلاثين من الشهر الماضى ودفن فى اليوم الثانى من هذا الشهر والذى وضع فى هذه الجبانة حتى نهاية الزمن والى ان يأمر الله الشعراء بأن يستيقظوا من موتهم المؤقت. وعندما أدرك رجل الدين انه أمام رجل مثقف له مكانة رفيعة فانه يخبره فى دقة عن الطريق والرقم لان الجبانة تشبه أى مدينة يا سيدى.. ولكى يتأكد تماما ان توجيهاته واضحة فانه يصطحبه الى الخارج ويشير بيده.. إذهب الى الطريق الرئيسى المشجر وعند نهايته اتجه الى اليمين ثم فى خط مستقيم للأمام ومقبرته تقع على الجانب الأيمن عند ثلثى هذا الممر عليك بتدقيق النظر فالمقبرة صغيرة الحجم بحيث يمكن أن تتجاوزها بدون أن تتعرف عليها.

ويشكره ريكاردو ريس على مساعدته.. الرياح التى تجيىء من بعيد عبر البحر والنهر لا يسمعها تولول فوق على النحو الذى يتوقعه المرء ولا يوجد سوى تلك السماوات الرمادية وهذه الاحجار الرخامية الرطبة التى تلمع عقب الأمطار الأخيرة بينما اشجار السرو الصنوبرية ذات اللون الأخضر الداكن أصبحت داكنة أكثر من ذى قبل . ووفقا للتعليمات التى تلقاها من رجل الدين يبدأ فى السير فى الطريق الذى تصطف على جانبيه نباتات الحور باحثا عن المقبرة رقم ٤٢٧١ وهو

الرقم الذى سحب فى اليانصيب بالأمس ولن يسحب مرة أخرى بمعرفة القدر وليس بمعرفة الحظ السعيد.. الطريق ينحدر لأسفل فى رفق حتى أن المرء يكاد يجرى فى مشيته.

توجد هنا الزاوية التى ينبغى أن آخذها ، نحن نسأل أنفسنا عن السبب فى مجيئنا وما هى الدموع المتبقية التى ينبغى أن تذرف ولماذا اذا لم نكن قد ذرفناها من قبل. ربما أننا قد صدمنا أكثر مما حزنا. لقد قطع ريكاردو ريس نفس المسافة على الممر مع النظر باستمرار الى اليمين، الاسف الابدى، الذكرى الحزينة، هنا يرقد فى الذكرى الحبيبة ، يمكن أن نشاهد نفس هذا الكلام المنقوش إذا نظرنا الى الجانب الآخر.. ملائكة لها أجنحة متدلية وتماثيل جزينة وكئيبة وأصابع مجدولة وستائر مجمعة واعمدة مكسورة ربما البناء ون والنحاتون قد قطعوها على ذلك النحو أو ربما كسرها أقارب الموتى كتعبير عن حزنهم مثل المحاربين الذين قاموا بتحطيم دروعهم كتعبير عن الحزن عن وفاة قائدهم..

وتجاور ريكاردو ريس المقبرة التى يبحث عنها، ولم يناد صوت: هالو هاهى المقبرة موجودة هنا ومع ذلك مازال يوجد أولئك الناس الذين يعتقدون ان الموتى يمكن لهم أن يتكلموا، وما الذى يمكن أن يحدث للموتى اذا لم تكن هناك وسيلة لتحديد هويتهم ولا اسم محفور على شاهد المقبرة ولا رقم مثل الذى يوضع على أبواب الاحياء ، وها هى مقبرة فرناندو بسوا وقد سجل عليها تاريخ مولده وتاريخ وفاته علاوة على عبارة: أنا هنا. فيكرر ريكاردو ريس هذه الكلمات بصوت مرتفع انه هنا. وفى تلك اللحظة تبدأ الامطار فى الهطول لقد قطع مسافة طويلة فى سفره من ريو دى جانيرو وأمضى أياما وليالى فوق أعالى البحار تبدو الرحلة قريبة للغاية ومع ذلك تبدو بعيدة للغاية والآن ماذا عليه أن يفعله بمفرده فى هذا الطريق وبين هذه القبور بعد أن فتح مظلته ، لقد حان وقت التفكير فى الغذاء . من على مسافة يستطيع سماع الصوت الأجوف لجرس يدق، لا شىء آخر يمكن عمله فى هذا المكان وما فعله يعتبر لا شىء.. وفى داخل الضريح توجد امرأة عجوز مجنونة لا يمكن أن تترك لكى تتجول فى حرية كما تريد ، وتحت عينيها

اليقظة يوجد أيضا الجسد المتحلل المتعفن لشاعر ترك نصيبه من الجنون فى العالم.

الفارق الكبير بين الشعراء والمجانين هو مصير الجنون الذى يتملكهم جميعا، وشعر بالخوف وهو يفكر فى الجدة ديونيسيا المستلقية هناك وفى حفيدها المبتلى فرنانو حيث تحرص على فتح عينيها فى تيقظ شديد بينما هو قد حول عينيه باحثا عن ثغرة عن نسمة هواء من بصيص من الضوء بعد ان تحول شعوره بالقلق الى غثيان كأنه يتعرض لاختناق بسبب موجة بحرية هائلة وهو الذى لم يشعر بدوار البحر على مدى الاربعة عشر يوما التى استغرقتها الرحلة، وقال لنفسه فى تفكير: «السبب فى ذلك هو معدتى الخاوية وهو ربما يكون على صواب لانه لم يتناول أى طعام طوال الفترة الصباحية.»

ثم تزايد هطول الامطار وجاء ذلك فى الوقت المناسب تماما والآن سيكون لدى ريكاردو ريس الاجابة الجاهزة لو سأله اى شخص.. لا اننى لم أمض وقتا طويلا هناك لان المطر كان شديدا وغزيرا للغاية وعندما بدأ فى السير ببطء صاعدا على الطريق احس بأن الغثيان اخذ فى التراجع . وكل ما تبقى كان مجرد صداع خفيف ربما بسبب خواء موجود فى الرأس مثل غياب أو مثل قطعة من المخ مفقودة القطعة المتخلى عنها من خلال بسوا.. ووجد رجل الدين الذى سبق ان ارشده واقفا عند باب غرفة التسجيل.. كان من الواضح من الدهنيات الموجودة على شفتيه انه قد انتهى لتوه من تناول طعام الغذاء.. وأين تناول الطعام، لقد تناوله فى هذه الغرفة حيث نشر ورق السفرة على مكتبه بينما الطعام الذى احضره من منزله مازال ساخناً لأنه كان ملفوفا فى جرائد أو ربما أعاد تسخينه على موقد بوتاجاز.. إذن فأنا ربما أكون قد أمضيت وقتا هناك أطول مما كنت أظن.. اذن فأنت قد عثرت على المقبرة التى كنت تبحث عنها. فأجاب ريكاردو ريس: لقد عثرت عليها.

وبينما كان يمر من البوابة قال مكرراً: نعم عثرت عليها.

وبسبب شعوره بالجوع الشديد ورغبته فى الاسراع لوح بيده نحو صف من

التاكسيات من يعرف ما إذا كان بمقدوره أن يعثر على مطعم مازال على استعداد لان يقدم له وجبة غذاء فى هذا الوقت المتأخر.. كان السائق يلوك عود خلال من النوع الذى تنظف به الاسنان عقب تناول الطعام ويمرره من ركن لآخر في داخل فمه باستخدام لسانه.. ومن المؤكد أن ذلك كان يتم من خلال استخدام لسانه نظرا لأن يديه كانتا فوق عجلة القيادة ، ومن وقت لآخر كان يبتلع اللعاب الموجود بين اسنانه.. وكان صوت الامتصاص شبيها باغنية طائر فراح ريكاردو رى يفكر فى هذا الامر وابتسم لنفسه ولكن فى نفس اللحظة امتلأت عيناه بالدموع .. من الغريب أن هذا الصوت يحدث مثل هذا التأثير، أو ربما كان السبب هو منظر ملاك صغير يتم نقله الى قبره على نعش أبيض اللون فرناندو من نوع ما لم يعش لفترة طويلة تكفي لأن تجعله شاعرا أو ريكاردو من نوع ما لم يستطع أن يصبح طبيبا أو شاعراً، وربما السبب فى هذا الانفجار فى البكاء هو بكل بساطة أن اللحظة المناسبة قد حانت لكى يطلق عواطفه المكبوتة ، وهذه المسائل الفزيولوجية معقدة فلنتركها لاولئك الذين يفهمونها وخاصة إذا اتضح انه من الضرورى أن نتتبع طريق العاطفة التى تصب فى غدد الدموع ذاتها لكى نحدد على سبيل المثال الفارق الكيماوى ما بين دموع الحزن ودموع الفرح ومن المؤكد أن دموع الحزن تتسم بالمزيد من الملوحة مما يوضح السبب فى أن عينى المرء الذى يبكى حزنا تؤلمانه كثيراً نتيجة لتزايد الملوحة فى العينين، وفى الأمام دفع السائق عود الخلال بين أنيابه الموجودة على اليمين ثم راح فى صمت يحرك العود لاعلى ولاسفل مظهراً احترامه لحزن المسافر وهو أمر معتاد عليه عندما يلتقط أناسا قادمين من الجبانة.. ونزل التاكسى هابطا على شارع كالكادا دى استريلا.

ثم استدار عند الكورنيش واتجه نحو النهر ووصل الى البايكسا ثم صعد الى شارع اوجو سترا ولدى دخول التاكسى الى روسيو تذكر ريكاردو ريس فجأة فقال: توقف عند أرموس يونيدوس وهو المطعم الموجود أمامك واتجه الى اليمين حيث يوجد مدخل فى الخلف فى شارع كوريروس، فالمرء يضمن الحصول على وجبة ممتازة هنا والجو فيه تقليدى لان المطعم يقع على نفس الموقع الذى كانت

تشغله مستشفى توبوس أوسى سانتوس منذ سنوات عديدة مضت، قد تظن اننا نقص تاريخ دولة أخرى زلزال يجيء ولاحظ النتيجة ولكن إذ نتغير نحو الأفضل، أو الاسوأ فذلك يتوقف على الكيفية التى نحيا بها وعلى الآمال التى تساورنا.

وتناول ريكاردو ريس طعام الغذاء دون أن يشعر بالقلق إزاء طعامه.. الأمس كان بمثابة ضعف من جانبه ، فالمرء عندما يصل الى الشاطىء عقب رحلة عبر المحيط يكون مثل طفل حيث يسعى فى بعض الأحيان الى إراحة على كتف إمرأة أو فى أحيان أخرى يتناول كئوساً متتالية من الخمور فى احدى الحانات الى أن يعثر على السعادة بشرط أن تصبّ السعادة فى تلك الزجاجة مقدما . وفى أحيان أخرى يبدو الأمر كأنه ليس له ارادة خاصة به . ومن المنضدة التى يجلس إليها ومن خلال الفتحات الموجودة بين الستائر يمكنه مشاهدة الترام وهو يمر بالخارج ويمكنه سماعها وهى تصرخ عند الانعطافات والنواصى وسماع أصوات أجراسها وهو صوت رخيم أثناء سقوط الأمطار وشبيه بأصوات أجراس كاتدرائية مغمورة تحت الماء أو مثل صوت القيثارة الذى يدوّى الى ما لا نهاية فى أعماق بئر . الجرسونات يحومون فى صبر وفى انتظار لأن ينتهى هذا الزبون الأخير من تناول طعام الغذاء . لقد وصل متأخرا الى المطعم وتوسّل اليهم لكى يقدموا له الطعام فأجيب إلى طلبه رغم أن العاملين بالمطبخ كانوا قد بدأوا بالفعل فى رفع الأوانى . لقد انتهى الآن تماما من تناول الطعام ويقدم شكره الجزيل للجرسونات فى أدب متمنيا لهم قضاء وقت ممتع فى فترة ما بعد الظهر لدى مغادرته المكان من خلال الباب المؤدى الى شارع كوريروس المؤدى بابيلون الحديد والزجاج . السوق الذى يموج بالنشاط ومازال هادئا بالمقارنة مع ساعات النهار التى تتزايد خلالها صيحات التجار الى عنان السماء.

ويدأ ريكاردو ريس يسير عائدا الى فندقه وتذكر الغرفة التى أمضى فيها ليلته الأولى مثل طفل متسم بالتبذير وموجود تحت سقف أبوى . تذكر غرفته كما لو كانت بيته ، ليس بيته فى ريو دى جانيرو وليس بيته الموجود فى أوبورتو والذى ولد فيه كما نعرف جميعا وليس بيته الموجود هنا فى لشبونة حيث كان يعيش فيه

إبحاره الى النفى في البرازيل ليس أيّ بيت من هذه البيوت رغم أنها جميعا كانت بيوتا بالنسبة له . اشارة غريبة عن ماذا . عن رجل يظن أن غرفته بالفندق بمثابة وطن له . شعر بالقلق بسبب وجوده بالخارج لفترة طويلة منذ الصباح الباكر فقال لنفسه متمتما : لسوف أعود إلى غرفتى على الفور . وكبح جماح رغبته فى استدعاء تاكسى . وسمح لترام لأن يمرّ دون أن يستقله رغم أنه كان سينزله عند باب الفندق . وتمكن فى النهاية فى تهدئة هذا القلق السخيف وأن يرغم نفسه أن يكون مجرد شخص ما عائد الى فندقه فى غير تسرّع ولكن بدون أىّ تأخير لا داعى له . وهو ربما يشاهد الفتاة ذات الذراع المشلولة فى صالة الطعام هذا المساء . انه مجرد احتمال مثل احتمال مشاهدة الرجل الممتلىء والرجل النحيل المرتدى زىّ الحداد والأطفال الشاحبين الذين لهم والدان متوردان ومن يعرف مَنْ هم الضيوف الآخرون الذين قد يجيئون وما هى حالات الوصول الغامضة القادمة من مكان مجهول مغلف فى السديم الضبابى . ولدى تفكره فى هؤلاء الناس أحس بدفء مواسٍ فى داخل قلبه واحساس عميق باعادة الطمأنينة .

أحبوا بعضكم البعض هى الكلمات التى قيلت ذات يوم ولقد جاء الوقت المناسب لكى يبدأ التطبيق العملى لها.

وهبت الرياح فى قوة وشقت طريقها إلى شارع أرسينال الا أن المطر لم يكن يتساقط . كل ما سقط على الأرصفة كانت قطرات ثقيلة منفلتة من الطنف والأفاريز .

ربما سيتغير الطقس إلى الأحسن لأن فصل الشتاء لا يمكن أن يستمر الى الأبد . على مدى الشهرين الأخيرين لم يكن يوجد هناك سوى الأمطار الغزيرة هكذا قال له سائق التاكسى بالأمس فى نغمة توحى بأنه لم يعد يعتقد أن الأمور سوف تتحسن .

يصدر أزيزا حادا لدى قيامه بفتح الباب بدا الأمر وكأنه يتم الترحيب به من خلال تمثال الفارس الإيطالى . ونظر بيمنتا لأسفل نحو مجموعة درجات السلم المنحدرة من البسطة الموجودة فى الأعالى فى انتظار لأن يلقى عليه التحية فى

مراعاة للآخرين وفي حرص على الشكليات بينما ظهره منحنٍ قليلا ربما بسبب الأحمال التي يحملها باستمرار . مساء الخير يا دكتور . ظهر المدير سلفادور على بسطة السلم مكررا نفس الكلمات ولكن في نغمة أكثر تهذيبا . رد ريكاردو ريس على تحياتهما . لم يعودوا بمثابة مدير وحمال للفندق وطبيب وانما أصبحوا بكل بساطة ثلاثة رجال مسرورين لمشاهدة بعضهم البعض مرة أخرى عقب مرور هذه الفترة الطويلة وليس منذ فترة مبكرة من ذلك الصباح . عليك فقط بتخيل مثل هذا الحنين سبحان الله . عندما دخل ريكاردو ريس غرفته لاحظ له أنها قد نظفت في عناية كبيرة ورتب غطاء السرير في أناقة وأصبح حوض الغسيل لامعا للغاية بل وأصبحت المرآة خالية من البقع على الرغم من الأغوار التي كانت قد جمعتها على مدى السنين تنهد في ارتياح كبير . وبعد أن استبدل ملابسه ووضع قدميه في الشبشب جذب احدى نوافذ غرفة النوم فاتحا إياها في حركة تدل على أنه مسرور بعودته الى بيته . ثم جلس في الكرسي الفوتيي .

بدا الأمر وكأنه قد تعثر في داخل ذاته وحدث سقوط فجائي عنيف في داخل كيانه . وتساءل : والآن يا ريكاردو ريس أو أيما امرىء تكون كما قد يقول الآخرون . وفي لحظة أدرك أن الخاتمة الحقيقية لرحلته كانت هي هذه اللحظة وأن الوقت الذى انقضى منذ أن وضع قدميه على رصيف الميناء في القنطرة قد أُنفق في مناورات الرسو والقاء المراسي وسبر أغوار تيار المياه والالقاء بالكابلات لأن هذا هو ما كان يفعله عندما بحث عن فندق وقرأ تلك الجرائد الأولى ثم زار الجبانة وتناول طعام الغذاء في باكسيا ثم شار في شارع دورادوريس . وذلك التلهف الفجائي على الوصول إلى غرفته ودافع عدم التفرقة والمحبة العالمية والترحيب من جانب سلفادور وبيمنتا ومفرش السرير النظيف واخيرا النافذة المفتوحة التي ترفرف ستائرها مثل الأجنحة . وماذا الآن . لقد بدأ المطر يتساقط مرة أخرى محدثا صوتا على قمم الأسطح شبيها بصوت الرجل الذى يتم غربلته ونخله وهو صوت مثير للتحذير والنوم ربما أثناء الطوفان العظيم لقد جعل الله الناس ينامون بهذه الطريقة لكي يكون الموت سهلا ولطيفا . اذ تتسلل المياه في هدوء الى

فتحات أنوفهم وأفواههم بدون أن تخنقهم وتتسرب المياه الى داخل خلاياهم تدريجيا الى أن يمتلىء التجويف الكامل لأجسادهم . وبعد أربعين يوما وأربعين ليلة على نومهم وعلى هطول الأمطار تغوص أجسامهم تدريجيا الى القاع بعد أن تصبح فى نهاية الأمر أكثر ثقلا من الماء ذاته .

وأوفيليا تسمح لنفسها بالانجراف مع التيار وهى تغنى الا أن الارادة تموت على نحو حتمى قبل نهاية الفصل الرابع . وكل شخص آدمى له طريقته الخاصة فى النوم والموت ولكن الفيضان يستمر .. فالزمن يمطر علينا ويغرقنا . وعلى سطح الأرضية المعالج بالشمع تجمعت قطرات المطر وانتشرت بعد أن دخلت من النافذة المفتوحة . بعض الضيوف المتسمين بالاهمال لا يهتمون بالأعمال الوضيعة ربما لأنهم يعتقدون أن النحل لا يكتفى بصنع الشمع وانما ينشره أيضا على الألواح الخشبية بالأرضية ويحكها إلى أن تصبح لامعة . إلا أن الخادمات وليس النحل هن اللائى يقمن بهذا العمل وبدون الخادمات ستصبح هذه الأرضيات اللامعة قذرة ومتسخة . سرعان ما سيقوم المدير بتوجيه التأنيب للخادمات علاوة على معاقبتهن لأن هذه هى مهمة المدير . سارع ريكاردو ريس الى اغلاق النافذة ووضع كميات من الجرائد لكى تمتص معظم المياه ونظرا لأنه لم تكن لديه وسيلة تعينه على انجاز هذه المهمة بطريقة سليمة فانه دق الجرس . وقال لنفسه فى تفكير : هذه هى أول مرة استخدم فيها الجرس مثل شخص ما يلتمس المعذرة من نفسه .

وسمع وقع أقدام فى الطرقة وطرقت أصابع فى خفوت على الباب . تفضل بالدخول . قالها فى توسل وليس فى لهجة آمرة . وعندما فتحت الخادمة الباب قال دون أن ينظر اليها تقريبا كانت النافذة مفتوحة ودخل المطر الى الغرفة . وغطى الماء جميع أرجاء الأرضية . ثم لاذ بالصمت مدركا أنه قد قال شعرا هزليا محطم الأوزان هو ريكاردو ريس الذى سبق أن ألف القصائد الغنائية . واستمر يقول كلاما له وزن الشعر . أيمكنك أن تقدمى لى خدمة وتنظفى هذه الفوضى . وفهمت الخادمة بدون أن تركز ذهنها على الأشعار ماينبغى عمله . وخرجت وعادت ومعها

ممسحة وجردل . وجثت على ركبتيها وراح جسدها يتلوّى وبذلت كل ما فى وسعها لازالة المياه المزعجة .

غدا ستصنع طبقة أخرى من الشمع على الأرضية . أيمكننى أن أفعل أى شيء من أجلك يا دكتور . لا شكرا جزيلا . ونظرا لبعضهما البعض نظرات عميقة مباشرة . وزاد ايقاع المطر فى ضربات ثقيلة على زجاج النوافذ حيث كان يقرع مثل طبلة هائلة مما يجعل أولئك المستغرقين فى نوم عميق يستيقظون فى ذعر . ما اسمك . فأجابت : ليديا يا سيدى . وأضافت : أنا فى خدمتك يا دكتور . كان بمقدورها أن تعبّر عن ذلك فى طابع متسم بالمزيد من الرسمية بأن تقول بصوت أكثر ارتفاعا لقد صدرت لى التعليمات بأن أبذل قصارى جهدى لكى أدخل السرور على الطبيب لأن المدير قال : استمعى الىّ يا ليديا اعتنى عناية كبيرة بالضيف الموجود بالغرفة رقم ٢٠١ وهو الدكتور ريس .

ولم يردّ الطبيب وبدا وكأنه يهمس باسم ليديا لكى يحفظه ولكى يستخدمه فى حالة احتياجه لاستدعائها . هناك أناس يكررون الكلمات التى يسمعونها لأننا جميعا مثل الببغاوات التى تكرّر كلمات بعضها البعض والا فهل هناك أية وسيلة أخرى للتعلّم . ربما هذا التفكير غير ملائم لأنه لم يتم من خلال ليديا التى هى المحاور الآخر والتى لها اسم بالفعل لذلك هيا بنا نسمح لها بالانصراف مع أخذ ممسحتها وجردلها معها . ويبقى ريكاردو ريس هناك مبتسما فى سخرية ومحركا شفتيه بطريقة لا تخدع أحدا . ويكرّر : ليديا . ويبتسم . ويذهب وهو يبتسم إلى الدرج لكى يبحث عن قصائده . قصائده الغنائية ويقرأ الأبيات التى تقع عليها عيناه لدى تقليب الصفحات : « وهكذا تجلس ليديا بجوار المدفأة . يا ليديا دعى الصورة تبدو على ذلك النحو . هيا بنا لا نظهر أىّ رغبة يا ليديا فى هذه الساعة وفى هذا الوقت . عندما يحين خريف العمر يا ليديا اجلسى معى يا ليديا على شاطىء النهر . الوجود الذليل الدنىء للغاية مفضل على الموت » .

لم يعد هناك أى اثر للسخرية فى ابتسامته إذ كانت كلمة ابتسامة هى بمثابة وصف ملائم لتلك الشفتين المنفرجتين التى تكشف عن الأسنان مع تثبيت عضلات

الوجه على شكل ازدراء أو تعبير مليىء بالآلام والذى يمكن معه للمرء أن يقول هذا أيضا سوف يمرّ . وينحنى ريكاردو ريس على الصفحة ويعيد ترتيب أشعار قديمة مثلما ينعكس وجهه على صفحة مرآة هائلة من الماء . سرعان ما سيكون قادرا على التعرّف على ذاته . انه أنا بدون أى سخرية وبدون أى أسف قانع بألا أشعر بمجرد الرضا مثل رجل لا يرغب فى أىّ شىء آخر أو يعرف انه لايستطيع أن يمتلك أىّ شىء آخر . تتزايد الظلال فى الغرفة . لابد أن سحابة ما مظلمة تمرّ عبر السماء . سحابة سوداء مثل الرصاص . مثل تلك السحب التى تستدعى من أجل أن يحدث الطوفان . يحدث ريكاردو ريس حركة بيديه متلمسا الهواء عديم اللون وبعدئذ لا يكاد يكون قادرا على التمييز بين الكلمات التى يتتبعها على الورقة فيكتب «كل ما أطلبه من الآلهة هو أنه ينبغى علىّ ألا أطلب أى شىء منها » . وبعد أن كتب هذا لا يعرف كيف يستمر فى الكتابة . توجد هناك لحظات كهذه اللحظة . نحن نؤمن بأهمية ما قلناه أو كتبناه توا لأنه من المتعذر سحب الاصوات أم محو الحروف ولكن اغراء أن نكون صامتين يسود جسدنا . انه ابهار الصمت وابهار أن نكون صامتين وملتزمين بعدم الحركة مثل الآلهة التى ترقب ولا شىء غير ذلك. ويتحرك متجها نحو الأريكة ويستند بظهره الى الوراء ويغلق عينيه ويشعر أن بمقدوره الارتماء فى أحضان النوم ويصبح شبه نائم . ويأخذ بطانية من حجرة الملابس ويلف نفسه فى داخلها والآن فانه سينام ويحلم بأن الصباح مليء بالشمس الساطعة وبأنه فى نزهة فى شارع أوفيدور فى ريو دى جانيرو وبدون أن يجهد نفسه لأن الجو حار للغاية . ويترامى من على مسافة صوت اطلاق نيران وانفجار قنابل ولكنه لايستيقظ . ليست هذه هى أول مرة يحلم فيها هذا الحلم بل ولايسمع الطرق على الباب ولايسمع صوت امرأة تتساءل : هل ناديت يا دكتور ؟ .

دعونا نقول إن السبب فى ذلك أنه لم ينم فى الليلة السابقة إلا بقدر ضئيل للغاية وانه ينام الآن نوما عميقا . و على كل حال توجد ورقة على المنضدة مكتوب عليها عبارة «كل ما أطلبه من الآلهة هو انه ينبغى علىّ ألا أطلب منها أى شىء » هذه الصفحة موجودة . والكلمات تحدث مرتين كل كلمة قائمة بذاتها وبعدئذ مع

بعضها البعض وعندما تُقرأ فإنها تنقل معنى ولا يهم ما اذا كانت هناك آلهة أم لا أو ما اذا كان الشخص الذى كتبها قد استغرق فى النوم أم لا . وربما لا تكون الأشياء بنفس البساطة التى نميل لأن نظهرها عليها فى بادىء الأمر . وعندما يستيقظ ريكاردو ريس تكون الغرفة غارقة فى الظلام ولايسمع أى صوت فى أرجاء الفندق الذى تحوّل الآن الى قصر للجمال النائم حيث يكون الجمال قد انسحب أو لم يُسحب على الاطلاق . كل شىء نائم : سلفادور وبيمنتا والجرسونات الغاليّون والضيوف وصفحة عصر النهضة وحتى ساعة الحائط الموجودة عند منبسط السلم قد توقفت . وفجأة أمكن سماع صوت الأزيز المترامى من المدخل . مما لاشك فيه أن الأمير قادم لكى يوقظ الجمال بأن يطبع قبلة عليه . إنه متأخر ذلك الشخص المسكين «لقد جئت وأنا أشعر بالمرح الشديد وغادرت وأنا فى حالة يأس . لقد قدمت لى الليدى وعدها ثم تخلّت عنى وأبعدتنى » هذه أغنية أطفال مصاغة على شكل حكاية شعرية قد أنقذت من أعماق الذاكرة . الأطفال المغلفون فى الضباب يلعبون فى قاع حديقة شتوية ويتغنون بأصوات عالية حزينة ويتحركون للأمام وللخلف فى خطوات وقورة ويتدربون على رقصة قديمة لأن الاطفال الموتى سوف ينضمون بمجرد أن يكبروا ويشبوا عن الطوق . ويدفع ريكاردو ريس البطانية ويؤنب نفسه بسبب انخراطه فى النوم بدون أن يستبدل ملابسه أولا . لقد حرص دائما على مراعاة قواعد السلوك المتحضر . ونهض من الكرسى وذهب لكى يوقد الضوء كأن الصباح قد جاء وكأنه يستيقظ من حلم ليلى ثم ينظر لنفسه فى المرآة ويربّت على وجهه . كان عليه أن يحلق ذقنه قبل العشاء أو على الأقل كان عليه أن يغيّر ملابسه . لاينبغى عليه الذهاب لتناول العشاء وقد تكرمشت ملابسه . ليس بحاجة لأن تهتم لم يلاحظ له كيف أن المقيمين الآخرين بالفندق يرتدون ملابس فى غير عناية حيث تكون ستراتهم مثل الاكياس الفضفاضة وتكون بنطلوناتهم منتفخة عند الركبة ويكون رباط العنق ثابتا على عقدة دائمة وتكون قمصانهم مكرمشة وقديمة . ويقرر عدم القيام بحلاقة ذقنه ثم يرتدى قميصا نظيفا ويختار رابطة عنق تتماشى مع لون الحلة ثم يمشّط شعره

فى المرآة ويفرق شعره فى عناية . وعلى الرغم من أن الوقت المناسب للعشاء لم يحن بعد فإنه يقرر النزول الى صالة الطعام ولكن قبل أن يغادر غرفته وبدون أن يلمس قصاصة الورق يلقى نظرة أخرى على الكلمات التى كتبها ويبدو عليه نفاد صبر معين كأنه عثر على رسالة تركها له شخص ما لا يشعر نحوه بالارتياح أو شخص ضايقه كثيرا ذات مرة . ريكاردو ريس هذا ليس شاعرا وانما هو بكل بساطة ضيف فى فندق يتأهب لمغادرة غرفته ويكتشف وجود قصاصة ورق كتب عليها مقطع شعرى ونصف مقطع . تُرى من الذى ترك تلك القصاصة هنا . من المؤكد أن الذى ترك هذه القصاصة ليست الخادمة ليست ليديا هذه أو أية ليديا أخرى . ياله من شيء مثير للغضب . انه لا يخطر على بال الناس أبدا أن الشخص الذى ينهى شيئا ما لايكون أبدا هو الشخص الذى ابتدأ ذلك الشيء حتى ولو كان كلاهما يحملان نفس الاسم لان الاسم هو الشيء الوحيد الذى يظل ثابتا ومستمرا ودائما .

كان المدير سلفادور فى موقعه ثابتا بينما ابتسامته الدائمة تشع فى ابتهاج . فألقى ريكاردو ريس التحية عليه وواصل المسير ولكن سلفادور سار وراءه حيث كان يرغب فى معرفة ما اذا كان الدكتور يرغب فى تناول مشروب كفاتح للشهية قبل أن يتناول طعام العشاء .

لا شكرا جزيلا . فهذه عادة لم يكتسبها ريكاردو ريس فتلكأ سلفادور للحظات عند المدخل ليرى ما إذا كان الضيف قد يغيّر رأيه أو يطلب أى شيء آخر ولكن ريكاردو كان قد فتح بالفعل احدى الجرائد . لقد أمضى ذلك اليوم بأكمله وهو على غير علم بما يجرى من أحداث فى العالم . ولا كان هو قارئا مواظبا على القراءة بطبيعته . فعلى العكس . اذ كان يجد تلك الصفحات الكبيرة وتلك المقالات المطوّلة مثيرة للملل ولكنه هنا لم يجد شيئا أفضل من ذلك يمكن أن يفعله وجعل من تلك الجريدة درعا يحميه من سلفادور ومن العالم المتسم بالمزيد من التعدّى على الآخرين . الأخبار المتعلقة بالعالم البعيد يمكن أن تقرأ من حيث هى رسائل

إخبارية غير مهمة . لقد استقالت الحكومة الأسبانية وصدر قرار بحلّ البرلمان وفقا لما جاء في أحد المانشتات .

والنجاشى امبراطور الحبشة أرسل برقية لعصبة الأمم يدّعى فيها أن الايطاليين يستخدمون الغازات الخانقة .

تتناول الصحف كلها كل ما حدث بالفعل وتجيء الأخبار دائما متأخرة بحيث لايكون هناك متسع من الوقت لاصلاح الأخطاء ومنع حدوث الكوارث . فالجريدة الجديرة بالاحترام كان عليها أن تقول لك فى أول يناير ١٩١٤ أن الحرب سوف تندلع فى يوم ٢٤ يوليو أى أمامنا سبعة شهور تكفى تجنيب العالم ويلات الحرب. وربما يكون ذلك مساحة كافية من الوقت . بل ومن الأمور المفضلة أن تُنشر قائمة بأسماء الذين على وشك الانتقال الى رحمة الله ملايين الرجال والنساء يقرأون لدى تناولهم قهوة الصباح الاعلان عن موتاهم وبحيث تطبع أسماؤهم بالكامل وبجوارها المكان والوقت الذى تتم فيه الوفاة . وعندئذ ما الذى سيفعله الناس وما الذى كان سيفعله فرناندو بسوا لو قرأ خبر وفاته قبل أن يموت بشهرين : مؤلف قصيدة المنساجم Mensagem سوف يموت فى ١٣ نوفمبر القادم بسبب اصابته بالتهاب الكبد .

عندئذ ربما كان سيلجأ لاستشارة طبيب علاوة عن التوقف عن تناول الخمور أو ربما كان سيلجأ الى مضاعفة تناوله للخمور لكى يموت بسرعة . ويخفض ريكاردو ريس الجريدة كى يتمكن من النظر الى نفسه فى المرآة . وهو انعكاس يخدع مرتين لأنه يبيّن مسافة عميقة ولأنه يبيّن أن المسافة هى مجرد سطح حيث لايحدث فيه أي شيء بالفعل ولا شيء سوى الوهم الخارجي والصامت لأشخاص وأشياء . شجرة مدلية على بحيرة ووجه يسعى لمشاهدة ذاته وجه غير مشوش وغير متغيّر بل وغير ملموس من جانب صور الأشجار والبحيرة والوجه . المرآة هذه المرآة وجميع أنواع المرايا الأخرى تكون مستقلة عن الانسان . قبلها نحن مثل المجندين الذاهبين الى حرب عام ١٩١٤ وبعد أن يحجب ريكاردو ريس بزيه

الرسمي المنعكس في المرآة فإنه يشاهد شيئا ما أكثر من ذاته دون أن يعرف أنه لن يشاهد نفسه في هذه المرآة مرة أخرى .

نحن الغرور التافه ولا نستطيع أن نتحمل ونصمد ولكن المرآة تصمد لأنها ترفضنا ويحول ريكاردو ريس عينيه ويغيّر موضعه ويترك المكان . انه الجانب الذي يرفض ويدير ظهره للمرآة . ربما يكون هو عندئذ بمثابة مرآة .

ساعة الحائط الموجودة على بسطة السلم تدقّ معلنة الساعة الثامنة . وما أن تلاشى آخر صدى حتى دقّ الجرس القرصي غير المرئى فى نغمات مكتومة .

لايمكن سماعه الا فى مكان قريب . ومن المؤكد أن الضيوف الموجودين بالأدوار العليا لايستطيعون سماعه . يطوى ريكاردو ريس الجريدة ويذهب الى غرفته لكي يغسل يديه ويهندم نفسه . ويعود على الفور ويجلس الى نفس المنضدة التى سبق أن جلس اليها فى اليوم السابق وينتظر . أى شخص يرقبه ويلاحظ خطواته السريعة سيعتقد أنه اما أن يشعر بالجوع الشديد أو أنه فى عجلة من أمره أو أنه تناول كمية ضئيلة للغاية أثناء تناول طعام الغذاء مبكرا وإما أنه اشترى تذكرة من أجل الذهاب الى المسرح . لكننا نعرف أن الوضع بعكس ذلك فهو لم يتناول طعام الغذاء فى فترة مبكرة كما نعرف أنه ليس بصدد الذهاب للسينما أو المسرح .

وفى طقس كهذا آخذ فى الازدياد سوءا لايمكن للمرء التفكير فى الذهاب للنزهة اللهم إلا اذا كان أحمق أو غريب الأطوار . اذن فما هو السبب في التسرع الفجائى اذا كان الناس بصدد الوصول الى الصالة من أجل العشاء : الرجل النحيل المرتدى زىّ الحداد والرجل الممتلىء وأولئك الآخرون الذين لم أشاهدهم فى الليلة الماضية . الطفلان الصامتان وأبواهما غير متوجودين . بالنسبة للغد لن أدخل صالة الطعام قبل الثامنة والنصف . تناول الحساء فى بطء ثم راح يتلاعب فى السمكة الموجودة فى طبقه حيث لم يشعر بأىّ قدر من الجوع . وبينما كان الجرسون يقدم طبق الطعام الرئيسى أرشد الميتر دى أوتيل ثلاثة رجال الى المنضدة التى كانت تشغلها فى الليلة السابقة الفتاة ذات اليد «المشلولة» ووالدها

اذن فهى لن تجىء قال لنفسه : لقد غادرا الفندق أو ربما كانا يتناولان طعام العشاء بالخارج . واعترف لنفسه بأنه نزل مبكرا من أجل مشاهدة الفتاة ذى اليد المشلولة التى كانت تربّت عليها وكأنها كلب صغير موجود فى حجرها . وتوقف عن استكمال طعام العشاء وطلب قهوة وبراندى يمكنه أن ينتظر فى الصالون كوسيلة لاستهلاك الوقت إلى أن يتمكن من سؤال المدير سلفادور عن الفتاة ووالدها . ذلك الأب والفتاة أظن أننى شاهدتهما من قبل فى مكان ما آخر ربما فى ريو دى جانيرو وليس فى البرتغال بكل تأكيد لأنه من الواضح أن الفتاة كانت مجرد طفلة منذ ١٦ عاما إن ريكاردو ريس يلف ويدور من أجل أن يعرف من المدير معلومات عنها. فى تلك الفترة كان سلفادور يعتنى بتلبية مطالب ضيوف آخرين من بينهم ضيف سيغادر فى الصباح الباكر ويرغب فى سداد الفاتورة الخاصة به وآخر يشتكى من أنه لايستطيع النوم وسلفادور يتعامل مع جميع الضيوف فى براعة ولباقة وعناية زائدة بأسنانه غير الملونة وبشاربه الناعم . جاء الرجل النحيل المرتدى ثياب الحداد إلى الصالون لكى يطلع على شئ ما فى جريدة ثم غادر المكان على الفور وظهر الرجل الممتلئ عند الباب وهم يقضم عود خلال الأسنان ثم تردد عندما فوجئ بحملقة من ريكاردو ريس وانسحب على وجه السرعة بينما كتفاه يتهدلان بسبب نقصان الشجاعة.

وبعد مرور نصف ساعة أصبح سلفادور المتميز بدماثة الأخلاق وعذوبة المعاشرة قادراً على إخباره لا من المؤكد . أنك قد اختلط عليك الأمر لأنهما – بقدر ما أعرف – لم يقوما بزيارة البرازيل وهما يجيئان إلى هنا بشكل منتظم على مدى السنوات الثلاث الأخيرة وكثيرا ما قمنا بالدردشة سويا ولو كانا قد ذهبا إلى البرازيل لكانا قد حدثانى عن مثل هذه الرحلة.. آه إذن لقد اختلط علىّ الأمر.

ولكنك تقول أنهما قد ظلا يجيئان إلى هنا على مدى السنوات الثلاث الأخيرة.

هذا صحيح فهما من كوامبرا وهما يعيشان هناك والأب هو الدكتور سمبيو وهو

محامي وما اسم الفتاة؟ إسمها غير عادى فهى تسمى مرسيندا هل تصدق ذلك انهما ينتميان لأسرة أرستقراطية ماتت الأم منذ بضع سنوات . وماهى طبيعة تلك المتاعب الموجودة فى يدها أعتقد أن ذراعها كله مصاب بالشلل وذلك هو السبب فى أنهما يجيئان ليقيما بالفندق لمدة ثلاثة أيام شهريا حتى يمكن فحصها بمعرفة أخصائى آه ثلاثة أيام شهريا نعم ثلاثة أيام شهريا ودائما ما يخطرنى الدكتور سامبيو مقدماً لكى أحجز له نفس الغرفتين . وهل حدث أى تحسن خلال السنوات الثلاث إذا كنت تريد رأيى الصريح يا دكتور أقول لك أننى أعتقد أنه لم يحدث تحسن انه أمر يدعو للأسف فالفتاة صغيرة فى السن هذا صحيح يا دكتور ربما تقوم أنت بتقديم بعض النصائح فى المرة القادمة اذا كنت مازلت موجودا هنا من المحتمل جداً أن أكون هنا ولكننى على أيه حال لست متخصصا فى هذا المجال فأنا أمارس الطب العام ولقد قمت ببعض البحوث المتعلقة بالأمراض الاستوائية ولكن هذا غير مفيد بالنسبة للحالة التى تعانى منها. لايهم ولكن من الصحيح تماما أن النقود لاتجلب السعادة فالأب بالغ الثراء بينما الابنة معوقة ولا أحد شاهدها تبتسم أبداً . أقلت لى أن أسمها مارسيندا نعم يا سيدى انه اسم عجيب لم يصادفنى اسم كهذا من قبل . ولا أنا تصبح على خير يا سلفادور تصبح على خير يا دكتور.

وعندما دخل ريكاردو ريس إلى حجرته لاحظ أن السرير قد تم ترتيبه وأن المفرش والملاية قد رفع طرفهما فى زاوية . يوجد هنا مجرد إيحاء بأنه اذا كان يرغب فى الاستلقاء فان سريره جاهز لا ليس الآن ينبغى عليه أولا أن يقرأ بيت الشعر ونصف البيت الذى تركهما على قصاصة من الورق ويتفحصهما فى دقة ويبحث عن الباب الذى يمكن أن يفتحه هذا المفتاح اذا كان هذا بمثابة مفتاح ويتفحص أبوابا أخرى أبوابا مغلقة وبدون مفتاح وفى النهاية وبعد الكثير من الاصرار عثر على شئ ما كان قد ترك هناك بسبب الاعياء انه شئ يخص شخصا آخر ولكن من هو ذلك الشخص وبذلك انتهت القصيدة «ليس هادئا ولا

مضطربا ارغب في رفع كياني لأعلى فوق هذا المكان حيث يعرف الناس المتعة والألم» التوقف الموجود في المنتصف أو السبوندية Spondee (*) ينبغي تغييرها.

الحظ السعيد هو عبء يدخل الحزن على الرجل السعيد لأن الأمر ليس سوى حالة ذهنية معينة وبعدئذ ذهب إلى السرير واستغرق في النوم على الفور.

(٣)

كان ريكاردو ريس قد قال للمدير أود أن يتم احضار طعام الافطار إلى غرفتي في التاسعة والنصف ولم يكن يهدف إلى النوم لساعة متأخرة وإنما كان يرغب في ألا يكون في عجلة من أمره وهو متجه لفتح الباب للفتاة التي تحمل صينية كبيرة عليها القهوة واللبن والتوست ووعاء السكر وكعكة وبسكويت وسرعان ما سنعرف ما إذا كان فندق البراجانسيا يقدم مثل هذا الكرم لأن ريكاردو ريس على وشك أن يختبر أول طعام افطار يقدم له.

ووعده سلفادور بأن الافطار سيصل اليه مع دقات الساعة التي تعلن التاسعة والنصف . وهاهي ليديا تطرق بالفعل على الباب في التاسعة والنصف وتنادي «إفطارك يادكتور» تنفيذا للتعليمات الصادرة اليها وهي على الرغم من أنها نشأت في بيئة متواضعة فانها لم تنس التعليمات التي صدرت اليها ولو لم تعمل ليديا في وظيفة خادمة لكانت قد أصبحت فتاة تلعب على حبل البهلوان أو مشعوذة أو ساحرة لأن لها مواهب تتماشى مع تلك المهن وكان ريكاردو ريس قد ارتدى ملابسه بالفعل وأصبح حسن الطلعة قد حلق ذقنه وقام بفتح النافذة قليلا من أجل تهوية الغرفة من الأشياء التي لايستثني منها أي أناس حتى ولو كانوا من

(*) تفعيلة ذات مقطعين طويلين – المترجم .

الشعراء. وأخيرا دخلت الفتاة صباح الخير يا دكتور وتقدمت لكى تضع الصينية التى كانت محتوياتها أقل بذخاً مما كان يتخيل ومع ذلك فان فندق البراجانسيا يستحق كل الثناء والتقدير ولا عجب فى أن بعض ضيوفه لايفكرون أبداً فى النزول فى أى فندق آخر لدى مجيئهم إلى لشبونه ويرد ريكاردو ريس التحية ويأمرها بالانصراف أتريد أى شئ آخر ياسيدى لا شكراً جزيلاً فذلك هو كل ما أريده واذا كانت الاجابة هى لا فعليها أن تنسحب فى أدب مع التراجع بظهرها إلى الوراء اذا كان ذلك ممكنا لأن ادارة الظهر للزبون ينطوى على عدم إحترام للشخص الذى يتسبب فى دفع الأجور لك . ولكن ليديا التى صدرت لها التعليمات بالاهتمام بصفة خاصة بمطالب الدكتور قالت لا أعرف ما إذا كنت قد لاحظت يا دكتور أن الكابيه دو سودريه به مياه كثيرة . ونظر ريكاردو ريس من النافذة ورأى أشياء مثيرة للضحك وتجرأت ليديا ونظرت هى الأخرى من النافذة ووقفت خلف ريكاردو ريس وانخرطت فى الضحك كما لو كانت نداً له لأن المنظر كان مثيرا للضحك بالفعل هذه لحظات سريعة الزوال من العصر الذهبى تولد فجأة وتموت فجأة مما يفسر السبب فى أن السعادة سرعان ما يتسلل اليها الملل . لقد مرت اللحظة بالفعل ثم أغلق ريكاردو ريس النافذة وعادت ليديا الى وضعها الاجتماعى السابق من حيث هى مجرد خادمة ثم تتراجع نحو الباب كل شئ ينبغى أن يتم بسرعة الآن لأن شرائح التوست بدأت تبرد ولم تعد تبدو فاتحة للشهية . لسوف أدق الجرس لكى تجيئى وتأخذى الصينية ويحدث هذا بالفعل بعد مرور نصف ساعة فتدخل ليديا فى هدوء وتنسحب فى هدوء وقد أصبح الحمل أخف من ذى قبل بينما ريكاردو ريس يتظاهر بالانشغال لدى جلوسه فى حجرته متصفحا أوراق كتاب «اله المتاهة» بدون أن يقرأ بالفعل .

اليوم هو آخر يوم فى السنة وفى جميع أرجاء العالم بالأماكن الذى يراعى فيه هذا التقويم يسلى الناس أنفسهم من خلال التفكير مليا فى القرارات التى ينوون

وضعها موضع التنفيذ خلال السنة القادمة . وهم يحلفون بأنهم سيتسمون بالأمانة والعدالة والتذرع بالصبر وأنهم سيكفون عن النطق بكلمات الاساءة أو الخداع أو الحقد أو الخبث مهما استحق أعداؤهم ذلك . من الواضح أننا نتحدث عن جماهير الناس أما الآخرون وغير العاديين فلديهم أسبابهم الوجيهة لأن يفعلوا العكس من ذلك كلما كان ذلك يتلاءم معهم أو يعود عليهم بالمزيد من الأرباح فهم لايسمحون لأنفسهم بأن يخدعوا ويسخرون منا ومن نوايانا الحسنة وفى النهاية نعرف من خلال التجربة أنه ما أن يهل شهر يناير حتى ننسى نصف الوعود التى أخذناها على أنفسنا وبعدئذ لا يوجد سوى جدوى ضئيلة فى محاولة تنفيذ الباقى الأمر أشبه ما يكون بقلعة مصنوعة من الورق المقوى حيث يكون من الأفضل. عدم وجود الجزء العلوى بدلاً من انهيار القلعة كلها واختلاط المجموعات الأربعة وهذا هو السبب فى أنه من المشكوك فيه ما اذا كان السيد المسيح قد فارق الحياة مع قول الكلمات التى نعثر عليها فى الكتب المقدسة حيث ورد فى انجيل متى ومرقص : يا إلهى ياإلهى لماذا تركتنى بينما ورد فى انجيل لوقا «يا أبى أننى أسلم روحى بين يديك» فى حين جاء فى انجيل يوحنا : لقد قضى الأمر وما قاله السيد المسيح بالفعل وفقا لما يقوله لك أى رجل فى الشارع : وداعا أيها العالم أنت تسير من سيئ إلى أسوأ إلا أن آلهة ريكاردو ريس هى كيانات صامتة تطل علينا من علٍ فى لامبالاة ، وكلمتا الخير والشر بالنسبة لها لم تصلا إلى درجة الكلمات لأنها لم تنطق بها أبداً ولماذا ينبغى عليها أن تنطق بها وهى لاتستطيع معرفة الفارق بينها وهذه الآلهة تجوب مثلنا فى نهر الأشياء وهى تختلف عنا لسبب واحد وهو أننا نطلق عليها اسم: الآلهة وأحيانا نؤمن بها . ونحن قد علمنا هذا الدرس لكى لا نتعب أنفسنا ونتخذ قرارات جديدة وأفضل من أجل السنة القادمة . بل إن الآلهة لا تصدر أحكاما ولا تعرف كل شئ وربما تكون الحقيقة المطلقة هى أنها لاتعرف أى شئ على الاطلاق ومهمتها الوحيدة هى أن تنسى فى

كل لحظة الخير والشر على حد سواء . ولا داعي لأن نقول : سأفعل ذلك الأمر غداً لأنه من المؤكد أن الغد سوف يشعر بالارهاق.

وبدلاً من ذلك ينبغي أن نقول: سأفعل ذلك بعد غد وذلك لكي يكون لدينا دائما يوم احتياطي بحيث يمكننا أن نغير رأينا ونتخذ قرارات جديدة بل وربما يكون من الحكمة أكثر أن نقول : ذات يوم سأفعل كذا وكذا بل ولا داعي لأن نقول ذلك أيضا لأن الموت الحتمي يجيئ أولاً ويحررنا من الالتزام لأن الالتزام هو أسوأ شئ في العالم لأننا بذلك نحرم أنفسنا من الحرية.

لقد توقف المطر وأصبحت السماء صافية ويمكن لريكاردو ريس أن يخرج للنزهة قبل الغذاء بدون أن يتعرض لمخاطر تبلل ملابسه بالماء . ويقرر تجنب الأماكن المنخفضة بالمدينة لأن المياه لم تنحسر تماما في كيس دو سودريه فأحجارها المرصوفة مغطاة بالطين الكريه الرائحة الذي رفعه تيار النهر من طبقات الطمي العميقة اللزجة اذا استمر الطقس على هذا النحو سيجيئ العمال التابعون لمصلحة النظافة ومعهم خراطيم المياه . المياه قد لوثت والمياه سوف تنظف بارك الله في الماء.

ويسير ريكاردو ريس في شارع الكريم وما أن غادر فندقه حتى توقف عند أثر تاريخي ينتمي لعصر آخر ربما كان عاصمة كورينثيه أو محراب خاص أو شاهد ضريح جنائزي مثل هذه الأشياء اذا كانت لاتزال في لشبونة فانها تكون مخبأة تحت التربة التي أزيلت عندما تمت تسوية الأرض أو من خلال أسباب طبيعية أخرى . هذا ليس سوى بلاطة حجرية مستطيلة الشكل منطمرة في داخل حائط منخفضة تواجه شارع نوفا دو كارفيلهو وعليها النقوش التالية بخط زخرفي «عيادة للعيون والجراحة» أسسها أ. ماسكارو في عام ١٨٧٠ » الأحجار لها عمر زمني طويل.

فنحن لم نشهد مولدها ولن نرى موتها إذ انقضت أعوام طويلة عديدة على هذا الحجر ولسوف يمر عليه المزيد من الأعوام في حين أن ماسكارو قد مات وأغلقت

عيادته وربما يمكن تتبع سلالة المؤسس الذين يحترفون مهناً مختلفة ويتجاهلون أو لايعرفون أن رمز أسرتهم معروض في هذا المكان العمومي . لو لم تكن العائلات متقلبة للغاية لكان أفراد هذه العائلة قد تجمعوا في هذا المكان من أجل أحياء ذكرى جدهم الأكبر الذي كان يعالج العيون وغير ذلك من الأمراض الأخرى . صحيح أنه لا يكفي حفر الاسم على حجر فالحجر يظل باقيا أيها السادة في حالة من الصيانة والأمان ولكن الاسم يتعرض للنسيان ويتوقف عن الوجود اللهم الا اذا جاء ناس لكي يقرءوه كل يوم هذه التناقضات تطوف بذهن ريكاردو ريس أثناء سيره في شارع الكريم بينما جداول مائية صغيرة مازالت تعبر خطوط الترام . العالم لايستطيع الالتزام بالهدوء فالرياح تهب والسحب تحلق في السماء ولا تسمح لنا بالتكلم عن المطر فقد شهد العالم ما فيه الكفاية من المطر.

ويواصل ريكاردو ريس سيره في الشارع بدون تسرع وقد استخدم مظلته المغلقة كعصاة يتوكأ عليها . ويقرع بمظلته على بلاطات الطريق أثناء سيره في ايقاع يتوافق مع خطواته وكان الصوت محدداً وواضحاً وحاداً لا يوجد صدى للصوت ولكن التأثير يكاد يكون رخيماً واذا لم تكن كلمة رخيم متسمة بالسخافة فدعونا نقول أن التأثير كان رخيما لأن الصوت بدا بالفعل رخيما لدى وقوع طرف المظلة على الحجر الجيري إنه استغرق في هذه الأفكار الصبيانية . وعلى نحو فجائي يصبح مدركا لوقع أقدامه ذاتها كما لو أنه منذ أن ترك لم يتقابل مع أي شخص في الشارع انه سيقسم على ذلك اذا استدعي لكي يدلي بشهادته عندئذ سيقول أنه لم يشاهد أي شخص أثناء سيره كيف يكون ذلك ممكنا أيها الرجل الطيب في مدينة لا يمكن أن تعتبر صغيرة وأين اختفى جميع الناس.

وهو يعرف بالطبع أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحا فمن المؤكد أنه مر بجوار عدد قليل من الناس على طول الطريق والآن ورغم الهدوء الشديد في هذا الشارع فانه توجد مجموعات من الناس حيث يتجهون نحو سفح التل انهم أناس فقراء بل

وبعضهم يكاد يكون من الشحاذين عائلات بأكملها بينما العجائز منهم يسيرون في الخلف ويجرون أقدامهم فى قلوب غائرة وتقوم الأمهات بجذب أطفالهم وهن يصحن : اسرعوا وإلا سيكون كل شئ قد انتهى . والذى انتهى هو السلام والهدوء اذ لم يعد الشارع متسما بالهدوء أما الرجال فهم يحاولون اتخاذ التعبير الصارم الذى يتوقعه المرء من رب الأسرة فهم يسيرون وفق الايقاع الخاص بهم مثل شخص ما لديه هدف آخر أمامه ثم تختفى هذه العائلات كلها مرة واحدة وعند ناصية الشارع التالى يوجد منزل مهيب وفخم به فناء مليئ بأشجار النخيل ولم تفقد ملامحه المنتمية للعصور الوسطى شيئا من سحرها وجمالها . ويفاجأ ريكاردو ريس بكثافة سكانية هائلة محتشدة فى عرض الشارع ومتحلية بالصبر ومائجة بالقلق فى نفس الوقت بينما رءوسهم تهتز مثل تلاعب الامواج ومثل حقل قمح يتمايل مع النسيم فيقترب منهم ريكاردو ريس ويطلب منهم افساح الطريق لكى يتمكن من المرور فتصدر عن الشخص الواقف أمامه حركة تدل على الرفض ثم يلتفت اليه ويكون على وشك أن يقول : لو كنت فى عجلة من أمرك كان عليك أن تجيئ إلى هنا فى وقت مبكر ولكن بصره يقع على جنتلمان أنيق لا يرتدى بيريه أو قلنسوة ويرتدى معطف مطر وقميصا أبيض اللون ورباط عنق ذلك هو كل ما يحتاج اليه لاقناع الرجل باتخاذ خطوة على جانب . ويبدأ ريكاردو ريس فى العبور ولكن العبور استغرق بعض الوقت لأن الجمهور يشغل مساحة شاسعة . علاوة على أنه كلما اقترب من الجزء المركزى يصبح من الصعب عليه أكثر اقناع الناس بأن يدعوه يمر ليس بسبب سوء نية فجائى ولكن لأن أحدا لا يستطيع أن يتحرك فى هذا الحشر ويسائل ريكاردو نفسه : ماهذا الذى يحدث ولكنه لايجرؤ على توجيه السؤال بصوت مرتفع حيث أدرك أنه طالما أن حشدا هائلا من الناس قد تجمع من أجل هدف معين معروف للجميع فإنه يكون من الخطأ وعدم الكياسة أن يظهر جهله من خلال التساؤل .

بل وربما يشعر الناس بالاساءة اذ كيف يمكننا أن نكون واثقين من مشاعر الآخرين بينما نحن غالبا ما نندهش من مشاعرنا. لقد قطع ريكاردو ريس نصف المسافة في هذا الشارع وأصبح واقفا أمام مدخل هذا المبنى الكبير الذى تشغله جريدة أوه سكيولو وهي أكبر جريدة تصدر فى البلاد والجمهور أقل كثافة فى الهلال الذى يواجه المبنى . والآن فقط يدرك ريكاردو ريس أنه كان يكتم أنفاسه لكي يتفادى الرائحة الكريهة المنبعثة عن البصل المحروق والثوم والعرق والملابس التي نادرا ما يتم تغييرها والأجساد التى لاتغسل أبداً اللهم الا فى حالة الذهاب للفحص بمعرفة الطبيب أعضاء الشم الشديدة الحساسية ستجد هذه الرحلة بمثابة محنة قاسية . يتمركز اثنان من رجال الشرطة عند المدخل بجوار بعضهما البعض . ريكاردو ريس على وشك أن يسأل أحدهما : ما هذا الحشد أيها الضابط؟ عندما يخبره مندوب القانون والنظام فى احترام حيث يمكن للمرء أن يدرك من خلال لحظة واحدة أن هذا الجنتلمان الذى يرغب فى التساؤل قد وجد هنا بطريقة الصدفة انه يوم الاحسان الذى تنظمه جريدة أوه سكيولو ولكن أيمكن أن يوجد مثل هذا الحشد الهائل نعم ياسيدى وهم يعتقدون أن عددهم يزيد على ألف شخص هنا وهل هؤلاء الناس جميعا من الفقراء.

نعم ياسيدى كلهم فقراء قادمون من الشوارع الخلفية والأحياء الفقيرة وعددهم كبير للغاية نعم ياسيدى فهم جميعا غير موجودين هنا بالطبع ولكن كل هؤلاء الناس قد تجمعوا لكي يحصلوا على الصدقات انه منظر مزعج للغاية هذا المنظر لايزعجنى ياسيدى فأنا معتاد عليه . وما هى الأشياء التى يحصلون عليها كل فقير يحصل على عشرة سكود عشرة اسكود . بالتمام والكمال والأطفال يتم اعطاؤهم ملابس ولعب أطفال وكتب . من أجل مساعدتهم على التعلم . نعم ياسيدى من أجل المساعدة في تعليمهم هذا صحيح بعضهم يمضى السنة كلها فى انتظار توزيع الصدقات هذه وغيرها من الصدقات الأخرى التى توزع فى

مواقع مختلفة بل وهناك فقراء يمضون كل الوقت فى الجرى من مكان لآخر يتم فيه توزيع الصدقات حيث يسعون للاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الصدقات ، والمشكلة تبدأ عندما يذهبون إلى أماكن وأحياء غير معروفين بها حيث يطاردهم الفقراء التابعون لكل حى انه مصدر للرزق متسم بالحزن . ربما يكون الامر كذلك ياسيدى ولكن بخلاف ذلك يتعذر السيطرة عليهم.

أشكرك على تزويدك لى بهذه المعلومات أيها الضابط.

أنا فى خدمتك ياسيدى يمكنك المرور من هذه الناحية ياسيدى وما أن انتهى رجل الشرطة من قول هذه الكلمات حتى اتخذ ثلاث خطوات للأمام وقد نشر ذراعيه مثل شخص ما يوجه الدواجن والكتاكيت نحو عشة الفراخ ، والآن تحركوا فى هدوء إلى الأمام اللهم الا اذا كنتم تريدون مشاهدتى وأنا أستل سيفى الصغير ومع هذه التوجيهات المقنعة يتحرك الجمهور للأمام وتحتج النساء كالمعتاد ويتصرف الرجال كما لو أنهم لم يسمعوا أى شئ بينما يفكر الأطفال فى اللعب التى سيحصلون عليها ربما تكون سيارة صغيرة وربما دراجة ثلاثية العجلات وربما دميه مصنوعة من مادة السليوليد. وصعد ريكاردو ريس منحدرا حيث يمكنه من هناك أن يلقى نظرة شاملة ويحيث يقدر حجم الجماهير أنهم أكثر من ألف شخص لقد كان رجل الشرطة على حق فى تقديراته . انها دولة زودها الله تماما بالفقراء دعونا نتوسل لله لكى لا يذهب هذا الاحسان ويستمر فى الوصول إلى هؤلاء الرعاع المرتدين الشيلان والمناديل والقمصان المليئة بالرقع والبنطلونات القطنية الرخيصة التى لها حجر مرقع بقماش من نوع مختلف والذين يرتدى بعضهم الصنادل بينما الكثير منهم عارى القدمين . وعلى الرغم من الألوان العديدة المختلفة فانهم يبدون جميعا بمثابة لطخة داكنة اللون وبمثابة طين أسود كريه الرائحة مثل الطين الموجود فى كيس دو سودريه انهم ينتظرون ولسوف يستمرون فى الانتظار إلى أن يجيئ الدور عليهم – لساعات وساعات واقفين على

أقدامهم وبعضهم ينتظر منذ الفجر بينما الأمهات ممسكات بأطفالهن بين أذرعهن مع إرضاع الأطفال المولودين حديثا في حين يتحدث الآباء مع بعضهم البعض فى موضوعات تهم الرجال بينما العجائز ملتزمون بالصمت والاكتئاب وترتعش سيقانهم ويسيل اللعاب من أفواههم واليوم الذى يتم فيه توزيع الصدقات هو اليوم الوحيد الذى لاتتمنى فيه عائلاتهم الموت لهم لأن ذلك يعنى الحصول على كميات من الاسكود أقل من ذى قبل . كما يوجد عدد كبير من المصابين بالحمى المنخرطين في السعال والذين يمررون فيما بينهم زجاجات قليلة من الخمور لكي يساعدهم ذلك على تمضية الوقت وابعاد البرد واذا تساقطت الأمطار مرة أخرى فان ملابسهم سوف تبتل لأنه لايوجد هناك ستر وقائي يحميهم من الأمطار.

لقد مرت الساعات بسرعة أثناء هذا التجول سيراً على الأقدام وحان الوقت لتناول طعام الغذاء ولم يخل شارع دو سيكولو من الفقراء الا مع غروب الشمس كان ريكاردو ريس قد تناول طعام الغذاء في تلك الأثناء واستعرض الكتب المعروضة في اثنين من محلات بيع الكتب ثم تلكأ عند باب سينما تيفولى وراح يسائل نفسه فيما اذا كان يرغب في مشاهدة فيلم «أحب جميع النساء» أم لا وهو فيلم من تمثيل جان كيبورا ثم قرر مشاهدة ذلك الفيلم في وقت آخر والعودة إلى الفندق مستقلا تاكسيا حيث كان يشعر بمتاعب في ساقيه بعد كل هذا السير على الأقدام.

وعندما بدأ المطر يتساقط مرة أخرى رجع إلى الوراء ودخل في مقهى وراح يقرأ الجرائد المسائية ووافق على أن يتم تنظيف وتلميع حذائه رغم أنه لاجدوى من وراء تلميع حذاء في شوارع كهذه ولكن ماسح الأحذية أكد له أن أوقية من الوقاية أفضل من رطل من العلاج فالحذاء عندما يتم تلميعه فانه يطرد الأمطار ياسيدى .

وكان الرجل على صواب لأن ريكاردو ريس عندما خلع حذاءه في غرفته كانت

قدماه دافئتين وجافتين . ولكي يحافظ الانسان على صحته ينبغي أن تكون قدماه دافئتين ويكون رأسه بارداً . والجامعات ربما لا تعترف بهذه الحكمة التى ترتكز على التجربة لكن المرء لن يخسر شيئا من خلال الالتزام بهذه الوصية . الفندق متسم بالهدوء الشديد ولا يوجد طرق على الأبواب ولا أصوات آدميين كما أن جهاز الطنان الشبيه بالجرس الكهربائى صامت ، وسلفادور غير موجود في مكتب الاستقبال وهو أمر غير عادى كما أن بيمنتا الذى ذهب للبحث عن المفتاح راح يتحرك في خفة مثل شبح صغير السن . من الواضح أنه لم يضطر لحمل أية أمتعة أو حقائب منذ الصباح الباكر وذلك من حسن حظه . وعندما نزل ريكاردو ريس إلى المطعم لكى يتناول العشاء كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء فوجد المطعم شاغرا على النحو الذى كان يتوقعه ويريده . وكان الجرسونات يثرثرون ويتجاذبون أطراف الحديث فى أحد أركان المطعم ولكن عندما بزغ سلفادور راح العمال يتظاهرون بعمل أى شيء لأن ذلك هو ماينبغى علينا أن نفعله دائما عندما يظهر أمامنا رئيسنا المباشر فجأة ، ويكفى – على سبيل المثال – أن ننقل ثقلنا إلى الساق اليمنى إذا كنا نرتكز من قبل على الساق اليسرى فذلك هو المطلوب بل وأحيانا يكون المطلوب أقل من ذلك ، تساءل الضيف فى تردد . هل ستقدمون وجبة العشاء ، ولكن بالطبع فهم كانوا موجودين من أجل ذلك . قال سلفادور للدكتور الطبيب أنهم فى عيد رأس السنة الجديدة يكون لديهم عدد قليل من الزبائن وهذا العدد القليل عادة ما يتناول العشاء بالخارج . وذات يوم كان الفندق معتادا على الاحتفال بالسنة الجديدة ولكن أصحاب الفندق اكتشفوا أن الأمر باهظ التكاليف وتم الغاء الإحتفالات لأنها تتضمن أعمالا إضافية كثيرة ناهيك عن التدمير الناجم عن المرح الصاخب الذى يمارسه الضيوف وأنت تعرف كيف تحدث الأمور إذ يتناول الضيوف الكثير من كئوس الخمر ثم تبدأ المشاجرات بينهم وتتصاعد الضجة والضوضاء والشغب الجنونى ثم تتصاعد الشكوى من أولئك

الذين لا يرحبون بالصخب الجنوني لأنه يوجد دائما مثل هذه النوعية من الناس التي تميل للهدوء . لذلك توقفنا عن إقامة مثل هذه الاحتفالات ولكن ينبغي عليّ أن أعترف إنني أسف لتوقفها لأنها كانت مناسبة بهيجة وكان للفندق سمعته الطيبة من حيث أنه يأوى الطبقة الراقية ويساير التطور . والآن وكما ترى فان الفندق أصبح مهجورا تماما في هذه المناسبة . وهذا أمر حسن حيث يمكنك أن تنام مبكرا . تعاطف معه ريكاردو ريس لكن سلفادور أكد له أنه دائما ما يظل مستيقظا لكي يسمع الأجراس وهي تدق معلنة العام الجديد في منتصف الليل لأن ذلك من تقاليد أسرته . وهم دائما يأكلون الزبيب . زبيبة واحدة مع كل دقة من أجل جلب الحظ خلال السنة القادمة وهذه عادة شعبية تتبع على نطاق واسع بالخارج ، أنت تتكلم عن الدول الغنية لكن هل تعتقد أن مثل هذه العادة من شأنها أن تجلب الحظ السعيد . لست أدرى ولكن عامي ربما يكون أسوأ حالاً إذا لم أتناول تلك الحبات من الزبيب.

تناول ريكاردو ريس طعام عشائه بعد أن قام بالتخديم عليه واحد بينما كان رئيس النادلين واقفا كالديكور فى نهاية صالة الطعام في حين ثبت سلفادور نفسه خلف مكتب الاستقبال لكى يقتل الوقت لحين حلول العام الجديد فى منتصف الليل ولا يعرف المكان الذى يوجد فيه بيمنتا أما بالنسبة لخادمات الغرف فإما أنهن قد اختفين فى الأعالى إذاكان يوجد بالفندق عليات حيث سيشربن نخب بعضهن البعض لدى دقات منتصف الليل مع الخمور المصنوعة بالمنزل التى تقدم مع البسكويت وإما أنهن قد ذهبن إلى بيوتهن مع ترك عدد منهن بالفندق من أجل مواجهة الطوارىء مثلما يحدث بالمستشفيات. يبدو المطبخ شبيها بقلعة مهجورة . ولكن هذا مجرد تخمين . فالنزلاء عادة لايهتمون بمعرفة كيفية سير العمل بالفندق من وراء الستار . لأن كل ما يريدونه هو الحصول على غرفة مريحة وعلى الوجبات في أوقات منتظمة . وبالنسبة لطبق الحلو فان ريكاردو ريس لم يتوقع أن تقدم له

شريحة كبيرة من الكعك المخبوز خصيصا من أجل احتفالات عيد الغطاس . فهذه دول صغيرة تراعي مشاعر الآخرين وتكون صداقات مع كل زبون ابتسم النادل وقال مازحا : بمناسبة الغطاس ستعطيني بقشيشا يا دكتور . موافق يا رامون لأن ذلك كان هو اسم النادل لسوف أدفع بمناسبة الغطاس لكن الساعة لم تكن قد وصلت بعد إلى العاشرة مساء يمر الوقت في بطء والسنة القديمة تتلكأ . وينظر ريكاردو ريس إلى المنضدة التي كان يشغلها منذ يومين الدكتور سابيو وابنته مارسيندا شعر بنفسه يتكفن من خلال سحابة رمادية ، لو كانا موجودين الآن لكانوا قد تحدثوا سويا مع بعضهم البعض لانهماالضيفان الوحيدان اللذان يمكن أن يتلاءما معه أكثر خلال هذه الليلة التي تشهد نهاية وبداية جديدة . ومرة أخرى تخيل في ذهنه الحركة المثيرة للشفقة للفتاة وهي تمسك بيدها الخالية من الحياة وتضعها على المنضدة . ويشعر ريكاردو ريس بالدموع تتجمع في عينيه . مازال يوجد بعض الناس الذين يشيرون في إستياء إلى الأطباء لأن الأطباء معتادون على مشاهدة الأمراض والمحن والبلايا لدرجة أن قلوبهم تغدو متحجرة ولكن انظروا إلى هذا الدكتور . انه يخيب ظن مثل هؤلاء الناس ومثل هذا الانتقاد وربما السبب أنه شاعر في نفس الوقت . ويستغرق ريكاردو ريس في هذه الأفكار وربما بعضها صعب للغاية بحيث يتعذر حلها بالنسبة لأي شخص يكون مثلنا واقفا على الجانب الخارجي ولكن رامون الذي يفهم الكثير من الأمور يتساءل : أترغب في أي شيء آخر يا دكتور وهي طريقة لبقة في القول – رغم توقع النفي – بأن الطبيب يرغب في شيء . وينهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه ويقول لرامون طابت ليلتك وكل عام وأنت بخير ولدى صعوده على السلالم في بطء يبدو عليه الارهاق الشديد ومثل تلك الرسومات الكاريكاتورية أو الكارتونات في مجلة في تلك الفترة الزمنية : العام المنصرم مغطى بالشعر الأبيض والتجاعيد والساعة الرملية الخاصة به قد أفرغت محتوياتها وذلك أثناء اختفائه في الظلال العميقة

للماضى ، فى حين أن العام الجديد يتقدم فى شعاع من الضوء ويبدو ممتلئا مثل أولئك الأطفال الذين يتم تغذيتهم على اللبن البودرة والذين يرتلون أغنية أطفال عن هذا الوقت : أنتى عام ١٩٣٦ تعالى وابتهج معى ابتهاجا عظيما . ويدخل ريكاردو ريس إلى غرفته ويجلس . لقد تم اعداد السرير بينما الماء العذب الطازج موجود فى الإبريق الزجاجى لكى يلبى طلبه إذا شعر بالعطش أثناء الليل كما أن شبشبه فى حالة انتظار على الحصيرة الموجودة بجوار السرير . شخص ما يعتنى بى . إنه ملاك حارس . شكرا جزيلاً . فى الشارع تنبعث قعقعة علب الصفيح لدى مرور المعربدين . لقد دقت الساعة معلنة الحادية عشرة مساء وفى تلك اللحظة يقفز ريكاردو ريس ناهضاً وهو يموج بالغضب ما الذى أفعله هنا بينما كل شخص قد خرج من أجل الاحتفال لتمضية وقت طيب مع عائلاتهم فى الشوارع وفى صالات الرقص وفى المسارح ودور السينما والنوادى الليلية ، ينبغى على الأقل الذهاب إلى روسيو لمشاهدة ساعة الحائط فى المحطة المركزية . فهذا أفضل من الجلوس هنا متكوما فى كرسى ومنتظراً دقات منتصف الليل . وبعد أن انتهى من مناجاة النفس منه أرتدى قبعته ومعطفه وأمسك بمظلته ودب الشغف والحماس فى داخل كيانه على نحو فجائى مثل رجل طرأ عليه تغير من خلال اتخاذ قرار كان سلفادور قد انصرف للذهاب إلى أسرته ولذلك فإن الذى تساءل هو بيمنتا . أأنت بصدد الخروج يا دكتور . نعم سوف أتنزه . قليلا ثم شرع فى النزول على السلالم . فسار وراءه بيمنتا حتى وصل إلى منبسط الدرج . عندما ترجع يا دكتور عليك بدق الجرس مرتين إحداهما دقة قصيرة تعقبها دقة طويلة عندئذ سأعرف أنه أنت. أستكون مازلت مستيقظا . سأذهب للنوم بعد منتصف الليل ولكن لا تقلق بشأنى ويمكنك العودة فى أى وقت تشاء . كل عام وأنت بخير يا بيمنتا . أتمنى لك عاما جديدا مزدهرا للغاية يا دكتور وهى نفس العبارات التى يقرأها المرء على بطاقات المعايدة . ولم يقل أى كلام آخر ولكن عندما وصل ريكاردو ريس إلى نهاية السلالم

بالدور الأول تذكر أنه عادة ما يتم إعطاء بقشيش للعاملين بالفندق فى هذا الوقت من السنة لأنهم يعتمدون على مثل هذه البقشيشات . لا داعى لذلك فأنا لست هنا الا منذ ثلاثة أيام فقط . الخادم الايطالى نائم حيث أن مصباحه مطفأ .

كان الرصيف مبتلا وزلقا وكانت خطوط الترام تلمع على طول شارع الكريم . ونزل ريكاردو ريس هابطا إلى شارع كارمو بينما جمهور كبير من الناس يتجهون معه بعضهم فى شكل جماعات وبعضهم بمثابة عائلات بأكملها ولكن معظمهم كانوا فرادى لا ينتظرهم أحد بالمنزل أو ربما يفضلون الخروج لكى يشاهدوا انقضاء السنة القديمة وبزوغ العام الجديد وربما ستمر السنة القديمة بالفعل وربما فوق رؤوسهم ورؤوسنا سيحلق خط من الضوء أو نوع من الحد الفاصل وعندئذ سنقول أن الزمان والمكان هما شيء واحد وهما نفس الشيء . وكانت توجد هناك أيضاً نساء توقفن لمدة ساعة عن الطواف خلسة إبتغاء السلب والنهب . وحول المسرح القومي كان الروسيو مزدحما ، ثم هطل مطر فجائى ففتحت المظلات مثل الدروع القرنية والعظمية اللامعة للحشرات أو كما لو كان هذا بمثابة جيش يتقدم تحت حماية الدروع وعلى وشك الهجوم على قلعة منيعة واختلط ريكاردو ريس مع الجماهير والتى كانت أقل كثافة مما بدت عليه من على مسافة وشق طريقه بين الناس . توقف المطر فأغلقت المظلات مثل سرب من الطيور تهز أجنحتها لدى هبوطها واستقرارها من أجل تمضية الليل . يطل كل شخص بأنفه فى الهواء وتركزت عيناه على قرص ساعة الحائط . ومن شارع بريماريو جاءت مجموعة من الأولاد مهرولين يدقون على أغطية الأوانى تانج تانج تانج بينما أنخرط آخرون فى صفير حاد . ثم ساروا بخطوة عسكرية حول الميدان أمام المحطة قبل أن يستقروا تحت الرواق المعمد لمبنى المسرح مع الانطلاق بصفاراتهم من وقت لآخر علاوة على الطرق على غطاء علب الصفيح الخاصة بهم وهذا الضجيج يختلط مع القعقعة الخشبية التى تدوى فى أرجاء الميدان رأ – رأ – رأ –

رأ . لم يتبق على منتصف الليل سوى أربع دقائق . آه تقلب الجنس البشرى فى إهتياج شديد مع الفترة الزمنية الضئيلة التى عليهم أن يعيشوها مع الشكوى دائما من أن حياتهم قصيرة ومن أنهم لايتركون وراءهم سوى الهسهسة المكتومة للأفعال ومع ذلك فهم ينتظرون بفارغ الصبر انقضاء هذه الدقائق القليلة المتبقية وعلى هذا النحو تكون قوة الأمل . هذه هى بالفعل صيحات الأمل ويصل الضجيج إلى نوع من التصاعد مثلما أن الصوت العميق للسفن الراسية يمكن سماعه من اتجاه النهر فى دمدمة شبيهة بصوت الديناصورات فى مرحلة ما قبل التاريخ مما يجعل المرء يصاب بالغثيان . تملأ أبواق السيارات الهواء بصراخ شديد شبيه بصراخ الحيوانات التى يتم ذبحها كما أن أبواق السيارات المترامية من مكان قريب يصم الآذان علاوة على أصوات ناجمة عن الأجراس الصغيرة للترام إلى أن يتلاقى عقرب الدقائق مع عقرب الساعات فيصبح الوقت هو منتصف الليل حيث سعادة الحرية . لأن لحظة زمنية خاطفة قد اطلقت وحررت الجنس البشرى وسمحت لهم بأن يعيشوا حياتهم الخاصة بهم . الزمن يقف على جانب ويطل برأسه فى سخرية وفى إحسان بينما الناس يعانقون بعضهم البعض أصدقاء وأغرابا ورجالا ونساء يقبلون بعضهم البعض على نحو عشوائى هذه هى أفضل القبلات فهى قبلات مستقبل . والآن يملأ صخب السرينات الهواء ويتحرك الحمام فى عصبية على قوصرة مبنى المسرح حيث يرفرف بعضها فى دوار ولكن فى أقل من دقيقة تهدأ الضوضاء ولا يتبقى سوى شهقات قليلة كما يبدو على السفن الموجودة فى النهر أنها تختفى فى سديم الضباب متجهة نحو البحر. مجموعات من الناس مازالت موجودة فى الروسيو الا أن التجربة انتهت وبدأ الناس ينصرفون ويتركون الأرصفة فهم يعرفون ماذا سيحدث بعد ذلك . فمن الأدوار العليا بالمنازل تلقى القمامة فهذه عادة لا تراعى كثيرا هنا لأن عددا قليلا من الناس يسكنون هذه المنازل التى تضم أساساً مكاتب حكومية . ولكن على طول

شارع أورو تكون الأرض مليئة بفضلات مبعثرة هنا وهناك . ومن النوافذ مازال الناس يلقون بالخرق البالية والصناديق الشاغرة وعلب الصفيح وبقايا الطعام وعظام الأسماك الملفوفة فى جرائد . حيث تتبعثر كلها على الرصيف . وينفجر إناء مليء بجمرات حية ويتطاير الشرر فى كل إتجاه فيهرول المشاه ويحتمون تحت الشرفات ويستندون بظهورهم على المبانى ويصيحون وهم ينظرون لأعلى فى إتجاه النوافذ .الا أن إحتجاجاتهم لا تؤخذ مأخذ الجد لأن هذه العادة منتشرة فى كل مكان وبذلك ينبغى على كل رجل أن يحمى نفسه بكل وسيلة ممكنة لأن هذه هى ليلة الاحتفال وتشتمل على كافة أنواع التسلية التى يمكن أن يبتكرها الانسان . فكل أنواع سقط المتاع وكافة الاشياء التى لم تعد تستخدم ولا تستحق البيع يقذف بها من النافذة حيث يكون قد إحتفظ بها منذ فترة من أجل إلقائها فى هذه المناسبة فهذه الأشياء بمثابة تمائم أو أحجبة تضمن توفر الازدهار طوال فترات السنة الجديدة . وينادى صوت فى الأعالى من طابق علوى : احترسوا . نحن بصدد إلقاء شىء ما شكراً لهم على تحذيرنا . وتم القاء ربطة فى عنف فى الهواء فهبطت على شكل منحنى وكادت ترتطم بكابلات الترام . يا له من إهمال شديد لأن ذلك كان من شأنه أن يتسبب فى وقوع حادثة خطيرة . وهذه الربطة كانت تمثالا لعرض الملابس من النوع الذى يستخدمه الترزى وله ثلاثة أرجل ويتلاءم مع سترة رجالى أو فستان حريمى . فتمزقت الحشوة السوداء وبعد أن سقطت فى انسحاق لم تعد تشبه جسدا إنسانيا عقب فقدان الرأس والساقين . وكان هناك شخص يمر فى تلك اللحظة فقام بحشو ذلك الشىء فى البالوعة مستخدما قدميه . ستجىء غدا عربة الزبالة وتنقل كل هذه الأشياء بعيداً التى تتألف من الخرق البالية وغيرها من الأشياء الأخرى . وسرعان ما سيقوم المتشردون بالبحث فى هذه الأشياء لعلهم يجدون شيئا نافعا يمكن استخدامه . فالشىء الذى فقد قيمته بالنسبة لشخص ما قد يكون مفيدا لشخص آخر .

ويعود ريكاردو ريس إلى الفندق . تستمر الاحتفالات في أجزاء كثيرة من المدينة من خلال الألعاب النارية وتوزيع الخمور أو الشمبانيا الأصلية ومن خلال الانغماس في الملذات الوحشية على النحو الذى لا تنسى الصحف أن تشير إليه دائما . وأيضا تكون النساء المومسات وشبه المومسات متاحات لمن يرغب فيهن حيث يكون بعضهن صريحا للغاية ومباشرا بينما تحرص أخريات على الألتزام ببعض الطقوس المعينة لدى عرض أنفسهن. ولكن هذا الرجل لايتسم بالجرأة والمغامرة وهو لديه فكرة عن مثل هذه الأعمال البطولية الجريئة فقط من خلال أفواه الآخرين وكل ما لديه من تجربة هي مسألة الدخول من الباب والخروج على الفور من باب آخر . وتصرخ مجموعة من العربيدين المارين في نغمة جماعية متنافرة : كل عام وأنتم بخير أيها الرجل العجوز فيرد عليهم بأن يرفع يده لأعلى . ولماذا أقول لهم أى كلام . إنهم أصغر منى في السن بكثير . ويجوب بين الزبالة المنتشرة في الشارع متفاديا الإرتطام بالصناديق . وينسحق الزجاج المكسور تحت قدميه . ربما يكونون قد ألقوا بوالديهم الطاعنين في السن مع تمثال عرض الملابس حيث يوجد فارق بسيط لأنه بعد سن معينة لا يعد الرأس يتحكم في الجسد ولا تعد الأقدام تعرف إلى أين تأخذنا . فنحن في النهاية نشبه الأطفال اليتامى لأننا لا نستطيع العودة إلى أمنا الميتة ولا نستطيع العودة إلى البداية وإلى العدم الذى كان قبل البداية .إننا ندخل إلى نطاق العدم قبل أن نموت وليس بعد أن نموت وذلك لأننا بزغنا من العدم وعندما نموت فاننا سنتعرض للتشتت بدون أن يكون الوعى مازال موجوداً . نحن جميعا كنا ذات يوم نمتلك أبا وأما ولكننا أطفال الحظ والحتمية مهما كان المعنى الكامن وراء ذلك . هذه هي أفكار ريكاردو ريس ولندعه يقدم لنا الشرح والتفسير .

ورغم أن الوقت قد تجاوز الثانية عشرة والنصف فان بيمنتا لم يكن قد ذهب للنوم . وهبط إلى الدور الأول لكى يفتح الباب وظهرت عليه الدهشة . إذن فأنت

على كل حال قد عدت مبكرا ولم تفعل الكثير من أجل الإحتفال . لقد كنت أشعر بالارهاق والرغبة فى النوم وكما تعرف فان مشاهدة العام الجديد لم يعد لها مثل الرونق القديم .هذا صحيح فهذه الاحتفالات تكون نابضة أكثر بالحياة فى البرازيل . وتبادلا الحوارات المهذبة أثناء صعودهما على السلالم . وعند بسطة السلم قال ريكاردو ريس : طابت ليلتك تصبح على خير ثم واصل الصعود على المجموعة التالية من السلالم . فرد عليه بيمنتا : طابت ليلتك . ثم أطفأ أنوار بسطة السلم وبعد ذلك أطفأ أنوار كافة الطوابق الأخرى قبل أن يأوى إلى فراشه وهو واثق بأنه سينام نوما عميقا حيث من غير المتوقع مجيىء أى ضيوف جدد للفندق فى مثل هذا الوقت المتأخر . وكان بمقدوره سماع وقع أقدام ريكاردو ريس يمشى فى الطرقة . المكان هادىء للغاية ولا ينبعث أى ضوء من أى غرفة نوم أما لأن النزلاء مستغرقون فى النوم وإما لأن الغرف شاغرة بالفعل .وفى نهاية الطرقة يتوهج فى خفوت رقم الغرفة ٢٠١ ويلاحظ ريكاردو ريس خروج شعاع من الضوء من تحت الباب . من المؤكد أنه كان قد نسى إطفاء الأنوار . حسنا فهذه الأمور كثيرا ما تحدث . وأدخل المفتاح فى كالون الباب وفتح الباب . ففوجىء بوجود رجل جالس على الأريكة .فعرفه على الفور رغم أنهما لم يتقابلا ولم يشاهدا بعضهما البعض منذ سنوات عديدة . بل ولم يعتقد أنه من العجيب أن يكون فرناندو بسوا جالسا هنالك فى إنتظاره . قال مرحبا دون أن يتوقع الحصول على إجابة لأن الأمور السخيفة لا تتمشى دائما مع المنطق ولكن بسوا رد عليه قائلا : مرحباً ثم مد يده وتعانقا . حسنا كيف كانت أحوالك هكذا تساءل أحدهما أو كلاهما فهذه مسألة غير مهمة لأن السؤال ليس له أى معنى على الإطلاق . قام ريكاردو ريس بخلع معطفه وقبعته وفى عناية وضع مظلته على الأرضية المشمعة فى غرفة الحمام مع عمل مراجعة على الحرير الرطب الذى لم يعد مبللا بالفعل لأنه أثناء العودة إلى الفندق لتتساقط أمطار . وجذب كرسيا وجلس أمام ضيفه

وأدرك أن فرناندو بسوا أرتدى ملابسه بطريق المصادفة وهى الطريقة البرتغالية في القول بأنه لم يكن يرتدىّ معطفا عاديا أو معطف مطر أو أى نوع آخر من الحماية ضد الطقس القاسي بل ولا حتى قبعة وكل ما كان يرتديه هو حلة سوداء تشتمل سترة على مزدوج الصدر وصدرة وبنطلون وقميص أبيض ورباط عنق أسود وحذاء وجورب أسود تماما مثل شخص في جنازة أو مثل حانوتي . ينظران إلى بعضهما البعض في محبة وقد ظهرت السعادة عليهما في وضوح بعد أن تم الاتحاد بينهما مرة أخرى عقب سنوات من الإنفصال . وفرناندو بسوا هو الذي يتكلم أولا: أعتقد أنك جئت لزيارتي .. وأنا لم أكن هناك لكنهم أخبروني بذلك عقب عودتي . فقال ريكاردو ريس : كنت متأكدا أنني سأجدك هناك ولم أتصور أبدا أن بمقدورك مغادرة ذلك المكان . فقال فرناندو بسوا : الخروج مسموح به بصفة مؤقتة . فأنا لدى حوالي ثمانية شهور استطيع التجول خلالها كما يحلو لي . تساءل ريكاردو ريس : ولماذا ثمانية شهور فقال فرناندو بسو موضحا : الفترة المعتادة هي تسعة شهور وهى نفس الفترة التي نقضيها في أرحام أمهاتنا . وأعتقد أن هذه مسألة تناسقية وقبل أن نولد لا أحد يشاهدنا ومع ذلك فهم يفكرون فينا في كل يوم وبعد أن نموت لا يعد بمقدورهم مشاهدتنا ومع مرور الأيام يتزايد نسيانهم لنا تدريجيا وبغض النظر عن الحالات الاستثنائية فان النسيان التام يتحقق عقب إنقضاء الأشهر التسعة . والآن قل لي : ما سبب مجيئك إلى البرتغال فقام ريكاردو ريس باستخراج محفظته من جيبه الداخلي واستخرج منها ورقة مطوية ودفع بها نحو فرناندو بسوا ولكن بسوا صدرت عنه حركة تدل على الرفض وقال : لم يعد بمقدوري أن أقرأ عليك قم أنت بقراءتها . فأطاع ريكاردو ريس وراح يقرأ : لقد مات فرناندو بسوا حقا إنني مسافر إلى جلاسجو . توقيع : ألفارو دي كامبوس . وعندما تسلمت هذه البرقية قررت أن أعود . وشعرت أن عودتي بمثابة التزام . فلهجة البرقية مثيرة للغاية وهى مرسلة من ألفارو دي

كامبوس بدون أى شك فحتى فى تلك الكلمات القليلة يمكن للمرء أن يكتشف نعمة من الرضا الخبيث بل والاستمتاع فى تسلية ، لأن ألفارو يكون دائما على ذلك النحو . وكان هناك سبب آخر وهو سبب يتعلق فى هذه المرة بالمصلحة الشخصية . ففى نوفمبر تفجرت ثورة فى البرازيل ومات الكثيرون وألقى القبض على العديد فخشيتُ أن تزداد الأمور سوءاً لكننى لم أستطع أن أقرر ما اذا كان ينبغىَ علىّ أن أغادر البرازيل أم أبقى فيها إلى أن وصلتنى هذه البرقية التى حسمت الموقف . فقال بسوا : يا ريس يبنو أنه من المقدر لك أن تهرب من الثورات ففى عام ١٩١٩ ذهبت إلى البرازيل بسبب ثورة تفجرت وفشلت وأنت الآن تهرب من البرازيل بسبب تفجر ثورة وهى ثورة ربما تفشل هى الأخرى . فقال ريس : اننى فى حقيقة الأمر لم أهرب من البرازيل وربما ظللت هناك لو أنك لم تمت . فقال بسوا : أذكر اننى قرأت شيئاً عن هذه الثورة قبل موتى بأيام قليلة . وأعتقد أن الذى حرض عليها هم البلاشفة . فقال ريس : نعم البلاشفة هم المسئولون . وهم عدد قليل من الضباط والجنود . وأولئك الذين لم يموتوا تم القبض عليهم وتم اخماد تلك الثورة فى خلال يومين أو ثلاثة أيام . فقال بسوا : أكان الناس خائفين . فقال ريس : بالتأكيد كان معظمهم خائفين . وهنا فى البرتغال أيضاً تفجرت ثورات عديدة حيث وصلتنى أنباؤها أثناء وجودى فى البرازيل . فقال بسوا : أما زلت تؤمن بالنظام الملكى . فقال ريس : نعم . فقال بسوا : وبدون وجود ملك . فقال ريس : يمكن للمرء أن يؤمن بالنظام الملكى بدون المطالبة بوجود ملك . فقال بسوا : هل هذا هو ما تشعر به . فقال ريس : نعم . فقال بسوا : هذا تناقض ظريف . فقال ريس : انه تناقض ليس أسوأ من تناقضات أخرى . فقال بسوا : ان ما تؤيده من خلال الرغبة لا يمكن أن تؤيده من خلال العقل . فقال ريس : بالضبط وها أنت تدرك أننى مازلت اتذكرك . بالطبع .

ثم نهض فرناندو بسوا وترك الأريكة وسار خطوات قليلة ثم توقف أمام مرآة غرفة النوم قبل العودة إلى غرفة الجلوس . وقال : أشعر بشىء غريب عندما أنظر

في المرآة ولا أشاهد نفسي منعكسا على صفحتها . فقال ريس : ألا ترى نفسك . فقـال بسـوا : لا أدرك أنني أنظر إلى نفسي ولكنى لا أشـاهد أى شيء . فقـال ريس : ومع ذلك فأنت تلقى بظلال . فقال بسوا : ذلك هو كل ما أمتلكه . وجلس مرة أخرى ووضع ساقا على ساق ثم تساءل : هل ستستقر في البرتغال بشكل دائم أم سترجع إلى البرازيل .

فقال ريس : لم اتخذ حتى الآن قرارا في هذا الشأن . لم أحضر معي سوى بعض الأشياء الضرورية وربما سأمكث في البرتغال وأفتح مكتبا وأكون زبائن وربما أعود إلى ريودى جانيرو . فأنا مقيم حاليا في البرتغال ولكننى كلما أمعنت التفكير في هذا الشأن اعتقدت أكثر أننى جئت إلى البرتغال لسبب واحد وهو أنك انتقلت إلى رحمة الله حيث يبدو لى كأن بمقدورى وحدى أن أشغل الفرا غ الذى خلفته وراءك . فقال بسوا : ليس بمقدور أى شخص على قيد الحياة أن يحل محل شخص ميت . فقال ريس : لا أحدنا يعتبر ميتاً حقا أو حيا بالفعل . فقال بسوا هذا كلام مصاغ على نحو جيد وهو بمثابة قول مأثور يتلاءم مع احدى قصائدك. ثم ابتسما سويا في آن واحد . وتساءل ريكاردو ريس : كيف عرفت أننى كنت مقيماً في هذا الفندق . فقال فرناندو بسوا : عندما تموت فإنك تعرف كل شيء وهـذه من بين الفوائد المهمة للموت . فقال ريس : وكيف دخلت غرفتى ؟ فقال بسوا : تماما مثلما يدخل أى شخص آخر . فقال ريس : هل جئت من خلال الهواء وهل مررت من خلال الحوائط ؟ فقال بسوا : يالها من فكرة سخيفة يا صديقى الطبيب فمثل هذه الأمور لا تحدث إلا في قصص الأشباح . لا لقد جئت من الجبانة الموجودة في برازيريس ومثل أى شخص ميت آخر صعدت على السلالم وفتحت الباب وجلست على الأريكة في انتظار وصولك . فقال ريس : ولم يبد أحد دهشته لدى مشاهدة شخص غريب يدخل إلى الفندق فقال بسوا : وهذا امتياز آخر يتمتع به الشخص الميت ، اذ لا يستطيع أحد مشاهدته اللهم الا اذا

كان يرغب في ذلك . فقال ريس : ولكني أراك بالفعل . فقال بسوا : لأنني أريد لك أن تراني وإذا فكرت في الأمر ملياً فمن تكون أنت . وهذا سؤال بلاغي يطرح لمجرد التأثير في النفوس لا ابتغاء الحصول على إجابة . فلم يرد ريكاردو ريس بأي كلام بل وكأنه لم يسمع ذلك السؤال . وسادت فترة صمت طويلة . وكان بالمستطاع سماع صوت ساعة الحائط الموجودة عند بسطة السلم وهي تعلن الثانية صباحا وكما لو كان الصوت متراميا من عالم آخر . ثم نهض بسوا على قدميه قائلاً : ينبغي عليّ أن أعود . فقال ريس : هكذا بسرعة . فقال بسوا : وقتي هو ملك لي وأنا لي حرية المجيء والذهاب كما يحلو لي . وصحيح أن جدتي هناك لكنها لم تعد تضايقني . فقال ريس : أريدك أن تبقى معي لفترة أطول . فقال بسوا : لا الوقت أصبح متأخرا وينبغي عليك أن تستريح . فقال ريس : متى سأراك مرة أخرى . فقال بسوا : أترغب أن أعود اليك . فقال ريس : أرغب كثيرا في ذلك اذ يمكننا أن نتجاذب أطراف الحديث ونجدد صداقتنا ولا تنس أنني بعد أن أمضيت ستة عشر عاماً في البرازيل أشعر كأنني شخص غريب هنا في البرتغال . فقال بسوا : تذكر أنه يمكننا أن نتواجد سويا على مدى ثمانية شهور فقط وبعدئذ ينفذ وقتي فقال ريس : في البداية تبدو الثمانية شهور وكأنها فترة حياتية . فقال بسوا : سأجيئ لزيارتك كلما أصبح بمقدوري المجيء . فقال ريس : ألا تود أن تحدد يوما معينا ووقتاً محددا ومكانا معيناً .

فقال بسوا : هذا أمر مستحيل . فقال ريس : حسنا فلنتقابل في القريب العاجل يا فرناندو لقد سعدت كثيرا برؤيتك . فقال بسوا : وأنا أيضاً سعدت بك يا ريكاردو . فقال ريكاردو ريس : أينبغي أن أتمنى لك عاما سعيدا جديدا .

فقال بسوا : يمكن لك أن تتمنى لي ذلك فهذا لن يعود بأي ضرر عليّ فهذه كلها مجرد كلمات وهو أمر تعرفه أنت جيداً .

فقال ريكاردو : كل عام وأنت بخير يا فرناندو . رد فرناندو : كل عام وأنت بخير يا ريكاردو .

ثم فتح فرناندو بسوا باب غرفة النوم وخرج إلى الدهليز بدون أن يصدر صوتاً عن وقع أقدامه . وبعد دقيقتين وهى الفترة التي استغرقها النزول على السلالم ترامى الصوت العالي الناجم عن غلق الباب الخارجي للفندق بعد أن صدر أزير مقتضب عن الجرس الكهربائي . فاتجه ريكاردو ريس بسرعة إلى النافذة لكي يلقى نظرة .. لقد كان فرناندو بسوا بصدد الاختفاء بالفعل فى شارع الكريم . وتلألأت قضبان الترام وهو مازال ينطلق موازيا له .

(٤)

سواء أكان ذلك بسبب أنها فى حد ذاتها تؤمن بذلك أو بسبب أن شخصا ما أمسك بيدها عقب فشلها فى الاستجابة للايحاءات فإن الجرائد تخبرنا – ما لو كان ذلك بمثابة نبوءة عظمى – أنه فوْق أطلال الدول القوية ستظهر الدولة البرتغالية قوتها الكبيرة وحكمة وذكاء الرجال الذين يحكمونها . لأن تلك الدول سوف تسقط وسيكون سقوطها مدويا . فالدول المغرورة التى تتفاخر بتفوقها الحالى تتعرض للكثير من الخداع لأن اليوم الحاسم سيجيىء بسرعة وهو أسعد يوم فى سجلات تاريخ هذه الأمة عندما يجيىء قادة دول أخرى إلى الشواطىء البرتغالية سعيا للحصول على المشورة والمساعدة والحكمة والاحسان علاوة على الحصول على الزيت اللازم لاشعاعهم الفكرى والروحى من رجال دولتنا البرتغالية العظام . ومن هم هؤلاء الحكام الذين يبدأون مع الحكومة التالية والتى يتم تشكيلها بالفعل . يوجد فى القيادة العليا أولفييرا سالازار رئيس المجلس ووزير المالية وبعد ذلك يوجد على مسافة بعيدة ووفقا للترتيب الذى تنشر به الصحف صورهم الفوتوغرافية : مونتايرو وزير الخارجية ، بيرايرا وزير التجارة ، ماخادو وزير المستعمرات ، أبرانش وزير الأشغال العامة ، بتينكورت وزير البحرية ،

باشيكو وزير التعليم ، ردريجيوس وزير العدل ، سوسا وزير الحربية ، سوسا وزير الداخلية . ووزير الحربية هو باسوس دى سوسا بينما وزير الداخلية هو بائس دى سوسا وينبغى كتابة اسميهما بالكامل حتى يمكن للالتماسات المرفوعة اليهما أن تصل بدون تأخيـــر ، ولا ينبغى أن ننســى ديوك وزير الزراعة والذى لا يمكن انتاج حبة قمح فى أوربا أو فى أى مكان آخر بدون الحصول على رأيه . وبالنسبة لوظائف وكيل الوزارة الدائمة يوجد لامبريلز وكيل وزارة المالية ، أندريلز وكيل وزارة التعاون لأن هذه الدولة الصغيرة على الرغم من أنها مازالت فى مرحلة الطفولة إلا أنها متماسكة مما يوضح السبب فى أن منصب وكيل الوزارة يعتبر كافيا تماما . وتشير الصحف هنا أيضاً إلى أن معظم أجزاء البلاد قد حصلت على فوائد كثيرة من وراء الادارة النموذجية التى تحرص على الحفاظ على الأمن العام وإذا كان مثل هذا البيان تشتم منه رائحة مدح الذات عليكم بقراءة تلك الجريدة التى تصدر من جنيف باللغة الفرنسية والتى تصف ديكتاتور البرتغال سالف الذكر والتى تقول عنا أننا سعداء للغاية حيث يتم قيادتنا من خلال دكتاتور مستنير وقائد حكيم وكاتب ذلك المقال على صواب تماما ونحن نشكره من كل قلوبنا . ولكن علينا أن نضع فى الاعتبار أن باشيكو وزير التعليم ليس أقل حكمة إذا قال لنا غداً أن التعليم الأولى ينبغى أن يسدد تلاميذه الرسوم المدرسية ولا شيء أكثر من ذلك لأن المعرفة إذا نقلت بسرعة كبيرة فإنها لا تخدم هدفا حقيقيا ولأن التعليم المرتكز على المبدأ المادي وعلى الوثنية التى تخنق الدوافع النبيلة يعتبر أسوأ من ظلام الأمية ولذلك يختتم باشيكو وزير التعليم كلامه مشيراً إلي أن سالازار يعتبر أعظم معلم فى هذا القرن الخاص بنا وهذا يعتبر تأكيدا جريئا للغاية لأننا لم نقطع سوى ثلث المسافة على طريق القرن العشرين .

لا تعتقد أن كل هذه الفقرات قد ظهرت على نفس الصفحة بنفس الجريدة لأنها عندئذ ستبدو وكأنها متصلة وستعطى المعنى التكميلى والمترابط على نحو متبادل

والذى قد تبدو عليه . ولكنها التقارير التى صدرت خلال الأسابيع القليلة الماضية والتى وضعت بجوار بعضها مثل أحجار الدومينو بحيث يوضع كل نصف فى مقابل المساوى له إلا اذا تصادف أن كانت مضاعفة أو مزدوجة وفى هذه الحالة توضع بالعرض . هذه بمثابة أحداث جارية تشاهد عن بعد . ويقرأ ريكاردو ريس الجرائد الصباحية أثناء ارتشافه القهوة المخلوطة باللبن علاوة على تناول التوسّت الطعام الذى يقدمه فندق براجانسا . ونحن نعرف الخادمة التى تحضر له طعام افطاره انها ليديا التى تقوم أيضاً بترتيب سريره وتنظيف حجرته . وهى عندما تتحدث مع ريكاردو ريس فإنها تقول له دائما : يا دكتور فى حين أنه عندما ينادى عليها يكتفى بذكر اسمها فقط : يا ليديا . ولكن نظرا لأنه رجل متعلم ومثقف فإنه لا يستخدم الصيغة المألوفة عندما يطلب منها شيئاً . فلا يقول : افعلى هذا أو احضرى لى ذاك الشيء . ونظرا لأن ليديا غير معتادة على مشاهدة مثل هذا الأدب فإنها تشعر أنه يتم تملقها ويتم اشباع غرورها لأن الضيوف بوجه عام يعاملونها بالطريقة المعتادة التى تعامل بها الخادمات ويعتقدون أن النقود تمنح كل حق وان كانت هناك ضيفة أخرى تعاملها بنفس التقدير والاحترام وهى السنيوريتا مارسيندا ابنة الدكتور سامبيو ، وتبلغ ليديا حوالى ثلاثين عاما وبذلك فهى امرأة ناضجة مكتملة الأنوثة ولها شعر أسود ولها ملامح برتغالية على نحو حاسم ولا يدع مجالا للشك . وهى تميل إلى القصر أكثر مما هى تميل إلى الطول إذ كانت توجد هناك أية أهمية تتعلق بالخصائص الجسمانية لخادمة عادية لم تفعل أى شيء بخلاف حك وتنظيف الأرضيات وتقديم طعام الافطار وهى فى مناسبة واحدة تضحك عندما تشاهد رجلا ممتطيا ظهر رجل آخر عندما كان هذا الضيف يقف هناك مبتسما . انه شخص لطيف ومع ذلك فهو يموج بالحزن ولا يستطيع أن يكون سعيدا رغم أنه تجيء عليه لحظات يشرق فيها وجهه مثل هذه الغرفة المظلمة عندما تسمح السحب لأشعة الشمس بالتغلغل إلى داخلها . انه

ضوء القمر أكثر مما هو ضوء النهار . انه بصيص من الضوء . لأنه أصاب رأس ليديا عند زاوية ملائمة . ولاحظ ريكاردو ريس الوحمة الموجودة على جانب احدى فتحتى أنفها . انها تتلاءم معها .

هكذا راح يفكر ولو أنه فيما بعد لم يستطع أن يعرف ما إذا كان قد أشار إلى الوحمة أو إلى مريلتها البيضاء أو إلى قلنسوتها المنشّاة .

مرت ثلاثة أيام ولم يظهر فرناندو بسوا مرة أخرى . ولم يسأل ريكاردو ريس نفسه هذا السؤال الواضح : أكان ذلك بمثابة حلم . لقد كان يدرك تماما أن فرناندو بسوا قد وجد فى غرفته وتعانقا سويا فى ليلة السنة الجديدة وأنه وعده بأن يعود إليه . وهو كان يصدقه لكنه بدأ يفقد صبره بسبب هذا التأخير فى مجيئه . وبدت له حياته الآن وكأنها أصبحت معلقة ومائجة بالتوقع والانتظار ومليئة بالشكوك . وراح يتفحص الجرائد من أجل العثور على دلائل وخطوط عريضة لكيان كلى أو ملامح لوجه برتغالى ليس من أجل استحضار صورة عن البلاد وإنما لكى يغلف الصورة الخاصة به بمادة جديدة ولكى يكون قادراً على رفع يديه إلى وجهه والتعرف على ذاته ولكى يكون قادراً على وضع يد على أخرى ويضمهما فى احكام سويا ، إنه أنا وأنا هنا . وفى الصفحة الأخيرة وقع بصره على اعلان كبير بعرض عمودين . فى الركن العلوى الأيمن كان يوجد رسم لفراير - النقاش، كان مرتديا نظارة لها عين زجاجية واحدة علاوة على ارتداء رباط عنق على هيئة اسكتش من طراز قديم . وتحت هذا الرسم وإلى أسفل الصفحة كانت توجد سلسلة من الرسومات الأخرى التى تعلن عن ورش العمل الخاصة به وهى الورش الوحيدة التى تقدم مجموعة شاملة من البضائع مع شروح توضيحية زائدة على الحاجة كما لو كانت تبرهن على أنها مساوية أو أفضل من الوصف بالكلمات باستثناء أنه لا توجد هناك صورة يمكن أن توضح النوعية الممتازة لمنتجات شركة قد تأسست منذ ٥٢ عاما بمعرفة حفار ونقاش ممتاز وهو رجل له شخصية

وسمعة طيبة لا تشوبها أية شائبة وقام بدراسة العواصم الكبرى فى أوربا والذى تعلم أولاده من بعده المهارات والتقنيات المتعلقة بحرفته وتجارته . ولأنه فريد من نوعه في البرتغال فإنه منح ثلاث ميداليات مذهبية . ولقد شيد فى مصنعه ١٦ ماكينة تعمل بالكهرباء وكل ماكينة منها تساوى ستين كانتو وتلك الماكينات تستطيع أن تفعل أي شيء باستثناء التكلم . يا الهى . عالم بأكمله يتم تصويره هنا . ونظرا لأننا لم نولد في الوقت الملائم لكى نشهد ساحات القتال الخاصة بطروادة أو درع أخيل الذى كان يعكس كل السماوات والأرض فهيا بنا نبدى اعجابنا بهذا الدرع البرتغالي الموجود هنا في لشبونة والذى يصور آخر أعاجيب الأمة واللوحات الرقمية الخاصة بالمبانى والفنادق والخاصة بالغرف والدواليب ومشاجب المظلات ومشاحذ موس الحلاقة والمشاحذ الخاصة بالسكاكين والمقصات والأقلام التى لها سن ذهبى والمعاصر والموازين والأطباق الزجاجية ذات سلاسل النحاس وماكينات تحزيم الشيكات والأختام المصنوعة من المعدن والمطاط والحروف المطلية بالميناء والمطبعات الخاصة بالكتابة على القماش والشمع الأحمر والأقراص المرقمة من أجل الطوابير فى البنوك وشركات الأعمال التجارية والمقاهى وسبائك الحديد التى بها وسْم وكيّ الماشية والصناديق الخشبية ومطواة الجيب/ولوحات التسجيل الخاصة بالسيارات والدراجات والحلقات والميداليات الخاصة بكل نوع من أنواع الرياضة والبادجات اللازمة للطاقية التى يرتديها العاملون فى محلات بيع الألبان والمقاهى والكازينوهات . والخزائن والأعلام المصنوعة من المعدن والتى توضع فوق أبواب المعاهد والمؤسسات والمكاوى والفوانيس الكهربائية والمطواة التى لها أربع شفرات علاوة على أنواع أخرى من المطاوى . والشعارات واطارات الطبع والقوالب الخاصة بالبسكويت وصابون التواليت ونعل الحذاء المطاطي والمونوجرام وشعار النبالة الذهبى والمعادن المخصصة لكل الأغراض التى يمكن تخيلها وولاعة السجاير والحجر والحبر

اللازمان لأخذ البصمات وشعار النبالة للقنصليات البرتغالية والأجنبية والمزيد من لوحات التعريف الخاصة بالأطباء والمحامين ولمكاتب التسجيل الخاصة بتسجيل الميلاد والوفيات ومن أجل مجلس الأبرشية والقابلة والموثق العام وتلك اللوحات المكتوب عليها «ممنوع الدخول» وحلقات من أجل الحمام إلخ إلخ إلخ وثلاثة أخرى من إلخ . ولا ننسى أن نقول أن هذه هي ورش العمل الوحيدة التي تقدم قائمة جرد كاملة تكون قد قمت بإعدادها من أجل شراء بوابات حديدية مطلوبة لمقابر العائلة . حتى الآلهة تنسى موضوع الموت ولكن لا عجب في ذلك اذا كانت هي خالدة . وفراير النقاش والحفار الأكثر صرامة يذكر كل شيء في الاعلان الخاص به الذى يشبه المتاهة ويشبه خصلة الشعر ويشبه النسيج المتشابك . وراح ريكاردو ريس يدرس ذلك الاعلان مما جعل قهوته المخلوطة باللبن تبرد علاوة على تجمد قطعة الزبدة الموجود على التوست الخاص به . ولاحظوا أيها الزبائن المحترمون أن مؤسستنا ليس لها فروع في أى مكان واحترسوا من أولئك الذين يسمون أنفسهم مندوبين لأنهم يخرجون من أجل خداع الجماهير بأشياء زائفة . وعندما جاءت ليديا لكي تأخذ الصينية أصابها الهم والقلق . أنت لم تأكل أى طعام يا دكتور . ألم يعجبك هذا الطعام ؟ فاحتج على كلامها وأشار إلى أنه قد تناول طعامه بالفعل ولكنه أصبح مشتت الذهن بسبب انشغاله في قراءة الجريدة . هل أطلب لك توست طازجا وأعيد تسخين قهوتك . لا داعى لأن تفعلى ذلك . فأنا على ما يرام . وعلاوة على ذلك فإنه لم يكن يشعر بالجوع . وبعد أن قال ذلك نهض واقفا ووضع يده على ذراعها لكي يؤكد لها هذا المعنى . وكان بمقدوره الاحساس بالنسيج الحريرى لكمها وبدفء بشرتها . فنظرت ليديا لأسفل وتحركت على جانب الا أن يده صاحبتها أثناء تحركها وظلا على هذا الحال لثوان قليلة . وأخيرا رفع ريكاردو ريس يده عن ذراعها . فأخذت الصينية . واهتزت الآنية الفخارية كما لو أن سطح الأرض الواقع فوق الزلزال كان موجوداً في الغرفة رقم

٢٠١ أو اذا توخينا الدقة كان موجوداً فى قلب هذه الخادمة . وترحل ليديا الآن . انها لن تستعيد هدوءها وتوازنها على وجه السرعة . انها ستذهب إلى مخزن الأطعمة وتضع الصينية بينما يدها تلامس ذلك المكان بذراعها الذى استقرت عليه يده . انها حركة رقيقة من غير المتوقع أن تصدر عن إنسانة لها هذه المهنة المتواضعة . وفى تلك اللحظة كان ريكاردو ريس يوبخ نفسه بسبب استسلامه لمثل هذا الضعف السخيف . يا له من شيء لا يصدقه العقل ذلك الذى فعلته مع هذه الخادمة . من حظه الحسن أنه لا يضطر إلى حمل صينية محملة بآنية فخارية والا لكان قد عرف أن يدى نزيل فندق يمكن أن ترتعش أيضاً المتاهات تكون على هذا النحو : شوارع ومفترقات للطرق وممشيات سديمية غير واضحة . يوجد أولئك الذين يدعون أن أفضل وسيلة للخروج من المتاهات هى أن تتخذ دائما نفس الالتفاف ونفس الاتجاه ولكن هذا كما نعرف يتناقض مع الطبيعة البشرية .

ودائما ما ينطلق ريكاردو ريس من هذا الشارع وهو شارع الكريم ثم يدخل إلى أىّ شارع آخر يكون صاعدا أو هابطا أو متجها إلى اليمين أو اليسار ويكون ذلك بمثابة أول حل لخصلة الشعر أو النسيج المتشابك . وبعد مرور بعض الوقت تبدأ ساقاه فى الشعور بالتعب . اذ لا يمكن للمرء أن يواصل التجول إلى ما لا نهاية . الرجل الأعمى ليس هو فقط الذى يحتاج لعصا من أجل تفحص خطوة للأمام أو يحتاج لكلب من أجل طرد المخاطر ولكن حتى الرجل الحاد البصر يحتاج لضوء يمكنه أن يتتبعه . ضوء يؤمن به أو يأمل فى أن يؤمن به وذلك فى حالة عدم وجود شيء ما أفضل . ان ما يحتاج اليه ريكاردو ريس هو كلب مرشد أو عصا أو ضوء يتلألأ أمامه لأن هذا العالم وكذلك لشبونة بمثابة سديم ضبابى داكن تختلط فيه جميع الاتجاهات : الشمال والجنوب والشرق والغرب . ولأن الطريق الوحيد المفتوح ينحدر لأسفل . واذا لم يلتزم المرء بالحرص والحذر فانه

سيسقط فى اندفاع نحو القاع مثل دمية الترزى التى هى بلا ساقين وبلا رأس . ليس صحيحا أن ريكاردو ريس قد عاد من ريو دى جانيرو بسبب الخوف وليس صحيحا أنه عاد بسبب موت فرناندو بسوا لأن المرء لا يستطيع أن يرجع شيئا إلى المكان والزمان الذى أبعد عنهما سواء أكان ذلك المرء هو فرناندو أو ألبرتو . فكل منا بمثابة كيان فريد من نوعه ويتعذر ابطاله أو الغاؤه أو نسخه وهو أمر غاية فى التفاهة وربما لا يكون صحيحا تماما . وحتى لو ظهر أمامى فى هذه اللحظة بينما أشق طريقي نحو أفنيدا دا ليبرديد فإن فرناندو بسوا لم يعد هو فرناندو بسوا . ليس فقط لأنه أصبح ميتا . فالشيء المهم والحاسم هو أنه لم يعد قادرا على أن يضيف شيئا إلى كيانه الذى كان عليه وإلى أعماله التى حققها وإلى التجربة التى مر بها وإلى الأشياء التى كتبها . بل إنه لم يعد بمقدوره أن يقرأ . يا له من شخص مسكين . وسيكون الخيار متروكاً لريكاردو ريس لكى يقرأ له هذه المقالة الأخرى التى نشرت فى مجلة مع وضع صورة للشاعر فى اطار ، منذ أيام قليلة اختطف الموت منا فرناندو بسوا الشاعر المتميز الذى أمضى حياته القصيرة فى تجاهل كامل من جانب جماهير القراء ويمكن للمرء أن يقول ذلك أنه كان يدرك القيمة العظيمة لانتاجه الأدبى الذى ادخره فى غيرة وحقد مثل شخص بخيل خشية أن يسرق منه ولكن ذات يوم ستظهر العدالة موهبته الرائعة مثلما أظهرت العبقريات العظمى الأخرى فى الماضى . نقطة . نقطة . نقطة أولاد الزنا . أسوأ شيء يتسم به الصحفيون هو أنهم يعتقدون أن لهم الحق أن يضعوا فى عقول الناس المستعدة لتصديق أى شيء أفكاراً مثل هذه الفكرة التى تشير إلى أن فرناندو بسوا قد ادخر أشعاره وأخفاها عن الناس خشية أن يسرقها آخرون . كيف يمكنهم أن ينشروا مثل هذه التفاهات . وفى نفاد صبر راح ريكاردو ريس يطرف مظلته على الرصيف حيث كان قد أغلق مظلته واستخدمها كعصا طالما أن المطر لم يتساقط . المرء يمكن أن يضل الطريق حتى ولو كان يسير فى خط

مستقيم . ودخل إلى منطقة الروسيو وربما كان أيضا قد وصل إلى مفترق للطرق يتشكل من خلال أربعة أو ثمانية اختيارات لو كان قد أخذها وتتبعها لكانت كلها ستنتهي مثلما يعرف كل شيء إلى نفس النقطة وإلى ما لا نهاية . ولذلك فانه لا يتم كسب سوى القليل اذا اتخذ أى طريق منها . وعندما يحين الوقت فاننا سنترك هذه المسألة للصدفة التى لا تقوم بالاختيار وانما بكل بساطة تدفع وتدفع بدورها من خلال قوى لا نعرف عنها أى شيء وحتى لو كنا نعرف فما هو الذى يمكن أن نعرفه . من الأفضل أن تعتمد على هذه اللافتات التى ربما تكون قد صنعت بمعرفة ورش فراير النقاش والتى تحمل أسماء الأطباء والمحامين والموثق العام وهم الناس الذين نلجأ اليهم وقت الحاجة والذين تعلموا كيفية استخدام البوصلة . هذه البوصلات قد لا تتوافق مكانياً ولكن هذا الأمر له أهمية قليلة اذ يكفى للمدينة أن تعرف أن الاتجاهات توجد . أنت لست مضطرا لأن تغادر لأن هذا ليس هو المكان الذى تتفرع من عنده الشوارع ولا هو تلك النقطة الرائعة التى تتلاقى عندها الشوارع وانما هو المكان الذى تغير فيه حاستها فالشمال يصبح جنوبا والجنوب يصبح شمالا ، ولقد توقفت الشمس ما بين الشرق والغرب . المدينة هى الصخرة التى تعرضت للاحتراق والتى أحدق بها الزلزال . إنها دمعة عين لن تجف ولا يوجد لها أصبع لكى يزيلها ، ينبغى علىّ أن أفتح مكتبا وأرتدى معطفا أبيض اللون واستقبل المرضى حتى ولو كان لمجرد أن أسمح لهم بأن يموتوا . هكذا قال ريكاردو ريس لنفسه وهو مستغرق فى التفكير . على الأقل سيعقدون أواصر الصداقة معى خلال فترة وجودهم على قيد الحياة . ونحن لا نقول إن هذه أفكار جميع الأطباء وإنما هى أفكار هذا الطبيب بالتحديد وعلى نحو أكيد وذلك لأسباب تتعلق به وهى أسباب لم تظهر بعد الا فيما ندر . وما هو نوع الممارسة الطبية التى سأقدمها وأين ومن أجل من . اذا كنت تعتقد أن مثل هذه الأسئلة لا تتطلب أى شيء سوى اجابات فائت واهم . فنحن نجيب من خلال الأعمال تماما مثلما أنه من خلال الأعمال نوجه أسئلة .

ريكاردو ريس على وشك النزول الى سباتيروس عندما يشاهد فرناندو بسوا واقفا عند ناصية شارع سانتا جوستا . يبدو على فرناندو بسوا أنه قد ترك واقفا في حالة انتظار لفترة طويلة ولكنه لا يبدى دلائل نفاد الصبر . وهو يرتدى نفس الحلة السوداء بدون أن يضع غطاء على رأسه وتفصيل آخر لم يلحظه ريكاردو ريس وهو أنه بدون نظارة . ويعتقد ريكاردو ريس أنه يعرف السبب فى ذلك . اذ سيكون من السخف أن يتم دفن رجل وهو مرتدى نظارته . ولكن ذلك ليس هو السبب . وكل ما حدث هو أنهم قد فشلوا أن يناولوه نظارته فى الوقت الذى كان يعانى فيه من سكرات الموت . اذ كان قد طلب منهم قائلا : إعطونى نظارتى ثم تركوه مستلقيا هناك وغير قادر على الرؤية لأننا دائما جاهزون فى الوقت المناسب من أجل تلبية الرغبات الأخيرة لمن يعانون من سكرات الموت . ويبتسم فرناندو بسوا ويلقى عليه تحية ما بعد الظهر فيرد ريكاردو ريس على تحيته ثم يسيران فى اتجاه تريرو دو باكو .

وبعد أن قطعا مسافة ضئيلة بدأ المطر يتساقط مرة أخرى . مظلة واحدة تظلهما وتحميهما سويا وعلى الرغم من أن فرناندو بسوا ليس لديه ما يدعوه للخوف من المطر إلاّ أن حركته المتعجلة كانت هى حركة شخص لم ينس الحياة تماما أو ربما كانت هى الفكرة المواسية للمشاركة فى نفس السقف والوجود على مقربة شديدة . أدخل تحت المظلة حيث يوجد متسع لشخصين . ولا أحد سيرفض مثل هذا العرض بأن يقول : لست فى حاجة إلى ذلك فأنا لا أخشى المطر . ويتساءل ريكاردو ريس فى فضول :

لو كان شخص ما يرقبنا الآن فمن سيشاهد . أنت أم أنا انه سيشاهدك أو بالأحرى سيشاهد شكلا مليئا بالظلال ليس أنت أو أنا . الكمية الخاصة بكل منا مقسومة على اثنين . لا يمكننى القول أنها نتيجة ضرب عدد واحد فى عدد واحد هل علم الحساب موجود . . الاثنان مهما كانا لا يجمعان وإنما يضربان . تقول

القاعدة كن مثمرا واضرب . ليس بهذا المعنى البيولوجي المقيد يا صديقى العزيز أنظر إلى حالتى فأنا لم أترك ورائى أى أطفال . وأنا متأكد إلى حد ما أننى أيضا لن أترك ورائى أى أطفال . ومع ذلك فنحن متعددو العناصر ولقد كتبت قصيدة أشرت فيها إلى أن أناساً لا حصر لهم يوجدون فى داخلنا . إننى لا أذكرها .

لأننى كتبتها منذ حوالى شهرين . وكما ترى فان كلا منا يقول نفس الكلام وبالتالى ليست هناك جدوى من وراء تكاثرنا . لو لم نتكاثر لما أصبح التكاثر أمرا ممكناً . دارت هذه المحادثة القيمة بما فيها من نظريات اثناء سيرهما فى طريق سباتيروس ومنه إلى شارع كونسيكو ومن هناك استدارا إلى اليسار ليدخلا فى شارع أوحسترا ثم سارا فى خط مستقيم مرة أخرى . توقف ريكاردو ريس فجأة وقال مقترحا : هيا بنا إلى مقهى مارتينيو فقال فرنانדו بسوا : ليس من الحكمة أن نفعل ذلك لأن الحوائط لها آذان وذاكرة قوية ويمكننا الذهاب إلى ذلك المقهى فى يوم آخر عندما لا تكون هناك مخاطر من احتمال أن يتعرف عليّ أحد فالمسألة هى مسألة وقت . ولدى سيرهما ببطء تحت رواق مقنطر أغلق ريكاردو ريس مظلته وقال : أفكر فى الاستقرار هنا كى أمارس مهنة الطب .اذن فأنت ليس لديك أى نية للعودة الى البرازيل انه من الصعب عليّ أن أوضح لك الأمور بل اننى غير متأكد أنه بمقدورى تقديم توضيح دعنا نقول اننى أشبه بالانسان المصاب بالأرق الذى يعثر على مكان مريح على الوسادة بحيث يمكنه الحصول على قدر من النوم اذا كنت تنشد النوم فانك تكون قد وصلت إلى دولتك الملائمة . اذا وافقت على النوم فان ذلك يعنى أننى قادر على مشاهدة الأحلام . أن تحلم هو أن تكون غائبا أو تكون على الجانب الآخر . ولكن للحياة جانبان يا بسوا . جانبان على الأقل ولا يمكننا الوصول إلى الجانب الآخر إلا من خلال الأحلام . يمكن أن تقول هذا لرجل ميت يستطيع أن يقول لك من تجربته الشخصية أنه لا يوجد على الجانب الآخر أى شيء سوى الموت . حسنا لا أعرف كنه وجوهر وطبيعة الموت ولكننى غير

مقتنع أن هذا الجانب الآخر من الحياة هو الذى نناقشه لأن الموت فى رأيى يقصر نفسه على الوجود . الموت موجود . الموت غير موجود .

أليست كلمة الوجود والتواجد لهما نفس المعنى . لا يا عزيزى ريس فالوجود والتواجد ليسا هما نفس الشيء والدليل على ذلك فإننا لدينا كلمتان مختلفتان تحت تصرفنا . على العكس من ذلك فلأنهما ليسا نفس الشيء فإننا لدينا هاتان الكلمتان ونستخدمهما . ووقفا يتجادلان تحت بهو الأعمدة عندما كان المطر يخلق بحيرات صغيرة من الماء فى الميدان والتي تجمعت على شكل بحيرات أكبر حجما والتى أصبحت بحارا طينية . ولا حتى فى هذه المناسبة يمكن لريكاردو ريس الذهاب إلى رصيف الميناء لكى يلقى نظرة على تكسر الأمواج . وكان على وشك أن يقول هذا وأن يشير إلى أنه كان هنا من قبل عندما نظر فيما حوله وأدرك أن فرناندو بسوا ينصرف بعيداً . وهنا فقط يدرك أن بنطلون الشاعر كان قصيرا للغاية مما جعله يبدو كأنه يمشى على رجلين خشبيتين . وأخيرا سمع صوته متراميا من مكان قريب على الرغم من أن فرناندو بسوا كان قد قطع مسافة طويلة . لسوف نستأنف هذه الحديث مرة أخرى اذ ينبغى علىَّ أن أنصرف الآن للذهاب إلى هناك . وبين قطرات المطر لوح بيده ولكنه لم يقل إلى اللقاء أو لسوف أعود اليك .

كانت السنة قد بدأت بطريقة أصبحت فيها حالات الوفيات هي حدث يتم يوميا صحيح أن كل عمر يكتسح ما يمكن له أن يكتسح وبسهولة أكبر فى بعض الأحيان عندما تكون هناك حروب وأوبئة وأحيانا فى ايقاع ثابت بحيث تتم حالة وفاة وراء أخرى ولكن من غير المعتاد أن نجد عددا كبيرا للغاية من الناس المشهورين يموتون سواء فى الداخل أو فى الخارج فى مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة . نحن لا نشير إلى فرناندو بسوا الذى رحل عن هذا العالم منذ فترة قصيرة ولا أحد يعرف أنه يعود من وقت لآخر انما نشير إلى ليوناردو كوامبرا

الذى ابتكر الابداعية وإلى فال - انكلان مؤلف كتاب : رومانس دى لوبوس وإلى جون جليرت الذى تألق فى الموكب الكبير وإلى روديارد كبلينج الشاعر الذى كتب قصيدة إذا وأخيرا وليس آخرا نشير إلى ملك انجلترا جورج الخامس . كما كانت هناك بكل تأكيد وفيات أخرى وإن كانت لها أهمية أقل مثال ذلك الرجل العجوز الفقير الذى دفن من خلال إنزلاق من الطين أو أولئك الثلاثة والعشرين شخصا الذين جاء وا من أليتنجو وهاجمهم قط مصاب بمرض الكلب . والذى لا تعرفه يا دكتور هو أنه فى نوفمبر الماضى وبمدن الإقليم الرئيسية مات ٢٤٩٢ شخصا من بينهم السنيور فرناندو بسوا . وهذا عدد ليس كبيرا أو صغيرا انه ما كان مقدرا له أن يكون لكن الشىء المثير للحزن للغاية أن من بينهم ٧٣٤ طفلاً تحت سن الخامسة . فاذا كان هذا هو الوضع فى المدن الرئيسية تخيل ما يمكن أن تكون عليه الأوضاع فى القرى حيث تكون القطط مصابة بمرض الكلب . يمكننا أن نواسى أنفسنا دائما مع الفكرة القائلة بأن غالبية الملائكة الصغار بالسماوات من البرتغاليين . وعلاوة على ذلك فان الكلمات يمكن أن يكون لها تأثير كبير للغاية . فعندما تتولى حكومة مقاليد السلطة يذهب الناس فى حشود لكى يقدموا ولاءهم للوزير المحترم حيث يذهب كل فرد : مدرسون وموظفون مدنيون وممثلون عن القوات المسلحة الثلاثة وقادة وأعضاء فى التحالف الوطنى واتحادات ونقابات وفلاحون وقضاة ورجال شرطة وحراس جمهوريون ومحصلو الضرائب وأفراد من الجمهور العمومى .

ويقوم الوزير بتقديم الشكر لكل فرد منهم من خلال خطبة قصيرة مصاغة فى وطنية الكتاب الأول لتعليم مبادىء القراءة ومتوافقة مع آذان جمهور الحاضرين . وأولئك الحاضرون يرتبون أنفسهم حتى يمكنهم أن يظهروا فى الصورة الفوتغرافية بينما الموجودون منهم فى الصفوف الخلفية يمدون رقابهم ويقفون على أطراف أقدامهم لكى يلقوا نظرات مختلسة من فوق أكتاف جيرانهم الطوال

القامة . وها أنذا هناك . أنهم سيخبرون في افتخار زوجاتهم عندما يعودون للمنزل . الأشخاص الموجودون في الأمام منتفخون في غرور وخيلاء إنهم لم يتعرضوا لعضات القطة المصابة بمرض الكلب ولكن لديهم نفس التعبير السخيف حيث ينزعجون من فلاش التصوير . في الفوضى فقدت بعض الكلمات ولكن يمكن استنتاجها من النغمة التي صدرت عن وزير الداخلية في مونتيمور - أوه - فيلو عندما افتتح تركيب الكهرباء وهذا تقدم كبير ولسوف أقول لهم في لشبونة إن كبار مواطني مونتيمور يعرفون كيف يكونون مخلصين لسالازار . ويمكن لنا تخيل المنظر بسهولة . بائس دي سوسا يوضح للديكتاتور الحكيم الاسم الذي أطلقته عليه جريدة «التريبيون دي نيشانز» وأن الناس الطيبين المنتمين لأرض فيرنو منديس بنتو كلهم مخلصون لسيادتك . ومع نظام للحكم كهذا شبيه بالحكم في القرون الوسطى يكون من المعروف جيدا أن الفلاحين والعمال كثيرا ما يتم استبعادهم عن تلك الطيبة فهم أناس لم يرثوا ممتلكات ولذلك فهم ليسوا رجالا طيبين وربما هم ليسوا برجال وإنما هم مخلوقات لا تختلف كثيرا عن هذه الحشرات التي تعض أو تقضم أو تزعج . ومن المؤكد أنه قد أتيحت لك الفرصة لكي تلحظ نوعية الناس الذين يسكنون في هذه الدولة يادكتور مع الوضع في الحسبان أن هذه هي عاصمة الامبراطورية عندما مررت بجوار المدخل المؤدي إلى أوه سيكيولوه في ذلك اليوم وشاهدت الدهماء المنتظرين من أجل الحصول على الصدقات ، وإذا كنت ترغب في مشاهدة الفقر الحقيقي إذهب إلى الأحياء والمناطق السكنية وشاهد بنفسك مطاعم الفقراء والحملة الرامية إلى مساعدة الفقراء أثناء الشتاء وهو مشروع يدعو للإعجاب كما قال رئيس مجلس مدينة أوبورتو في برقية رحمة الله عليه . لا تعتقد أنه كان من الأفضل أن نتركهم لكي يموتوا حيث عندئذ كنا سنوفر على أنفسنا مشاهدة ذلك المنظر المخزي للحياة في البرتغال حيث المتسولون يجلسون على أرصفة الشوارع ويأكلون كسرة من الخبز

الجاف . بل انهم لا يستحقون الأنوار الكهربائية فكل ما يريدون أن يعرفوه هو المسافة الواقعة بين الطبق الخاص بهم وأفواههم وهذا يمكن العثور عليه في الظلام .

وفى داخل الجسد أيضا يوجد ظلام عميق ومع ذلك فالدماء تصل إلى القلب والمخ بدون إبصار لكنه يرى وهو أصم لكنه يسمع وهو ليس لديه يدان ومع ذلك يمتد للأمام . من الواضح أن الانسان واقع فى المصيدة فى داخل المتاهة وفى صباح اليومين التاليين ذهب ريكاردو ريس إلى الدور الأول لكى يتناول طعام افطاره في المطعم فهو خائف من النتائج التي يمكن أن تترتب على حركة بسيطة مثل وضع يده على ذراع ليديا . لم يكن يخشى من أنها ربما تكون قد أبدت شكواها للمسئولين لأن كل ما حدث هو مجرد حركة بسيطة ومع ذلك فقد شعر ببعض القلق عندما تحدث لأول مرة عقب هذا الحادث مع المدير سلفادور . ولم يكن هناك داعٍ للقلق لأن الرجل أبدى مودته واحترامه الشديد كالمعتاد . وفى اليوم الثالث رأى ريكاردو ريس أنه كان غبيا وبذلك لم ينزل إلى الدور الأول لتناول الافطار بالمطعم . وتظاهر بأنه نسى موعد الافطار على أمل أن يفعلوا نفس الشيء . لم يكن يعرف سلفادور جيدا ففى اللحظة الأخيرة جاء طرق على الباب ودخلت ليديا تحمل الصينية ثم وضعتها على المنضدة وقالت : صباح الخير يا دكتور على نحو طبيعي تماما كالمعتاد . دائما ما تكون الأمور على هذا النحو . المرء يعذب نفسه ويفكر فى الأسوأ ويعتقد أن العالم كله بصدد أن يطلب توضيحا كاملاً فى حين أن العالم واصل مسيرته مفكرا فى أمور أخرى . ولكن ليس من المؤكد أن ليديا لدى عودتها لغرفته لكي تأخذ الصينية كانت لا تزال بمثابة جزء من العالم الذى يواصل سيره . اذ بدا عليها وكأنها تتلكأ وقد اجتاحها نوع من الشكوك . ثم تقوم بالحركات العادية وتكون بصدد رفع الصينية . لقد امسكت الصينية بالفعل وتجعلها فى خط مستقيم ثم ترفعها فى الهواء على هيئة نصف

دائرة وتتجه نحو الباب . أوه يا الهى . هل سيتكلم . انه وربما لن يقول أى كلام ربما سيكتفي بأن يلمس ذراعي مثلما فعل في المرة السابقة واذا لمس ذراعي فماذا سأفعل . نطق ريكاردو ريس باسمها : يا ليديا . فوضعت الصينية ورفعت عينيها المليئتين بالذعر وحاولت أن تقول : يا دكتور ولكن صوتها التصق في داخل حلقها . لم تكن لديه الشجاعة . وقال مرة أخرى : يا ليديا . ثم قال في صوت هامس : أرى أنك جميلة للغاية . ووقف هنالك محملقا فيها على مدى ثانية أو لحظة خاطفة فهو لم يستطع تحمل النظر اليها لفترة تزيد على الثانية . ثم حول بصره . توجد لحظات يفضل فيها المرء الموت على الحياة . وأغلق الباب في بطء . ثم سمع وقع أقدام ليديا وهي عائدة في الطرقة .

وأمضى ريكاردو ريس اليوم بأكمله خارج الفندق . وقرر أن يترك فندقه في اليوم التالي ويذهب إلى فندق آخر أو يستأجر جزءاً من منزل أو يعود إلى البرازيل مع أول باخرة متجهة إلى هناك . وعاد إلى الفندق وتناول طعام العشاء وخرج مرة أخرى لكي يشاهد فيلما في سينما البوليتيما تحت عنوان «الحروب الصليبية»

انه فيلم مليىء بالايمان وبالمعارك الطاحنة والقديسين والأبطال والخيول البيضاء الرائعة . وانتهى الفيلم ، وسادت هالة من الحماس الديني في شارع سانتوس حيث ظهرت فوق رأس كل مشاهد للفيلم هالة نورانية ومع ذلك هناك أناس ما زالوا غير مقتنعين بأن الفن يمكن أن يحسن الجنس البشري . واتخذ ابيسود الصباح الأبعاد والنسب الصحيحة . كم كان سخيفا منا أن ندخل في مثل هذه الحالة .

وفتح بيمينتا الباب له . كان المبنى مليئا بالهدوء والسلام على نحو لا يصدقه العقل . من الواضح أن هيئة العاملين بالفندق لم يكونوا يعيشون فيه . ودخل إلى غرفته . وعلى الفور ومن خلال الغريزة نظر إلى السرير لم يكن السرير مرتبا كالمعتاد وبدلا من وجود وسادة واحدة شاهد وسادتين . ربما تكون فتاة أخرى غير

ليديا هي التي رتبت السرير واعتقدت أن الغرفة يشغلها شخصان . نعم يمكن أن نفترض أن الخادمات يتبادلن الأدوار من وقت لآخر حتى تكون لديهن فرص متساوية للحصول على البقشيش أو - وهنا ابتسم ريكاردو ريس - لمنعهن من تكوين صداقات مع الضيوف . حسنا غداً سوف تتضح الأمور . فاذا ظهرت ليديا في صباح الغد ومعها صينية الافطار فهي بالتأكيد التي تكون قد رتبت السرير وماذا بعد . استلقى على السرير وأطفأ الأنوار ولم يكلف نفسه مشقة ازاحة الوسادة الثانية ثم أغلق عينيه في إحكام . أقبل تعال أيها النوم . لكن النوم لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه . ومر ترام في الشارع وربما كان هو الترام الأخير ، من هو الموجود في كياني الذي لا يرغب في النوم والذي يتملك جسده القلق جسدي أو أهي قوة ما غير ملموسة تموج بالقلق في جميع أرجاء جسدي أو على الأقل في هذا الجزء مني الذي ينمو . يا الهي انها الأشياء التي يمكن أن تحدث للانسان . ونهض في غضب وتحسس طريقه من خلال الضوء الخافت المتسرب من النافذة وذهب لكي يفتح الباب قليلا ويتركه موارباً . ثم عاد إلى سريره هذا عمل صبياني . اذا كان الرجل يريد شيئا ما فإنه لا ينبغي عليه أن يتركه للصدفة وإنما يشرع في انجازه . أنظر بعين الاعتبار إلى ما حققه الصليبيون في زمانهم حيث كانوا على استعداد للموت اذا اقتضت الضرورة وانظر إلى تلك القلاع وانظر إلى شعارات النبالة . لم يعد يعرف ما اذا كان مستيقظا أو نائما . ويفكر في أحزمة العفة والطهارة التي كانت موجودة بالعصور الوسطى ويفكر في المفاتيح التي كان يفوز بها الفرسان ويفكر في المخلوقات المسكينة المضللة المخدوعة . ويفتح باب غرفته في صمت ثم يغلق . ويعبر الغرفة هيكل شبحي متحسسا طريقه نحو حافة السرير . وتمتد يد ريكاردو ريس وتتقابل مع يد متجمدة وتجذبها نحوه . وترتعد ليديا وكل ما يمكنها أن تقوله : إنني انتفض بسبب البرد الشديد . ويظل هو ملتزما بالصمت حيث راح يفكر فيما اذا كان ينبغي عليه أن يقبلها على شفتيها . مثل هذه الفكرة المثيرة للحزن .

(٥)

من المقرر أن يصل الدكتور سامبيو وابنته اليوم حيث أعلن عن ذلك سلفادور في نشاط وخفة كما لو أن هذا الخبر السار من شأنه جلب مكافأة . ما زال هناك لكي يستدعي ليديا ويقول لها : إذهبى وتأكدى بنفسك من أن كل شيء مرتب وغرفتا الدكتور سامبيو والسانوريتا ما رسيندا هما رقم ٢٠٤ ورقم ٢٠٥ وهو أمر تعرفه ليديا تماماً بدا على ليديا أنها لا تلاحظ أن الدكتور ريكاردو ريس واقف هنالك لدى انطلاقها صاعدة إلى الدور الثاني . تساءل الدكتور كم عدد الأيام التى سيقضيانها بالفندق . أنهما يقضيان عادة ثلاثة أيام وهما سيذهبان في مساء الغد إلى المسرح فانا قد حجزت لهما مقعدين بالفعل . إلى المسرح ، ما هو اسم ذلك المسرح . انه مسرح دونا ماريا . آه هذه الكلمة ليس من أجل ابداء التعجب والدهشة وانما قد أدخلت هنا من أجل انهاء حوار لا نقدر على استمراره أو لا نرغب في استمراره . وحقيقة الأمر أن معظم القادمين من الأقاليم من أجل زيارة لشبونة – ولعل كوامبرا تغفر لى لأننى وضعتها ضمن الأقاليم – ينتهزون الفرصة ويذهبون للمسرح حيث ربما يذهبون لمشاهدة الرقى (*) REVVE الذى يعرض في بارك مييار أو مشاهدة فيلم في دار أبولو أو دار أفينيدا في حين أن أولئك الذين لهم ذوق رفيع يذهبون حتما إلى مسرح دونا ماريا والذى يعرف أيضا باسم : المسرح القومى . ذهب ريكاردو ريس إلى الصالون وراح يتصفح جريدة وألقى نظرة على صفحة الترفيه ودليل المسارح وشاهد اعلانا عن مسرحية مار من تأليف ألفريدو كورتز فقرر على الفور الذهاب إلى المسرح فهو كمواطن برتغالى صالح ينبغى عليه تشجيع الممثلين البرتغاليين وكان على وشك أن يطلب من سلفادور أن

(*) عمل مسرحى يتألف من مزيج من الحوار والرقص والغناء ويهدف عادة إلى السخرية من الاحداث الجارية والازياء السائدة – المترجم .

يحجز له مقعدا من خلال اتصال تليفوني لكنه غير رأيه وقرر أن يحجز بنفسه مقعدا في اليوم التالي .

ما زالت هناك ساعتان متبقيتان قبل حلول موعد تناول العشاء . وفي تلك الأثناء سيصل الضيفان القادمان من كوامبرا اللهم إلا إذا وصل قطارهما متأخرا ويسائل ريكاردو ريس نفسه لدى صعوده على السلالم متجها إلى غرفته : ولكن لماذا ينبغي عليّ أن أكون مهتما للغاية ويقول لنفسه إنه من المستحب دائما أن يقابل ناس متحضرين قادمين من أماكن أخرى وعلاوة على ذلك فانه توجد تلك الحالة المرضية المثيرة الخاصة بمارسيندا . ويمر بجوار الغرفة رقم ٢٠٤ ويدرك أن الباب مفتوح بينما ليديا في داخل الغرفة تقوم بتنظيف الأثاث باستخدام منفضة مصنوعة من الريش . ينظران في خلسة إلى بعضهما البعض وتبتسم ليديا لكنه لا يبتسم لها . وعقب ذلك مباشرة يصبح موجودا في غرفته ثم يسمع طرقا خفيفاً على الباب . إنها ليديا التي تتسلل في هدوء وتسأله : أأنت متضايق مني ؟. ويرد عليها بشق الأنفس بينما شفتاه مزمومتان . هنا في وضح النهار لا يعرف كيف يتصرف . إنها ليست سوى خادمة للغرف بالفندق وكان بمقدوره أن يربت على مؤخرتها الآن في فسق ومجون. إلا أنه يشعر بالارتباك الشديد بحيث لا يستطيع القيام بحركة كهذه . ربما هذا الارتباك له ما يبرره في فترة زمنية سابقة ولكن ليس بعد أن التقيا سويا بالفعل واضطجعا في نفس السرير وفي نوع من التكريس . وقالت ليديا : سوف أجيىء اليك هذه الليلة إذا سمحت ظروفي بذلك . فلم يرد عليها . إذ بدا له من غير الملائم أن تخطره مقدما في حين أن الفتاة ذات اليد المشلولة ستكون نائمة قريبة منهما وغير مدركة لتلك الأسرار الليلية التي تجرى في هذه الطرقة وفي هذه الغرفة الموجودة في الطرف البعيد . لكنه لم يكن قادرا على أن يقول لها : لا تجيىء . ثم غادرت ليديا غرفته واستلقى على الأريكة لكي يستريح . ثلاثة ليال مليئة بالنشاط الجنسي عقب مرور فترة

طويلة من الامتناع عن ممارسة الجنس ولا عجب في أنه وهو في هذه المرحلة من العمر لا يستطيع فتح عينيه إلا بصعوبة . ويقطب جبينه ويسائل نفسه – ويدون العثور على إجابة – عما إذا كان ينبغى عليه أن يعطى لليديا هدية صغيرة من نوع ما مثل جورب أو قرط رخيص الثمن أو شىء ما يتناسب مع فتاة من نفس طبقتها الاجتماعية . ينبغى عليه أن يحسم عدم اليقين هنا مع التفكير فى الدوافع والأسباب المؤيدة والمعارضة . هذا الموضوع ليس شبيها بمسألة ما إذا كان عليه أن يقبّلها على شفتيها أم لا لأن الظروف هى التى تحدد له القرار وذلك من خلال ما يسمى بلهيب العاطفة فهو نفسه لم يكن يعرف كيف حدث ذلك وكيف راح يقبّلها كما لو أنها أجمل فتاة فى العالم . وربما سيتضح له أن مسألة تقديم هدية لها ستكون أمراً سهلا مثل موضوع القبلات فعندما يستلقيان معا يمكن أن يقول لها : أود أن أقدم لك تذكارا صغيرا وعندئذ ستجد ذلك أمراً طبيعيا للغاية . بل وهى ربما تسائل نفسها عن السبب الذى جعله لا يقدم حتى الآن هدية لها عقب مرور كل هذا الوقت .

ترامى من الدهليز صوت وقع أقدام وأصوات بشرية حيث كان بيمنتا يقول : شكرا جزيلا ياسيدى ثم أغلق بابان عقب ذلك . لقد وصل المسافران . لقد كان على وشك الانخراط فى النوم . لقد تحول النهار إلى ليل منذ فترة قصيرة وربما حان بالفعل وقت تناول طعام العشاء . لكن ريكاردو ريس لا يرغب فى أن يكون هو أول من ينزل متجها إلى صالة الطعام . ويقول لنفسه فى تفكير : إذا كنت لم أسمعهما وهما يغادران غرفتيهما فربما أكون قد استغرقت فى نوم عميق دون أن أدرى ثم استيقظت دون أن أدرك أننى كنت نائما . لقد اعتقدت أننى أخذتنى سنة من النوم فى حين أننى استغرقت فى نوم عميق . ويجلس معتدل القامة فى نوع من القلق ثم ينظر إلى ساعة يده . لقد تجاوز الوقت الثامنة والنصف بقليل وفى نفس هذه اللحظة يترامى صوت رجل من الدهليز قائلا : يامارسيندا .. إننى فى

انتظارك . ويفتح باب ثم تترامى أصوات غامضة ووقع أقدام تتحرك بعيدا ثم الصمت المطبق . وهنا ينهض ريكاردو ريس ويذهب إلى حوض الغسيل لكى يغتسل ويمشط شعره . الشعر على صدغيه يبدو اليوم أكثر بياضاً . ينبغى عليه أن يستخدم غسولا أو صبغة من النوع الذى يعيد اللون الطبيعى للشعر بسرعة وبحيث يعيد اللون الأصلى وبدون أى مبالغة .

جميع المناضد تقريبا مشغولة . ويتوقف ريكاردو ريس عند المدخل . ويجيىء المتر دى أوتيل لكى يقوده ويرشده إلى منضدته . لا حاجة لأن يفعل ذلك . فالمنضدة موجودة فى نفس المكان الذى يجلس فيه دائما . ولكن ماذا يمكن أن تكون عليه الحياة بدون هذه الطقوس وغيرها من الطقوس الأخرى : اركع عندما تصلى . ارفع الغطاء عن رأسك تحية العلم لدى مروره أمامك . اجلس وانشر المنديل على ركبتيك . إن نظرت حولك لكى تعرف من هو الشخص الجالس إلى جوارك إفعل ذلك فى حذر . أومىء برأسك تحية لأى شخص تعرفه . ذلك هو ما يفعله ريكاردو ريس . هذان الزوجان وذلك الضيف الجالس بمفرده وهؤلاء الناس الموجودون هنا . وهو يعرف أيضا الدكتور سامبيو وابنته مارسيندا ولكنهما لا يتعرفان عليه مرة أخرى . إذ ينظر اليه الدكتور المحامى سامبيو بنظرة خالية من أى تعبير وربما هو يبحث فى داخل ذاكرته لكنه لا ينحنى نحو ابنته ولا يهمس فى أذنها قائلا لها : ألست بصدد إلقاء التحية على الدكتور ريكاردو ريس الذى وصل إلى صالة الطعام توا . ولكنها هى التى تنظر اليه عقب مرور لحظات قليلة حيث كانت تنظر من فوق كُمّ الجرسون أثناء تقديم الطعام لها وظهرت رعشة خفيفة للغاية على وجهها الشاحب وتورد خفيف فى الوجه كدليل على أنها تعرفه . وقال ريكاردو ريس لنفسه فى تفكير : إنها تعرفنى ثم قال بصوت عالٍ موجها كلامه للجرسون رامون سائلا عن نوعية الطعام الذى سيقدم فى وجبة العشاء . وهذا ربما يوضح السبب أن الدكتور سامبيو نظر اليه ولكن لا فقبل ذلك بثوانٍ قليلة قالت مارسيندا لوالدها : ذلك الجنتلمان هو الذى كان مقيما بالفندق عندما كنا

هنا في المرة الأخيرة . ولدى مغادرتهما المائدة أومأ الدكتور سامبيو برأسه ايماءة خفيفة تحية للدكتور ريكاردو ريس بينما تحفظت ابنته . فارتفع الدكتور ريكاردو بجسده قليلاً عن مقعده كرد على التحية . كل شيء يسير على نحو يبشر بصداقة جميلة . مما لاشك فيه أنهما سيتجهان إلى الصالون ولكنهما يذهبان إلى غرفتيهما . وربما سيذهب الدكتور سامبيو لنزهة فيما بعد على الرغم من الطقس الممطر وذلك لأن مارسيندا تنام مبكراً حيث تجد هذه الرحلات بالقطار مليئة بالأرهاق . وعندما يدخل ريكاردو ريس إلى الصالون فانه لن يجد سوى عدد قليل من الضيوف الصامتين وسيجد بعضهم منخرطين في قراءة الصحف والبعض الآخر يتثاء ب بينما الراديو يبث في هدوء أغنيات برتغالية منتمية للمسرحيات الشعبية الساخرة عالية النغمة وبهيجة ولكن لا يكاد أحد ينصت لها . وفي هذا الضوء أو بسبب هذه الوجوه الداكنة اللون الكئيبة فان المرآة تشبه المربى المائي وعندما يعبر ريكاردو ريس الصالون عند الجانب البعيد ويرجع من نفس الطريق لكي لا يستدير ويتخذ خطا مباشرا في اتجاه المدخل فانه يشاهد نفسه في اللج الأخضر كما لو كان يسير في قاع المحيط وسط الحطام والجثث الغارقة . ينبغي عليه مغادرة هذا المكان على الفور ويصل إلى السطح ويتمكن من التنفس مرة أخرى . ويصعد إلى غرفته الرهيبة . لماذا ينبغي عليَّ هذه التوترات الظاهرة في المرآة أن تسبب له كل هذا الاكتئاب إذا كان كل ما يشغل باله هما هذان الشخصان اللذان يعيشان في كوامبرا ويجيئان إلى لشبونة مرة واحدة في كل شهر . هذا الدكتور لا يبحث عن زبائن من المرضى وهذا الشاعر لديه موزيات (*) عديدات لكي يقدمن له الإلهام . وهذا الرجل لا يسعى من أجل الحصول على زوجة فهو لم يعد إلى البرتغال سعيا وراء تحقيق هذا الهدف وعليك أن تنظر بعين

(*) الالهات الحاميات للشعر والغناء في الميثولوجيا اليونانية (المترجم)

الاعتبار إلى الفارق بينهما فى السن. إنه ليس ريكاردو ريس الذى يفكر فى هذه الأفكار ولا أى واحد من تلك الكيانات العديدة التى لا حصر لها والتى توجد فى داخله . ربما كانت فكرة تفكر فى ذاتها بينما هو ينظر فى دهشةلدى تفكك عقدة خيط تقوده لأسفل نحو ممرات ودهاليز مجهولة يوجد فى نهايتها فتاة مرتدية ثوبا أبيض اللون لا تستطيع حتى مجرد الإمساك بباقة من الزهور لأن ذراع يدها اليمنى سيكون متشابكا مع ذراعه لدى عودتهما من مذبح الكنيسة سائرين على السجادة الحمراء الوقورة نحو توترات المشى المتعلق بالزواج . وكما ترى فان ريكاردو ريس تولى زمام الفكرة ويسيطر عليها بالفعل ويوجهها ويستغلها من أجل أن يخدم نفسه . والأركسترا والسجادة الحمراء هما بمثابة تحليقات الخيال والآن ولكى تكون لقصة هذا الشاعر نهاية سعيدة فانه يحقق المعجزة الطبية عندما يضع باقة الزهور على ذراع مارسيندا الأيسر فتظل الباقة موجودة على ذراعها بدون تقديم أية مساعدات . والآن يمكن لمذبح الكنيسة والقسيس أن يختفيا ويمكن للموسيقى أن تتوقف ويمكن للضيوف أن يختفوا فى هالة من الدخان . وينسحب العريس بعد أن أصبحت خدماته غير مطلوبة بعد أن تمكن الطبيب من شفاء المريضة ومن المؤكد أن الباقى كان من عمل الشاعر . وهذه الحلقات الرومانتيكية لا يمكن مواء متها فى أغنية ألكية Alcaic مما يبرهن على أن ما يكتب غالبا ما يكون مختلطا مع التجربة المعاشة ومن ثم فان المرء لا يسأل الشاعر عن أفكاره أو أحاسيسه .

لقد انقضى الليل ولم تهبط ليديا من العلية ورجع الدكتور سامبيو متأخرا وفرناندو بسوا لا يعرف مكانه الا الله . وبعدئذ طلع النهار . وأخذت ليديا الحلة من أجل أن يتم كيها وغادرت مارسيندا ووالدها الفندق من أجل الذهاب للطبيب الاخصائى فى الموعد المحدد . ويقول سلفادور أنها ذهبت من أجل العلاج الطبيعى والتدليك . ولأول مرة يدرك ريكاردو ريس أنه من العجيب أن تجيىء فتاة إلى لشبونة بينما

هى تعيش فى كوامبرا وهى مدينة مليئة بالاخصائيين من أجل على تدليك وعلاج طبيعى كان يمكن أن يقدم لها بكل سهولة فى كوامبرا . فالأشعة فوق البنفسجية - على سبيل المثال - إذا لم تطبق وفق جدول زمنى معين لا ينجم عنها سوى فوائد قليلة . ويقلب ريكاردو ريس هذه الشكوك فى داخل ذهنه أثناء سيره فى الشيادو متجها إلى شباك التذاكر عند المسرح القومى ولكن انتباهه تشتت لدى رؤيته أناسا عديدين يرتدون دلائل الحداد من بينهم عدد من النساء المرتديات للحجاب وأناس متميزون بملابسهم السوداء وتعبيراتهم الوقورة بل ومن بينهم رجال يرتدون شرائط الحداد على قبعاتهم . لقد كان يتم دفن أقدم حليف لنا وهو جورج الخامس ملك أنجلترا . وعلى الرغم من الحداد الرسمى فإنه يوجد عرض مسرحى فى هذا المساء وليس هذا بمثابة عدم احترام فالحياة ينبغى أن تواصل سيرها . وقام الرجل الموجود خلف شباك التذاكر ببيع تذكرة له فى الصفوف الأمامية بالمسرح وأبلغه بأن الصيادين سيكونون من بين جمهور المشاهدين فى هذه الليلة . فتساءل ريكاردو ريس عمن يكونون هؤلاء الصيادين قبل أن يدرك أنه قد ارتكب خطأ فادحاً . فتجهم الرجل الموجود فى شباك قطع التذاكر وغير نغمة صوته وقال فى حدة : من الواضح أنهم الصيادون القادمون من نزارى NAZARE . فمن هم الآخرون الذين كان يتوقع مجيئهم حيث لم يكن هناك داع لاحضار صيادين من كاباريكا أو من بوفو . ولقد تم تحمل نفقات الرحلة ونقل أمتعة الصيادين القادمين من نزارى وذلك حتى يمكنهم المشاركة فى هذا الحدث الثقافى . وراح ريكاردو ريس يقتل الوقت المتبقى من فترة ما بعد الظهر بالجلوس فى المقاهى علاوة على الذهاب لتفحص العمل الذى ينفذ فى مسرح عدن كما أن مسرح شاف دى أورو على وشك الافتتاح مما سيجعل الأهالى والمواطنين والأجانب على حد سواء يدركون أن لشبونة آخذة فى الرقى والتقدم السريع ، وبذلك فانها سرعان ما ستكون قادرة على منافسة المدن الكبرى الأوربية وهى

جديرة بذلك من حيث هى عاصمة امبراطورية عظمى . لم يتناول ريكاردو ريس طعامه بالفندق وإنما عاد اليه فقط من أجل تغيير ملابسه . كان بنطلونه وجاكتته وصديريته قد وضعوا في أناقة على مشجب عقب كيها فهو عمل من انجاز اليدين المحبتين ومعذرة للمغالاة في القول إذا كيف يمكن أن يكون هناك حب في المضاجعة الليلية التى تتم بين نزيل بالفندق وخادمة غرف هو من حيث هو شاعر وهى بالصدفة تسمى ليديا ولكنها ليديا مختلفة وإن كانت لا تزال سعيدة الحظ لأن ليديا الواردة فى أشعاره لم يسبق لها أبدا أن سمعت تأوهاته وتنهداته حيث كانت تكتفي بالجلوس على شاطىء النهر مصغية لشخص ما يفضى بدخيلة نفسه «إننى أعانى يا ليديا من الخوف من القدر» . وتناول شريحة من لحم البقر في مطعم مارتينيو وشاهد مباراة في البلياردو . ثم أدرك أن الوقت حان للذهاب إلى العرض المسرحى فترك المطعم ودخل إلى المسرح وهو محاط عن يمينه وعن يساره بعائلتين كبيرتى العدد . لم يكن لديه الرغبة فى أن يشاهد إلى أن يختار هو بنفسه اللحظة الملائمة لذلك والله وحده هو الذى يعرف تلك الاستراتيجية العاطفية التى كان يتبعها . وعبر الردهة بدون توقف . وعند المدخل المؤدى إلى القاعة قابله المرشد الذى قاده فى المشى الأيسر إلى أن وصل به إلى الصف السابع ثم قال له : أنه ذلك المقعد الموجود بجوار السيدة . لا تطلق العنان لأفكارك الخيالية أيها القارىء فالرجل قال بجوار هذه السيدة وليس بجوار هذه الفتاة . فأى مرشد فى المسرح القومى يمكن الاعتماد عليه من حيث أنه إنسان يتحدث فى لباقة ووضوح شديد لأن أساتذته هم أعظم دراميين فى النخائر من المسرحيات الكلاسيكية والحديثة . مارسيندا جالسة فى الصف الثالث أمامه ونحو اليمين وبالتالى فهى فى مكان بعيد عنه بل وهى غير مدركة لحضورى وهى تجلس على يمين والدها وهذا وضع ملائم لأنها عندما تتكلم مع والدها وتستدير برأسها قليلا يصبح بمقدور ريكاردو ريس مشاهدة بروفيل وجهها . هل وجهها يبدو أطول من ذى قبل لأنها مشطت شعرها لأسفل . انها ترفع يدها اليمنى إلى مستوى نقنها لكى

توضح كلمة قالتها أو بصدد أن تنطق بها وربما هى تتناقش فى موضوع الطبيب الاخصائى الذى يعالجها وربما تتناقش فى موضوع المسرحية التى هما بصدد مشاهدتها . من هو هذا الأديب الذى يسمى الفريدو كورتيز ولا يستطيع والدها أن يقول الكثير عنه فهو قد شاهد مسرحية «المصارعون» (*) بمفرده منذ عامين ولم تعجبه كثيراً ولكن هذه المسرحية لفتت انتباهه بسبب موضوعها التقليدى . لن يمضى وقت طويل حتى نعرف الشكل الذى تبدو عليه المسرحية . هذه المحادثة التى نفترض أنها حدثت قد عرقلت من خلال جر الكراسى بالأماكن العلوية ومن خلال همسات متصاعدة مما جعل كافة الرؤوس تستدير وتنظر لأعلى . الصيادون القادمون من نزارى وصلوا ويجلسون فى مقاعدهم الموجودة فى المقصورة العليا إنهم يجلسون منتصبى القامة كى يشاهدوا ولكى يشاهدهم الناس . وهم رجال ونساء يرتدون الزى الخاص بهم وربما يكونون حفاة الأقدام إذ لا يستطيع المرء التأكد من ذلك وهو جالس فى المكان السفلى هنا . ويقوم بعض الناس من الجمهور بالتصفيق فيبدأ آخرون بالتصفيق فى نوع من المحاكاة . ويشعر ريكاردو ريس بالتوتر ويطبق جماع يديه فى تكلف متنفج من جانب شخص لا تجرى فى عروقه دماء زرقاء . ولكن الأمر ليس كذلك إنها فقط مسألة لباقة حيث يجد ريكاردو ريس أن الانفجار بالتصفيق يعتبر أمرا متسما بالسوقية والابتذال .

تطفأ الأنوار وتصبح القاعة غارقة فى الظلام ويمكن سماع الدقات العالية المنسوبة إلى موليير على خشبة المسرح . ماهو الرعب الذى تبثه تلك الدقات فى قلوب الصيادين وزوجاتهم . ربما هم يتخيلون أن هذه هى الطرقات الأخيرة التى يقوم بها النجارون الذين يقومون باعداد المسرح للتمثيل . وتفتح الستارة . وتظهر امرأة تشعل نيرانا الوقت مازال بالليل ومن خلف المشهد يترامى صوت رجل يقول «نانى زيه» . لقد بدأ عرض المسرحية . ويتنهد الجمهور ويتمايل ويبتسم أحيانا

(*) شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الناس فى روما القديمة - المترجم .

ويموج بالإثارة لدى انتهاء الفصل الأول مع ذلك الفرار الكبير من جانب النساء وعندما تضاء الأنوار تبدو الوجوه مفعمة بالحيوية وهذه دلائل تبشر بنجاح المسرحية . يوجد تصايح صادر عن الأماكن العلوية من مقصورة إلى مقصورة بحيث يمكن أن يظن أن هؤلاء الصيادين هم الممثلون أنفسهم حيث أن طريقة التكلم تكاد تكون واحدة سواء أكان إلى الأفضل أو الأسوأ حيث يتوقف ذلك على درجة المقارنة .. وراح ريكاردو ريس يفكر فى هذا الموضوع فيقرر أن الهدف من وراء الفن ليس هو التقليد وأن المؤلف ارتكب خطأ فادحا من خلال كتابة المسرحية باللغة المحلية لنازايه وذلك لأن الحقيقة لا تتسامح مع انعكاساتها أو بالأحرى ترفضها . ويصفق الجمهور مرة أخرى فيشارك ريكاردو ريس من خلال التعاطف. ولا تصفق مارسيندا لأنها لا تستطيع ولكنها تبتسم . وتبقى معظم النساء جالسات ولكن الرجال هم الذين بحاجة لأن يتمددوا ويحركوا سيقانهم ويذهبوا لدورة المياه المكتوب عليها كلمة «للرجال» ويدخنون سيجارة وسيجاراً علاوة على تبادل الآراء مع أصدقائهم وإلقاء التحية على الأشخاص الذين يعرفونهم بالاضافة إلى أن يشاهدوا ويشاهَدوا فى الردهة . وإذا ظلوا باقين فى مقاعدهم فان ذلك يرجع عادة لأسباب تتعلق بالحب والمغازلة . وعندما يقفون تحوم عيونهم مثل عيون الصقور فهم أبطال الدراما الخاصة بهم . فهم ممثلون يؤدون أدوارهم أثناء فترة الاستراحة بينما الممثلون الحقيقيون يوجدون فى غرف الملابس التابعة لهم يطرحون الأدوار التى سيؤدونها بعد قليل . وعندما ينهض ريكاردو ريس واقفا وينظر بين الرؤوس فانه يشاهد الدكتور سامبيو وهو ينهض واقفا هو الآخر . وترفض مارسيندا النهوض من خلال ايماءة من رأسها وتظل جالسة فيضع والدها يده على كتفها فى محبة ثم يتحرك سائرا نحو المشى . فسارع ريكاردو ريس إلى الوصول إلى البهو أولاً . وسرعان ما سيتقابلان وجها لوجه وسط هذه الحشود من الناس الذين يسيرون هنا وهناك ويتجاذبون أطراف الحديث فى جو سرعان ما أصبح مليئا بدخان السجاير . وتوجد أصوات وتعليقات : بالميرا رائعة.

فى رأيى أنهم وضعوا على خشبة المسرح شباكا للصيد عديدة أكثر من اللازم . يالهم من مجموعة من الأفاقين الذين يصارعون بعضهم البعض على نحو يجعلك تظن أنهم جادون .. ذلك لأنك ياصديقى العزيز لم تشاهدهم أبداً مثلما شاهدتهم أنا فى نازارى حيث يقاتلون هناك بعضهم البعض مثل الشياطين . فى بعض الأحيان يصعب معرفة أو فهم الكلام الذى ينطقون به . حسنا تلك هى الطريقة التى يتكلمون بها . وتحرك ريكاردو ريس بين مجموعات الناس وهو يصغى فى انتباه شديد إلى تعليقاتهم كأنه الذى ألف المسرحية مع مراقبة تحركات الدكتور سامبيو فى نفس الوقت من على مسافة حيث كان يحرص أن يلتقى معه فجأة كما لو كان بطريق المصادفة . وبعدئذ أدرك أن الدكتور سامبيو قد رمقه وحدد موقعه وبدأ يشق طريقه قادما إليه . وكان سامبيو هو الذى تحدث أولاً : مساء الخير . على أى نحو تستمتع بالمسرحية . وشعر ريكاردو ريس أنه لا حاجة به لأن يقول : يالها من مفاجأة يالها من مصادفة . حيث رد على التحية على الفور وأكد أنه يستمتع بالمسرحية وأضاف : نحن نقيم فى نفس الفندق بل وكان ينبغى عليه أن يعرف نفسه قائلا اسمى ريكاردو ريس وتردد فيما إذا كان عليه أن يضيف قائلا أنه دكتور فى الطب وأنه كان يعيش فى ريو دى جانيرو وأنه رجع إلى لشبونة منذ أقل من شهر . ولم يكن الدكتور سامبيو يصغى الا فيما ندر حيث كان يبتسم وكأنه يقول : لو كنت قد عرفت سلفادور لفترة طويلة مثلى لكنت قد أدركت أنه قد أخبرنى بجميع التفاصيل عنك . ونظرا لأننى أعرفه جيدا فأعتقد أنه زودك بمعلومات عنى وعن ابنتى . من المؤكد أن الدكتور سامبيو داهية حيث أمضى سنوات عديدة فى العمل كموثق عام مما عاد عليه بفوائد معينة . وقال ريكاردو ريس : نحن لسنا بحاجة لأن نتعرف على بعضنا البعض . هذا صحيح . وشرعا على الفور فى الدخول فى مناقشة عن المسرحية والممثلين مع التعامل مع بعضهما البعض فى احترام شديد : يادكتور ريس يادكتور سامبيو .إحساس لطيف

بالمساواة ينصب عليهما من خلال لقبيهما ولذلك ظلا يتحدثان سويا إلى أن دق جرس التحذير فعادا إلى القاعة سويا وقالا : إلى لقاء آخر . ثم ذهب كل منهما إلى مقعده حيث جلس ريكاردو ريس على مقعده أولاً ثم ظل يرقب إلى أن شاهده يتحدث مع ابنته . فنظرت خلفها وابتسمت له فرد عليها بابتسامة . لقد كان الفصل الثاني على وشك البدء .

وتقابل ثلاثتهم خلال فترة الاستراحة التالية ورغم أنهم كانوا يعرفون جميعا بعضهم البعض إلا أن الأمر كان لا يزال يتطلب التعريف : ريكاردو ريس ومارسيندا سامبيو . وتصافحا بالأيدى : اليد اليمنى تصافحت مع اليد اليمنى بينما يدها اليسرى كانت متدلية وعاجزة وخجولة وراغبة فى التخفى عن الأنظار وكأنها غير موجودة على الأطلاق . ولم يبق ريكاردو ريس موجودا فى البهو وإنما راح يتجول بين المماشى خلف المقصورات الموجودة فى الردهة الكبرى وراح يحملق لأعلى نحو المقصورات العلوية لكى يلقى نظرة عن كثب على الصيادين للأسماك . ولكن جرس التحذير بدأ يدق حيث كانت فترة الاستراحة فى هذه المرة أقل من فترة الاستراحة السابقة عليها وعندما دخل إلى القاعة كانت الأضواء قد بدأت تخبو . وطوال فترات الفصل الثالث راح يوزع انتباهه مابين المسرح ومارسيندا التى لم تنظر خلفها على الاطلاق . ولكنها كانت قد غيرت جلستها قليلا حتى يمكنه أن يشاهد مساحة كبيرة من وجهها ومن وقت لآخر كانت تلقى بشعرها للخلف على الجانب الأيسر مستخدمة يدها اليمنى فى بطء شديد كما لو كان ذلك يتم فى تعمد. ما الذى تريده هذه الفتاة ؟ ومن تكون هى. لأن الناس لا يكونون دائما على النحو الذى يبدون عليه. وشاهدها وهى تجفف خديها من الدموع لدى اعتراف ليانور بانها سرقت مفتاح صدار النجاة (*) وذلك لكى يموت لافاجانتى. وتدوى القاعة بالتصفيق الحاد ويشارك ريكاردو ريس فى التصفيق .

(*) ثوب من الفلين للوقاية من الغرق (المترجم) .

هنا في هذا المسرح يدرك المرء كيف انه يمكن بسهولة خلق تفاهم ما بين الطبقات المختلفة والمهن المختلفة وما بين الاغنياء والفقراء وما بين هؤلاء الذين يشغلون الطبقة المتوسطة الاجتماعية. هذا مشهد نادر للاخوة يستحق التسجيل. ويتم حاليا إغراء صيادى الاسماك لكى ينضموا للممثلين على خشبة المسرح وبذلك يتم سماع جذب الكراسي مرة أخرى. إذن العرض لم ينته بعد ويجلس المشاهدون على كراسيهم مرة اخرى وتجيىء الان لحظة الذروة المليئة بالاثارة والبهجة عندما يسير مجتمع صائدى الاسماك القادمين من نازارى فى الماشى والطرقات ثم يصعدون الى خشبة المسرح. وهنالك ينخرطون في الرقص والتغنى بالألحان الشعبية التقليدية الخاصة بالاقليم التابع لهم بالاشتراك مع الممثلين ويعانق زعيم المجموعة الممثل روبلز مونتايرو وتتلقى أكبر زوجات الصيادين سنا قبلة من الممثلة بالميرا باستوس ويتحدث الكل فى وقت واحد فى نوع من الهرج والمرج حيث يتحدث كل منهم بلهجته المحلية ولكن مع التهيؤ لفهم الآخرين وبعدئذ يتصاعد المزيد من الرقص والغناء وتؤدى الممثلات الاصغر سنا رقصة منيو الشعبية التقليدية الى أن يبدأ المرشدون فى دفعنا برفق نحو أبواب الخروج . ومن المقرر أن يتم تقديم عشاء للممثلين ولسوف تفرقع الزجاجات المليئة بالخمور الفوارة التى تلسع فتحات انف الانسان ولسوف تنخرط نساء نازارى الطيبات في نوبات من الضحك الهستيرى بعد أن تدور رؤوسهن مع تناول الخمور الفوارة التى هن غير معتادات على تناولها : وغدا عندما يغادر الأتوبيس فى حضور الصحفيين والمصورين وقادة المؤسسات سيهتف الصيادون بهتافات مدوية بحياة الدولة الجديدة والوطن. لا يمكن للمرء أن يكون متأكدا من أن الصيادين قد دفعت لهم نقود لكى يفعلوا ذلك ولكن دعونا نفترض أن هذا بمثابة تعبير تلقائى عن الامتنان بسبب تقديم خمور البورت لهم وهى ذلك النوع من الخمور التى يعشقونها تماما.

ولم يحاول ريكاردو ريس تجنب لقاء ثانٍ لدى مغادرته للمسرح. ففى المشى الجانبى سأل مارسيندا عما اذا كانت قد استمتعت بالمسرحية. فقالت أن الفصل الثالث قد أثار مشاعرها للغاية مما جعل الدموع تنساب من عينيها. فقال لها: نعم لقد شاهدتك وأنت تبكين. ثم انتهت المناقشة عند هذا الحد. وبعد أن استدعى الدكتور سامبيو تاكسيا أشار الى أن ريكاردو ريس يمكن أن يستقل التاكسى معهما اذا كان ينوى العودة مباشرة الى الفندق. ولكن ريكاردو رفض هذا العرض وعبر عن شكره وامتنانه اذن تصبح على خير . طابت ليلتك . لقد اسعدنى لقاؤك ثم انطلق التاكسى كان يسعده أن يرافقهما ولكنه ادرك أن ذلك سيتسبب فى حدوث ارتباك اذ كانوا جميعا سيشعرون بالارتباك والقلق ويلتزمون بالصمت حيث لن يصبح من السهل العثور على موضوع آخر للمناقشة ناهيك عن المسألة الحساسة الخاصة بترتيبات الجلوس في داخل التاكسى طالما لن يكون هناك مكان يتسع لثلاثة أشخاص بالمقعد الخلفى وبالطبع لن يرغب الدكتور سامبيو فى الجلوس بالمقعد الامامى تاركا ابنته بمفردها مع شخص غريب بالمقعد الخلفى. نعم شخص غريب وموجود فى ظلام ملائم لانه حتى ولو لم يحدث أدنى اتصال جسمانى فان الظلام سوف يغلفهما سويا بيدين ناعمتين مما يجعلهما يقتربان أكثر من بعضهما البعض من خلال أفكارهما التى ستصبح تدريجيا بمثابة اسرار من الصعب اخفائها . كما لم يكن من الملائم أن يجلس ريكاردو ريس فى المقعد الامامى بجوار السائق لانه لايمكن لك أن تعرض على شخص ما أن توصله مجانا وبعدئذ تطلب منه الجلوس في المقعد الامامى فى مواجهة عداد التاكسى وأيضا فى نهاية التوصيلة بالتاكسى سيجد الشخص الجالس بالمقعد الامامى انه مضطر لأن يسدد الأجرة . والمضيف الجالس بالمقعد الخلفى لا يستطيع العثور على محفظة نقوده ولكنه يصر على أن يسدد الاجرة قائلا: اترك هذا لى مع القول لسائق التاكسى بألا يأخذ أية نقود من الشخص الجالس فى المقعد الامامى لاننى أنا الذى سأسدد الاجرة. وفى نفاد صبر ينتظر سائق التاكسى الى أن يتخذا

قرارا. فهذه مناقشة سبق له أن سمعها آلاف المرات. ويسير ريكاردو ريس عائدا الى فندقه . الليل بارد ورطب. ولكن السماء لا تمطر ويرغب فى قضاء بعض الوقت فى التنزه سيرا على الأقدام فينزل هابطا على طول شارع اوجوستا ويعبر تيريريو دى باكو ليصل الى تلك السلالم المؤدية الى جانب رصيف الميناء. هذا الرجل الواحد الموجود جسمانيا يرقب اليوم ولكن توجد فى داخله أيضا تلك الكيانات التى لا حصر لها والتى ينطوى عليها كيانه فهو كان يحمل فى جوانبه تلك الكيانات فى كل مرة جاء فيها الى هنا والتى تتذكر الوجود هنا رغم انه لا يتذكر. العينان اللتان تعتادان على الظلام تستطيع المشاهدة لمسافة بعيدة على مسافة بعيدة توجد الخطوط الخارجية الرمادية لبواخر تنتمى للاسطول والتى تركت الامان الذى يتميز به الميناء وعلى الرغم من أن الطقس مازال يتسم بالقسوة الا انه لم يعد قاسيا الى الدرجة التى لا تتحملها البواخر وعلى كل حال فان حياة البحار هى حياة تتسم بالتضحية . وتبدو بعض البواخر من على نفس هذه المسافة أن لها نفس الابعاد ومن المؤكد أن هذه هى زوارق الطوربيد التى تسمى باسم أسماء البحار.

هذا الجو البارد لا يصلح للتأملات الفلسفية يشعر كأن قدميه تتجمدان من البرد، وتوقف رجل شرطة فى إعياء لكى يرقبه على نحو متواصل . إن رجلا يتأمل فى الماء لم يلفت نظره من حيث هو رجل أفاق أو نصاب وانما كرجل يفكر فى القاء نفسه فى مياه النهر. وفكر رجل الشرطة فى المتاعب التى يمكن أن تترتب على انتحار ذلك الرجل حيث سيضطر الى اطلاق صفارة الانذار واستخراج الجثة من الماء وكتابة تقرير رسمى عن الحادث ولذلك قرر الاقتراب منه وهو لا يعرف على وجه الدقة ما سيقوله له من كلام ولكن كان يأمل فى ان مجرد وجوده يكفى لتعويق فكرة الانتحار. وسمع ريكاردو ريس صوت وقع الأقدام وأحس ببرودة الحجر اللوحى وكأنها تخترق قدميه.. ينبغى عليه شراء حذاء . له رقبة ونعل سميك

. وقال مساء الخير أيها الضابط فأحس رجل الشرطة بالاطمئنان وتساءل: أهناك اى شيء خاطيء. لا لا شيء. انه أمر طبيعي للغاية في العالم أن يتنزه رجل على طول الرصيف حتى في الليل لكي يشاهد النهر والبواخر. فهذا هو نهر التاجوس الذى لا ينساب عبر قريتي لان التاجوس الذى ينساب عبر قريتي يسمى دورو ولكن حقيقة انه ليس له نفس الاسم لا يعنى أن النهر ينساب عبر قريتي يعتبر أقل جمالا. فانصرف رجل الشرطة في اتجاه شارع الفانديجا وهو يفكر في جنون بعض الناس الذين يظهرون في منتصف الليل. فما الذى سيطر على عقلية هذا الرجل لكي يعتقد انه يمكنه الاستمتاع بمنظر النهر في جو رهيب كهذا فهو اذا كان مضطرا مثلى أن يسير في دورية لمراقبة أرصفة الميناء في كل ليلة لكان قد أدرك أن ذلك أمر متعب للغاية وواصل ريكاردو ريس سيره في طريق الارسنال وفي خلال عشر دقائق وصل الى الفندق وظهر بيمنتا على بسطة السلم ومعه كمية من المفاتيح وانسحب بدون أن ينتظر كالمعتاد الى أن يصل الضيف الى الدور العلوى فلماذا فعل ذلك وسأل ريكاردو ريس نفسه هذا السؤال الطبيعي وبدأ يشعر بالقلق. ربما انه يعرف بالفعل حكايته مع ليديا ومن المؤكد انه سيكتشف ذلك إن عاجلا أو آجلا لان اى فندق يعتبر بمثابة منزل من زجاج وبيمنتا الذى لا يترك الفندق أبدا يعرف كل صغيرة وكبيرة ومن المؤكد انه يشك في شيء ما.. قال ريكاردو ريس في دفء مبالغ فيه مساء الخير يابيمنتا فرد بدون أى أثر للتحفظ وبدون أية مشاعر عدائية. فقال ريكاردو ريس لنفسه: ربما أكون أنا مخطئا في رأيي. وعندما ناوله بيمنتا مفتاحه كان على وشك الاستمرار في الصعود ولكنه التفت وراءه وفتح حافظة نقوده . هذا من اجلك يابيمنتا وناوله ورقة مالية من فئة عشرين سكود ولم يقدم توضيحا كما أن بيمنتا لم يسأل أية اسئلة.

لم يكن هناك أي ضوء منبعث من أية غرفة فسار ريكاردو ريس في هدوء في الدهليز خشية ان يزعج الضيوف المستغرقين في النوم، وتوقف على مدى ثلاث

ثوان عند باب غرفة مارسيندا وفي غرفته كان الهواء رطبا وليس أفضل من الهواء الموجود عند النهر. فدبت الرعشة في جسده كأنه لايزال يحملق في تلك البواخر الشاحبة ويصغي لوقع أقدام رجل الشرطة. ما الذي كان سيحدث لو انه أجاب قائلا: نعم هناك شيء ما خاطيء على الرغم من عدم قدرته على اتقان هذا الدور والتوسع فيه. ولدى اقترابه من سريره تلاحظ له وجود انتفاخ في اللحاف المحشو بزغب العيْدر انه شيء ما قد وضع بين الملايات من المؤكد أن ذلك هو زجاجة ماء ساخنة ولكي يتأكد وضع يده على قمتها. لقد كانت دافئة بالفعل. لقد كانت ليديا انسانة طيبة لأنها حرصت على تدفئة سريره . وهذه من اسباب الراحة التي يتم توفيرها لعدد قليل من الناس المختارين ربما لن تجيء في هذا الليلة واستلقى وفتح الكتاب الموجود على الكومودينو. وهو الكتاب الذي يتناول هربرت كوين وألقى نظرة على صفحتين دون ان يفهم المعنى. يوجد ما يشير الى أن هناك ثلاثة دوافع لارتكاب الجريمة، وكل دافع منها يكفي لإلصاق تهمة الجريمة بالشخص المشتبه فيه . وكافة الدوافع الثلاثة تتركز عليه. ولكن الشخص المشتبه والذي يحاول الاستفادة من القانون يشير الى أن الدافع الحقيقي اذا كان الأمر يتطلب إثباتا انه هو بالفعل الشخص المجرم ـ ربما يكون هو دافع رابع أو خامس أو سادس وكل دافع منها يعتبر معقولا بالتساوي وبالتالي فان التفسير الكامل للجريمة لا يمكن الوصول اليه الا من خلال علاقة متبادلة بين كافة هذه الدوافع من حيث تأثير بعضها على البعض الآخر في كل ربط الى أن تبطل التأثيرات في نهاية الأمر بعضها البعض وتصبح النتيجة هي الموت . وعلاوة على ذلك ينبغي على المرء أن يضع في الاعتبار الى اى حد كان الضحية نفسه مسئولا مما قد يقدم لنا من الناحية الاخلاقية والقانونية دافعا سابعا ومحددا. وشعر ريكاردو ريس بتسرب الدفء الى كيانه حيث كانت زجاجة الماء الساخن تدفيء قدميه وبدأ ذهنه ينشط بدون اية إعاقة من جانب العالم الخارجي الا ان هذا الكتاب المثير للملل والسأم

جعل جفنى عينيه ثقيلين فأغلق عينيه للحظات وعندما فتحهما شاهد فرناندو بسوا جالسا عند نهاية السرير كما لو كان قد جاء من أجل زيارة شخص مريض . نفس هذا النظرة الغريبة قد احتفظ بها من اجل الاجيال القادمة فى صور عديدة. اذ وضع يدا على يد فوق فخذه الايمن بينما رأسه منحنٍ للامام بعض الشيء وقد ظهر الشحوب الشديد على وجهه. فوضع ريكاردو ريس كتابه على جانب بين وسادتين وقال: لم اكن اتوقع مجيئك في هذا الوقت المتأخر للغاية ثم ابتسم فى مودة خشية أن يلحظ الزائر مسحة من نفاد الصبر فى صوته ويلحظ غموض كلماته التى يمكن أن تعنى: كان بمقدورى الاستغناء عن زيارتك اليوم. وكان لديه سبب وجيه أو سببان اذا تحرينا الدقة.. السبب الاول هو انه كان يود التكلم - ولكن ليس مع فرناندو بسوا - عن الامسية التى قضاها فى المسرح والسبب الثانى هو احتمال مجيء ليديا الى غرفته فى اية لحظة ولم يكن يخشى من احتمال أن تصيح بأعلى صوتها قائلة النجدة.. يوجد شبح ولكنه كان يخشى من احتمال أن يكون لدى فرنانـدو بسوا الرغبة - رغم أن ذلك لم يكن من طبيعته - فى البقاء ومشاهدة هذه المغازلات المتعلقة بالجسد والروح وهو احتمال غير مستبعد . ولذلك قال ريكاردو ريس: لا نستطيع أن نتجاذب أطراف الحديث لمدة طويلة لاننى أتوقع مجيء زائرة ومن المؤكد أنك ترى أن الوضع سيكون متسما بالارتباك اذا جاءت هى وشاهدتك هنا فقال فرناندو بسوا أنت لا تضيع الوقت فانت هنا منذ أقل من ثلاثة أسابيع وهاأنت قد دخلت مغامرات تتعلق بالحب والغرام.. فقال ريس : الامر يتوقف على ما تعنيه بكلمة حب فهى خادمة بالفندق قال فرناندو: ياعزيزى ريس : أنت انسان محب للجمال وصديق حميم لالهة الاوليمب ومع ذلك تضاجع خادمة فندق مجرد خادمة وانا الذى اعتدت أن أصغى إليك وأنت تتحدث باستمرار ولائك الشديد لكل من ليديا وناريا وشلوئى والأن تقول لى انك مفتون ومتيم بخادمة غرف بالفندق. انت تخيب ظنى فيك وتصيبنى بالاحباط الشديد. فقال ريس: خادمة

الفندق تسمى ليديا أيضا ولست مفتونا بها وأنا لست الشخص الذى يتعرض للتخيل والافتتان. فقال بسوا ياعزيزى ريس اراك تقرأ قصة بوليسية مع وضع زجاجة ماء ساخن عند قدميك وفي إنتظار خادمة لكى تجيىء وتدفأ كل جسدك ومع ذلك تتوقع مني أن أصدق أنك نفس الرجل الذى كتب هذا البيت من الشعر «في هدوء جليل أرقب الحياة من على مسافة» ينبغى أن أسألك عن المكان الذى كنت فيه عندما رحت ترقب الحياة من على مسافة فقال ريس: انت نفسك سبق ان قلت ان الشاعر هو شخص ما يدعى ويتظاهر فقال بسو ا - نحن ننطق بمثل هذا الحدس أو البديهيات دون ان نعرف كيفية التوصل اليها ومما يؤسف له اننى انتقلت الى رحمة الله دون ان اكتشف ما اذا كان الشاعر هو الذى يدعى ويتظاهر بانه رجل أو أن الرجل هو الذى يتظاهر بانه شاعر. فقال ريس: أن يتظاهر المرء وأن يخدع المرء نفسه ليسا هما نفس الشيء. فقال بسوا هل ذلك جملة خبرية ام سؤال؟ فقال ريس سؤال. قال بسوا بالطبع ليسا هما نفس الشيء. انا ابتكرت فقط ولكنك ابتكرت نفسك اذا كنت تريد ان تشاهد الفارق اقرأ قصائدى وارجع واقرأ قصائدك فقال ريس : هذه المحادثة تهدف بكل تأكيد الى أن ابقى مستيقظا طوال الليل . فقال بسوا: ربما تجيىء ليديا وتضمك بين ذراعيها. فقال ريس يبدو انك متضايق.. فقال بسوا: أنا متضايق بالفعل. فقال ريس : قل لي هل مظهرى هو مظهر شاعر أو مظهر رجل. فقال بسوا:

يا صديقي ريس موقفك حالة ميئوس منها فأنت قد ابتكرت نفسك وأنت من اختراع نفسك وهذا الوضع ليس له علاقة بشاعر أو برجل. فقال ريس: حالة ميئوس منها. بسوا : هل هذا سؤال أم جملة خبرية ، قال ريس: مجرد سؤال. فقال بسوا: نعم . حالة ميئوس منها. أولا وقبل كل شيء أنت لا تعرف من أنت. فقال ريس : وماذا عنك هل سبق أن عرفت في اى وقت من الاوقات من أنت. فقال بسوا: لم أعد أهتم فأنا رجل ميت. لكن لا تقلق سيكون هناك العديد من الناس الذين على استعداد لتفسير كل شيء يتعلق بي. فقال ريس: لعلى رجعت الى

البرتغال لكي أعرف من أنا. فقال بسوا: كلام فارغ وهراء صبياني يا صديقي العزيز فالالهامات من ذلك النوع لايمكن العثور عليها الا من خلال التصوف ومن خلال الطرق التي تؤدي الى دمشق. قال ريس : لا استطيع فتح عيني الا بصعوبة. فقال بسوا: لسوف أتركك الآن لكي تحصل على قدر من النوم، النوم هو الشيء الوحيد الذي احسدك عليه. السخفاء هم فقط الذين يعتقدون أن النوم هو ابن عم الموت أو شقيق الموت لا استطيع أن أتذكر . أظن انه ابن عم الموت. وبعد هذه الكلمات القليلة من التعاطف هل تودني حقا أن أرجع إليك؟. فقال ريس: أرجوك أن ترجع اليَّ . فأنا ليس لدي عدد كبير من الناس الذين أثق فيهم وأفضي اليهم بأسراري ودخيلة نفسي. فقال بسوا: ذلك سبب قوي ووجيه بكل تأكيد. فقال ريس: استمع اليَّ. قدم لي خدمة بأن تترك الباب مواربا فقال بسوا" أمازلت تتوقع مجيء أحد لزيارتك فقال ريس: لايمكن للمرء ان يعرف يا عزيزي فرناندو. لا يمكن للمرء أن يعرف.

وبعد نصف ساعة فتح الباب في عنف وقفت ليديا ترتعد عقب صعود جهيد للسلالم والدهاليز وانزلقت الى داخل سريره وتكورت الى جواره وتساءلت: أكان المسرح ظريفا ولطيفا؟ فأخبرها بالحقيقة: نعم كان لطيفا للغاية .

(٦)

لم تظهر مارسيندا ووالدها اثناء تناول الغداء بالمطعم. اكتشاف السبب لا يتطلب ذكاء كبيرا من جانب ريكاردو ريس او اي دهاء جدلي من جانب مخبر سري يجري تحرياته فهو بكل بساطة اعطى لسلفادور ولنفسه بعض الوقت حيث راح يتجاذب أطراف الحديث معه في تكاسل وقد استند بمرفقيه على مكتب الاستقبال في جو من الصداقة، وأثناء الدردشة ابلغ سلفادور انه قد تقابل مع

الدكتور سامبيو وابنته وتعرف عليهما واشار الى انهما من الناس المهذبين المحببين للنفس للغاية. فاصبحت الابتسامة التى تطل من وجه سلفادور ملتوية بعض الشيء بعد أن تحدث كثيرا مع الضيفين لدى مغادرتهما فلم يذكرا له تقابلهما بطريق الصدفة مع الدكتور ريس بالمسرح. صحيح انه قد عرف هذه الحقيقة الآن لكنه لم يعرف الا فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر . كيف يمكن لمثل هذا الشيء أن يحدث. بالطبع لم يكن يتوقع أن يحصل على ورقة عقب العودة من المسرح مكتوب عليها: لقد تقابلنا بالصدفة مع الدكتور ريس أو أنا تقابلت مع الدكتور سامبيو وابنته ولكنه مع ذلك شعر بالظلم الكبير لعدم ابلاغه على مدى ساعات طويلة فمدير الفندق الذى يحرص على عقد أواصر الصداقة على ذلك النحو مع ضيوفه لا ينبغى معاملته بهذه الطريقة، يا له من عالم بغيض متسم بالعقوق، وتغلب سلفادور على شعوره بالضيق قبل ان يعد المرء من واحد الى عشرة على حد تعبير المثل الشعبى وسمح لنفسه بأن يسير فقط على هدى طبيعته الحسنة فعبر عن ابتهاجه وامتدح الدكتور سامبيو وابنته فهو جنتلمان بمعنى الكلمة وهى فتاة شابة مهذبة للغاية من خلال نشأة صالحة تماما ومما يدعو للشفقة ان حياتها حزينة بسبب ذلك العجز أو المرض: وبينى وبينك يا دكتور ريس لا اعتقد أن هناك أملاً فى الشفاء أو العلاج، ان ريكاردو ريس لم يبدأ فى المناقشة من أجل أن يتورط فى نقاش طبى حيث سبق أن أعلن عن نفسه أنه غير مؤهل للدخول فى مثل هذه المناقشات الطبية ولذلك غير موضوع المناقشة الى الشيء المهم أو الى الشيء الذى كان يهمه وهو الحقيقة التى مفادها أن الدكتور سامبيو ومارسيندا لم يهبطا الى المطعم من أجل العشاء فتساءل على نحو فجائى: هل رجعا بالفعل الى كوامبرا. فأجاب سلفادور الذى كان بمقدوره ان يدعى بانه يعرف كل شيء فى هذا الشأن قائلا: لا ليس قبل الغد فهما اليوم يتناولان طعام الغداء فى بايكسا لأن الانسة مارسيندا لديها موعد مع الاخصائى وبعدئذ

سيقومان بجولة لشراء بعض الاشياء التى يحتاجان اليها. لكنهما سيتناولان العشاء بالفندق بكل تأكيد . وتحرك ريكاردو ريس مبتعدا عن مكتب الاستقبال وسار خطوتين ثم غير رأيه وقال: أعتقد أننى سأذهب للنزهة فالجو يبدو مستقرا ، فقال سلفادور وهو يتظاهر بأنه يعطى مجرد معلومة لا قيمة لها: السنيورا مارسيندا قالت انها تنوى العودة الى الفندق عقب الغداء وانها لن تصاحب والدها لدى ذهابه لانجاز بعض الاعمال التى تتعلق بمهنته والآن ذهب ريكاردو ريس الى الصالون ونظر من النافذة متفحصا الجو ثم عاد الى مكتب الاستقبال وقال: صحيح أن المطر لا يتساقط ولكن من المؤكد أن الجو بارد. فشجعه سلفادور على البقاء بالفندق قائلا:سأطلب احضار سخان يعمل بالكيروسين كما يوضع هنا فى الصالون . ودق جرس اليد مرتين فجاء ت خادمة غرف ولكنها لم تكن ليديا. آه يا كارلوتا اشعلى سخانا وضعيه فى الصالون وسواء أكانت مثل هذه التفاصيل أمر لايمكن الاستغناء عنه ام لا من اجل تحقيق فهم واضح لهذه القصة فان كل منا يجب أن يحكم على ذلك بنفسه والحكم سوف يختلف وفقا لدرجة انتباهنا وحالتنا النفسية ومزاجنا الخاص . يوجد أولئك الذين يهتمون بالأفكار المتحررة أولا وقبل كل شيء ويفضلون البانورامات واللوحات الجدارية التاريخية بينما آخرون يفضلون التقارب والتضاد بين ضربات الفرشاة الصغيرة. ونحن ندرك جيدا انه من المستحيل ارضاء كل شخص لكن هنا كان الامر مجرد مسألة السماح بمرور الوقت الكافى من أجل المشاعر لكى تنمو وتتطور ما بين وفى نطاق أبطال الرواية بينما كارلوتا تذهب جيئة وذهابا أما سلفادور يكافح مع بعض الحسابات الصعبة فى حين يسائل ريكاردو ريس عما اذا كان قد أثار الشكوك لدى تغيير رأيه على نحو فجائي.

وجا ءت الساعة الثانية ثم الساعة الثانية والنصف وتمت قراءة واعادة قراءة جرائد لشبونة ذات حروف الطباعة الباهتة والتى توجد المانشتات الرئيسية بها على الصفحة الاولى: تتويج ادوارد الثامن ملكا على انجلترا وزير الداخلية يتلقى

التهنئة من المؤرخ كوستا بروشادو. الذئاب تتجول فى المناطق الحضرية، خطة انشولاس تقترح ضم النمسا الى المانيا رفضتها الجبهة الوطنية النمساوية، الحكومة الفرنسية قدمت استقالتها والشقاق ما بين جيل رويلز وكالفو سوتيلو يمكن أن يعرض الكتلة الانتخابية لاحزاب الجناح الايمن الاسبانية للاخطار . وبعدئذ توجد الاعلانات . بارجيل هو أفضل اكسير لصحة الفم. فى مساء الغد ستظهر راقصة الباليه ماروجيتا فونتان لاول مرة فى مسرح الاركاديا. نحن نقدم أحدث موديلات السيارات التى صنعتها مؤسسة ستوديو بيكر. ومن وقت لاخر كان يطن جرس الباب الرئيسى معلنا عن مغادرة أناس للفندق ووصول أناس جدد ويقوم نزيل جديد بتسجيل اسمه فى سجلات الفندق ويصدر أزيزا حادا لدى قيام سلفادور بالضغط على زر الجرس ويصعد بيمنتا حاملا معه أمتعة . ثم يسود الصمت . صمت طويل وقابض للنفس . وتصبح فترة ما بعد الظهر متسمة بالكآبة متجاوزة الساعة الثالثة والنصف . نهض ريكاردو ريس من الأريكة وحرك قدميه نحو مكتب الاستقبال . فينظر سلفادور إليه فى تعاطف بل وفى حنو وشفقة . اذن فأنت قد فرغت من قراءة كل الصحف . كل شئ يحدث الآن بسرعة كبيرة حتى أن ريكاردو ريس لا يجد متسعا من الوقت لكى يرد . صوت طنين الجرس الرئيسى يترامى كما يترامى صوت من أسفل : يا بيمنتا أيمكنك أن تساعدنى فى نقل هذه الأشياء إلى الدور العلوى . فينزل بيمنتا ويصعد مرة أخرى ومعه مارسيندا وعندئذ لا يعرف ريكاردو ريس ما ينبغى عليه أن يفعله . ولكن مارسيندا أنقذت الموقف عندما قالت له بكل بساطة : سأواصل الصعود لكى أضع هذه الأشياء فى غرفتى ثم أنزل إليك من أجل التحدث معك قليلا إذا لم يكن أمامك أمور ترغب فى انجازها . ولا ينبغى أن نندهش عندما نرى سلفادور يبتسم فى هذه اللحظة لأنه يسعده أن يرى زبائنه يعقدون أواصر الصداقة مع بعضهم البعض فهذا أمر حسن بالنسبة لصورة الفندق كما يخلق جوا بهيجا . وابتسم ريكاردو ريس

أيضا وقال لها فى تأكيد : يسعدنى كثيرا التحدث معك أو قال لها كلاما له نفس هذا المعنى .

وسرعان ما رجعت مارسيندا هابطة على السلالم . وذلك بعد أن أعادت تمشيط شعرها وجددت أحمر الشفاه فوق شفتيها . ونهض ريكاردو ريس تحية لها وقادها إلى الأريكة التى تقع على زاوية حادة مع أريكته . وجلست مارسيندا وقد وضعت يدها اليسرى فى حجرها وابتسمت بطريقة غريبة غير مألوفة وكأنها تريد أن تقول : عليك بالقاء نظرة فاحصة يدى عاجزة تماما . وكان ريكاردو ريس على وشك أن يقول : أتشعرين بالارهاق عندما ظهر سلفادور وسأل عما إذا كان بمقدوره أن يحضر لهما بعض الشاى أو القهوة . فوافقا وأشارا إلى أنهما يفضلان احتساء القهوة فى مثل هذا الجو البارد . ولكن سلفادور راح يتفحص السخان الذى ملأ الصالة برائحة الكيروسين التى تجعل المرء يشعر بالدوار بعض الشئ فى حين كان اللهب مقسما إلى العديد من الألسنة الزرقاء الصغيرة التى تهمس باستمرار . وسألت مارسيندا ريكاردو عما إذا كان قد استمتع بالمسرحية. فقال أنه قد استمتع بها بالفعل رغم أن طبيعية الأداء كانت مصطنعة بعض الشئ . وحاول توضيح الأمور أكثر فقال : فى رأيى أن الأداء المسرحى ينبغى ألا يكون طبيعيا على الإطلاق فما يقدم على خشبة المسرح هو مسرحية وليس الحياة ذاتها. فالحياة لا يمكن استخراج نسخة طبق الأصل منها وحتى أكثر الانعكاسات صدقا وهى الانعكاسات التى تحدث فى المرآة نجد أنها تحول اليمين إلى يسار واليسار إلى يمين . فقالت مارسيندا فى اصرار : لكن هل استمتعت بهذه المسرحية أم لا ؟ فرد . نعم استمتعت بها . وفى هذه اللحظة دخلت ليديا إلى الصالون ووضعت صينية القهوة على المنضدة وسألت عما إذا كانا يرغبان فى أى شئ آخر . لا شكرا جزيلا . ولكن ليديا كانت تنظر إلى ريكاردو ريس الذى لم يرفع بصره لكى ينظر إليها والذى كان يأخذ فنجانه ويسأل مارسيندا قائلا : كم

عدد الملاعق من السكر . فردت عليه : اثنتان . وكان من الواضح أن وجود ليديا لم يعد أمرا مرغوبا فيه ولذلك انسحبت بسرعة أكثر من اللازم من وجهة نظر سلفادور . فأنبها في قسوة بينما هو جالس في عرشه قائلا لها : «خلى بالك من ذلك الباب» .

وبعد أن وضعت مارسيندا فنجانها على الصينية قامت بوضع يدها اليمنى على يدها اليسرى . كلا اليدين باردتان ولكن بينهما كان يوجد الفارق ما بين الأحياء والأموات . الفارق بين ما يمكن انقاذه وما قد ضاع للأبد . والدى لن يشعر بالارتياح إذا أدرك أننى على وشك الاستفادة من صداقتنا من خلال طلب المشورة الطبية منك . فقال ريس : أتريدين رأيى بشأن العجز الذى تعانين منه . فقالت : هذه الذراع التى لا تستطيع أن تتحرك ويدى التعيسة هذه . فقال : آمل أن تفهمى السبب فى إحجامى عن تقديم رأيى . أولا لأننى لست أخصائيا وثانيا لأنه ليس لدى معلومات عن تاريخك المرضى وثالثا لأن أصول المهنة تمنع تدخلى فى فحص حالة مرضية يتم علاجها بمعرفة زميل آخر . فقالت : أعرف كل ذلك . لكن لا أحد يمنع مريضة من اتخاذ طبيب كصديق لها واستشارته بشأن مشكلاتها الشخصية .

فقال : بالطبع لا . فقالت : إذن إعطنى رأيك كصديق . وعادت ليديا إلى الصالون ومن خلال نظرة خاطفة أدركت أن وجه مارسيندا يحمر خجلا وارتباكا كما شاهدت الدموع المترقرقة فى عينيها بينما ريكاردو ريس يسند خده الأيسر على قبضة يده . وكان كلاهما صامتين كأنهما وصلا إلى نهاية محادثة مهمة أو على استعداد للبدء فى نقاش مهم . فما هى نوعية تلك المناقشة التى انتهت أو التى على وشك أن تبدأ . ثم أخذت ليديا الصينية .

بدا على ريكاردو ريس كأنه غارق فى تفكير عميق . ثم انحنى للأمام ومد يديه لمارسيندا . وانحنت هى أيضا للأمام بعض الشئ وأمسكت يدها اليمنى بيدها

اليسرى ووضعتها بين يديه كما لو كانت طائرا مكسور الجناح علاوة على وجود رصاصة فى صدره . وجرى بأصابعه فى بطء ورفق ولكن فى حزم على تلك اليد حتى المعصم ولأول مرة فى حياته يدرك معنى الاستسلام الكامل ألا وهو عدم إظهار أى رد فعل سواء أكان إراديا أو غريزيا ولا أى مقاومة بل والأسوأ من ذلك أن تلك اليد بدت وكأنها شئ غريب أجنبى لا ينتمى لهذا العالم . وحملقت مارسيندا فى ثبات نحو يدها أو نحو تلك الآلية المشلولة . لقد تفحص أطباء آخرون تلك العضلات الميتة وتلك الأعصاب عديمة الجدوى والعظام التى لا تقدم الحماية لأى شئ وها هى الآن يتم لمسها بمعرفة هذا الرجل الذى وضعت ثقتها فيه . لو أتى الدكتور سامبيو بالصدفة فى هذه اللحظة فإنه لن يصدق عينيه . لكن لم يحضر أحد إلى الصالون الذى عادة ما يكون مكانا مليئا بالكثير من حركة المرور . اليوم هو مكان للصداقة الحميمة الهادئة . وبعد أن سحب ريكاردو ريس يده فى بطء راح ينظر إلى أصابعه دون أن يعرف السبب فى ذلك ثم تساءل : منذ متى ظلت يدك على هذا النحو . فقال : فى ديسمبر الماضى أكملت أربع سنوات . فقال : هل حدث ذلك على نحو تدريجى أم فجأة . فقالت : هل تعتبر فترة شهر تتسم بالتدريج أم بالفجائية ؟ فقال : أتريدين أن تقولى أنك فى خلال شهر فقدت القوة الموجودة فى ذراعك تماما . فردت : نعم . فقال : هل كانت هناك دلائل مسبقة تشير إلى أن شيئا ما بصدد أن يصبح خاطئا ، فأجابت : لا ، فقال : ولم تتعرضى لأية اصابة أو سقوط شديد على الأرض أو ضربة عنيفة . فقالت : لا شئ من هذا القبيل . قال : وماذا قال الطبيب ؟ بررت : أن ذلك ناجم عن اصابتى بمرض القلب . فقال : لم يسبق لك أن قلت لى أنك تعانين من القلب . فقالت : اعتقدت أنك كنت مهتما بحالة ذراعى فقط . فقال : وما هى الأمور الأخرى التى قالها الطبيب . قالت : فى كوامبرا أخبرونى أنه لا يوجد علاج لحالتى هذه وهنا فى لشبونة قالوا لى نفس الأمر لكن آخر طبيب أخصائى وهو الذى يعالجنى منذ

حوالى سنتين قال : أنه يمكن لى أن أتحسن قليلا . فقال : وما هو العلاج الذى يقدمه لك ؟ . ردت : تدليك وعلاج بالمصباح الكهربائى الذى يرسل الأشعة فوق البنفسجية علاوة على علاجي بالصدمات الكهربائية . سأل : وهل هناك استجابة ؟ أجابت : يدى تقفز وترتعش ثم تصبح ساكنة بدون حركة مرة أخرى .

لاذ ريكاردو ريس بالصمت وخيل إليه أنه يشاهد على وجهها مسحة خفيفة من العداوة والاستياء وكما لو كانت مارسيندا تطلب منه أن يتوقف عن توجيه مثل هذه الأسئلة الكثيرة أو توجيه أسئلة أخرى من نوع مختلف لها مثل «هل تتذكرى ما إذا كان شيئا ما مهما قد حدث لك في ذلك الوقت» أو مثل «هل عانيت من محنة من نوع ما» .

بدا على وجه مارسيندا أنها على وشك الانفجار فى البكاء . ثم قال ريكاردو ريس : بغض النظر عن هذه المشكلة التى تتعلق بيدك هل تعانين من تعاسة من نوع ما . فأومأت برأسها وتحركت فى جلستها ولم تكمل حركتها ثم اهتزت من خلال شهقة بكاء عميقة كأن قلبها قد انتزع من مكانه ثم انهمرت الدموع من عينيها فى غير تحكم . فشعر سلفادور بالانزعاج وظهر عند مدخل الصالة ولكن ريكاردو ريس طرده فى خشونة . فانسحب سلفادور واكتفى بالتلكؤ خارج الباب . واستردت مارسيندا رباطة جأشها واستجمعت قواها لكن دموعها استمرت فى الانسياب فى هدوء وعندما استأنفت كلامها كانت مسحة العداء قد اختفت من صوتها : عقب وفاة والدتى اكتشفت أنه لم يعد بمقدورى استخدام ذراعى . فقال ريس : لكنك قلت لى منذ لحظات فقط أن الأطباء قالوا أن الشلل نتيجة لمرض فى القلب . رددت : ذلك هو ما قالوه . فقال : وهل تصدقيهم . فقالت : نعم . فقال : إذن لماذا تظنين أن هناك رابطة ما بين موت والدتك والشلل الذى أصاب ذراعك ؟ . فقالت : أنا واثقة فى ذلك لكننى لا أستطيع توضيح هذا الأمر . وتوقفت

عن الكلام واستدعت ما تبقى من الحقد والعداء الموجود لديها ثم قالت فى حدة : إننى لا أبحث عن طبيب روحانى . فقال : وأنا لست طبيبا روحانيا . فأنا مجرد طبيب عادى وممارس عام . وظهر التوتر على وجه ريكاردو ريس . فرفعت مارسيندا يدها نحو عينيها وقالت : سامحنى . إننى أسبب لك الضيق والازعاج . فقال : أنت لا تسببين لى التوتر . يسعدنى أن أقدم لك يد العون بأية وسيلة . وأضاف : إذن فأنت مقتنعة بأن هذه الرابطة موجودة . فقالت : اننى متأكدة من ذلك تماما مثل تأكدى من أننا نجلس الآن معا فقال : وأنت غير قادرة على تحريك ذراعك من خلال معرفتك أن الشلل حدث بسبب موت والدتك . فقالت : هل ذلك هو كل ما فى الأمر ؟ فقال : نعم كل ما فى الأمر وهذا يقول لنا الكثير لأنه بالنسبة لك ومن خلال اعتقادك الراسخ لم يكن هناك أى سبب آخر . ولذلك فقد حان الوقت لأن تسألى نفسك سؤالا واحدا مباشرا : هل ذراعك غير متحرك لأنك لا تستطيعين تحريكه أو بسبب أنك لا ترغبين فى تحريكه . وتم النطق بهذه الكلمات فى همس محسوس أكثر مما هو مسموع . ولو لم تتوقع مارسيندا هذا الرأى لما تمكنت من سماعه . ومد سلفادور رقبته لكى يسمع ولكن ترامى وقع اقدام بيمنتا من عند بسطة السلم حيث جاء ليسأل عما إذا كانت هناك وثائق لكى يأخذها ويسلمها للشرطة . هذا السؤال أيضا قد وجه بصوت منخفض ولنفس السبب لكى لا يتم سماع الاجابة : فى بعض الأحيان تكون الاجابة غير مصاغة فى كلمات وانما تكون محبوسة بين الاسنان وبين الشفاة وإذا تم النطق بها فانها تكون غير مسموعة .. مجرد نعم أو لا خفيفة للغاية وتتفكك بين طيات ظلال صالون الفندق مثل قطرة دماء فى بحر شفاف لكنها غير مرئية . لم تقل مارسيندا : لأننى لا أستطيع ولم تقل : لأننى لا أرغب فى ذلك . وبدلا من ذلك نظرت فى وجه ريكاردو ريس وسألته : هل لديك أية نصيحة لى .. شئ ما يمكن أن يؤدى إلى الشفاء .. علاج من نوع ما . قال ريس : لقد سبق أن قلت لك أننى لست اخصائيا ولكن

يمكن أن أخبرك يا مارسيندا أنك إذا كنت تعانين من مرض في القلب فانك تعانين أيضا من نفسك . فقالت : هذه هي أول مرة يقول فيها شخص لي كلاما كهذا . فقال : نحن جميعا مرضى نعاني من مرض ما أو آخر . مرض ضارب بجذوره للغاية بحيث يتعذر فصله عما نكون عليه . وهذا على نحو ما يجعلنا على ما نحن عليه بل ويمكنك القول أن كل شخص ما هو بمثابة المرض الخاص به ونحن ضئيلون للغاية بسبب المرض الخاص بنا ومع ذلك فنحن ننجح في أن نكون كثيرين بسبب ذلك المرض أيضا .

فقالت : لكن ذراعي لا يتحرك ويدي عاجزة تماما . فقال : ربما أن ذراعك لا يتحرك لأنه لا يرغب في ذلك . فقالت : اسمح لي أن أخبرك أن هذه المحادثة لم توصلنا إلى أية نتيجة . قال : قلت أنك لا تشعرين بأي تحسن . قالت : لا أشعر بأي تحسن فعلا . فقال : إذن لماذا تداومين على المجيئ إلى لشبونة ؟ ردت : هذا لا يرجع إليَّ وانما يرجع إلى والدي الذي يصر على ذلك وهو لديه أسبابه الوجيهة التي تجعله يصر على ذلك . فقال : وما هي تلك الأسباب ؟ قالت : أبلغ من العمر ٢٣ عاما وغير متزوجة ونشأت على ألا أتناقش في أمور معينة حتى ولو كنت أفكر فيها لأن التفكير شئ لا يمكن للإنسان أن يتجنبه . قال : أيمكنك أن تكوني أكثر صراحة معي . ردت : هل ذلك ضروري ؟ فقال بيتا من الشعر : «يا لشبونة على الرغم من أنك لشبونة ولديك بواخر في البحر» . فقالت : ما هذا . فقال : بيت من الشعر لا أتذكر من الذي كتبه . فقالت : هذه طريقة ملتوية تسألني بها عما إذا كان لوالدي صديقة في لشبونة والاجابة هي : نعم . فقال : من المؤكد أن والدك ليس بحاجة لأن يبرر زياراته للشبونة عندما يكون له ابنة بحاجة إلى النصيحة الطبية وعلاوة على ذلك فهو رجل في ريعان شبابه بالاضافة إلى أنه أرمل وبالتالي فهو غير مرتبط بزوجة معينة . قالت : كما قلت فانني نشأت على ألا أتحدث في أمور معينة ومع ذلك أواصل التحدث عن تلك الأمور سرا . فأنا مثل والدي أعتقد

أنه كلما كان المرء ملتزما بالسرية كان ذلك أفضل . فقال : شئ حسن أنني ليس لدى أطفال . سألت : لماذا ؟ فقال : لأنه لا توجد رحمة في عيني أبناء المرء . فقالت : إنني أحب والدى . فقال : إنني أصدقك لكن الحب لا يكفي . يشعر سلفادور بالغيظ لأنه لا يعرف ما يدور من مناقشات وأفكار بين هذين الشخصين اللذين لا يكادان يعرفان بعضهما البعض .

قالت : أخبرني . هل تعتقد أنني سأشفى في أى وقت من الأوقات مستقبلا . أجاب : لا أستطيع أن أقول ذلك . لقد ظللت على هذا الحال طوال أربع سنوات دون أى تحسن . والطبيب الذى يعالجك لديه كافة تفاصيل تاريخك المرضى بينما لا أعرف ذلك التاريخ وعلاوة على ذلك – وكما سبق أن أوضحت – فانني غير متخصص في هذا المجال . فقالت : أينبغى علىَّ التوقف عن المجيئ إلى لشبونة وبحيث أقول لوالدى أنني أتقبل الوضع الذى أنا عليه وأنه ينبغى عليه ألا يبدد أى مزيد من النقود في محاولة منه للعثور على شفاء لحالتى . فقال : والدك لديه سببان يدفعانه للمجيىء إلى لشبونة . فإذا قمت بالغاء سبب منهما فانه ربما يجد أو لا يجد الشجاعة التى تعينه على المجئ بمفرده لكنه سيكون قد فقد العذر الذى يقدمه مرضك . فهو في الوقت الحالى يرى في نفسه الأب الذى يرغب لابنته الشفاء . فقالت : وماذا ينبغى علىَّ أن أفعل . فقال : نحن لم نعرف بعضنا البعض الا منذ فترة قصيرة ولذلك ليس لدى الحق في أن أقدم لك نصيحة . فقالت : أرجوك إنني أطلب منك النصيحة . فقال : لا تتوقفى عن المجيئ إلى لشبونة من أجل والدك حتى ولو كنت لا تؤمنين حاليا بالشفاء . قالت : لقد توقفت تقريبا عن الاعتقاد في الشفاء . فقال : تشبثى بأى قدر متبق من الإيمان فالإيمان هو عذرك الخاص . سألت : العذر من أجل ماذا ؟ فقال : العذر من أجل الأمل . هتفت : الأمل في ماذا . فقال : الأمل . مجرد الأمل . عليك فقط بالأمل فالمرء عادة يصل إلى مرحلة لا يكون متبق فيها أى شئ سوى الأمل وعندئذ نكتشف أن

الأمل هو كل شئ . فاستندت مارسيندا بظهرها على الأريكة . وراحت تربت في بطء على يدها اليسرى بينما كان ظهرها في اتجاه النافذة ووجهها لا يكاد يرى إلا بصعوبة . وكوضع طبيعي كان على سلفادور أن يوقد النجفة الكبيرة التي هي مفخرة فندق براجانسا ولكن في هذه المناسبة نجد أنه لا يفعل ذلك كما لو كان يريد أن يظهر عدم ارتياحه بسبب استبعاده من هذه المناقشة . فهذه هي الطريقة التي يكافئانه بها حيث يجلسان هنالك غارقين في المناقشة مع الهمس في جو يسوده شبه الظلام . وما كاد يفكر في هذا الخاطر حتى أضاء ت الأنوار في النجفة . لقد اتخذ ريكاردو ريس المبادرة لأن أي شخص يدخل إلى الصالون ستساوره الشكوك عندما يجد رجلا وفتاة مغلفين في الظلال حتى ولو كان ذلك الرجل طبيبا وكانت تلك الفتاة معوقة . فهذا الوضع أسوأ من الوجود في المقعد الخلفي للتاكسي . وكما كان متوقعا ظهر سلفادور وقال : كنت بصدد المجيئ في نفس اللحظة لكي أضيىء الأنوار يا دكتور . ابتسم فابتسما هما أيضا . أنها حركات وأوضاع تتمشي مع قواعد السلوك المتحضر الذي يجمع بين النفاق والضرورة من أجل اخفاء الكرب الذي يجتاحنا . وعقب انسحاب سلفادور سادت فترة صمت طويلة وبدا أنه من الصعب التكلم مع وجود كل هذه الأضواء الهائلة . ثم قالت مارسيندا : بدون التدخل في شئونك لماذا ظللت مقيما طوال شهر في هذا الفندق . فقال : لم أقرر ما إذا كان «ينبغي عليّ البحث عن مكان أم لا ولربما أعود إلى ريو دي جانيرو . فقالت : أخبرني سلفادور أنك عشت في البرازيل على مدى ١٦ عاما فما الذي جعلك تقرر العودة إلى البرتغال ؟ قال : لأنني شعرت بالحنين للوطن . فقالت : انك تغلبت على مشكلة الحنين للوطن بسرعة إذا كنت تتحدث الآن عن العودة إلى البرازيل ، فقال : الأمر ليس كذلك على وجه الدقة . فأنا عندما صعدت إلى الباخرة المتجهة إلى لشبونة شعرت أنه لم يعد باستطاعتي تأجيل هذه الزيارة إذ كانت هناك أشياء مهمة ينبغي انجازها هنا . والآن .

والآن . الآن ... والآن توقف عن الكلام وراح يحملق فى المرآة الموجودة أمامه .. والآن أصبحت مثل الفيل الذى يشعر بقرب نهاية حياته فيذهب إلى المكان الذى عليه الموت فيه . فقالت : إذا عدت إلى البرازيل فانها ستكون هى المكان الذى يذهب إليه الفيل ليموت فيه . فقال : عندما يهاجر الرجل فانه يعتقد أن الدولة التى سيموت فيها هى الدولة التى يمضى فيها بقية حياته وذلك هو الفارق . فقالت : ربما عندما أعود إلى لشبونة فى المرة القادمة لن أجدك هنا . فقال : عندئذ ربما أكون قد عثرت على مكان أعيش فيه علاوة على فتح عيادة لممارسة الطب مع الاستقرار فى حياة روتينية أو ربما عندئذ أكون قد رجعت إلى ريو دى جانيرو . ولســــوف تعرفين حيث سيقوم صديقنــــا سلفادور بتزويدك بكافة الأخبار . فقال : سوف أجيئ إلى هنا حتى لا أفقد الأمل . فقال : سأكون هنا إذا لم أفقد الأمل .

تبلغ مارسيندا من العمر ٢٣ عاما ، لا نعرف على وجه الدقة نوع التعليم الذى حصلت عليه . ولكن نظرا لكونها ابنة موثق عام ومن مدينة كوامبرا وليست من بيئة أقل من ذلك فانها بالتأكيد قد وصلت إلى مرحلة التعليم الثانوى . ولولا حالتها المرضية لوصلت بدون شك إلى كلية من نوع ما .. ربما كلية الحقوق أو الآداب أو الفنون وهو الأمر الأكثر ترجيحا لأنه على الرغم من وجود محامى فى عائلتها إلا أن الدراسة الصعبة للقوانين واللوائح والتنظيمات لا تتلاءم مع فتاة . وتنهض من الأريكة وتمسك بيدها اليسرى وترفعها إلى صدرها وتبتسم قائلة : شكرا جزيلا على الصبر الذى أبديته لى . فقال : لا داعى لأن تشكرينى فقد استمتعت بالمناقشات التى دارت بيننا . هل ستتناولين طعام العشاء هنا هذا المساء ؟! ردت : نعم . فقال : إذن سنشاهد بعضنا البعض بعد قليل . مع السلامة . وراح ريكاردو ريس يرقبها وهى تغادر المكان . انها لم تكن فى نفس الطول الذى ارتسم فى ذاكرته وإنما كانت نحيلة . سمعها تقول لسلفادور : أخبر

ليديـا أن تجيئ إلي غرفتي بمجرد أن تنتهي من العمل الذي تقوم به . وريكاردو ريس وحده هو الذي سيجد في هذا المطلب أمرا مروعا لأن أعمالا فاضحة من الاتصال الجنسي غير الشرعي بين الطبقات الاجتماعية تكون ثقيلة الوطأة على ضميره . وهل هناك شئ ما طبيعي أكثر من استدعاء خادمة إلي حجرة نوم ضيفة وخاصة إذ كانت هذه الضيفة في حاجة للمساعدة على تغيير فستانها على سبيل المثال لأن ذراعها مشلول . ويظل ريكاردو ريس باقيا لفترة أطول ويدير مفتاح التشغيل فى الراديو فيسمع موسيقى «الجمال النائم» وهى إحدى المصادفات التى يمكن للروائى فقط استغلالها لكى يعقد مقارنات بين بحيرة هادئة وفتاة عذراء . وعلى الرغم من أن هذا لم يذكر وهى نفسها لا تعلن ذلك فإن مارسيندا فتاة عذراء وهذا أمر خاص تماما لا يجرؤ أحد على توجيه سؤال يتعلق به حتي ولو كان ذلك الشخص هو خطيبها . هل أنت عذراء ؟.

وفي هذه البيئة الاجتماعية يفترض المرء أنها عذراء بالفعل . وفيما بعد وفي الوقت الملائم قد نكتشف وفي شئ من الاستياء أنها لم تكن عذراء رغم كل شئ . وانتهت تلك الموسيقى وأعقبتها أغنية نابولي وهى أغنية سيرينادا أو شئ من هذا القبيل : يا حبيبتى ، قلبى الجاحد معك ، طول الحياة معك ودائماً .

وكان المغنى يترنم بهذه التأكيدات المخلصة الصادرة من أعماق القلب عندما دخل الصالون ضيفان يضعان دبابيس عروة ماسية في الكرافاتة الخاصة بهما بينما لغدهما يحجب رباط العنق . جلسا وأشعلا السيجار وكانا على وشك الدخول فى مناقشة تتعلق بصفقة تجارية تشتمل على فلين أو أسماك معلبة وهو أمر سنعرفه بكل تأكيد وكل ما هنالك أن ريكاردو ريس يترك الصالون وهو مستغرق بعمق فى أفكاره لدرجة أنه نسى القاء التحية على سلفادور . شئ ما غريب تدور أحداثه فى هذا الفندق .

وفى فترة لاحقة من ذلك المساء وصل الدكتور سامبيو . لم يغادر ريكاردو

ريس ومارسيندا غرفتيهما . وشوهدت ليديا من وقت لآخر على السلالم أو في الصالات ولكنها لم يتم استدعاؤها للذهاب إلى مكان آخر . وكانت وقحة مع بيمنتا فرد عليها بنفس القدر من الوقاحة . وتم ذلك بعيدا عن مسمع أي شخص لأن سلفادور لو عرف ذلك كان سيطلب توضيحاً من بيمنتا الذي كان يدمدم ويغمغم بتلميحات عن أناس كانوا يمشون أثناء نومهم ويتجولون في الطرقات في منتصف الليل . كانت الساعة الثامنة عندما قام الدكتور سامبيو بالطرق على الباب . لم يدخل إلى الغرفة وإنما اكتفى بتوجيه الدعوة لريكاردو ريس لكي ينضم إليهما أثناء تناول طعام العشاء كانت مارسيندا قد أخبرته عن محادثاتهما القصيرة . وقال : شكرا لك يا دكتور . وأصر ريكاردو ريس لكي يدخل إلى غرفته ويجلس لحظات قليلة . وقال : لم أفعل أي شئ كل ما هنالك أنني استمعت إليها وقدمت لها النصيحة الوحيدة التي يمكن أن تعطى لشخص ما بدون أي معرفة خاصة بالحالة المرضية وهي أن تداوم على العلاج ولا تسلم نفسها للاحباط فقال الدكتور سامبيو : وهذا هو ما أقوله دائما لها لكنها لم تعد تعيرني انتباهها وأنت تعرف الحالة التي يكون عليها الأطفال حيث تقول لي نعم يا أبي لكنها تجيئ إلى لشبونة دون أن يكون لديها أي اهتمام حقيقي ومع ذلك عليها الحضور حتى يمكن للاخصائي تتبع مدى التقدم في مرضها رغم أن العلاج في حد ذاته يتم في كوامبرا . قال ريكاردو ريس : من المؤكد أن هناك إخصائيين في كوامبرا . فقال الدكتور سامبيو : يوجد عدد قليل للغاية وأولئك الذين ذهبنا إليهم لم نثق فيهم بينما الأخصائي الموجود في لشبونه ذو خبرة ومهارة . فقال ريس : من المؤكد أن غيابك بعيدا عن كوامبرا يعرقل العمل الخاص بك . فقال الدكتور سامبيو : أحيانا ولكن أي أب يضحي من أجل أطفاله . ثم انسحب الدكتور سامبيو من الغرفة قائلا : حسنا سوف نطرق على بابك في التاسعة . فقال ريس : لا . لا داعي لأن تتكبد هذه المشقة لسوف أطرق بابك في التاسعة ،

وفى الموعد المحدد طرق ريس على باب الغرفة رقم ٢٠٥ لأنه ليس من قبيل الذوق أن يطرق على باب مارسيندا إذ ينبغى مراعاة تلك الرسميات .

ولدى دخولهم إلى صالة الطعام قام الجميع بتوجيه التحية لهم علاوة على الابتسامات والايماءات من الرأس . وسلفادور الذى نسى مشاعر الضيق التى انتابته أو كبتها من الناحية الدبلوماسية فتح لهم الأبواب الزجاجية . فدخل أولا ريكاردو ريس ومارسيندا وفقا لترتيبات الأتيكيت لأنه يعتبر ضيفهما . ولا حاجة للقول أن المنضدة التى سيجلسون اليها هى منضدة الدكتور سامبيو والتى يخدم عليها فيليب ولكن رامون لا يتخلى عن الامتياز الذى يتمتع به فهو سيساعد زميله وابن بلده . فكلاهما مولود فى فيلاجارسيا دى أروزا . إن قدر الآدميين هو أن يتتبعوا ممرات المنطقة الخاصة بهم فى الحياة . والبعض تتبعوا زملاءهم القادمين من جاليسيا إلى لشبونه فى حين أن هذا المدعو ريس مولود فى أوبورتو ثم عاش فترة فى العاصمة ثم هاجر إلى البرازيل بينما الشخصان الموجودان معه ظلا يسافران جيئة وذهابا ما بين كوامبرا ولشبونة على طوال السنوات الثلاث الأخيرة . وكل يبحث عن شفاء عن نقود عن هدوء العقل عن المتعة فكل واحد له الهدف الذى يسعى وراءه وهذا يوضح السبب فى أنه من الصعب للغاية أن جميع أولئك الذين هم بحاجة إلى شىء ما . تمر فترات تناول طعام العشاء فى هدوء . مارسيندا تجلس على يمين والدها بينما يدها اليسرى موضوعة كالمعتاد إلى جانب طبقها ولكن من العجيب أن هذه اليد ليست متوارية وإنما على العكس من ذلك تبدو فى تألق عندما يشاهدها أى شخص . ولا تتم مناقشة العجز الذى تعانى منه مارسيندا .إذ يتحدث الدكتور سامبيو عن أعاجيب أثينا البرتغال : هناك ولدت وبزغت إلى العالم وهناك نشأت وتخرجت من الجامعة وهناك أمارس مهنتى وأقسم أن هذه المدينة لا يمكن مقارنتها مع أى مدينة أخرى . أسلوبه قوى ولكن لا خطر من الدخول فى مناقشة تدور عند المنضدة عن مزايا كوامبرا إذا قورنت مع المدن

الأخرى سواء أكانت أوبورتو أو فيليجارسيا دى أروزا . ولا يهتم ريكاردو ريس بالمكان الذى يولد فيه المرء ولن يجرؤ فيليب ورامون على الاشتراك فى هذه المناقشة فهما يعرفان المكان الذى ليس هو مسقط رأسيهما . وكان من المحتم أن يعرف الدكتور سامبيو أن ريكاردو ريس ذهب إلى البرازيل لأسباب سياسية على الرغم أنه من الصعب أن نقول كيف عرف ذلك . فسلفادور لم يخبره لأنه لم يكن يعرف أيضا بل أن ريكاردو ريس لم يفض بهذا السر لأحد . لكن أشياء معينة تجمع من كلمات متقطعة ومن لحظات صمت ومن نظرة . كان عليه فقط أن يقول : لقد سافرت إلى البرازيل فى عام ١٩١٩ وهى السنة التى تم فيها استعادة النظام الملكى بالشمال وكان عليه فقط أن يستخدم نغمة صوتية معينة وعندئذ فإن أذن الموثق العام المعتادة على الاستماع إلى الأكاذيب والقسم باليمين والاعترافات لم تخدع ، ومن خلال طرق ملتوية وغير مباشرة ومن خلال اختبار الأرض ومحاولة اكتشاف الألغام المخبأة أو الشراك المنصوبة ولكن مع الشعور بأنه غير قادر على تغيير موضوع الحديث نجد أن ريكاردو ريس قد سمح لنفسه بأن ينزلق وقبل أن يتم تقديم طبق الحلوى فى نهاية الوجبة أشار إلى أنه ليست لديه ثقة فى الديمقراطية وأنه يحتقر الاشتراكية من كل قلبه . وأكد له الدكتور سامبيو فى ابتسامة بهدف أن يطمئنه : أنت الآن مع صديقين ولم تظهر مارسيندا سوى قدر ضئيل من الاهتمام بالمناقشة التى دارت بينهما . ولسبب ما وضعت يدها اليسرى فى حجرها . لو كان هناك توهج فإن هذا التوهج انطفأ . ما نحتاجه ياعزيزى ريس فى هذا الركن من أوربا هو رجل له رؤى وتصميم حازم لكى يرأس حكومتنا ويدير شئون البلاد . تلك كانت هى الكلمات التى قالها الدكتور سامبيو والذى أضاف قائلاً : لا يمكن عقد مقارنة بين البرتغال التى عرفتها عندما سافرت إلى ريو دى جانيرو وبين البرتغال التى عدت اليها - وأنا أعرف أنك عدت منذ فترة قصيرة - ولكنك إذا كنت قد تجولت وشاهدت الأشياء بعينين مفتوحتين فمن المؤكد

أنك لاحظت حدوث تغييرات هائلة ولاحظت ازدهارا أكبر من ذي قبل ونظاماً عمومياً وخطة متماسكة من أجل تدعيم الروح الوطنية علاوة على احترام الأمم الأخرى للانجازات التي حققها وطننا من أجل تاريخه العلماني وامبراطوريته العلمانية ، فقال ريكاردو ريس كأنه يعترف : في حقيقة الأمر لم أشاهد معالم كثيرة ولكنني أتابع باستمرار التقارير الواردة في الصحف فقال الدكتور سامبيو : ينبغي قراءة الصحف لكن هذا لا يكفي . إذ ينبغي أن تشاهد بنفسك الطرق والموانى والمدارس والأشغال العامة الموجودة في كل مكان ونشاهد جو النظام يا صديقي العزيز وتشاهد الهدوء الموجود في الشوارع وفي قلوب الناس فهذه أمة بأكملها مكرسة من أجل العمل الشريف تحت قيادة رجل دولة عظيم له يد من حديد مغلفة في قفاز مخملي ناعم وذلك هو المطلوب على وجه الدقة . والحقيقة ياعزيزي الدكتور ريس لا تختار المكان دائما وانما تبقى لتشاهد إذا اختار المكان دائماً الحقيقة ، وتجهم الدكتور سامبيو بعض الشيء حيث أزعجه هذا التناقض لكنه تعامل مع ذلك التناقض كأنه أمر عميق للغاية بحيث لا ينبغي مناقشته بالتفصيل في هذا الجو المليء بالخمور الواردة من كولاريس واستغرقت مارسيندا في التفكير في شئونها الخاصة فراحت تقضم في رفق قطعا صغيرة من لحاء ثم رفعت صوتها لتقول أنها لا ترغب في طبق الحلو أو القهوة. وأضاف والدها قائلا : هناك كتاب غير أدبي رائع لكنه مفيد بكل تأكيد ومن السهل قراءته وهو كتاب يفتح عيون الكثيرين من الناس. فقال ري : ما هو ذلك الكتاب. فقال سامبيو: إنه كتاب تحت عنوان «المؤامرة» وقد ألفه صحفي وطني متحمس للوطن يسمى تومي فييرا ولا أعرف ما إذا كنت قد سمعت عن ذلك الاسم . فقال ريس : لا لم أسمع عنه فقد عشت في مكان بعيد للغاية . فقال سامبيو : هذا الكتاب قد طبع ونشر منذ أيام قليلة فقط وينبغي عليك أن تقرأه وتعطيني رأيك . فقال ريس : سأقرأه بكل تأكيد إذا كنت توصي بقراءته بمثل هذا الحماس الكبير . وبدأ ريكاردو ريس

يشعر بالأسف لأنه قال عن نفسه أنه مناهض للاشتراكية ومناهض للديموقراطية ومناهض أيضا للبلشفية ليس بسبب أن موقفه لم يكن كذلك ولكن بسبب سأمه ومله المتزايد من مثل هذه الوطنية غير المتحررة وربما كان يشعر بالضيق أكثر بسبب عدم تمكنه من التحدث مع مارسيندا ومثلما يحدث كثيرا فإن الشيء الذى يترك بدون انجاز يسبب لك المتاعب أكثر من أى شيء آخر حيث لا تشعر بالارتياح إلا بعد انجاز ذلك العمل .

وعقب الانتهاء من تناول طعام العشاء قام ريكاردو ريس يسحب مقعد مارسيندا إلى الوراء لكي يسمح لها بالانصراف مع والدها فى المقدمة . وما أن أصبحوا فى خارج صالة الطعام حتى أصابهم التردد بشأن قضاء بعض الوقت فى الصالون ولكن مارسيندا قررت فى نهاية الأمر الذهاب إلى غرفتها بعد أن أشارت إلى أنها تعانى من الصداع وقالت لريس : غدا ربما لن نشاهد بعضنا البعض لأننا سنغادر الفندق فى وقت مبكر . فتمنى ريس لهما رحلة طيبة وأضاف : ربما أكون موجوداً هنا بالفندق عندما تعودان فى المرة القادمة فى الشهر القادم فقال الدكتور سامبيو : إذا تركت الفندق أترك لنا عنوانك الجديد . والآن لا يوجد هناك شيء آخر يمكن أن يقال . فمارسيندا سوف تذهب إلى غرفتها فهى تقول أو تدعى أنها تعانى من الصداع وريكاردو ريس لا يعرف ما يريد أما الدكتور سامبيو فإنه سيخرج من الفندق مرة أخرى فى هذا المساء .

وخرج ريكاردو ريس من الفندق أيضا . وراح يتجول وذهب إلى العديد من دور السينما ونظر إلى الملصقات الاعلانية وشاهد مباراة فى الشطرنج ولدى مغادرته المقهى كانت السماء تمطر لذلك استقل تاكسيا ورجع إلى الفندق . ولدى دخوله إلى غرفته تلاحظ له أن سريره غير منظم وأن الوسادة الثانية لم تسحب من الخزانة .. فابتسم لنفسه وراح يتمتم بهذه الأبيات من الشعر : الحزن الغامض السخيف يتوقف عند باب روحى ويحملق فى وجهى لبعض الوقت ثم يواصل السير .

(٧)

ينبغى على المرء أن يقرأ كثيرا أو يقرأ قدرا ضئيلا عن كل شيء بقدر ما يستطيع ولكن نظرا لأن حياة الانسان قصيرة ونظرا للسأم والملل الذى يتسم به العالم لا ينبغى أن يطلب الكثير من الانسان . ولندع الانسان يبدأ بالعناوين التى لا ينبغى أن يغفلها أحد وهى عناوين الكتب التى يشار إليها بأنها كتب التعليم كما لو أن كافة الكتب ليست من أجل التعليم وقائمة الكتب هذه سوف تختلف وفقا لينبوع المعرفة الذى يشرب منه المرء ووفقا للسلطة التى تتحكم فى تدفقه . وفى حالة ريكاردو ريس الذى تلقى تعليمه على أيدى الجزويت يمكن لنا أن نكوّن فكرة ما على الرغم من الفارق الكبير بين مدرسى الأمس ومدرسى اليوم . وبعدئذ تجيء ميول الشباب وأولئك الكتاب المفضلون وتلك الافتتانات والتخيلات العابرة وتلك المادة المقروءة التى كتبها ويرثار والتى تدفع المرء للانتحار أو الحفاظ على الذات ثم الكتابات الجادة المتعلقة بفترة المراهقة . وما أن نصل إلى مرحلة معينة من الحياة فاننا جميعا نقرأ نفس الأشياء تقريبا رغم أن نقطة البداية دائما ما تشكل اختلافا ويكون للذين هم على قيد الحياة ميزة واضحة وهى أنهم يكونون قادرين على قراءة ما لن يعرفه آخرون لأنهم انتقلوا إلى رحمة الله . ولكى نقدم مثالاً واحدا على ذلك نقول أن ألبرتو كايرو الذى مات فى عام ١٩١٥ وياله من شخص مسكين لم يقرأ الكتاب الصادر تحت عنوان «اسم الحرب» وبالتالى فهو ليس لديه فكرة عن هذه الأمور التى فاتته . وكذلك كل من فرناندو بسوا وريكاردو ريس سيرحلان عن هذا العالم قبل أن ينشر ألمادا بخريوس روايته . وهذه الرواية تكاد تكون تكراراً للقصة المسلية التى تدور عن ذلك الجنتلمان الذى هو من لاباليس والذى كان قبل ربع ساعة من وفاته مازال على قيد الحياة ضاربا فى الأرض على حد تعبير الحكماء . وهو لم يخطر على باله للحظة أنه سيكابد من

الأحزان التى تتعلق بأنه لن يكون بمقدوره أن يبقى على قيد الحياة ضاربا بقدميه فى أرجاء الأرض . وهيا بنا ننتقل إلى موضع آخر . الانسان إذن سيأخذ عينة من كل شىء بل ومن كتاب «المؤامرة» ولن يتعرض لأى ضرر إذا هبط من وقت لآخر من السحب حيث يلجأ إلى هناك عادة لكى يرى كيف أن الأفكار العادية المبتذلة تصاغ لأن تلك الأفكار هى التى تساعد الناس على الوجود من يوم إلى يوم وليست تلك الأفكار التى قالها شيشيرون أو اسبينوزا ولذلك عندما تجىء التوصية وهى نصيحة مزعجة من كوامبرا فعليك ياصديقى بقراءة كتاب «المؤامرة» حيث ستجد به بعض الاختيارات القوية وإذا وجدت أى ضعف فى الشكل أو القالب أو الحبكة فإن ذلك يتم تعويضه من خلال جدارة الرسالة أو المحتوى . فكوامبرا أعظم المدن علماً وثقافة والتى تعج بالدارسين تعرف الأمور التى تتحدث عنها . وفى نفس اليوم التالى خرج ريكاردو ريس واشترى الكتاب الضئيل وأخذه معه إلى غرفته وفتحه فى خلسة لأنه ليس كافة الأعمال التى تنفذ خلف الأبواب المغلقة تكون على النحو الذى تبدو عليه . فهى فى بعض الأحيان لا تكون سوى خجل المرء من عاداته الخصوصية ومباهجه السرية ونتف شعر أنفه وحك فروة رأسه .. وربما هذا الغلاف الذى يظهر امرأة مرتدية معطف مطر وقبعة وسائرة فى شارع بجوار سجن بينما النافذة ذات القضبان الحديدية وكشك الحارس يزيلان أية شكوك بشأن مصير المتآمرين يكون أقل إثارة للخجل أو الارتباك إذن ريكاردو ريس موجود فى غرفته وقابع فى ارتياح على أريكته . والمطر يتساقط على أى مكان ينظر إليه المرء كما لو كانت السماء بمثابة بحر معلق تنساب منه المياه على نحو متواصل من خلال شقوق لا حصر لها . فى كل مكان توجد فيضانات ومجاعات ولكن هذا الكتاب الصغير سيحدثنا عن كيف أن امرأة قد أطلقت نفسها فى حملة صليبية نبيلة تهدف إلى اعادة رجل إلى صوابه وإلى روحه الوطنية بعد أن أصبح ذهن ذلك الرجل مشوشا ومليئا بالأفكار الخطيرة . فالنساء

بارعات للغاية فى مثل هذه الأمور ربما لكى يكفرن عن تلك الخدع المتمشية مع طبيعتهن والتى وشوشت أذهان الرجال وسببت لهم السقوط منذ آدم عليه السلام.. لقد قرأ ريكاردو ريس الآن الفصول السبعة الأولى وهى : عن الفترة التى سبقت الانتخاب + انقلاب غير دموى + خرافة الحب + عيد الملكة المقدسة + اضراب بالجامعة + المؤامرة + ابنة السيناتور . وتشير الحبكة القصصية على النحو التالي : طالب جامعي وهو ابن فلاح يتورط فى أعمال مزعجة يتم القاء القبض عليه وايداعه سجن الجوية وتعمل ابنة السيناتور سالفة الذكر والتى تموج بالحماس الوطنى والروح التبشيرية على اطلاق سراحه من السجن وهو أمر اتضح أنه ليس صعبا للغاية حيث اكتشف والدها السيناتور والذى كان ينتمى للحزب الديموقراطى لكنه الآن متآمر غير مقنع أن ابنته تلقى كل تبجيل فى الدوائر الحكومية العليا فالأب لا يعرف أبداً على أى نحو ستصبح ابنته التى أنجبها ، ورغم أنه توجد بعض الفوارق فإنها تتكلم مثل جان دارك . والدى كان سيتم القاء القبض عليه منذ أيام فأعطيت لهم كلمة شرف بأنه لن يتهرب من مسئولياته بل وقدمت لهم ضمانا يفيد بأن والدى سيتوقف عن تآمره وتضيف الفتاة المخلصة قائلة لوالدها : يمكنك أن تحضر إجتماعك المقرر عقده غداً وأنا أعدك بأنه لن يحدث لك أى شىء لأننى أعرف والبوليس يعرف أيضا أن المتآمرين سيعقدون اجتماعا مرة أخرى لكنهم قرروا التغاضى عنك والشرطة هنا بالبرتغال طيبة ولا عجب فى ذلك طالما لديهم مخبرة فى معسكر العدو ألا وهى ابنة سيناتور سابق مناهض لنظام الحكم هذا . لقد تعرضت تقاليد الأسرة للخيانة ولكن كل شىء سينتهى إلى سعادة بالنسبة لكافة الأطراف المعنيين إذا نظرنا نظرة جدية لمؤلف هذا الكتاب . ودعونا نستمع الآن لما ينبغى عليه أن يقوله : الوضع فى دولتنا قد نوقش بشكل حماسى فى الصحافة الأجنبية وقد نظر إلى استراتيجيتنا الاقتصادية على أنها نموذج يحتذى به كما توجد اشادة باستمرار بسياساتنا

النقدية وفى جميع أرجاء البلاد تقدم المشروعات الصناعية باستمرار الوظائف للآلاف من العمال وفى كل يوم تحدد الصحف الخطوات الحكومية الرامية إلى التغلب على الأزمة التى بسبب الأحداث العالمية – قد أحدثت تأثيرات علينا ولكن اقتصادنا إذا ما قورن باقتصاد دول أخرى يعتبر مشجعا للغاية . فالأمة البرتغالية ورجال الدولة البرتغاليين الذين يقودونها ويوجهونها يتم الاسترشاد بهم فى جميع أرجاء العالم كما أن النظرية السياسية التى نتبعها هنا يتم دراستها بالخارج ويمكن القول بكل ثقة أن الدول الأخرى تنظر إليها بعين الحقد والاحترام وتبعث كبرى الصحف العالمية بكبار صحفييها إلى البرتغال لكى يكتشفوا سر نجاحنا ويتم تملق رئيس حكومتنا بسبب اصراره على التواضع باستمرار وبسبب كرهه الشديد لأعمال الدعاية وتنشر صوره فى مكان بارز فى أعمدة الصحف فى أرجاء العالم ويتم القاء الضوء الشديد على صورته ويتم تحويل بياناته السياسية إلى رسالة انجيلية . وفى ضوء كل هذا والذى لا يعتبر سوى ظل شاحب لما يمكن أن يقال فعليك يا كارلوس أن تتفق معى فى الرأى على أنه من الجنون المطلق أن تشارك فى اضرابات الجامعة التى لا تحقق أى شيء له قيمة . وهل تدرك المتاعب التى تكبدتها من أجل اخراجك من هنا . أنت على حق يا ماريليا لكن البوليس ليس لديه أى دليل أننى فعلت أى شيء خاطيء وكل ما يعرفونه على وجه اليقين هو أننى الذى قمت بالتلويح بالعلم الأحمر الذى لم يكن علما على الاطلاق أو أى شيء شبيه بعلم .

إذ كان مجرد منديل يبلغ ثمنه ٢٥ سنتا وكان الأمر مجرد مزاح . وتحدث هذه المناقشة فى داخل السجن فى صالة الزائرين ولكن فى قرية وكما يحدث أيضا فى منطقة كوامبرا نجد أن فلاحا آخر وهو والد الفتاة الجميلة التى سيتزوجها كارلوس فى نهاية الرواية يوضح أمام حشد من التابعين والمرؤوسين أنه لا يوجد شيء أسوأ من الشيوعية فالشيوعيون لا يريدون أن يكون هناك رؤساء فى العمل

أو عمال ولا يوافقون على القوانين أو الأديان ولا يؤمنون بضرورة تعميد أى شخص أو ارتباطه بالزواج فهم يرون أن الحب لا وجود له وأن المرأة انسانة متقلبة المزاج ويحق لجميع الرجال استعمالها ومضاجعتها ويرون أن الأطفال مسئولون عن أعمالهم أمام آبائهم وأن كل شخص له حرية التصرف على النحو الذى يروق له . وفى أربعة فصول أخرى وفى الخاتمة تنقذ الفتاة فالكيريان ماريليا المهذبة الطالب من السجن ومن السوط السياسى وتصلح من شأن والدها الذى يتخلى عن أنشطته الهدامة تماما ويعلن أنه من خلال الخطة التعاونية الجديدة سيتم حل المشكلة بدون حاجة لأى نفاق أو صراع أو عصيان مسلح . وانتهى صراع الطبقات وحل محله نظام يضم القيم الممتازة ورأس المال والعمل . وفى نهاية الأمر ينبغى أن تدار شئون الأمة مثل عائلة لديها الكثير من الأطفال حيث يفرض الأب النظام من أجل حماية تعليمهم لأنه إذا لم يتم تعليم الأطفال احترام والدهم فإن كل شيء يتعرض للسقوط والانهيار ويحكم على البيت كله بالفشل والاخفاق .

ومع وضع هذه الحقائق التى لا تقبل الجدل موضع الاهتمام نجد أن صاحبى الأرض وهما والد العريس ووالد العروسة – وذلك عقب تسوية بعض الخلافات البسيطة – يساعدان على حسم صراعات معينة ضئيلة بين العمال وعندئذ لن نهدد بالطرد من الجنة بعد الإدراك أنه بمقدورنا استعادة الجنة مرة أخرى فى خلال فترة قصيرة للغاية . وأغلق ريكاردو ريس الكتاب لقد قرأه فى خلال فترة قصيرة . هذه هى أفضل الدروس بالنسبة للجميع وهى دروس موجزة ومختصرة وفورية . ويشعر للحظات أنه يكره العالم كله ويكره المطر المتواصل والفندق والكتاب الملقى على الأرض ومارسيندا . لكنه يرى عقب مرور لحظات أخرى – استثناء مارسيندا من ذلك الكره بدون أن يعرف السبب فى ذلك ربما لمجرد المتعة التى يشعر بها وهو يستثنى أو ينقذ أو يوفر شيئاً ما مثلما يلتقط المرء قطعة

خشب أو حجر من كومة من الدبش الشكل جذب الانتباه وبدون وجود الشجاعة للالقاء بذلك الشيء بعيداً فإننا نضعه في جيبنا دون أن يكون هناك سبب يدعو إلى ذلك .

بالنسبة لنا فنحن نسير على ما يرام وفي مثل جودة تلك الأعاجيب التي وصفت أعلاه . ومن ناحية أخرى وفي أراضي نجد أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ . فالأسرة منقسمة على نحو يدعو للحزن وربما جيل روبلز هو الذي يكسب في الانتخابات أو لارجو جاباليرو وأعلن الفلانج (١) أنه سيواجه الديكتاتورية الحمراء في الشوارع . وفي واحة السلام الخاصة بنا نرقب في أسف مشهد أوربا الغارقة في الشجار والفوضى وفي المناقشات اللانهائية وفي النزاعات السياسية التي لم تحقق أبداً - من وجهة نظر ماريليا - أي شيء يستحق الذكر .

ففي فرنسا نجد أن سارو قد شكل حكومة ائتلافية جمهورية وسرعان ما انقضت عليه أحزاب الجناح الأيمن ووجهت إليه وابلاً من الانتقادات والاتهامات والاهانات التي تقال بلغة بذيئة أقرب إلى لغة السفاحين المشاكين منها إلى لغة مواطني دولة تعتبر نموذجاً للأدب ومنارة للثقافة الغربية . ونشكر الله لأنه مازالت توجد هناك أصوات قوية في هذه القارة وهي أصوات أولئك الذين هم على استعداد للتعبير بوضوح باسم السلام والوفاق ونحن نشير بذلك إلى هتلر وإلى البيان الذي أعلنه أمام أصحاب القمصان السمراء (٢) والذي يشير فيه إلى أن المانيا تريد أن تعمل في جو من السلام : ودعونا نتخلى للأبد عن الشكوك وعدم الثقة وليعلم العالم كله أن ألمانيا ستناصر السلام وترحب به على نحو يفوق ما فعلته أي دولة أخرى بالعالم . وفي الواقع نجد أن ٢٥٠ ألف جندي ألماني يقفون على أهبة الاستعداد لاحتلال أراضي الرين وفي خلال الأيام الأخيرة القليلة قامت

(١) الحزب الفاشستي الذي حكم أسبانيا بعد حرب ٣٦ - ١٩٣٩ الأهلية .
(٢) أعضاء في قوات الصاعقة الهتلرية .

قوة حربية ألمانية بغزو أراضى تشيكوسلوفاكيا . صحيح أن جونو (١) تظهر فى بعض الأحيان على شكل سحابة وبعدئذ تكون كل السـحب بمثابة جونو . وبرغم كل ذلك فإن حياة الشعوب تتألف من الكثير من النباح والقليل من العض ولسوف ترى أن شاء الله أن الكل سوف ينتهى فى توافق تام . ما لا نستطيع أن نقبله الكلام الذى يقوله لويد جورج والذى يؤكد أن البرتغال لديها مستعمرات كثيرة للغاية بالمقارنة مع ألمانيا وايطاليا فى حين أننا منذ أيام قلائل فقط أعلنا الحداد العام بمناسبة وفاة جورج الخامس ملك انجلترا وارتدى الناس أربطة العنق السوداء والأشرطة السوداء كما ارتدت النساء شارة الحداد . وكيف يجرؤ على الشكوى من أننا لدينا مستعمرات كثيرة للغاية فى حين أننا لدينا فى حقيقة الأمر مستعمرات قليلة للغاية ويمكنك أن تلقى نظرة على الخريطة الوردية الحمراء التى تعبر عن الأراضى البرتغالية الموجودة فى افريقيا . لو كان هذا التجاسر قد أوقف عند حده منذ فترة لما ظهر أحد لكى يتنافس معنا الآن ولما أصبحت أمامنا أية عقبة فى المسافة من أنجولا إلى موزمبيق ولأصبح كل شئ تحت العلم البرتغالي ولكن انجلترا الغادرة بطبعها راحت تطاردنا . فالانجليز غدارون بطبيعتهم والغدر هو الرذيلة القومية الخاصة بهم وجميع الدول لديها الأسباب التى تجعلها تشتكى دائما من انجلترا وعندما يجيئ فرنانڈو بسوا فعلى ريكاردو ريس ألا ينسى أن يطرح عليه السؤال المهم وهو ما اذا كانت المستعمرات تعتبر شيئا حسنا أم رديئا ليس من وجهة نظر لويد جورج الذى ينصب اهتمامه الوحيد على إغاظة ألمانيا من خلال تسلم ما امتلكته الدول بشق الأنفس وبذل الجهود المضنية ولكن من وجهة نظره هو أى وجهة نظر بسوا الذى أحيا حلم بدرى فييرا من خلال التبشير بمجيئ الامبراطورية الخامسة. وعليه أيضا أن يسأله من ناحية - كيف سيحسم التناقض الذى يصنعه بيديه والذى يشير إلى أن البرتغال ليست بحاجة إلى

---

(١) ملكة السماء فى أساطير اليونان .

المستعمرات لكى تحقق مصيرها الامبراطورى مع أنها بدون مستعمراتها تتضاءل فى الداخل وفى الخارج من حيث النواحى المادية والمعنوية ويسأله من ناحية أخرى عن رأيه عن احتمال تسليم مستعمراتنا لألمانيا وايطاليا وفقا للمقترحات التى سيعلنها لويد جورج فى القريب العاجل. على أى نحو ستكون الامبراطورية الخامسة بينما نتعرض للسلب والنهب والخيانة ونجرد من ملابسنا مثلما حدث للسيد المسيح وهو فى طريقه إلى الجمجمة (*) فنحن شعب محكوم عليه أن يعانى وقد امتدت أياديه الموثقة برباط سائب لأن السجن الحقيقى هو الموافقة على أن نوضع فى السجن بينما تمتد أيدينا فى اذلال لكى تصل إلى الصدقات التى تقوم بتوزيعها أوه سيكيولو وربما سيرد فرناندو بسوا مثلما رد فى مناسبات أخرى قائلا: مثلما تعرفون جيدا فأنا ليس لدى مبادئ قوية اذ أجادل لصالح شئ ما ثم أجادل غدا لصالح شئ ما آخر وقد لا أؤمن بما أدافع عنه اليوم وقد لا يكون لدى أى إيمان حقيقى بما أدافع عنه غدا. بل وقد يضيف على سبيل التبرير: بالنسبة لى لم يعد هناك ما يمكن أن يسمى باليوم أو يسمى بالغد فكيف يتوقع لى أن استمر فى الاعتقاد أو أتوقع الاعتقاد من جانب الآخرين وحتى اذا كانوا يعتقدون فهل هم يعرفون فعلا الشئ الذى يعتقدون فيه أو يؤمنون به. ان رؤياى عن الامبراطورية الخامسة كانت غامضة ومشوشة ومتسمة بكثرة الخيال فلماذا ينبغى أن تصبح حقيقة بالنسبة لكم. كان الناس يسارعون إلى الإيمان بما أقوله رغم أننى لم أحاول أبدا اخفاء شكوكى. لقد كان من الأفضل لى أن ألتزم بالصمت مع الاكتفاء بمراقبة الموقف بكل بساطة وعندئذ سيرد ريكاردو ريس: مثلما فعلته أنا نفسى دائما وعندئذ سيرد عليه فرناندو بسوا قائلا : فقط عندما نكون موتى نصبح مجرد مشاهدين ومتفرجين ولا حتى يمكن لنا أن نكون متأكدين من ذلك اننى رجل ميت وأتجول هنا وهناك وأتوقف عند ناصية الشوارع واذا كان هناك

(*) المكان الذى صلب فيه السيد المسيح – المترجم .

أناس قادرون على مشاهدتى وهم عدد قليل للغاية فانهم سيعتقدون أن كل ما أفعله هو مجرد مراقبة الناس الآخرين وهم يمرون إلى جوارى وهم لا يعرفون انه اذا سقط أى شخص على الأرض فاننى لا أستطيع أن ألتقطه ومع ذلك فأنا لا أشعر أننى أراقب الأشياء فقط فكل أعمالى وكل كلماتى تستمر فى العيش فهى تسبقنى إلى ما وراء ناصية الشارع التى أستريح عندها وأشاهدها وهى تنصرف ولا أستطيع أن أفعل شيئا من أجل احداث تعديل عليها حتى ولو كانت نتيجة غلطة اننى لا استطيع أن أوضح أو أكون رأيا أو حكما عن نفسى فى حركة واحدة أو كلمة واحدة حتى لو كان لمجرد وضع النفى محل الشك ووضع الظلام محل الظلال ووضع كلمة لا محل كلمة نعم فكلاهما له نفس المعنى بل والأسوأ من ذلك ربما لا تكون هى الكلمات التى نطقت بها أو الأعمال التى أديتها ونقول أسوأ لأنه لا سبيل إلى العلاج وربما تكون هى أشياء لم أفعلها على الاطلاق وكلمات لم أنطق بها على الاطلاق واذا كان الرجل الميت يتعرض لمثل هذا القلق الشديد يصبح من الواضح أن الموت لا يجلب الهدوء والسلام فالفارق الوحيد بين الموت والحياة هو أن الأحياء مازال لديهم بعض الوقت ولكن الوقت اللازم لقول تلك الكلمة أو القيام بتلك الحركة يتسرب بسرعة معهما . ما هى تلك الحركة وما هى تلك الكلمة لست أدرى والانسان يموت بسبب عدم قول الكلمة وعدم الاتيان بالحركة فذلك هو السبب الذى يجعله يموت فهو لا يموت بسبب المرض وذلك هو السبب فى أنه عندما يصبح ميتا يجد أنه من الصعب عليه للغاية أن يتقبل الموت.

ويقول ريكاردو ريس : يا عزيزى فرناندو بسوا أنت تقرأ الأشياء مقلوبة رأسا على عقب.

ويقول فرناندو بسوا : يا عزيزى ريكاردو ريس إننى لم يعد بمقدورى أن أقرأ.

نظرا لأن ريكاردو ريس لم يقدم سببا يدعوها للغيرة بخلاف التحدث على الملأ مع مارسيندا وإن كان التحدث قد تم بصوت منخفض فانه لم يكن من المتوقع

لغضب ليديا أن يستمر لفترة طويلة. فهما قد قالا لها أولا وفى وضوح انهما لا يرغبان فى أى شئ آخر ثم لاذا بالصمت للحظات بينما كانت هى تنقل فنجانى القهوة.. وكان هذا يكفى لجعل يديها ترتعشان. وعلى مدى أربع ليال كانت تبكى على وسادتها قبل أن تستغرق فى النوم. ولم يكن بكاؤها ناجما عن الشعور بالاذلال أثناء نقلها فنجان القهوة بقدر ما كان ناجما عن توقف الدكتور عن تناوله طعام افطاره فى غرفته حيث رأت أن ذلك بمثابة عقاب لها . فلماذا كل هذا ياروحى فى حين أننى لم أرتكب خطأ. ولكن فى الصباح الخامس لم ينزل ريكاردو ريس لتناول الافطار فى المطعم فقال سلفادور: أه ياليديا خذى بعض القهوة إلى الغرفة رقم ٢٠١ وعندما دخلت ليديا إلى الغرفة اجتاحتها موجة غضب فتاة مسكينة انها لم تستطع التحكم فى أعصابها.

فنظر اليها فى وقار ووضع يده على ذراعها وتساءل: أأنت غاضبة منى فقالت: لا يا دكتور فقال: ولكنك لم تعودى إلىّ . وهنا لم تعرف ليديا ماذا تقول فهزت كتفيها فى تعاسة فجذبها نحوه. وفى نفس تلك الليلة نزلت إلى غرفته وقالت : لقد كنت أشعر بالغيرة .

الأمم تكافح ضد بعضها البعض من أجل المصالح التى هى ليست مصالح جاك أو بيير أو هانز أو مانولو أو جيوسيب كافة الأسماء المذكرة من أجل تبسيط الأمور إلا أن هؤلاء وأولئك الرجال ينظرون بكل براءة إلى تلك المصالح على أنها تخصهم أو ستكون خاصة بهم من خلال تكلفة كبيرة عندما تجيئ اللحظة لتسوية الحسابات القاعدة أن البعض يأكل التين بينما آخرون يرقبون. جماهير الشعب تكافح من أجل القيم الخاصة بها ولكن ما قد يكون مجرد عواطف يثار فى أية لحظة وتلك هى الحالة مع ليديا خادمة الغرف بالفندق ومع ريكاردو ريس المعروف لكل شخص على أنه دكتور فى الطب اذا استأنف ممارسته لمهنة الطب ومعروف للبعض على أنه شاعر اذا سمح لأى شخص من الأشخاص أن يقرأ ما يؤلفه فى

جد واجتهاد من قصائد شعرية. ولكن جماهير الشعب تكافح أيضا من أجل أسباب أخرى ومن أجل نفس الأسباب ومن أجل النفوذ والهيبة والكراهية والحب والحقد والغيرة والخبث المحض ومن أجل تحديد أراضي الصيد والمسابقة والمنافسة بل ومن أجل الغنائم والسلب والنهب مثلما حدث مؤخرا في مقاطعة موراريا لم يقرأ ريكاردو ريس تقارير عنها ولكن سلفادور كان يلتهم التفاصيل في شراهة وقد وضع مرفقيه على الجريدة المفتوحة والتي نشرت صفحاتها في رفق وعناية. ويقول:

انه عمل شنيع يا دكتور هؤلاء الناس بموراريا يتميزون بالعنف الشديد وليس لديهم أي احترام للحياة الانسانية ولأتفه الأسباب يكونون على استعداد لطعن بعضهم البعض بدون أي شفقة أو رحمة بل والشرطة تخاف منهم حيث لا تذهب الشرطة إلى هناك إلا عقب انتهاء القتال لكي تلتقط أشلاء الضحايا استمع إلى هذا الخبر يقول هنا أن شخصا يسمى خوسيه ريس وكنيته خوسيه رولا قام باطلاق خمس رصاصات على رأس أنطونيو ميسكويتا والمشهور باسم أوه موراريا فأرداه قتيلا وتشير الجريدة إلى أن هذا الحادث لم يكن له علاقة بالنساء وإنما كان بمثابة مشاجرة بشأن بضائع وسلع مسروقة حيث قام أحدهما بغش وخداع الآخر وهذا يحدث في كل الأوقات . ولكي يبدو ريكاردو ريس غير مهتم قال: خمس رصاصات. ثم غرق في تفكير حزين كان بمقدوره تخيل المنظر : تطلق البندقية خمس رصاصات على نفس الهدف حيث يتلقى الرأس الرصاصة الأولى بينما لايزال الجسد منتصبا ثم يتهاوى الجسد على الأرض متفجرا بالدماء ومتخاذلا في ضعف متزايد أما الرصاصات الأربع الأخرى والتي تعتبر زائدة على الحاجة ومع ذلك ضرورية على نحو ما اثنين ثلاثة اربعة خمسة بينما تتدفق الكراهية مع كل طلقة ويهتز الرأس مع كل طلقة على الرصيف في حين ينتشر الرعب على كافة الجوانب وبعدئذ يتصاعد عويل وصراخ النساء منبعثا من

النوافذ. من المشكوك فيه أن أحدا وجد لديه الشجاعة لأن يمسك بذراع خوسيه رولا وأكثر الأمور احتمالا هو أن طلقات الرصاص قد نفدت من مخزن البندقية أو أن أصبعه تجمد فجأة على الزناد أو أن الكراهية المنبعثة منه تم اشباعها. القاتل سوف يهرب ولكنه لن يذهب إلى مكان بعيد حيث لا أحد يفعل شيئا منكرا دون أن يتعرض لعواقب وخيمة فى موراريا ويقول سلفادور موجها كلامه لريس: ستقام الجنازة غدا لو لم أكن منهمكا فى أعمالى الفندقية لكنت قد ذهبت لحضور هذه الجنازة. فقال ريس : أتحب الذهاب للجنازات فقال سلفادور : إنها ليست على وجه الدقة مسألة حب للجنازات ولكن جنازة من ذلك النوع تستحق المشاهدة وخاصة عندما تكون هناك جريمة ونظرا لأن رامون يعيش فى شارع كفاليروس فانه قد سمع اشاعات ويقوم بتمرير هذه الاشاعات إلى ريكاردو ريس أثناء تناوله طعام العشاء من المتوقع لجميع سكان «الحى» أن يجيئوا يا دكتور بل ويقال أن أصدقاء ورفقاء خوسيه رولا يهددون بتحطيم النعش واذا نفذوا تهديدهم سيكون هناك مزاح ثقيل صاخب ويقول ريس: ولكن اذا كان أوه موراريا قد أصبح ميتا فما الذى يمكن أن يفعلوه فيه أكثر من ذلك فرجل كهذا ليس من المتوقع له أن يجيئ من العالم الآخر لكى ينهى ما ابتدأه فى هذا العالم. ويقول رامون: مع أناس من ذلك النوع لا يمكن لك أبدا أن تعرف جوانب الموقف فالكراهية العميقة لديهم لا تنتهى مع الموت ويقول ريس: اننى أميل إلى الرغبة فى أن أحضر هذه الجنازة بنفسى ويقول رامون : اذن عليك بالذهاب ولكن إحرص على ألا تكون فى مكان قريب للغاية واذا تفجرت أية متاعب عليك بالاحتماء تحت بئر سلم ودعهم يحسمون الخلاف بينهم بالقتال.

ولم تصل الأمور إلى ذلك الحد لأن التهديد لم يكن سوى تظاهر بالشجاعة وربما لأن اثنين من رجال الشرطة المسلحين كانا يقومان بدورية فى المنطقة وكانا بمثابة رمز لتوفير الحماية وهو رمز كان سيتضح أنه غير فعال لو تمادى مثيرو

الشغب فى خطتهم الرهيبة ولكن عندما قيل كل شئ وعمل كل شئ فان وجود القانون ينال بعض الاحترام وظهر ريكاردو ريس لقد بدأ تحرك الموكب الجنائزى وراح يرقب من على مسافة وفقا للنصيحة التى صدرت اليه وذلك لكى لا يجد نفسه فجأة وسط أعمال شغب فجائية ودهش عندما شاهد مئات الناس المحتشدين فى الشارع أمام معرض الجثث على نحو شبيه تماما بيوم الاحسان الذى نظمته أوه سيكيولو ولكن فى هذه المرة توجد كل أولئك النساء المرتديات فى فساتين وجونلات وبلوزات وشيلان حمراء اللون ورجالهن مرتدون حللا لها نفس اللون الأحمر وهو تعبير عن الحداد غير عادى للغاية إذا كان هؤلاء أصدقاء للميت واستفزاز شديد إذا كانوا أعداءه. ويبدو الأمر أقرب ما يكون إلى مهرجان كارنفالى . والآن يلوح النعش فى الأفق مرفرفا بستائر . وهو يتجه إلى المقبرة وقد جره حصانان لهما ريش للزينة وغطاء مزركش للسرج بينما يرافقه اثنان من رجال الشرطة على جانبى النعش كحرس شرف من أجل أوه موراريا وهذه هى سخريات القدر فمن كان يتخيل حدوث ذلك. وهنالك يذهب رجال الشرطة العسكريين بينما سيوفهم تطرق على سيقانهم فى حين أن الجراب مفكوك الزراير ويبكى المحزونون ويولولون وأولئك المرتدون الزى الأحمر يحدثون شغبا لا يقل عن أولئك المرتدين الزى الأسود والذين يبكون لأن الرجل الميت يتم نقله إلى قبره بينما المرتدون للزى الأحمر يبكون لأن القاتل أودع فى السجن . الكثيرون من الناس يرتدون أثمالا بالية وحفاة الأقدام . وبعض النساء مرتديات ثيابا مبهرجة وأساور ذهبية ويسرن متأبطات ذراع أزواجهن الذين لهم شوارب خدية ووجوه محلوقة الذقن ومازالت زرقاء بسبب استخدام موس الحلاقة والذين ينظرون فيما حولهم فى ريبة وشكوك. ونساء أخريات يصحن بالشتائم والاهانات بينما أجسادهن تهتز عند الأرداف . ولكن جميع الناس سواء أكانت لهم مشاعر مخلصة أم زائفة يبدون نوعا من البهجة الشديدة للغاية التى جلبت الاصدقاء والاعداء الى مكان واحد.

هذه القبيلة من المجرمين والقوادين والمومسات والنشالين ولصوص المنازل تطوق الحشود السوداء التى تمشى عبر المدينة وتفتح النوافذ لمشاهدة الموكب الذى يمر. ويصيح الأطفال: انظرى يا أمى لأن كل شىء من وجهة نظر الأطفال يعتبر بمثابة احتفال عظيم. وسار ريكاردو ريس فى الموكب الجنائزى إلى أن وصل الموكب إلى باكودا انها وبدأت النساء فى القاء نظرات مختلسة الى الجنتلمان المرتدى ثيابا أنيقة. ترى من يكون هو ذلك الجنتلمان . هذا حب استطلاع أنثوى وهو أمر طبيعى لدى أولئك اللائى يمضين حياتهن فى تقييم الرجال. واختفى الموكب الجنائزى عند ناصية للشارع حيث كان يتقدم بكل تأكيد نحو ألتو ذى سوجوا اللهم الا اذا استدار الى اليسار فى اتجاه بنفيكا واتضح على نحو أكيد أنه لا يتقدم فى اتجاه جبانة البرازارز وياللأسف لأننا نفقد نموذجا تهذيبيا للمساواة التى يمنحها الموت: أوه موراريا يرقد جنبا الى جنب مع فرنانو بسوا ترى ما هى المناقشات التى تدور بين هذين الشخصين تحت ظلال أشجار السرو الصنوبرية بينما يرقبان البواخر وهى تدخل الى الميناء فى فترات ما بعد الظهر المتسمة بالحرارة الشديدة والرطوبة العالية حيث يشرح أحدهما للآخر كيف أنه ينبغى التلاعب بالكلمات من أجل انتزاع أموال أو انتزاع قصيدة. وفى نفس المساء أوضح رامون أثناء تقديمه الحساء للدكتور ريكاردو ريس أن الملابس الحمراء لا تدل على الحداد أو عدم الاحترام وانما تلك عادة مميزة لهذا الحى السكنى الذى يرتدى سكانه الملابس الحمراء فى المناسبات الخاصة. وأن هذه التقاليد كانت موجودة قبل أن يجىء من جاليسيا وهو علم بأمر هذه التقاليد من آخرين . تساءل ريس : هل وقع بصرك على امرأة ملفتة للنظر أثناء الجنازة وهى امرأة طويلة ولها عينان سوداوان ومرتدية ملابس جميلة حيث ترتدى ثوبا من الصوف الناعم. فقال رامون : يا عزيزى كانت هناك نساء كثيرات بين الجمهور مئات منهن ومن كانت هذه المرأة فقال ريس : إنها عشيقة اوه موراريا وهى مغنية . فقال رامون : لا لم

يقع بصرى عليها . مثل هذا الجمال ومثل هذا الصوت لسوف يكون من الممتع أن نعرف من سيختطفها الآن. فقال ريس : ليس من المحتمل أن أكون أنا الذى يختطفهما يا رامون ولا أعتقد أنك الذى ستخطفها فقال رامون : لو صادقتها سأكون سعيد الحظ للغاية يا دكتور الا أن تلك النوعية من النساء تكلف الشخص أموالا باهظة . فقال ريس : هذا مجرد كلام ومجرد تمنيات فالمرء عليه أن يقول أى كلام أليس كذلك ؟ أما بالنسبة للملابس الحمراء فأعتقد أن هذه العادة ترجع إلى المغاربة فهذه ملابس الحداد الخاصة بالشيطان وهذه العادة ليس لها علاقة بالديانة المسيحية . وعندما رجع رامون بعد ذلك لكى ينقل الاطباق سأل ريكاردو ريس عن رأيه فى الأنباء التى تجىء من أسبانيا عند اقتراب موعد الانتخابات وعن من هو الذى سيكسب من وجهة نظره . والنتيجة لن تؤثر علىَّ فأنا أسير على مايرام هنا ولكننى أفكر فى أن يعود والدى الى جاليسيا حيث لايزال يوجد لى بعض الأقارب على الرغم من أن معظمهم هاجر . فقال ريس : هاجروا الى البرتغال . فقال رامون : الى جميع ارجاء العالم ما بين اخوة وأولاد الأخت وأولاد العم فعائلتى مبعثرة في أرجاء كوبا والبرازيل والأرجنتين بل ولى ابن بالمعمودية في شيلي . فأبلغه ريكاردو ريس بالمعلومات التى حصل عليها من خلال قراءة تقارير الصحف وأنه من المتوقع لأحزاب الجناح الأيمن أن تكسب الانتخابات وأن جيل روبلز قد أعلن أنه إذا وصل الى السلطة فانه سيلغى الماركسية وصراع الطبقات ويقيم الحالة الإجتماعية وتساءل ريس هل تعرف يارامون ما هى الماركسية وماهو صراع الطبقات وما هى العدالة الاجتماعية . فقال رامون : لا يا دكتور . فقال ريس : فى خلال الأيام القليلة القادمة سنعرف من الذى كسب وربما لن يتغير أى شىء . فقال رامون : اعتاد جدى أن يقول أن الشيطان الذى تعرفه أفضل من شخص لا تعرفه . فقال ريس : كان جدك على حق يا رامون كان انسانا ذكيا .

وكسب اليسار الانتخابات واشارت الصحف فى صباح اليوم التالى أن المسألة بدت فى بادىء الأمر كأن اليمين هو الذى كسب فى ١٧ مديرية ولكن عندما تم احصاء جميع الأصوات اتضح أن اليسار تفوق على الوسط واليمين مجتمعين . وظهرت شائعات تفيد بأنه يتم التخطيط لتنفيذ انقلاب عسكري بتشجيع سرى من جانب الجنرال جوديد والجنرال فرانكو ولكن اتضح أن تلك الشائعات كاذبة. وقام الرئيس الكالا زامورا بتكليف آزانا بتشكيل الحكومة. وتساءل ريس : تهب الرياح من أسبانيا فما الذى ستحضره لنا تلك الرياح. ورد فرناندو بسوا : الشيوعية سرعان ما ستجيء وأضاف : أنت تعيش الحظ ياعزيزى ريس فأنت قد هربت من البرازيل لكى تعيش بقية حياتك فى هدوء وسلام وها هى جارتنا أسبانيا تموج الآن فى اضطرابات كبيرة. وكثيرا ما قلت لك أننى عندما أجيء من العالم فأننى فى كل مرة أجيء من أجلك .

عندما عاد ريكاردو ريس الى الفندق شعر بشيء ما يتحرك فى الهواء مثل ازيز مثير للقلق وكأن جميع النحل الموجود فى خلية أصيب بالجنون على نحو فجائى انها الوطأة التى تثقل على ضميره هى التى جعلته يردد لنفسه لقد اكتشفوا كل شيء. انه كشخص رومانسي يعتقد أن اليوم الذى تنكشف فيه مغامرته مع ليديا فان فندق براجانسا كله سيتقوض تحت وطأة الفضيحة. إنه يعيش فى الخوف الدائم أو ربما فى الرغبة الشديدة فى أن تنكشف تلك المغامرة وهذا تناقض غير متوقع فى داخل كيان رجل يدعى أنه منفصل تماما عن العالم ومع ذلك فهو يرغب فى أن يتقوض العالم منهدما فوقه . تراوده بعض الشكوك القليلة فى أن القصة آخذة فى التداول بالفعل ويتم الهمس بها بين الابتسامات المختلة إذ كانت هناك شائعة فانها تكون قد صدرت عن بيمنتا. يمشى المذنب فى براءة . ولكن سلفادور لم يتم ابلاغه بعد . ترى ما القرار الذى سيتخذه عندما يقول له شخص ما حقود سواء أكان رجلا أم امرأة : ياسنيور سلفادور هذا

الموضوع الذى جرى ما بين ليديا والدكتور ريس يعتبر أمرا مخزيا وفاضحا للغاية. إنه سيفعل خيرا إذا كرر فى نبل كلمات الانجيل «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر ». وسار ريكاردو ريس الى أن وصل إلى مكتب الاستقبال . وكان سلفادور يتحدث بصوت مرتفع فى التليفون وكان يقول : صوتك يبدو كما لو كان يجىء من الجانب الآخر من العالم هالو هل تسمعنى نعم يا دكتور سامبيو يجب أن تخبرنى عندما تقرر المجىء هالو هالو نعم استطيع الآن سماعك المشكلة أننى ليس لدى حاليا أية غرف شاغرة وذلك بسبب جميع هؤلاء الناس الأسبان نعم انهم من أسبانيا ولقد وصلوا اليوم. عقب الكرنفال وفى يوم ٢٦ من الشهر سأحجز لك الغرفتين. لا شكر على واجب يادكتور ضيوفنا الخصوصيون يجيئون فى المرتبة الاولى يادكتور انها عشرة ثلاث سنوات وليس ثلاثة أيام بلغ سلامى للسنيوريتا مارسيندا وعلى فكرة الدكتور ريس واقف هنا بجوارى وهو يهديك تحياته. وكان ريكاردو ريس من خلال الايماءات والكلمات المنطوقة يهدى تحياته بالفعل وذلك لسببين أولا لكى يشعر أنه قريب من مارسيندا حتى ولو كان ذلك من خلال طرف ثالث وثانيا لكى يصبح متصادقا مع سلفادور بهدف إبعاد سلطة هذا الرجل عنه وهو أمر يبدو شديد التناقض لكنه ليس كذلك. فالعلاقات بين شخصين لا يمكن تفسيرها بكل بساطة من خلال عملية جمع وعملية طرح حسابية . وكثيرا ما نعتقد أننا نجرى عملية جمع ونكتشف انها تنتهى بوجود شىء متبقٍ ومن ناحية أخرى كثيرا ما نعتقد أننا نقوم بعملية طرح ونكتشف أنها ليست مجرد العكس المباشر لها أى الجمع وإنما الضرب. ووضع سلفادور سماعة التليفون فى انتصار بعد أن نجح فى اتمام محادثة تليفونية حاسمة مع مدينة كوامبرا وبدأ الآن يرد على ريكاردو ريس الذى سأل عن الكيفية التى تسير بها الأمور حيث قال : لقد حجزت توا لثلاث عائلات أسبانية وصلت الى الفندق بدون حجز مسبق عائلتين من مدريد وعائلة من كاسيريس وكلهم لاجئون . فقال ريس : لاجئون فقال سلفادور :

نعم لأن الشيوعيين قد فازوا في الانتخابات . فقال ريس : انهم ليسوا الشيوعيين فالذين فازوا هم أحزاب الجناح الايسر. فقال سلفادور : النتيجة واحدة في كلتا الحالتين . فقال ريس : ولكن هل هم لاجئون بالفعل . فقال سلفادور : حتى الصحف تنشر هذه الحكاية . وكان هؤلاء الاسبان المهاجرون من الاثرياء حيث اتضح ذلك لدى ذهابهم الى المطعم لتناول طعام العشاء حيث ظهروا رجالا ونساء في ملابسهم الجميلة وجواهرهم واخترقت لغة سرفانتيس الجهورية جميع ارجاء المكان . لقد جاء وقت كان يتم فيه التحدث باللغة الاسبانية في جميع ارجاء العالم أما نحن - البرتغاليين - فلم نستطع تحقيق شيء من هذا القبيل . وكان رامون يموج بالاستياء بسبب نظرات الاسبان المليئة بالكبرياء وعندما وصل إلى ريكاردو ريس لكي يخدم عليه لم يستطع تمالك أعصابه وقال : لم يكونوا بحاجة لأن ينزلوا الى المطعم وهم مرتدون لكل هذه الحلي والجواهر لأن أحدا لن يسرق هذه الاشياء من غرفهم.

وبسبب الطقس اللعين المستمر ليلا ونهارا والذي لا يظهر أية دلائل على إمكان انقشاع السحب والذي لا يعطي فترة راحة للفلاحين والمزارعين مع هذا الفيضان الذي يعتبر الأسوأ من نوعه على مدى الأربعين عاما الماضية وهي حقيقة أكدتها تسجيلات وشهادات الناس الطاعنين في السن فان الكرنفال لن يكون بارزا ومهما في هذه السنة . اللاجئون الأسبان يتدفقون الى البرتغال . وهم اذا استطاعوا رفع روحهم المعنوية فانهم سيجدون الكثير من التنوع والتسلية هنا والتي لا يوجد مثيل لها في بلادهم . ونحن لدينا كل الأسباب التي تجعلنا نشعر بالرضا. انظر على سبيل المثال الى قرار الحكومة بالاستمرار في الخطة الرامية الى انشاء كوبري على نهر التاجوس أو القرار الذي يحد من استخدام السيارات الحكومية او القرار الذي بمقتضاه يتم منح العمال بمنطقة دور خمسة كيلو جرامات من الارز وخمسة كيلو جرامات من السمك وعشرة اسكود لكل عامل وفي خلال الأيام

القليلة القادمة سيلقى وزير حكومى خطابا يعلن فيه انشاء مطعم للفقراء من أجل الفقراء الموجودين فى كل دائرة اقليمية. ورغم رداءة الجو شارك ريكارو ريس فى الكرنفال وبدأ يشعر انه مصاب بالحمى بعض الشىء. ربما أصيب بالبرد أثناء مشاهدته موكب الكرنفال أو ربما ان الاكتئاب يمكن أن يتسبب فى حدوث حمى أو غثيان أو هذيان ولكن الحالة عنده لم تصل إلى هذا الحد وجاء اليه رجل عجوز مخمور مزود بعصا خشبية طويلة وسيف قصير ثقيل مع الطرق بهما واصدار زئير مع القول : انحنى على بطنى وألقى بنفسه على الشاعر ريس وكانت هناك وسادة مربوطة على بطنه بلفائف من القماش فضج الجمهور بالضحك لدى مشاهدتهم جنتلمان مرتدى معطف مطر وقبعة يتملص من مهرج عجوز . وما كان يريده ذلك الرجل هو الحصول على النقود من ريس لكى يتمكن من تناول المزيد من الخمور. وعندما أعطاه ريس بعض العملات المعدنية انخرط الرجل العجوز فى الرقص ثم انصرف بعيدا . وفى عربة صغيرة للاطفال تشبه زورق جلس رجل ضخم الجثة بينما ساقاه ناتئتان من العربة ووجهه مطلى بالألوان وطاقية أطفال مثبتة على رأسه وتظاهر بأنه منخرط فى البكاء أو ربما كان يبكى بالفعل الى أن قام شخص قبيح الوجه يقوم بدور المربية بارضاعه من خلال وضع زجاجة مليئة بالخمور فى فمه فراح يمتص الخمور فى حيوية بينما الجمهور المحتشد يشعر بالمتعة والتسلية . هذا هو الكرنفال فى البرتغال ويسير رجل محترم بينما قد تعلقت فى ظهره ورقة مكتوب عليها .. هذا البغل للبيع.. وكلما شاهد أحد ظهره ينفجر فى ضحكات مدوية وأخيرا يتنبه الرجل ويزيل تلك الورقة.. ويشعر ريكاردو ريس بالأمن لأنه من الصعب غرس دبوس فى معطف المطر الذى يرتديه الا أن التهديدات تجىء من كل جانب إذ تسقط مقشة مربوطة فى حبل من دور علوى مما يطيح بقبعة ريس على الارض ثم يسمع صوت فتاتين بالدور العلوى وهما تنفجران فى الضحك . الكرنفال من أجل المرح والتسلية ويستعيد ريس قبعته التى أصبحت

ملوثة بالطين ويواصل السير فى طريقه . لقد حان الوقت لكي يرجع الى فندقه . نحن نضحك اليوم ولكن سيجيء اليوم الذى سنرغب فيه فى البكاء . لقد خيم الليل تقريبا . ويجر ريكاردو ريس قدميه وقد يكون السبب في ذلك هو الاعياء والتعب أو الاكتئاب أو الحمى التى يشك فى أنه قد أصيب بها. وشعر ببرد فجائى فى ظهره فشعر بالرغبة فى استدعاء تاكسى لكن الفندق أصبح قريبا منه. فى خلال عشر دقائق سأكون قد وصلت الى سريرى بالفندق وأضاف فى غمغمة مرددا لنفسه : لسوف أتغيب عن تناول طعام العشاء بالفندق . وكان على وشك الصعود عندما فوجى بمشاهدة هيكل غريب في موكب يضم عددا كبيرا من مرتدى الاقنعة وكان ذلك الموكب شبيهاً بجنازة وكان الرجل شبيها بالموت. إذ كان مغلفا فى مادة سوداء ضيقة وربما تكون مادة التريكو وفوق تلك المادة توجد كافة عظامه من الرأس الى القدمين . الرغبة الجنونية فى الأزياء الخيالية كثيرا ما تصل الى أقصى درجات التطرف . وبدأ ريكاردو ريس يرتعد مرة أخرى ولكنه فى هذه المرة كان يعرف السبب فى ارتعاده . أيمكن أن يكون ذلك الرجل هو فرناندو بسوا. وقال فى تمتمة لنفسه: هذا قول سخيف فهو لايمكن له أبدا أن يفعل شيئاً كهذا وحتى إذا كان قد رغب بشدة فى ذلك فانه لن يمشى أبدا مع مثل هذه الحثالة من القوم. صحيح أنه قد يقف أمام مرآة فذلك أمر ممكن . ويصبح قادرا على مشاهدة نفسه وهو يرتدى على ذلك النحو. وبينما ريكاردو ريس يتمتم لنفسه بكلام كهذا اقترب من الرجل لكى يلقى نظرة عليه من كثب . فهو يعرف تماما طول وبنية فرناندو بسوا وإن كان هذا الرجل يبدو أكثر نحافة وربما كان السبب فى ذلك أنه يرتدى زيا محزقا . وألقى ذلك الرجل نظرة خاطفة على ريكاردو ريس ثم تحرك نحو مؤخرة الموكب. فسار ريس وراءه وشاهده وهو يصعد الي كالكادا دو ساكرامنتو. انه رجل له منظر مخيف لا شيء سوى عظام تحت الضوء المتلاشى وبينما كان يندفع مبتعدا بدا وكأنه يترك وراءه ذيلا مضيئا . وعبر فى

سيره اللارجو دى كارمو ثم استدار وجرى فى شارع أوليفيرا الكئيب المهجور ولكن كان بمقدور ريس مشاهدته فى وضوح على مسافة ليست بالقصيرة وليست بالبعيدة مثل هيكل عظمي يمشي . هيكل عظمى مثل ذلك الذى درسه فى كلية الطب. وأولئك الذين تقابلوا معه بطريق الصدفة كانوا يصيحون هاى الموت. هاى أيتها الفزاعة ولكن الرجل المرتدى ثيابا تنكرية لم يكن يرد على تحيتهم أو ينظر وراءه وانما كان يندفع فى المشى فى خط مستقيم وفق ايقا ع سريع ثم صعد على سلالم .الاسكادينهاس دو ديوك . توقف عند قمة السلالم ونظر لاسفل الكى يعطيه وقتا لكى يلحق به ثم عبر الميدان ودخل الى ترافيسا دى كويمادا . قال ريس لنفسه : إلى أى مدى يقودنى هذا الموت اللعين ولماذا أنا أسير وراءه. ثم خطر على ذهنه أن ذلك الشبح المتنكر ربما لا يكون رجلا وإنما امرأة. انها يمكن أن تكون امرأة أو ليست امرأة أم رجل وإنما الموت فقط بكل بساطة ثم قال لنفسه : من المؤكد أنه رجل وذلك عندما شاهده وهو يدخل الى حانة بينما يضج الناس بالحانة بالهتافات والتصفيق قائلين: انظروا الى هذا الموت.

وراح ريس يرقب فى دقة فشاهد الهيكل وهو يتناول كأسا من الخمور عند البار وقد ألقى برأسه الى الوراء .

لقد كان صدره منبسطا ومفلطحا وهذا يعنى أنه ليس امرأة .

ثم جاء الشبح نحو ريس ولم يكن لدى ريس متسعا من الوقت لكى يتراجع ثم انطلق ريس فى الجرى ولكن الشبح لحق به عند الناصية . لقد كانت اسنانه حقيقية وكانت اللثة مليئة باللعاب ولكن الصوت لم يكن صوت رجل وإنما كان صوت امرأة أو شيئا ما بين صوت المرأة وصوت الرجل عندما قال : قل لى أيها العبيط الاخرق من الذى تتبعه على ما تعتقد هل أنت مخبول أم إنك تسرع لكى تموت . فقال ريس : لا ياسيدى من على مسافة ظننت انك أحد أصدقائى ولكن من خلال صوتك أدرك أننى كنت مخطئا فى تقديراتى فقال الشبح : وكيف تعرف

انني لا أخادعك . وبدا صوته في هذه المرة مختلفا تماما. وقال ريكاردو ريس: أرجو أن تلتمس لي العذر . فرد الشبح بصوت يشبه تماما صوت فرناندو بسوا : اذهب الى الجحيم أيها الغائط ثم استدار واختفى في الظلام الآخذ في التجمع وبدأت الأمطار تتساقط مرة أخرى .

(٨)

أمضى الليل غارقا في الحمى ونام نوما متقطعا وقبل أن يتمدد على السرير في ارهاق تناول قرصين من الاسبرين ووضع الترمومتر تحت ابطه. كانت درجة حرارته تزيد على مائة فقال لنفسه في تفكير : كان هذا أمرا متوقعا من الانفلونزا ونام واستيقظ وحلم بسهول شاسعة مليئة بضوء الشمس وبأنهار تتلوى بين الاشجار وباندفاع سفن مع التيار نائية وغريبة بينما هو نفسه يبحر في جميع تلك السفن متعددا ومنقسما وملوحا لنفسه مثل شخص ما يقول وداعا أو يبدي لهفته للملاقاة . ودخلت السفن الى مصب نهر به مياه هادئة ساكنة . ولم تهتز تلك السفن وكان يوجد حوالي عشر من هذه السفن أو عشرين أو أكثر وهي بدون شراع أو مجداف وعلى مسافة تمكن من سماع الاصوات وكان البحارة يتكلمون جميعا في وقت واحد. ونظرا لأنهم ينطقون بنفس الكلمات فانه لم يكن بمقدورهم سماع بعضهم البعض وأخيرا بدأت السفن في الغرق فتلاشى تدريجيا صوت الكوراس . وحاول ريكاردو ريس اثناء ذلك الحكم التقاط تلك الكلمات الأخيرة واعتقد أنه نجح في هذا الشأن ولكن لدى اتجاه السفينة الأخيرة نحو القاع تفككت مقاطع الكلمات وقرقرت في الماء وخرجت الى السطح .

وكانت الكلمات جهورية وعالية إلا انها كانت عديمة المعنى فالكلمات الغارقة لم تحمل معنى الوداع أو التعهد أو الوصية وحتى لو كانت تحمل أي معنى فانه لم

يعد هناك أى شخص لكى يسمعها . وسواء أكان نائما أم مستيقظا فانه راح يكفر : أكان الرجل المرتدى قناع الموت هو فرناندو بسوا بالفعل . وفى بادىء الامر قرر الاجابة على ذلك التساؤل بنعم ثم رفض ما كان واضحا لصالح ما كان عميقا. على كل حال يمكنه أن يسأله عندما يلتقيان فى المرة القادمة . ولكن هل سيتلقى منه اجابة صادقة . يا ريس من المؤكد أنك لست جادا فى سؤالك هذا أيمكنك أن تتخيلنى وأنا اتجول فى تنكر فى ثياب الموت علي النحو الذى كانوا يفعلونه في العصور الوسطى فالرجل الميت لا يرقص في فرح ويتصرف بحماقة وانما هو وقور وحكيم ومدرك لحالته ومتحفظ ويشمئز من العرى الكامل الذى ينتهى اليه كهيكل عظمى ولذلك عندما يتجلى ويظهر فانه أما أن يتجلى على النحو الذى أبدو عليه الآن مرتديا الحلة الأنيقة التى يرتديها من أجل الدفن وإما أن يتجلى عندما يرغب في تخويف شخص ما وعندئذ يلف نفسه فى كفنه وهو أمر لا يمكن لى أن أفعله أبدا من حيث أننى رجل قد تلقيت تربية مهذبة . تمتم ريكاردو ريس : ما كنت بحاجة لأن أسأله وأتكبد هذه المشقة . ثم اضاء النور وفتح كتاب «إله المتاهة» وقرأ صفحة ونصف الصفحة وادرك انها عن رجلين يلعبان الشطرنج ولكنه لم يعرف ما إذا كانا يلعبان أو يتحادثان . وأصبحت الحروف ضبابية وغير واضحة فوضع الكتاب على جانب. كان قد عاد إلى شقته فى ريو دى جانيرو ومن نافذته شاهد طائرات بعيدة تلقى قنابل على اوركا بينما الدخان يتصاعد فى لفائف سوداء هائلة ولكن لم يكن بالمستطاع سماع أى صوت ربما أنه قد أصبح أصما أو أنه لم يمتلك أى حاسة للسمع على الاطلاق وبذلك أصبح غير قادر أن يتخيل حتى بمساعدة حاسة الابصار زئير القنابل والدمدمة الصاخبة لقصف المدافع وصيحات الجرحى. واستيقظ وهو غارق فى العرق . كان الفندق غارقا فى صمت الليل المطبق وكان جميع الضيوف غارقين فى نوم عميق وحتى اللاجئون الاسبان لو أيقظهم أى شخص فجأة وسألهم : أين أنتم فانهم سيردون : أنا فى

مدريد وأنا فى كاسيريس وقد انخدعوا من خلال الراحة التى وفرتها لهم أسرتهم وفى أعلى المبنى ربما تكون ليديا نائمة . إنها تنزل فى بعض الليالى ولاتفعل ذلك فى ليال أخرى ولقاءاتهما يتم عمل ترتيبات مسبقة لها حاليا وأصبحت تلتزم بالحذر الشديد عندما تجيئ إلى غرفته فى منتصف الليل . الاثارة التى شهدتها الأسابيع الأولى قد ضعفت وهذا أمر طبيعى ولا شئ يتلاشى بسرعة مثل العاطفة واستيقظ ثم استيقظ مرة أخرى الضوء رمادى وبارد وغائم وأقرب إلى الليل منه إلى النهار وتغلغل ذلك الضوء من بين ستارة النافذة المسدلة وألواح زجاجها وستائرها وقام ريكاردو ريس بقياس حرارته مرة أخرى ، إنه مازال محموما واجتاحته الكحة لقد أصيبت بانفلونزا شديدة للغاية فى هذه المرة ولاشك فى ذلك النهار البطيئ للغاية فى مجيئه قد وصل فجأة مثل باب يفتح على مصراعيه على نحو فجائى حيث ظهرت همهمة الفندق مختلطة مع الدمدمة المترامية من المدينة .

كان اليوم هو يوم الاثنين وهو يوم آخر من أيام الكرنفال فى أى غرفة أو قبر سيكون هيكل الموت مستيقظا أم نائما بل وربما لايكون قد خلع ملابسه وذهب إلى سريره وهو مرتدٍ زى الموت الخاص به ، إنه ينام بمفرده ياله من شخص مسكين . أى إمرأة على قيد الحياة ستصرخ فى رعب لو أن دراعا كهذا ناتىء العظام راح يطوقها من تحت الملايات حتى ولو كان ذلك الذراع هو ذراع عشيقها «نحن لا نساوى أى شئ ونحن لا جدوى منا ولا طائل تحتنا» لدى هبوط تلك الأبيات من الشعر على ذهن ريكاردو ريس فانه راح يرتلها فى تمتمة ثم قال لنفسه فى تفكير: يجب أن أنهض فالبرد أو الانفلونزا لا تتطلب سوى شئ من الحذر والقليل من العلاج . لكنه استمر فى الاغفاءات الخفيفة ثم فتح عينيه وقال لنفسه مرة أخرى : يجب أن أنهض وكان عليه أن يغتسل ويحلق ذقنه وشعر بالكراهية إزاء ذلك الشعر الأبيض الموجود فى وجهه ولكن الوقت كان متأخرا أكثر مما كان يظن حيث لم يكن قد ألقى نظرة على ساعة الحائط.

كـان هناك شـخص مـا يطرق على بابه انهـا ليـديا التى أحـضـرت له طعـام الافطار فوضـع الروب دى شـامبر على كتفيه واتجه لكى يفـتح البـاب وهو مـازال شبه نائم واعتقدت ليديا عندما أدركت أنه لم يغتسل ولم يمشط شعره أنه رجع إلى الفندق فى وقت مـتـأخـر وأنه قـد ذهب إلى صـالة الرقص من أجل اصطيـاد النساء وتساءلت: أتود أن أرجع إليك فيما بعد ؟ ولدى ترنحه عائداً إلى سريره وقد تملكتـه رغبة فجـائية فى أن يعـامل كطفل قـال : إننى مريض وهى إجابة لم تكن بمثابة رد على تساؤلها فوضعت الصينية على المنضدة واقتربت من السرير وعلى نحو تلقائي وضعت يدها علي جبهته وقالت : أنت مصاب بالحمى لم يكن ريكاردو ريس بحـاجة لأن يقـال له ذلك فـهـو كطبيب يعرف ذلك تمامـا ولكن كلامـهـا جـعله يشعر بالأسف على نفسه.

ووضع يده على ليديا ثم أغلق عـينيه وأمسك بيد ليديا وأدرك أن يدهـا خشنة بسبب كثرة الأعمـال اليدوية التى تقوم بها وبالتالى فـهى مـختلفة تماما عن يدى كلويه ونيرا وعن يدى ليديا الأخرى وعن الأصابع المستدقة والأظافر المطلية وراحة اليد الناعمة لمارسيندا . ينبغى أن أقول: مختلفة عن اليد الواحدة المفعمة بالحياة لمارسـيندا لأن يدهـا اليـسـرى هى مـوت مـتوقع وقـال: من المؤكد أنهـا الانفلونزا ولكننى سأنهض فقالت : أوه . لا ،لا يجب أن تنهض وإلا تعرضت للإصابة بمرض الرئة فقال: أنا الطبيب هنا يا ليديا وأنا أعرف مـا ينبغى علىَّ أن أفعله ولا حاجة بى لأن أبقى فى السرير متظاهرا بالمرض فى حين أن كل ما احتاجه هـو شخص مـا يذهب إلى الاجزخانة ليحضـر لى نوعين أو ثلاثـــة أنواع من الأدوية فقالت : لا تقلق سـأذهب بنفسى أو أرسل بيـمنتا لكن عليك أن ألا تـغـادر السـرير وتناول طعـام إفطارك قبل أن يبرد وبعدئذ يمكننى أن أرتب غرفتك وأدخل اليهـا الهـواء المنعش.

ثم أجلست ريكاردو ريس فى سـريره وواءمت وسـادته واحـضـرت الصـينيـة وصـبت بعض اللبن على قـهـوته وأضـافت السكر وقطعت شـرائح التـوست إلى

النصف وناولته المربى وتفجرت الدماء فى وجهها بسبب السعادة فالمرأة يمكن أن تشعر بالسعادة لمجرد أن تشاهد الرجل الذى تحبه متمددا فى سرير المعاناة وتنظر اليه بينما هذا التوهج يلمع فى عينيها أو أيمكن أن يكون ذلك بمثابة قلق وجزع واهتمام وأنها هى نفسها يبدو عليها أنها محمومة وأن ذلك بمثابة مثال آخر على وجود ظاهرة مشتركة تدل على أن الأسباب المختلفة يمكن أن تنتج نفس التأثير وسمح ريكاردو ريس لنفسه بأن يثبت فى سريره ويربت عليه برفق من خلال أصابع ليديا كما لو كانت تدهنه بمرهم ومن الصعب أن نقول ما اذا كان ذلك أول أو آخر دهان وبعد أن انتهى من تناول قهوته شعر بكسل لذيذ وقال: افتحي الدولاب لو سمحت توجد حقيبة سوداء إلى الوراء على اليمين أحضريها إلى هنا واستخرج من الحقيبة دفتر روشتات مطبوع عليها اسمه : ريكاردو ريس طبيب ممارس عام شارع أوفيدور/ ريو دى جانيرو عندما اشترى ذلك الدفتر فى بادئ الأمر لم يكن يتخيل أنه سيستخدمه وهو فى هذا المكان البعيد للغاية تلك هى الحياة التى لاتعرف أى استقرار ثم كتب سطوراً قليلة وأصدر تعليماته: عليك بعدم الذهاب إلى الصيدلية اللهم الا اذا طلب منك ذلك عليك باعطاء هذه الروشتة للسينيور سلفادور لأن أية أوامر ينبغى أن تصدر عنه وبعد أن حملت الروشتة والصينية غادرت الغرفة ولكن ليس قبل أن تقبله على جبينه يا لها من وقاحة إنها مجرد خادمة غرف بفندق هل تصدقوا ذلك ولكن ربما يكون لها الحق الطبيعى فى ذلك والذى لن يجرؤ على انكاره لأن هذا موقف فى النزع الأخير أو على عتبة الموت وابتسم ريكاردو ريس وقام بحركة غامضة واستدار نحو الحائط واستغرق فى النوم دون أن يقلق بشأن شعره الخشن الرمادى الأشيب بينما بشرته رطبة وشاحبة بعد أن أمضى ليلة وهو غارق فى الحمى . الإنسان يمكن أن يعانى من المرض أكثر من هذا ويظل يستمتع بلحظة سعادته حتى ولو لمجرد أن يتخيل أنه بمثابة جزيرة مهجورة يطير عليها الآن طائر مهاجر جلبته رياح متقلبة.

طوال ذلك اليوم واليوم التالى لم يغادر ريكاردو ريس حجرته وقام بيمنتا بابلاغ سلفادور بالحالة المرضية لريس فسارع سلفادور إلى زيارته وقال: كافة العاملين يرغبون لك شفاء عاجلا يا دكتور . وكما لو كان من خلال موافقة ضمنية صامتة وليس من خلال اتباع تعليمات رسمية قامت ليديا بكافة مهام ممرضة حيث راحت تحضر له فناجين الشاى المخلوط بعصير الليمون وتعطيه الحبوب أو تناوله ملعقة من مشروب معالجة الكحة فى المواعيد المحددة علاوة على القيام بالأمور المزعجة التى تخفى عن الآخرين مثل تدليك الظهر ووضع كمادات الخردل على ربلة الساق ولم يندهش أحد من أن ليديا التى تقوم بواجبات التمريض تقضى كل وقتها فى الغرفة رقم ٢٠١ وأى سؤال عن المكان الذى توجد فيه تكون اجابته جاهزة : إنها مع الدكتور.

الحقد لم يكشف بعد عن أشواكه إنه يحتفظ بمخالبه الحادة لحين مجيئ اللحظة المناسبة ومع ذلك لا يمكن أن يكون هناك شئ أكثر براءة من ريكاردو ريس الذى يضطجع على وسادته بينما ليديا تصر أن يتناول المزيد من حساء الدواجن لكنه يرفض ويشير إلى أنه ليس لديه شهية للطعام ولكنه يرغب أيضا فى أن يسمع صوتها وهى تتوسل اليه وحقيقة الأمر أن ريكاردو ريس ليس مريضا على نحو يجعله غير قادر على اطعام نفسه ولكن ليس لنا شأن بذلك واذا حدث بطريق المصادفة تلامس وثيق بينهما مثل وضع يده على صدرها فانهما لايذهبان إلى ماهو أبعد من ذلك ربما لأنه يوجد هناك قدر من الوقار يتعلق بالمرض شئ ما يكاد يكون مقدسا رغم أن الهرطقات فى الدين ليست غير شائعة. هذه تفاصيل فى الرواية يمكن الاستغناء عنها بينما توجد تفاصيل أخرى لها صلة أكثر بالموضوع مثل الأمطار والعواصف التى ازدادت حدتها أثناء اليومين الأخيرين والتى تنزل الدمار على موكب ثلاثاء المرافع السابق على أربعاء الرماد الخاص بالفقراء ولكن التحدث عنها سيكون مثيرا للل القاص مثلما هو مثير لسأم

القارئ . كما توجد كافة تلك الأبيسودات الخارجية التي لا يوجد لها أي تأثير على قصتنا مثل تلك الخاصة بالرجل الذي أشارت التقارير عنه أنه مفقود في آخر ديسمبر والذي تم العثور على جثته في سنترا والذي يعرف باسم لويس أوسيدا أورينا وهي سر غامض في ملفات الجريمة مازال باقيا بدون حل وسيظل كذلك حتى حلول يوم القيامة حيث لم يتقدم أي شخص لكي يدلي بشهادته ولذلك فأننا نترك مع هذين الشخصين : الضيف والخادمة على الأقل إلى أن يشفى من الانفلونزا أو البرد الذي أصابه . وبعدئذ سيعود ريكاردو ريس إلى العالم وتعود ليديا إلى أعمالها الروتينية ويعود كلاهما إلى العناق الذي ينشط ليلاً والذي يكون قصيرا أو مطولاً وفقا لاحتياجهما ومتطلبات التحفظ والحذر . غدا الأربعاء تصل مارسيندا لم ينس ريكاردو هذا وانما يكتشفه واذا كان الاكتشاف يدهشه فان ذلك يكون بنفس الطريقة المشتتة مما يدل على أن المرض قد جعل ذهنه متبلداً وعلى كل حال فالحياة تزيد قليلا عن كونها مجرد استلقاء في سرير من أجل التماثل للشفاء من مرض غير قابل للشفاء ومتكرر مع وجود لحظات من الراحة نسميها الشفاء وينبغي أن نسميها باسم ما لكي نتمكن من التمييز ما بين الحالتين لسوف تجيئ مارسيندا بينما يدها متدلية إلى جوارها بحثا عن علاج مستحيل - مع والدها سامبيو الموثق العام الذي يأمل في العثور على عشيقة أكثر مما يأمل في العثور على شفاء لابنته ربما لأنه فقد الأمل في شفاء ابنته حتى أنه يجيئ لكي يتحرر من همومه على صدر يختلف تماما عن ذلك الصدر الذي احتضنه ريكاردو ريس توا حيث أن ليديا أصبحت أقل احجاما الآن بعد أن أدركت - وهي التي لاتعرف أي شئ عن الطب - أن الدكتور آخذ في التحسن.

وفي صباح الأربعاء تلقى ريكاردو ريس استدعاء رسميا ونظرا لأهمية هذا الاستدعاء فان الذي قدمه هو سلفادور نفسه بصفته مديرا للفندق انها وثيقة مرسلة من أمن الدولة وهو كيان لم يذكر اسمه بالكامل حتى الآن لأنه لا توجد

فرصة تدعو لذلك ولكن عدم التكلم عن أشياء معينة لايعني أن تلك الأشياء ليس لها وجود وها نحن لدينا هنا مثال على ذلك ففي ليلة وصول مارسيندا بدا أنه لايوجد هناك أي شئ أكثر أهمية في العالم من الحقيقة التي مفادها أن يكون ريكاردو ريس مريضا وأن ليديا تقدم له الرعاية وفي تلك الأثناء وعلى نحو غير متوقع كان كاتب يحرر وثيقة الاستدعاء الرسمية فتلك هي الحياة أيها الرجل العجوز حيث لايعرف ما سيجلبه الغد ويبدى سلفادور بعض التحفظ أنه لا يتجهم على وجه الدقة وانما التعبير الذي ظهر على وجهه هو الحيرة والدهشة قال ريكاردو ريس وثيقة استدعاء رسمية موجهة لي انه لديه كل الأسباب التي تدعوه للذعر . إن جريمته الوحيدة التي ارتكبها وهي جريمة لايعاقب عليها القانون عادة اذا كانت هذه تعتبر جريمة بالفعل هي أنه استقبل امرأة في سريره في جوف الليل البهيم انه لاينزعج من هذه الوثيقة بقدر انزعاجه لدى مشاهدة وجه سلفادور ويد سلفادور المرتعشة من أين تجيئ هذه الوثيقة فلا يرد عليه سلفادور هناك كلمات معينة لاينبغي النطق بها بصوت مرتفع وانما ينبغي أن يتم الهمس بها أو نقلها من خلال الاشارات أو تقرأ في صمت مثلما يفعل ريكاردو ريس الآن: أمن الدولة ماهو المفروض لي أن أفعله مع هذه الوثيقة انه يتساءل في نغمة مليئة بالازدراء وفي شيء من الحيوية والابتهاج ثم يضيف في نوع من التهدئة: من المؤكد أنه توجد هناك غلطة من نوع ما وهو يقول هذا الكلام من أجل أن يخفف من الشكوك التي راودت سلفادور.

إنني سأوقع هنا على هذا السطر بما يفيد أنني استلمت الوثيقة وبما يؤكد أنني سأقدم نفسي في يوم ٢ مارس في العاشرة صباحا بشارع أنطونيو ماريا كاردوسو هذا المكان ليس بعيداً عن هنا عليك بالذهاب أولاً إلى شارع الكريم إلى أن تصل إلى الكنيسة الموجودة عند الناصية ثم تستدير إلى اليمين ثم إلى اليمين مرة أخرى إلى أن تصل إلى سينما شيادو تراسي التي توجد في مواجهة مسرح

سو لويس الذى سمى باسم ملك فرنسا وهذه أماكن رائعة من أجل الاستمتاع بفنون المسرح والسينما وبعدئذ ستجد المركز الرئيسى للشرطة على مسافة قصيرة إلى الأمام ولايمكن لك أن تضل الطريق ولكن ربما هذا بسبب أنه كثيرا ما ضل الطريق فى الماضى مما جعلهم يستدعونه.

وينسحب سلفادور فى وقار لكى يسلم لمندوب الشرطة الضمان الرسمى الذى يفيد بأن وثيقة الاستدعاء الرسمية قد وصلت بالفعل فى حين أن ريكاردو ريس كان قد ترك السرير بالفعل وكان يتكئ على الأريكة ويقرأ التعليمات مراراً وتكراراً أنت قد استدعيت لكى تمثل أمام الاستجواب ولكن لماذا بحق الجحيم حيث لم ارتكب أيه جريمة ولم أسرق ولم أقتبس من أشعار أحد كما أننى لا أتآمر بل وأننى أعارض تماما مثل هذه الأمور أكثر من أى وقت مضى وذلك عقب قراءاتى لكتاب «المؤامرة» وهو كتاب أوصى كوامبرا بقراءته واستطيع سماع كلمات ماريليا وهى تقول: والدى العزيز يمكن أن يلقى القبض عليه واذا كان هذا يمكن أن يحدث لأب فما الذى سيحدث لأولئك الذين ليس لديهم أطفال .كافة العاملين بالفندق يعرفون الآن أن الضيف الموجود فى الغرفة ٢٠١ ألا وهو الدكتور ريس وهو الجنتلمان الذى وصل قادما من البرازيل منذ شهرين قد تم استدعاؤه لكى يمثل أمام المسئولين فى مركز الشرطة الرئيسى ومن المؤكد أنه ارتكب خطأ ما فى البرازيل أو هنا ولو كانت هذه حالة تتطلب إيداعه السجن لجاءوا وألقوا القبض عليه على الفور.

فى نفس المساء شعر ريكاردو ريس بالثبات الكافى لأن يجعله ينزل مبكرا من أجل تناول طعام العشاء ترى كيف ترقبه عيون العاملين بالفندق لكن ليديا لا تتصرف بمثل هذه الطريقة الفاترة المتسمة بعدم الثقة وما أن ينزل سلفادور إلى الدور الأول حتى تندفع إلى داخل الغرفة انهم يقولون لى أن البوليس الدولى قد استدعاك الفتاة المسكينة تشعر بالذعر والخوف فقال ريس: هذا صحيح ووثيقة

الاستدعاء الرسمية موجودة هنا ولكن لا حاجة للشعور بالهلع فربما يكون ذلك أمراً يتعلق باوراقي الرسمية فقالت ليديا: آمل أن تكون على صواب مما اسمعه لا يمكن لك أن تتوقع أي شئ سوى المتاعب من جانب هؤلاء الناس ولقد سبق لأخي أن أخبرني ببعض الأشياء فقال: لم أكن أعرف أن لك أخا فقالت: لم يكن هناك سبب يدعوني لأن أخبرك فأنا لا أتحدث كثيرا عن الآخرين فقال: بل إنك لم تحدثيني عن نفسك فقالت : لأنك لم تسأل أبداً فقال: هذا صحيح وكل ما أعرفه عنك أنك تعيشين هنا بالفندق وأنك تخرجين من الفندق في أيام اجازتك وأنك غير متزوجـــة وغير مرتبطة بأي شخص فردت ليديا قائلة: وما هو أفضل من هذا ومع استخدام هذه الكلمات الأربعة اعتصرت قلب ريكاردو ريس . من الأمور العادية أن تقول هي تلك الكلمات الأربع لكنها أحدثت تأثيرا كبيرا على ريس واعتصرت قلبه وربما لم تكن مدركة لما قالته من كلام وربما كانت تعبر فقط عن استيائها ولماذا الاستياء فكلمة الاستياء تعتبر كلمة قوية للغاية وربما أرادت فقط أن تقرر حقيقة واقعة مثلما تقول: أوه انظر الدنيا تمطر ولكنها بدلا من ذلك عبرت عن التهكم المرير الذي يمكن العثور عليه في الروايات يا سيدي أنني خادمة بسيطة في فندق ولا أكاد أعرف القراءة والكتابة ولذلك اذ كانت لي حياة خاصة فكيف يمكن أن يثير هذا اهتماماتك ويمكننا أن نستمر في هذه الطريقة بحيث نضاعف الكلمات ونضيفها إلى الكلمات الأربع التي تم التحدث بها بالفعل وما هو أفضل من هذا.

لو كان هذا بمثابة مبارزة بالسيوف لأصبح ريكاردو ريس نازفاً بالدماء بالفعل ليديا على وشك أن تغادر وهذا دليل واضح على أنها لم تتكلم عشوائيا أو ميفما اتفق عبارات معينة قد تبدو عفوية أو تلقائية وطبيعية أو تبدو مثل شئ وليد اللحظة الحاضرة ولكن الله وحده هو الذي يعرف نوعية حجر الرحى الذي يطحن تلك الكلمات ويعرف نوعية المنخل غير المرئي الذي يغربل وينقي تلك الكلمات حتى اذا تم النطق بها تبدو مثل أقوال سيدنا سليمان الحكيم.

أفضل شئ يأمل فيه الانسان الآن هو الصمت أو أن يرحل أحد المحاورين الا أن الناس عادة ما يستمرون فى الكلام المتواصل إلى أن يضيع تماما ما كان محددا وواضحا وغير قابل للدحض والجدل على مدى لحظات وتساءل ريكاردو ريس: ماذا قال أخوك له وما هى الأعمال التى يقوم بها؟ فاستدارت ليديا وبدأت فى الشرح فأشارت إلى أن أخاها يعمل فى البحرية فقال: أى نوع من البحرية؟ ردت يعمل فى بارجة حربية تسمى ألفونصو دى البوقيرق فقال: أهو أكبر أم أصغر منك؟ فقالت: عمره ٢٣ عاما ويسمى دانييل فقال: إننى لا أعرف أسمك الأخير فقالت: اسم عائلتى هو: مارتنز . فقال من جهة والدك أو والدتك فقالت: من جانب والدتى فأنا لا أعرف اسم والدى ولم أكن أعرفه فى أى وقت من الأوقات فقال: وماذا عن أخيك فقالت: انه ليس شقيقا لى ولقد مات والده ودانييل يعارض نظام الحكم ولقد أخبرنى بذلك فقال: لا تقولى أى كلام آخر إلى أن تصبحى واثقة من أنك تثقين فىَّ فقالت: يا دكتور ولماذا لاينبغى أن أثق فيك والآن هناك احتمالان:أما أن ريكاردو ريس مبارز أحمق يترك نفسه مكشوفا وإما أن ليديا هذه امرأة مسترجلة ومزودة بقوس وسهم وسيف عريض الحد واذا لم نكن نرغب فى النظر فى احتمال ثالث غافل عن نواحى الضعف والقوة النسبية بينهما فان كلا منهما يتكلمان فى نهاية الأمر بصراحة حيث كان هو جالساً ومتماثلاً للشفاء بينما هى واقفة رغم أنها أدنى منه من حيث الوضع الاجتماعى وربما كل منهما قد اصابته الدهشة بسبب الكلام الكثير الذى كان عليهما أن يقولاه لبعضهما البعض لأن هذه محادثة مطولة اذا قورنت مع قصر حواراتهما بالليل والتى لاتزيد قليلا عن الهمهمة البسيطة البدائية للأجساد ولقد اكتشف ريكاردو ريس أن المركز الرئيسى للشرطة الذى سيمثل أمامه فى يوم الاثنين هو مكان له سمعة سيئة بل وإن عملياته أكثر سوءاً من سمعته . كان الله فى عون من يقع فى قبضتهم لأن هذا المكان يعنى التعذيب والاستجواب فى أى وقت بالليل أو النهار ، وتساءل

ريس: اذن فى السلاح البحرى أيضا يوجد أناس غير راضين عن نظام الحكم فتكتفى ليديا بهز كتفيها فى لامبالاة فهذه الآراء الهدامة لم تكن آراءها وانما هى آراء دانييل أخيها الشاب البحار الأصغر منها سنا الذى هو رجل لأن مثل هذه التصريحات الجريئة عادة ما يدلى بها الرجال .

ونزل ريكاردو ريس السلم لكى يذهب للعشاء قبل أن تعلن ساعة الحائط عن دقات الثامنة مساء ولم يكن السبب فى ذلك هو شعوره بالجوع وانما هى رغبة فجائية فى معرفة ما اذا كان المزيد من الأسبان جاءوا إلى الفندق وما إذا كانت مارسيندا ووالدها وصلا الى الفندق ونطق باسم مارسيندا بصوت منخفض ثم راح يرقب بكل اهتمام مثل كيميائى قام بخلط حامض مع قاعدة ثم راح يهز أنبوبة الاختبار لايمكن مشاهدة الكثير بدون الاستعانة بالخيال فالملح الناجم كان على نحو ما هو متوقع لأننا على مدى آلاف السنين العديدة ظللنا نقوم بخلط العواطف وخلط الاحماض والقواعد وخلط الرجال والنساء وتذكر الافتتان المفعم بالشباب عندما ألقى عليها أول نظرة ثم اقنع نفسه بأنه كان متأثراً من خلال الشفقة عليها ومن خلال العاطفة ازاء تلك اليد المشلولة والوجه الشاحب الحزين

وبينما كان ريس يهبط السلالم شعر برعشة خفيفة فى ساقيه . شئ عجيب لأن الانفلونزا تحدث نفس هذا التأثير.

وعند مكتب الاستقبال كان سلفادور يرد على مكالمة تليفونية ويكتب ملاحظات بالقلم الرصاص ويقول : حسنا للغاية يا سيدى أنا تحت أمرك وألقى بابتسامة خاطفة باردة ميكانيكية كان يقصد بها أنه منهمك فى العمل للغاية أو أكانت نظرته متسمة بالحملقة الثابتة تماما مثل حملقة بيمنتا الذى كان قد نسى تماما البقشيشات السخية بل والزائدة عن الوضع الطبيعى فى بعض الأحيان وقال سلفادور: إذن فأنت تشعر يا دكتور بالتحسن بعض الشئ ولكن حملقته كانت تقول: لقد تصورت انه كان هناك شئ ما غامض ومثير للشبهة فى حياتك.

تلك العينان سوف تستمران في قول هذا الكلام الى أن يذهب ريكاردو إلى الشرطة ويعود منها لو قدر له العودة منها.

ولقد انتقل الآن الإرتياب إلى الصالون لأن المناقشات الدائرة باللغة الأسبانية كانت أعلى ضجيجا من المعتاد لقد أصبح الفندق شبيها بفندق قائم بالشارع الرئيسى بمدريد ولم تكن مارسيندا موجودة فى الصالون ولكن الدكتور سامبيو كان موجوداً وكان منهمكا فى المناقشة مع اثنين من الاسبان كانا يشرحان الأحداث السياسية الجارية فى اسبانيا من خلال الاستعانة برسم توضيحى عن الأوديسا الخاصة بهم عقب هروبهم من ديارهم ومنازلهم ، وانضم إليهم ريكاردو ريس حيث جلس عند طرف الأريكة الكبيرة بحيث أصبح على مسافة بعيدة من الدكتور سامبيو ولم يرغب فى الدخول فى هذه المناقشة الاسبانية/ البرتغالية حيث كان كل ما يريده هو معرفة ما اذا كانت مارسيندا قد جاء ت أم ظلت باقية فى كوامبرا ولكن الدكتور سامبيو لم يظهر أيه دلائل تشير إلى أنه قد لاحظ وجود ريس وراح يومئ برأسه فى وقار وهو يستمع لشرح من جانب دون ألونصو وضاعف من اهتمامه عندما أشار دون لورينزو إلى مزيد من التفاصيل ولم يرفع بصره لأعلى ولو لمرة واحدة حتى بعد أن انفجر ريس فى كحة شديدة حيث لايزال يعانى من النتائج الناجمة عن الانفلونزا وامتلأت عيناه بالدموع وبعدئذ قام ريكاردو ريس بفتح جريدة وقرأ فيها أن اليابان شهدت تمردا مسلحا من جانب ضباط الجيش الذين يطالبون بضرورة إعلان الحرب ضد روسيا وراح يقيم الموقف فى مزيد من العمق: لو أن مارسيندا موجودة هنا فانها ستنزل خلال فترة قصيرة وبالتالى فأنت يا دكتور سامبيو ستضطر للتكلم معى سواء أردت أم لم ترد فأنا متلهف لأن أرى ما اذا كانت عيناك مليئتين بمشاعر العداء مثل عينى بيمنتا لأنه لاشك أن سلفانور أخبرك أن الشرطة ترغب فى استجوابى.

ودقت ساعة الحائط معلنة الثامنة مساء ونهض ضيوفه عديدون وغادروا

الصالون وهدأت المناقشات وبدا نفاد الصبر على الشخصين الأسبانيين لكن الدكتور سامبيو أخرهما قليلا لكي يؤكد لهما أنهما سيقدران على العيش في هدوء في البرتغال على مدى الفترة التي يرغبان فيها فالبرتغال هي واحة للسلام والطبقات الفقيرة بها لاتهتم بالنواحي السياسية وهذا من شأنه تعزيز الوجود السلمي والهدوء الذي تشاهدانه في الشوارع هو بمثابة الهدوء الموجود في نفوس أفراد شعبنا. ولكن هذه ليست المرة الأولى التي يصغي فيها الأسبان لكلمات الترحيب والنوايا الحسنة كما أن المعدة الخاوية لا يمكنها أن تتغذى على الكلمات لذلك استأذنا «إلى اللقاء قريبا» حيث كانت عائلتاهما في انتظار استدعائهما من غرفهما.. وصاح الدكتور سامبيو بعد أن تلاقى وجها لوجه مع ريكاردو ريس قائلا: لقد كنت هنا طوال الوقت ولم أشاهدك على أي نحو تسير الأمور؟

ولكن ريكاردو ريس كان يدرك تماما أنه تتم مراقبته عن طريق بيمنتا أو أكان ذلك هو سلفادور فمن الصعب على المرء أن يعرف الفارق بين المدير والموثق العام والشيال فثلاثتهم يثيرون الريبة. وقال ريس : لقد شاهدتك لكنني لم أحب أن أتدخل وأقحم نفسي آمل أن تكون قد قمت برحلة طيبة كيف حال ابنتك؟ قال سامبيو: إنها ليست أفضل أو اسوأ مما هي عليه فتلك هي المحنة التي نشارك فيها. فقال ريس: سيجيىء يوم ترى فيه أن مثابرتك أنت بالنتيجة المرجوة وكل ما هنالك أن حالات الشفاء هذه تستغرق بعض الوقت.

ويعد تبادل هذه العبارات المقتضبة لاذ كلاهما بالصمت. اذا كان الدكتور سامبيو يشعر بشيء من الاضطراب والقلق بينما راح ريكاردو ريس يموج بالسخرية. ثم ألقى ريس قطعة من الخشب على الجمرات الخابية. اذ قال: على فكرة لقد قرأت الكتاب الذي أوصيتني بقراءته. فقال سامبيو: أي كتاب؟ رد ريس: الكتاب الذي يدور عن المؤامرة ألا تتذكر. فقال سامبيو: آه نعم أعتقد أنه ترك انطباعا محدودا فقال ريس : على العكس من ذلك فلقد أعجبت بمصادقته على

الوطنية واعجبت بلغته الرصينة وحججه القوية ودقة اختراقه وتغلغله في النواحي النفسية علاوة على الثناء المنصب على الطبيعة السخية للأنوثة فالإنسان عقب الانتهاء من قراءة ذلك الكتاب يشعر بالتطهر وانني اعتقد أن هذا الكتاب سيكون بالنسبة للكثيرين من الناس في البرتغال بمثابة المعمودية الثانية أو الأردن الجديدة. واستكمل ريكاردو ريس هذا المديح بأن اتخذ التعبيرات التي تظهر على شخص ما قد تعرض لتحولات داخلية مما جعل الدكتور سامبيو يتعرض للتشويش من خلال التناقض ما بين هذه الكلمات ووثيقة الاستدعاء الرسمي التي تحدث عنها سلفادور بكل ثقة. وقرر الدكتور سامبيو أن يظل متحفظا وأن يقطع علاقاته على الأقل الى أن يتم حسم هذا الموضوع مع الشرطة. ثم قال: ينبغي عليّ أن أذهب لأرى ما اذا كانت ابنتي جاهزة للنزول لكي تتناول طعام العشاء. ثم انصرف على وجه السرعة. فابتسم ريكاردو ريس وعاد الى جريدته وقرر أن يكون هو آخر شخص يدخل الى صالة الطعام. والآن ترامى الى سمعه صوت مارسيندا: هل سنتناول طعام العشاء مع الدكتور ريس؟ وعندئذ قال والدها: نحن لم نعمل أي ترتيبات. واستمرت المناقشة عند الجانب الآخر من الأبواب الزجاجية وربما سارت على هذا النحو :

كما ترين فإنه غير موجود هنا لقد وصلتني بعض المعلومات عنه وبذلك فإنه من الأفضل ألا نشاهد معه أمام الجماهير. فقالت ابنته: ما هي تلك المعلومات ياوالدي؟

رد : تم استدعاؤه للمثول أمام الشرطة للدفاع والأمن القومي هل يمكن أن تتخيلي ذلك لقد كان لدى شعور بأن هناك شيئا ما خاطىء. قالت: ولكنه طبيب جاء من البرازيل منذ فترة قصيرة . قال كل ما نعرفه أنه يدعي أنه طبيب ولكن يحتمل أن يكون هاربا . فقالت أحقا ياوالدي؟ فقال: أنت صغيرة في السن وليست لك خبرة في الحياة. وأضاف: هيا بنا نجلس هناك بجوار هذين الزوجين

الاسبانيين حيث أنهما جذابان ولهما منظر حسن. فقالت: أفضل أن أكون بمفردى معك ياوالدى. فقال: كافة المناضد مشغولة علينا أن ننضم الى شخص ما أو ننتظر وأنا أفضل الجلوس الآن والاستماع إلى آخر الأنباء الواردة من اسبانيا. فقالت : حسنا للغاية يا والدى. وغير ريكاردو ريس رأيه وقرر العودة الى غرفته وإبلاغهم لاحضار طعام العشاء الى غرفته. وقال لنفسه موضحا الأمور: فأنا مازلت أشعر ببعض الضعف. فوافق سلفادور على ذلك من خلال ايماءة من رأسه حيث كان حريصا على عدم تشجيع أى تقارب آخر بينهما. وفى نفس تلك الليلة قام ريكاردو ريس عقب العشاء بكتابة بعض أبيات من الشعر «نحن نوضع من خلال القدر مثل الأحجار التى توضع لكى تحدد المساحات المزروعة بالأزهار. وهنالك نبقى ولا نكون أى شىء أكثر من أننا مجرد حجارة» وفيما بعد يمكنه أن يتوسع فى هذا المطلع لكى يصبح قصيدة غنائية.

وبعد نصف ساعة أضاف أبياتا أخرى: هيا بنا نستكمل كياننا الخاص فنحن لا نمتلك أى شىء أكثر من ذلك» ثم وضع قصاصة الورق على جانب وراح يتمتم لنفسه: لقد سبق لى على مدى مرات عديدة كتابة نفس هذه الفكرة ولكن بكلمات مختلفة. كان جالسا على الأريكة فى مواجهة الباب بينما الصمت يثقل على كتفيه مثل عفريت شرير عندما سمع حفيف أقدام فى الصالة. يبدو أنها ليديا. أهكذا جاءت بهذه السرعة؟ لكنها لم تكن ليديا.

فمن تحت الباب ظهرت ورقة بيضاء مطوية. وأدرك ريس أنه من الخطأ أن يقوم بفتح الباب. لقد أدرك فى اعتقاد راسخ من الذى كتب تلك الورقة ولم يسارع الى النهوض وإنما جلس هنالك محملقا فى تلك الورقة التى كانت شبه مفتوحة.

لقد طويت تلك الورقة على نحو ردىء وفى تسرع وكتبت فى عصبية وبخط متسم بالانفعال ويشاهد الآن لأول مرة. كيف تتمكن من الكتابة. ربما بأن تضع شيئا ثقيلا على الطرف العلوى للورقة لكى تجعلها ثابتة أو باستخدام يدها

اليسرى كمثقلة أو باستخدام إحدى تلك المشابك التى توجد عادة فى مكتب الموثق العام لضم الوثائق. مع بعضها. وهذه هى الكلمات التى كتبت فى تلك الورقة؟

«أشعر بالأسف لأننى لم أشاهدك. لكن كان من الأفضل أن يحدث ذلك. والدى لا يهتم بشىء سوى أن يوجد مع الأسبان. عندما أخبروه لدى لحظة وصولنا عن متاعبك مع الشرطة قرر تجنب أن يشاهد معك. اننى متلهفة على الكلام معك ولن أنسى أبدا مساعدتك لى. غدا ما بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف سأقوم بالنزهة فى أرجاء ألتو دى سانتا كاتارينا واذا لم يكن لديك مانع يمكننا أن نتقابل هناك ونتحادث قليلا» فتاة شابة من كوامبرا تكتب ورقة تشير فيها إلى أنها توافق على مقابلة طبيب فى منتصف العمر وصل توا من البرازيل وربما يكون فى حالة هروب ومن المؤكد أن الشكوك تنصب عليه. يا له من موضوع حب تراجيدى على وشك أن يحدث هنا.

وفى اليوم التالى تناول ريكاردو ريس طعام الغذاء فى البايسكا. ولسبب غير محدد عاد إلى ايرموس يونيدوس ربما من خلال انجذابه نحو اسم ذلك هو الذى لم يكن له أبدا اى اخوة أو اخوات ويجد نفسه بدون أصدقاء يتعرض لهجوم من جانب مثل هذه الرغبات خاصة عندما يكون شاعرا بالضعف اذ ليست ساقاه هى فقط التى ترتعشان عقب الانفلونزا وإنما روحه أيضا تموج بالارتعاد . النهار مليىء بالسحب التى تحجب السماء ويشعر ريكاردو ريس بالبرد بعض الشىء وهو يصعد فى شارع كارمو ويحملق فى فاترينات العرض للمحلات حيث مازال هناك متسع من الوقت قبل حلول موعد اللقاء. ويحاول أن يتذكر كما اذا كان قد مرّ بتجربة مثل هذه من قبل بحيث تأخذ فتاة زمام المبادرة من أجل عقد لقاء. ولا يستطيع تذكر تجربة مماثلة مر بها فى مكان كهذا وفى وقت كهذا فالحياة عادة ما تكون مليئة بالمفاجآت. ولكن أكبر المفاجآت هى أنه لايشعر بأى قدر من التوتر وكأن إعطاء كل هذا القدر من الحذر والسرية ليس سوى أمر طبيعى. لديه انطباع

وكأنه واقع في فخ في داخل سحابة وانه غير قادر على تركيز أفكاره. ربما لأنه لايصدق بالفعل أن مارسيندا على وشك أن تظهر في الأفق. ودخل الى مقهى برازيليرا لكي يريح قدميه ولكي يتناول القهوة وأصغى لمناقشات تدور بين مجموعة من الرجال من الواضح أنهم من المهتمين بالكتابة والآداب والثقافة وكانوا يصبون الشتائم واللعنات على رجل ما أو وحش. ثم غادر ريس المقهى حيث بلغت الساعة الثالثة إلا الربع وهو الوقت الملائم لكي يمضي في سبيله. وعبر الميدان بجوار تمثال للشاعر فجميع الطرق في البرتغال تؤدي الى كاموس. كاموس المتغير دائما وفقا للمشاهد. في حياته كانت ذراعاه في حالة استعداد لخوض المعركة بينما كان ذهنه منصبا على موازين الشعر. سيفه الآن في غمده وكتابه مغلق وعيناه كفيفتان. كلتاهما كفيفتان حيث أصابتهما الجراح بسبب الحمام ونظرات اللامبالاة التي تصدر عن المارة الى جواره. ولم يبلغ الوقت الساعة الثالثة. عندما وصل ريكاردو ريس الى ألتو دي سانتا كاتارينا. يبدو على أشجار النخيل وكأنها طعنت بمعرفة النسيم القادم من البحر لكن أوراقها القوية لاتتحرك الا بصعوبة. إنه لا يتذكر ما اذا كانت هذه الأشجار قد وجدت هنا منذ ١٦ عاما عندما سافر إلى البرازيل. لكن الشيء المؤكد أن هذه الكتلة الحجرية الضخمة المنحوتة في خشونة لم تكن هنا .إنها تشبه طبقة بارزة من الصخر لكنها في الحقيقة عبارة عن أثر من الآثار القديمة الباقية.

اذا كان آداما ستور الغاضب موجودا هنا فمعنى ذلك ان رأس الرجاء الصالح لايقع على مسافة بعيدة. وفي الأماكن السفلية توجد سفن شراعية حربية تتهادى في النهر. ويطأ ريكاردو ريس بقدميه على المماشي الضيقة المليئة بالحصباء الرطبة المبللة بينما يلتصق الوحل بحذائه.. لا يوجد أحد هنا في هذا المبنى المطل على منظر رائع باستثناء رجلين عجوزين صامتين يجلسان على نفس المقعد الطويل. ربما أنهما قد عرفا بعضهما البعض لفترة طويلة للغاية بحيث لم

يعد لديهما أي كلام يمكن أن يتبادلاه وربما هما ينتظران لكي يعرفا من منهما سيموت أولا. ويشعر ريكاردو ريس بالبرودة فيرفع ياقة معطف المطر الخاص به لأعلى ويقترب من الذى يحيط بالمنحدر الأول للتل. ويترامى صوت: ياريس هل أنت في انتظار شخص ما؟ كان الصوت مليئا بالسخرية ولاذعا. انه صوت فرناندو بسوا. فاستدار ريكاردو ريس نحو الرجل الذى يرتدى ملابس سوداء ويقف إلى جواره وقد أمسك بيديه البيضاء. وقال ريس: ليس هذا ما توقعت مشاهدته عندما جئت هنا عبر موجات المحيط ولكن نعم انني انتظر مجيء شخص ما. فقال بسوا: أنت لاتبدو في صحة جيدة على الاطلاق. تمتم ريس: تعرضت لنوبة انفلونزا وكانت شديدة للغاية لكنها سرعان مازالت. قال بسوا: هذا ليس أفضل مكان لشخص شفى توا من الانفلونزا فأنت في الأعالي هنا تكون معرضا للرياح القادمة من البحر المكشوف. فقال ريس: انه ليس سوى نسيم يهب من النهر ولا يسبب لي أية متاعب. سأل بسوا: أأنت في انتظار امرأة ما؟ قال ريس: نعم أنا في انتظار امرأة قال بسوا: برافو من الواضح انك تخليت عن تلك الأمور الروحانية المتعلقة بالمرأة المثالية واستبدلت ليديا الأثيرية بليديا مادية تستطيع احتواءها بين ذراعيك مثلما شاهدت بعيني رأسي في الفندق وها أنت هنا في انتظار امرأة أخرى وهذا يعني أنك تقوم بدور دونجوان وأنت في هذا العمر المتقدم. امرأتان في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة تقبل التهاني من جانبي فأنت وفق هذا المعدل سوف تصطاد ألف وثلاثة من النساء. فقال ريس: أشكرك بدأت أدرك أن الموتى اسوأ من الناس العجائز لأنهم ما أن يبدأوا في التحدث لايعرفون كيف يتوقفون عن الكلام. فقال بسوا: أنت على حق في ذلك فهم ربما يندمون على كل شيء لم يقولوه عندما كان لايزال أمامهم متسع من الوقت. قال ريس: استمع الي يا فرناندو انني افضل الا تشاهد الفتاة التي انتظرها. فقال بسوا: لا تقلق فأسوأ ما يمكن أن يحدث هو انها سوف تشاهدك من على مسافة

وأنت تتكلم مع نفسك وهذا شيء عادى لأن كل شخص واقع فى الحب يتصرف على ذلك النحو. فقال ريس: لست واقعا فى الحب، ردد بسوا: يؤسفنى أن أسمع ذلك ودعنى أقول لك أن دونجوان كان مخلصا صحيح أنه كان متقلب الأهواء ولكنه كان مخلصا وأما انت فمثل الصحراء ويبدو انك لا تلقى بظلال هتف ريس: انت الذى لا تلقى بظلال. فقال بسوا: لو سمحت أنا استطيع بكل تأكيد أن ألقى بظلال اذا أردت ذلك ولكن الذى لا استطيعه هو النظر إلى نفسى فى المرآة. فقال ريس: على فكرة.

هل أنت الذى كنت ترتدى هيكل الموت فى موكب الكرنفال؟

فقال بسوا: ياريس هل يمكنك أن تتصور أن أتجول هنا وهناك متنكرا فى زى الموت مثل قصة رمزية منتمية للعصور الوسطى فالرجل الميت لا يرقص فى مرح ويتصرف فى حماقة فهو يمقت بشدة العرى الكامل لشكله الهيكلى ولذلك فإنه عندما يتجلى متجسدا فإنه أما أن يظهر مثلما أفعل أنا مرتديا أفضل ثيابه وهى الثياب التى كان يرتديها أثناء دفنه واما أن يلف نفسه فى كفنه اذا ظهر بهدف أن يخيف شخصا ما ولكنه يظهر كشخص لديه ذوق وأنا لا أنزلق الى مثل هذا المزاح السخيف. فقال ريس : كان لدى إحساس بأن تلك ستكون هى اجابتك الآن يجب أن أطلب منك أن تغادر هذا المكان لأن الفتاة التى انتظرها تقترب الآن فقال بسوا: تلك الفتاة القادمة انها جذابة للغاية لكنها وفقا لمزاجى الخاص تعتبر نحيلة. فقال ريس: هذه هى أول مرة اسمعك فيها تصدر تعليقا على فتاة. أنتَ شبق شهوانى تختلس النظرات أنت ولد ماكر. فقال بسوا: استودعك الله ياعزيزى ريسى وإلى أن نلتقى مرة أخرى أتركك لكى تخطب ود هذه العذراء لقد تحولت الى اغواء الخادمات ومطاردة واصطياد العذروات. وجاء ت مارسيندا متهادية بين الأزهار فاتجه اليها ريكاردو ريس لكى يقابلها. وقالت متسائلة: أكنت تكلم نفسك. رد: نعم كنت أرتل بعض أبيات من الشعر الذى كتبه صديق لى مات منذ شهور

قليلة لعلك سمعت باسمه. فقالت: ما اسمه فقال: فرناندو بسوا. فقالت: هذا الاسم يبدو مألوفا لى ولكنى لا أذكر اننى قرأت شيئا من أشعاره، قال ريكاردو ريس مترنما: «ما بين ما أعيشه والحياة وما بين ما أبدو عليه وما أكون عليه أنام نوما خفيفا على منحدر صخرى لن أتركه أبدا» فقالت: أكان ذلك هو الشعر الذى كنت ترتله؟! أجاب نعم. قالت: يبدو وكأنه كتبَ من أجلى اذا كنت قد فهمت المعنى على نحو سليم. فقال: انه شعر بسيط للغاية ومع ذلك فقد احتاج لذلك الرجل لكى يكتبه. انه يشبه كافة الأشياء من حيث أنه جيد وردىء فى آن واحد. دعينا نترك الشعر ونتكلم عنك. كيف كانت أحوالك وهل يدك آخذة فى التحسن. قالت: ليست أفضل من ذى قبل. إنها موضوعة هنا فى جيبى مثل طائر ميت. فقال: عليك ألا تفقدى الأمل. قالت: أشعر اننى قد فقدت الأمل بالفعل وربما أقوم فى يوم من تلك الأيام بالحج الى سانت فاطيما لكى أرى ما إذا كان الايمان سينقذنى. سأل هل أنت مؤمنة؟ فقالت: أنا كاثوليكية. فقال: وهل تمارسين الصلاة؟ ردت: نعم أنا أذهب الى القداس واذهب الى الاعتراف وأتناول العشاء الربانى وأفعل كافة الأشياء الطيبة التى يفترض أن يفعلها الكاثوليك. فقال: لا يبدو عليك أنك مكرسة للغاية. علقت: لا تهتم كثيرا لما أقوله. لم يحاول ريكاردو ريس أن يرد. الكلمات ما أن يتم النطق بها تبقى مفتوحة مثل الأبواب حيث ندخل دائما تقريبا ولكننا فى بعض الأحيان ننتظر بالخارج حيث نتوقع أن يفتح باب ما آخر ويتم النطق ببعض الكلمات الأخرى فقالت : أرجوك أن تتغاضى عن سلوك والدى فنتيجة الانتخابات فى أسبانيا قد شوشت معتقداته مما جعله يتناقش طوال الوقت بالأمس مع اللاجئين ومما زاد الأمور سوءا أن سلفادور قال له أن الدكتور ريس قد أرسلت الشرطة اليه وثيقة استدعاء رسمية. فقال : نحن لا نكاد نعرف بعضنا البعض. ووالدك لم يفعل شيئا يتطلب منى أن أغفر له. وأظن أن موضوعى مع الشرطة بسيط للغاية وفى يوم الاثنين سأذهب اليهم وأرد على كافة أسئلتهم وبذلك تنتهى المشكلة تماما.

فقالت: إنني مسرورة لأنك لا تجعل هذا الموضوع يسبب لك أى ازعاج. فقال: لاداعي لأن انزعج فأنا ليس لى أية علاقة بالنواحي السياسية لقد عشت كل تلك السنوات الطويلة في البرازيل دون أن يطاردني أى شخص ولا يوجد سبب لأن يطاردني شخص هنا بالبرتغال. فقالت: إن شاء الله سيتم كل شيء على مايرام. فقال: اشكرك على المجيء إلى هنا لكي تعتذرى لى عن سلوك والدك. فقالت: جئت لأنني أريد رؤيتك والتحدث معك ولسوف نرجع غدا الى كوامبرا كنت أخشى ألا توجد أمامنا فرصة أخرى للقاء الرياح بدأت تهب في مزيد من العنف. أحكم غلق ملابسك.

قال: لا تقلقى علىّ. همست أخشى أن أكون قد اخترت مكانا غير ملائم من أجل لقائنا. كان ينبغى علىّ أن أتذكر أنك مازلت فى حالة نقاهة من المرض. فقال: كانت مجرد نوبة انفلونزا بل وربما كانت مجرد برد بسيط فقالت: سيمر شهر آخر قبل أن أرجع الى لشبونة ولا توجد وسيلة لأن أعرف ما يحدث فى يوم الاثنين. ردد سبق أن قلت لك أن هذا الموضوع لا يشكل أية أهمية. فقالت: ورغم ذلك أود أن أعرف. تمتم سيكون من الصعب ابلاغك قالت: ولماذا لا ترسل الىَّ خطابا لسوف أترك لك عنواني. لكن لا. الأفضل أن ترسل إلىَّ خطابا وتكتب على المظروف عبارة «يحفظ فى شباك البريد» لأن والدى قد يكون بالمنزل أثناء مجيء ساعي البريد فقال: أوافق على ذلك واذا لم يصلك خطاب مني فإن ذلك يعنى أننى قد أدنت وتم ايداعى فى زنزانة مظلمة. وفى هذه الحالة عليك بذل جهود من أجل انقاذى. فقالت: لا قدر الله.

علىّ الآن أن أتركك لأننى وأبى لدينا موعد لكى نقابل الطبيب الاخصائى. ثم ناورت الى أن وضعت كلتا يديها فى يدى ريكاردو ريس، وينظر الرجلان العجوزان ويفشلان في فهم حقيقة الموقف. وقال ريس: سأذهب الى صالة الطعام فى وقت العشاء ولسوف أكتفى بالايماء لوالدك من على مسافة لكى لا أسبب له الارتباك

أمـام أصدقـائه الجـدد الوافـدين من أسـبـانيـا. فـقـالت: كنت أن أطلب منك ذلك. فـقـال. تطلبـين مني ألا اقـتـرب منه. فـقـالت: أطلب منك أن تتناول طعـام العشـاء بالمطعم حتى يمكنني أن أراك. فقال: يا مارسيندا لماذا تريدين أن تراني؟ فقالت: لا أعرف السبب في ذلك. ثم انطلقت وسارت صاعدة على المنحدر وتوقفت عند قمة التل لكي تريح يدها اليسرى في داخل جيبها ثم واصلت المسير دون أن تلتفت وراءها. ولاحظ ريس وجود باخرة كبيرة على وشك الدخول الى القناة. لم تكن هي الباخرة التي تسمى «هايلاند بريجيد». كان الرجلان العجوزان يتحدثان في غير كلفة. وقال أحدهما: أنه قد يكون والدها. فقال الآخر: من المؤكد أن بينهما علاقة جنسية غير شرعية وأضـاف: الشيء الذي لا أفـهـمه هـو السبب في وجـود ذلك الشـخص المرتدي ثيـابا سـوداء طوال الوقت. فقال الآخر: من هو ذلك الشـخص. قال زميله: ذلك الشخص المتكيء على الدرابزين. فقال الآخر: انني لا أشاهد أي شـخص عند الدرابزين على الاطلاق. فـقـال الدرابزين : أنت بحـاجـة الى نظارة وقال زميله: وأنت مخمور: وكان الوضع هكذا دائما مع هذين الرجلين العجوزين حيث يبدأن أولا في الدردشة ثم في المناقشة ثم ينتقلان الى مقعدين منفصلين ثم ينسيان الشجار الذي حدث بينهما ثم يجلسان سويا على مقعد واحد مرة أخرى. وابتعد ريكاردو ريس عن الدرابزين وطاف حول الأزهار واتبع نفس الطريق الذي جاء منه. ومع القاء نظرة على يساره بطريق المصـادفة وقع بصره على منزل به نقوش بالدور العلوي.

وهزت هبة رياح أشجـار النخيل. فنهض الرجلان العجوزان واقفين. وبعدئذ لم يعد يوجد هناك أي شخص في ألتو دي سانتا كاتارينا.

(٩)

أى شخص يقول إن الطبيعة لا تبالى بهموم ومعاناة الجنس البشرى لا يعرف سوى القليل عن الطبيعة أو البشرية. فالأسف مهما كان متلاشيا والصداع مهما كان خفيفا يمزق مدار النجوم على الفور ويغير الجزر وتدفقات المياه الجارية ويتداخل مع صعود القمر ويثير التيارات الهوائية فى الجو علاوة على إثارة السحب المتموجة. ودع سنت يفقد من الكمية التى جمعت فى أخر دقيقة من أجل تسوية فاتورة وعندئذ ستغضب الرياح فى عنف وتصبح السماء منذرة بالأمطار وتتعاطف الطبيعة كلها فى مواساة مع المدين الذين يعانى من الكرب. والمتشككون الذين تنصب كل اهتماماتهم على التشكيك وعدم الايمان بأى شيء سواء أكان لديهم دليل على ذلك أم لا سيقولون بأن هذه النظرية لا ترتكز على أساس من الصحة وأنها بمثابة كلام فارغ ولكن ما هو التفسير الآخر الذى يبرر حدوث الطقس الرديء المستمر الذى دام على مدى شهور وربما على مدى سنوات لأنه كانت توجد هناك دائما عواصف هنا ورياح هوجاء وفيضانات ولقد قيل الكثير عن شعب أمتنا مما يجعلنا نجد فى محنتهم سببا كافيا لحدوث هذه العوامل الجوية الجامحة. وهل نحن بحاجة لأن نذكرك أيها القارىء بالغضب الجامح الذى اجتاح أهالى ألنتيجو أو بتفشى مرض الجدرى فى ليبوكو وفى فتيله أو انتشار التيفود فى فالبوم. وماذا عن الـ ٢٠٠ شخص الذين يعيشون فى ثلاثة طوابق بمبنى فى ميراقيا / أبورتو بدون كهرباء وفى حالة بدائية حيث يستيقظون فى كل صباح على الصياح والصراخ وحيث تصطف النساء فى طابور من أجل إفراغ محتويات مبولة حجرة النوم الخاصة بهن والباقى نتركه لخيالك أيها القارىء الذى ينبغى استخدامه بعض الشيء. ولا عجب إذن من أن الطقس قد أطلق هذا الاعصار الذى اقتلع الأشجار من جذورها واطاح بسقف البيوت وأعمدة التلجراف. ريكاردو

ريس متجه في طريقه الى المركز الرئيسي للشرطة وهو يموج بالقلق وقد جذب قبعته لأسفل في احكام لكي لاتتقاذفها الرياح. ووصل إلى الباب الرئيسي قبل أن تدق الساعة معلنة العاشرة صباحا. وأبرز لهم الورقة التي أرسلوها اليه. فطلبوا منه الصعود الى الدور الثاني. فراح يصعد على السلالم وهو ممسك بوثيقة الاستدعاء الرسمية في يده مثل مصباح ينير الطريق أمامه فبدونها لن يعرف أين يضع قدميه. وعندما طلب منه أن ينتظر جلس على مقعد خشبي طويل وهو يشعر انه قد أصبح مجردا من الأمل لانهم أخذوا منه وثيقة الاستدعاء الرسمي. انه يجلس مع أناس آخرين منتظرين. لو كانت هذه عيادة طبيب لكانوا قد انخرطوا في دردشة مع بعضهم البعض: شيء ما خاطيء في رئتي، متاعبي تتعلق بالكبد أو ربما بالكليتين ولكن لا أحد يعرف الاشياء التي يعاني منها هؤلاء الناس الجالسون في صمت مطبق. واذا ما اتيحت لهم فرصة للتكلم فإنهم سيقولون: إنني أشعر بالتحسن الكبير على نحو فجائي هل لي أن انصرف الآن. سؤال سخيف لأن أفضل علاج لآلام الأسنان كما نعرف هو النفاذ من الباب عندما ينادي طبيب الأسنان قائلا: لقد انقضى نصف ساعة وكان ريكاردو ريس مازال في انتظار النداء عليه. وفتحت أبواب وأغلقت أبواب وكان بالمستطاع سماع رنين جرس التليفونات ومر رجلان بجواره وضحك أحدهما بصوت مرتفع قائلا انه لايعرف ما يخبئه له القدر ثم اختفيا وراء ستارة وسائل ريكاردو ريس نفسه في توتر: أهما يشيران إليَّ بتلك العبارة.

في نهاية الأمر سوف نعرف طبيعة التهم الموجهة اليه.

ورفع يده نحو جيب صديريته لكي يستخرج ساعته ليعرف الفترة الزمنية التي قضاها منتظرا ولكن يده توقفت في منتصف المسافة اذ ينبغي عليه ألا يظهر أي نفاذ للصبر. وأخيرا جذب رجل ستارة في خفة شديدة واستدعاه بايماءة من رأسه فاندفع ريكاردو ريس للأمام ثم أوقف نفسه وكبح جماح نفسه من خلال حاسة

وقار غريزية اذا كان للوقار اية علاقة بالغريزة. وسار وراء الرجل الذى كانت تفوح منه رائحة البصل في طرقة طويلة توجد أبواب على جانبيها مغلقة فى إحكام. ولدى الوصول الى الطرف البعيد للطرقة راح مرشده يطرق بخفة على أحد الأبواب ثم فتحه. وقال رجل جالس الى مكتب: انتظر معنا هنا فربما نحتاج اليك ثم استدار نحو ريكاردو ريس وأشار الى كرسى وقال له: اجلس. فأطاع ريس الأوامر بينما التوتر والاحباط يجتاحانه. ثم قال لنفسه فى تفكير: إنهم يفعلون ذلك لمجرد إخافتى. وأخذ الرجل الجالس إلى المقعد وثيقة الاستدعاء الرسمية وقرأها فى بطء كما لو لم يسبق له أبدا مشاهدة وثيقة كهذه من قبل. ثم وضعها فى حرص وعناية على ورق النشاف الأخضر ونظر اليه نظرات ثاقبة مثل نظرات شخص ما يقوم بمراجعة نهائية من أجل تجنب الوقوع فى أية غلطة. وكانت كلماته الافتتاحية هى: لو سمحت اعطنى بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بك. وعبارة لو سمحت هدأت من التوتر الذى يجتاح ريس . فاستخرج ريس بطاقته من محفظة نقوده ورفع نفسه قليلا عن كرسيه لكى يناولها له وتسبب ذلك فى وقوع قبعته على الأرض مما جعله يشعر بأنه مثير للضحك وبأنه يموج مرة أخرى بالتوتر العصبى. فراح الرجل يقرأ البطاقة سطرا وراء سطر ثم قارن الصورة الفوتوغرافية مع وجه الرجل الماثل أمامه وكتب بعض الملاحظات ثم وضع البطاقة فى حرص وعناية فى الملف بجوار وثيقة الاستدعاء الرسمية. وقال ريس لنفسه فى تفكير: ذلك رجل مخبول ولكنه أضاف بصوت مرتفع: أنا طبيب وأنا وصلت الى هنا قادما من البرازيل من ريو دى جانيرو منذ شهرين. فتساءل الرجل: وأنت قد ظللت مقيما فى فندق براجانسا طوال هذا الوقت. فقال ريس : نعم ياسيدى. فقال الرجل: على أية باخرة وصلت. فقال ريس: على الباخرة هايلاند بريجيد التى تنتمى لخطوط البريد الملكية وانا قد نزلت من هذه الباخرة فى لشبونة فى يوم ٢٩ ديسمبر فقال الرجل: هل سافرت بمفردك أو بصحبة آخرين. فقال ريس : بمفردى

فقال الرجل: أأنت متزوج. فقال ريس: لا ياسيدى أنا لست متزوجا وأود أن أعرف السبب فى استدعائى الى هنا ولماذا ترغب الشرطة فى استجوابى فهذا هو آخر شيء كنت أتوقعه. فقال الرجل كم عدد السنوات التى أمضيتها مقيما فى البرازيل. فقال ريس: لقد ذهبت الى هناك فى عام ١٩١٩ ولماذا تسأل كل هذه الأسئلة فقال الرجل: عليك فقط بالاجابة على اسئلتى واترك الباقى علىّ فبتلك الطريقة ستسير الأمور على مايرام بيننا. فقال ريس : وهو كذلك ياسيدى. فقال الرجل: أكان هناك سبب ما معين يدعو الى هجرتك الى البرازيل. فقال ريس: لقد قررت الهجرة وذلك هو كل ما فى الأمر. فقال الرجل الأطباء لا يهاجرون عادة. فقال ريس : ولكنى هاجرت. فقال الرجل: لماذا ألم تستطع العثور على مرضى هنا بالبرتغال فقال ريس : كان لدىّ عدد من المرضى ولكنى أردت أن أشاهد البرازيل وأن أعمل هناك وذلك هو كل ما فى الأمر. فقال الرجل: والآن لقد رجعت. فقال ريس: نعم لقد رجعت: فقال الرجل: رجعت من أجل ماذا اذا لم تكن قد رجعت من أجل مزاولة مهنة الطب. فقال ريس : وكيف تسنى لك أن تقول اننى لا أمارس مهنة الطب. فقال الرجل: أنا أعرف ذلك. فقال ريس : صحيح اننى حاليا لا أمارس الطب ولكننى افكر فى فتح عيادة طبية وأن أضرب بجذورى مرة أخرى فى وطنى البرتغال. فقال الرجل: بكلمات أخرى يمكن القول أنك بعد أن أمضيت ١٦ عاما شعرت فجأة بالحنين الى البرتغال موطنك الأصلى. فقال ريس: هذا صحيح ولكننى لا أعرف الهدف من وراء هذا الاستجواب. فقال الرجل: هذا ليس استجوابا لأن العبارات التى تقولها - كما ترى - لا يتم تسجيلها. فقال ريس: إذن ما السبب فى استدعائى الى هنا. فقال الرجل: لقد كنت متلهفا على مقابلة هـذا الطبيب البرتغالى الذى كان يحقق نجاحا كبيرا فى البرازيل ثم عاد منها عقب مرور ١٦ عامـــا،ثم ظل مقيما بفندق على مدى شهرين ومبتعدا عن القيام بأى عمل.

فقال ريس: سبق لي أن قلت لك أنني بصدد استئناف مزاولتي لمهنة الطب. فقال الرجل: أين. فقال ريس : لم أبدأ بعد في البحث عن مكان ملائم وهذا قرار مهم في حياتي. فقال الرجل: قل لي شيئا ما أخر هل تعرفت على أناس كثيرين في ريو دي جانيرو أو بأي مكان آخر بالبرازيل. فقال ريس: انني لم أسافر كثيرا في ارجاء البرازيل وجميع أصدقائي كانوا يعيشون في ريودى جانيرو .. فقال الرجل: ومن هم هؤلاء الأصدقاء. فقال ريس: حياتي الخاصة هي أمر يتعلق بي فقط وانا لست مرغما على أن أجيب على مثل هذه الأسئلة والا فإنه ينبغي على أن أصر على ضرورة وجود المحامي الخاص بي. فقال الرجل: هل لديك محام خاص بك. فقال ريس: لا ولكن لاشيء يمنعني من استئجار محام. فقال الرجل: المحامون لا يسمح لهم بدخول هذا المبنى او الاراضى التابعة له وعلاوة على ذلك يا دكتور فإنك غير متهم بأي جريمة وإنما نحن نتجاذب أطراف الحديث معك في دردشة خفيفة. فقال ريس: ولكنها دردشة ليست نابعة من اختيارى كما ان السيل الجارف من الاسئلة التي توجه اليّ يوحي بان الامر ليس مجرد دردشة ودية. فقال الرجل: اعود الى سؤالي وأقول لك من هم هؤلاء الناس الذى كانوا أصدقاءك . فقال ريس: ارفض الاجابة على هذا السؤال. فقال الرجل: يا دكتور ريس لو كنت مكانك لكنت اكثر تعاونا فمن مصلحتك ان تجيب وذلك حتى يمكن لك ان تتجنب تعقيدات لا لزوم لها. فقال ريس: لي أصدقاء برتغاليون وبرازيليون وهم اناس جاءوا لي لكي يستشيروني من الناحية المهنية وبالتالي أصبحوا أصدقائي وما الجدوى من وراء ذكر اسماء اناس لا تعرفهم أنت.. فقال الرجل: أنت على خطأ بالنسبة لهذه النقطة فأنا اعرف اسماء عديدة للغاية . فقال ريس: وأنا لن اذكر لك اسماء. فقال الرجل: حسنا ستكون لدى وسائلي الخاصة لإكتشاف هذه الاسماء اذا اتضح ان ذلك أمر ضرورى. فقال ريس: تصرف على النحو الذى يروق لك فقال الرجل : أكان من بين أصدقائك شخصيات عسكرية أو سياسية فقال ريس :

إننى لم أعمل فى مثل الدوائر فقال الرجل: ألم يكن أحدهم على اتصال بالقوات المسلحة، او منهمكا فى النواحى السياسية. فقال ريس: لا أضمن أن اناسا كهؤلاء لم يستشيرونى كطبيب. فقال الرجل: ولكن ألم تصبح صديقا لاى واحد منهم فقال ريس : لا. فقال الرجل: لقد كنت تعيش فى ريودى جانيرو عندما تفجرت الثورة الأخيرة فهل تعتقد انه من قبيل المصادفات ان ترجع الى البرتغال عقب اكتشاف المؤامرة الثورية. فقال ريس: انه أمر وليد الصدفة تماما مثل اكتشافى أن الفندق الذى أقيم فيه حاليا قد أصبح مليئا باللاجئين الاسبان عقب اجراء الانتخابات الاخيرة فى اسبانيا فقال الرجل: آه معنى كلامك هذا انك تقول لى انك قد هربت من البرازيل. فقال ريس: اننى لم أقل ذلك. فقال الرجل: انت قارنت الوضع الخاص بك بموقف الاسبان الذين جاءوا الى البرتغال. فقال ريس: من أجل أن أوضح لك أن المصادفات لا تعنى اى شىء فأنا كما سبق ان قلت لك كنت اشعر بالحنين لوطنى مرة أخرى. فقال الرجل: إذن انت لم ترجع لأنك كنت خائفا. فقال ريس: خائفا من ماذا فقال الرجل: خائفا من ان تقوم السلطات هناك بمطاردتك على سبيل المثال. فقال ريس: لم يطاردنى أحد سواء قبل الثورة او بعدها. فقال الرجل: هذه الامور تستغرق احيانا بعض الوقت . فنحن لم نقم باستدعائك الا بعد مرور شهرين على وصولك. فقال ريس: مازلت أود ان اعرف السبب فى استدعائى، فقال الرجل: قل لى شيئا آخر. لو كان الثوار قد نجحوا أكنت ستظل مقيما فى البرازيل فقال ريس: لقد سبق ان قلت لك ان سبب عودتى ليس له علاقة بالنواحى السياسية او الثورات والتمردات وعلاوة على ذلك فهذه ليست أول ثورة تشهدها البرازيل خلال فترة اقامتى هناك فقال الرجل: هذه اجابة تدل على ذكائك حيث تحدث ثورات وتمردات ولا يكون الدافع وراءها هو نفس السبب .. فقال ريس: انا كطبيب لا اعرف ولا ارغب فى ان اعرف اى شىء يتعلق بالثورات فانا لا اهتم الا بمعالجة الناس وشفائهم من امراضهم فقال الرجل: من

الواضح انك غير مهتم بعلاج المرضى في هذه الايام. فقال ريس: لسوف أستأنف ممارستي لمهنة الطب مرة أخرى فقال الرجل: اكنت تعاني من متاعب مع السلطات اثناء اقامتك في البرازيل. فقال ريس: انني رجل مسالم ومحب للسلام. فقال الرجل: وهنا في البرتغال هل قمت بتجديد اية صداقة منذ عودتك فقال ريس: فترة الستة عشر عاما يكفي لان تجعلني انسى الاصدقاء. وتجعل الاصدقاء ينسونني، فقال الرجل: انت بذلك لم تجب على سؤالي.

فقال ريس: ليس لي اصدقاء هنا. فقال الرجل: هل فكرت في اى وقت من الاوقات في الحصول على الجنسية البرازيلية. وبحيث تصبح مواطنا برازيليا، فقال ريس: ابدا. فقال الرجل: هل اكتشفت ان البرتغال قد تغيرت كثيرا منذ ان تركتها وسافرت الى البرازيل. فقال ريس: لا استطيع الاجابة على هذا السؤال فانا منذ أن جئت وأنا مقيم في لشبونة فقط ولم اذهب الى أماكن أخرى خارجها. فقال الرجل: وما رأيك في لشبونة ذاتها. هل تجد أنها أصبحت مختلفة كثيرا عن ذى قبل.. فقال ريس : من المؤكد أن الستة عشر عاما قد أحدثت الكثير من التغييرات. فقال الرجل: الا تجد المزيد من الهدوء في الشوارع. فقال ريس: نعم لقد لاحظت ذلك. فقال الرجل: الديكتاتورية الوطنية دفعت البلاد الى العمل والجد والمثابرة. فقال ريس: لاشك في ذلك. فقال الرجل: يوجد احساس بحب الوطن وتدفق المشاعر الوطنية والرغبة في الكفاح من أجل الصالح العام. فقال ريس: أى تضحية في سبيل المصلحة القومية لا تكون تضحية كبيرة للغاية وانا لن أرفض تسديد الضرائب المستحقة عليّ طالما ان المنافع تكون متاحة مثل مطاعم الفقراء التى تقام من اجل اطعام الفقراء. فقال الرجل: من المؤكد انك لست فقيرا يا دكتور. فقال ريس : قد اصبح فقيرا ذات يوم. فقال الرجل: لا قدر الله ولكن ما الذى ستفعله اذا اصبحت فقيرا. فقال ريس: سأعود الى البرازيل. فقال الرجل: هنا في البرتغال لا توجد سوى احتمالات ضئيلة لاندلاع ثورة وآخر تمرد

قد حدث منذ عامين ثم انتهى على نحو مأساوى بالنسبة للمتورطين فيه. فقال ريس : لا اعرف عما تتحدث وليس لدى ما اضيفه الى الكلام الذى قلته لك توا. فقال الرجل: وأنا ليس لدى المزيد من الأسئلة. فقال ريس: هل يمكن لى ان انصرف الآن. فقال الرجل : نعم. وها هى البطاقة الشخصية الخاصة بك اوه يا فيكتور لو سمحت اصطحب الدكتور الى الباب الخارجي. فاقترب فيكتور من ريس قائلا له: اتبعنى بينما انفاسه تفوح برائحة البصل الكريهة. وقال ريكاردو ريس لنفسه في تفكير: هذا شيء لا يصدقه العقل فنحن مازلنا فى الصباح ومع ذلك تفجر هذه الرائحة الكريهة للغاية من المؤكد ان هذا الرجل يأكل البصل أثناء تناوله طعام الافطار. وما أن أصبحا في الطرقة حتى قال فيكتور له: أرى انك كنت تثير غضب رئيس النيابة الخاص بنا لمجرد انك وجدته فى حالة نفسية طيبة فقال ريس: ماذا تعنى بكلمة أثير غضبه . فقال: انت رفضت الاجابة على اسئلته وكنت تدور وتحوم حول الموضوع وهذه غلطة كبيرة ومن حسن حظك ان رئيس النيابة الخاص بنا لديه بعض الاحترام لمهنة الطب. فقال ريس: مازلت لا أعرف السبب فى استدعائى الى هنا. فقال فيكتور : لا داعى لان تعرف وعليك فقط أن ترفع يديك الى السماء وتشكر الله على ان الحكاية قد انتهت. فقال ريس: فلنأمل فى أن المسألة قد انتهت للابد على نحو حاسم فقال فيكتور: ذلك شيء لا يعرفه أحد على الاطلاق ولكن ها نحن قد وصلنا الى نهاية المبنى يا انتيونيس هذا الطبيب لديه تصريح بمغادرة المبنى وداعا يا دكتور وإذا أردت أى شيء منى فأنت تعرف أين تعثر علىّ وأسمى هو فيكتور. ووضع ريكاردو ريس بقشيشا فى يد المرشد الممدودة مستخدما اطراف اصابعه حيث كان يخشى من ان يفوح هو الآخر برائحة البصل الكريهة التى قد تجعله يصاب بالغثيان . ولكن الرياح العاتية ضربت وجهه ضربة عنيفة وبددت بوادر الغثيان الذى شعر به ووجد نفسه فى أحضان الشارع بدون أن يعرف الكيفية التى تم بها ذلك واغلق الباب الرئيسى

المبنى عقب خروجه. ويصل ريكاردو ريس الى شارع انكرناسو ويحس بان المطر الغزير بصدد الهطول ستطالعنا صحف الغد بأنباء وتقارير عن ذلك المطر. ويحتمي جميع المشاة من الامطار بالوقوف في مداخل العمارات والمنشآت وهم يهزون أنفسهم مثل كلاب مبللة بالماء. لايوجد سوى رجل واحد موجود على الرصيف بجوار مسرح سولويس ومن الواضح انه جاء متأخرا عن الموعد المحدد ويبدو عليه انه يموج بالقلق على النحو الذى كان يعانى منه ريكاردو ريس وهو ما يفسر كل هذه الامطار المتدفقة فوق الرؤوس. كان يمكن للطبيعة ان تظهر تضامنها بطريقة ما أخرى وذلك على سبيل المثال بارسال زلزال قادر على دفن فيكتور ورئيس النيابة فى الدبش تحت الانقاض وبحيث تدعهما يتعفنان الى أن تتبخر رائحة البصل والى ان يتحولا الى عظام نظيفة مرة أخرى.

عندما دخل ريكاردو ريس الى الفندق كان المطر يتساقط من قبعته كما لو كان يسقط من مزراب. وكان معطف المطر الخاص به مبللا للغاية وكان خاليا من الهيبة والوقار الذى يتسم به أى طبيب واتجه الى مكتب الاستقبال لكى يأخذ مفتاح غرفته . فصاح سلفادور قائلا: انت مبتل حتى العظام يا دكتور ولكن نغمة صوته المريبة قد كشفت عن أفكاره التى تقول : ماهى أحوالك فى حقيقة الامر وكيف تعاملت الشرطة معك أو فى مزيد من الدرامية: لم اكن اتوقع ان تعود من الشرطة بمثل هذه السرعة الكبيرة. واكتفى ريكاردو ريس بان قال فى تمتمة يا له من طوفان من الأمطار الغامرة ثم سارع الى الصعود على السلالم وهو يقطر بالماء على سجادة السلالم. سوف تتمكن ليديا من تتبع اثاره من خلال انطباعات أقدامه الواحدة تلو الاخرى ومن خلال غصن مكسور واعشاب مداس عليها ولكننا نمر بأحلام يقظة ونتكلم كما لو كنا فى غابة من نوع ما فى حين أن هذا ليس سوى طرقة بفندق تؤدى الى الغرفة رقم ٢٠١ ولذلك فهى سوف تسأل: على اى نحو سارت الامور وهل عاملوك معاملة سيئة ولسوف يرد ريكاردو ريس: لم تكن

توجد هناك أية مشكلة وكانت متحضرة للغاية ومؤدبة الى أقصى حد بل وهم يدعونك للجلوس على كرسي وتقول: ولماذا استدعوك للذهاب اليهم هناك فيقول يبدو أن هذا هو الاجراء الطبيعي عندما يعود الناس عقب بقائهم بالخارج على مدى سنوات عديدة فهذه مراجعة روتينية ولا شيء اكثر من ذلك وذلك من اجل التأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام ولكي يروا ما اذا كان المرء بحاجة الى أية مساعدة وتقول: أنت تمزح فذلك لم يكن هو ما قاله لى اخى. فيقول: نعم انني أمزح ولكن لا تقلقي اذا لم تكن هناك مشكلة اذا كانوا يريدون فقط أن يعرفوا السبب في عودتي من البرازيل وما الذى كنت افعله هناك وماهي الامور التي سأفعلها هنا وفقا لمخططاتي وتقول : وهل هم لهم الحق في توجيه ايه اسئلة كهذه. فيقول: فى اعتقادى أن بمقدورهم توجيه اية اسئلة كهذه. كما يروق لهم والان انصرفي حيث ينبغي عليّ ان أغير ملابسي من أجل الذهاب الى صالة الطعام لتناول طعام الغداء. وفي صالة الطعام قام المتردى اوتيل الفونصو لان هذا هو اسمه بارشاد ريس الى منضدته بالصالة.. ولدى دخول ريكاردو ريس إلى صالة الطعام قام بتبادل التحية مع دون لورينزو ومع دون الونصو وأيضا مع دون كاميلو الذى وصل منذ ثلاثة أيام فقط ولكن دون كاميلو ظل متحفظا فى أدب. وأية معلومات يعرفها ريكاردو ريس عن الاوضاع فى أسبانيا تكون ممايسمعه من مناقشات الضيوف أثناء وَجبة العشاء أو من خلال ما يقرأه في الصحف . مرتع للمعارضة والانشقاق من خلال موجة الدعاية التى يشنها الشيوعيون والفوضويون وأعضاء النقابات التجارية والتى تتغلغل في الطبقات العاملة بل والتي تحدث تأثيرات على أعضاء بالجيش والبحرية . ويمكن لنا الآن أن نفهم السبب في استدعاء قسم الشرطة للدفاع وأمن الدولة لريكا ردو ريس.

إنه يحاول أن يتذكر ملامح رئيس النيابة الذى استجوبه ولكن كل ما يستطيع مشاهدته هو خاتم به حجر اسود يطوق الاصبع الصغير في يده اليسرى

والصورة الغامضة لوجه شاحب مستدير شبيه بكعكة لم تخبز بالفرن على نحو سليم . ولا يستطيع تذكر شكل العينين ربما لم يكن للرجل عينان على الاطلاق وربما كان يتحدث الى رجل أعمى. ويظهر سلفادور في غير تطفل في مدخل الصالة لكى يتأكد من أن كل شيء في حالة من الترتيب والنظام طالما أن الفندق قد أصبح دوليا وأثناء تفحصه السريع تقع عيناه على ريكاردو ريس. فيبتسم له من بعيد فى حركة دبلوماسية فهو يريد أن يعرف ما حدث في مركز الشرطة. ويقرأ دون لورينزو بصوت مرتفع من أجل دون آلونصو من جريدة «لاجور "La Jour" وهي جريدة فرنسية تصدر في باريس . ويقرأ مقالة يوصف فيها أوليفيرا سالازار رئيس الحكومة البرتغالية بأنه رجل نشيط ومتواضع وأن رؤياه وحكمه قد جلبا الازدهار وإحساسا بالفخر القوى ببلاده.

ويعلق دون كاميلو قائلا: ذلك هـــو ما نحتاج اليه فى أسبانيا ثم يرفع كأسه المليء بالخمور الحمراء ويومىء برأسه فى اتجاه ريكاردو ريس الذى يرد عليه بايماءة مماثلة ولكنه كبح جماح نفسه عندما تذكر معركة الجبروتة الشهيرة التى اجتاح فيها الجيش الصغير للبرتغال القوات الاسبانية . ويشعر سلفادور بالارتياح والطمأنينة وينسحب من المكان الذى كان يقف فيه فى مدخل الصالة ففيما بعد أو ربما غداً سيحكي له ريكاردو ريس عماً حدث فى شارع ماريا كاردوسو وإذا رفض أو أخفى حقائق معينة فإن سلفادور لديه وسائل أخرى لاكتشاف الأمور حيث يعمل صديق له هناك وهو ذلك الرجل الذى يسمى فيكتور وإذا كانت الاخبار لصالح ريكاردو وإذا اتضح انه فوق الشبهات عندئذ سيعود الارتياح والسعادة الى ما كانت عليه ولسوف يحذره سلفادور فى لباقة ودبلوماسية لكى يستخدم الحذر الشديد فى تعاملاته مع ليديا حيث سيكتفى بأن يقول له: ذلك من أجل سمعة الفندق يا دكتور ولكى نحمي شهرتنا الممتازة . وبعد أن انتهى ريكاردو ريس من تناول الغذاء أومأ برأسه تحية للمهاجرين ولوح بيده لسلفادور

تاركا إيــــاه يموج بالتوقعات بينما عيناه مثل عيني كلب مبللتين بالدموع من خلال توسلاته للحصول على عظمة. وصعد الى غرفته وكان متشوقا لأن يكتب رسالة عاجلة لمارسيندا ويكتب على المظروف «يوضع فى شباك البريد» فى كوامبرا.

المطر يتدفق بالخارج فى صوت يصم الآذان حتى أن الأمر يبدو وكأن المطر ينهمر فى جميع أركان العالم فى آن واحد «الزئير الشديد للمطر يملأ ذهنى. روحى هى منحنى غير مرئى مرسوم من خلال صوت الرياح التى تهب فى قسوة . حصان مطلق له العنان يبتهج فى حريته بينما حوافره تقعقع عبر هذه الابواب والنوافذ بينما الستائر الرقيقة الموجودة فى الداخل تتمايل فى رفق شديد» رجل محاط بقطع أثاث طويلة يكتب خطابا ويؤلف النص الخاص به بحيث يبدو ما هو سخيف منطقيا وما هو غير متماسك واضحا وبحيث يصبح الضعف قوة ويصبح العار وقارا ويصبح الخوف شجاعة لأن ما نود أن نكون عليه له نفس قيمة ما كنا عليه . وتجتاح ريكاردو ريس الحيرة والتردد ويتناقش مع نفسه : ما هو أسلوب المخاطبة الذى استخدمه . إن تحرير أى خطاب يعتبر عملا محفوفا بالمخاطر للغاية . فالكلمة المكتوبة لا تفسح المجال أمام التردد أو الحيرة . والألفة وعدم الألفة هى التى تؤكد على النغمة التى تسود الخطاب . وأنت تنتهى بعلاقة تكاد تكون بمثابة خيال . والكثير من الارتباطات المنحوسة قد بدأت بهذه الطريقة . بل ان ريكاردو ريس لم يفكر فى امكانية مخاطبة مارسيندا بعبارة : سيدتى الليدى الرائعة للغاية أو سيدتي المبجلة فاهتماماته بنواحي اللياقة والأدب لم تصل إلى هذا الحد البعيد ولكنه بعد أن استبعد هذه الاشكال التقليدية للمخاطبة والمتسمة بالطابع غير الشخصي لم يجد أمامه سوى مفردات تقترب من طابع الألفة والدفء مثل : عزيزتى مارسيندا على سبيل المثال ولماذا يستخدم كلمة عزيزتي . وصحيح أنه كان بمقدوره أن يستخدم عبارة : السنيوريتا مارسيندا ولكن بدا له أن كلمة

سنيوريتا مثيرة للسخرية والضحك . وبعد أن قام بتمزيق العديد من الورقات وجد نفسه يخاطبها باسمها فقط وهذه هى الطريقة التى ينبغي أن نخاطب بها كل شخص لأن ذلك هو السبب في أننا قد أعطيت لنا أسماء . يا مارسيندا انني أكتب اليك خطابي هذا كما وعدتك لكى أبلغك بأخبارى . ثم توقف لكى يفكر . وبعدئذ استأنف وراح يؤلف العبارات ويربطها مع بعضها البعض ويملأ الثغرات وهو اذا لم يكن قد قال الحقيقة أو كل جوانب الحقيقة فهو قد قال حقيقة واحدة فالشيء المهم هو أن الخطاب يجعل الشخص الذى حرر الخطاب والشخص الذى تلقى الخطاب يشعران بالسعادة حيث يكتشف كل منهما وجود الصورة المثالية لنفسهما في داخل الخطاب . لم يكن هناك استجواب رسمي في المركز الرئيسي للشرطة ولا شيء يمكن استخدامه ضده في المحاكم وكل ما حدث هو أنه قد استدعي من أجل اجراء دردشة قصيرة معه وذلك وفقا لما أوضحه رئيس النيابة الذى أبدى روحا متسمة بالود . وصحيح أن فيكتور قد شهد بنفسه كل ما دار من كلام ولكنى أعتقد أنه لم يعد يتذكر كافة التفاصيل وغدا سوف يتذكر قدرا أقل من ذى قبل لأن فيكتور لديه في ذهنه اشياء أخرى أكثر أهمية. ولايوجد هناك أى شهود آخرين ولا يوجد سوى الخطاب الذى كتبه ريكاردو ريس وهذا الخطاب سرعان ما سيضل الطريق وهذا أمر محتمل للغاية لأنه لا ينبغي الاحتفاظ بوثائق معينة. وقد تقفز الى الضوء مصادر أخرى ولكنها ستكون محل الشكوك وستكون مشكوكاً في صحتها اذا كانت معقولة ومحتملة وفى غياب أى دليل راسخ وقوى سنجد أنفسنا مضطرين لابتكار حقيقة وحوار وفيكتور ورئيس نيابة وصباح ممطر ومليء بالرياح العاصفة وطبيعة تتعاطف وكلها أمور زائفة وحقيقة فى آن واحد. وأنهى ريكاردو ريس خطابه بخالص التحيات وتمنى لها صحة جيدة وبعد أن قفز إلى ذهنه بعض التردد قال لها فى تذييل إنه بدأ يشعر أن الحياة بالفندق أصبحت مثيرة للملل والسأم لأنها تسير على وتيرة واحدة. إنه ينبغي عليه أن يعثر على

مسكن خاص به ويفتح عيادة طبية. اذ جاء الوقت لكى يرى مدى العمق الذى تصل اليه هذه الجذور الجديدة. وعندما أصبح على وشك أن أغادر الفندق سأكتب لك خطابا على نفس هذا العنوان في كوامبرا ثم اعاد قراءة الخطاب. وطوى الورقة وأغلق المظروف وأخفاه بين كتبه . غدا سوف يرسل هذا الخطاب . واليوم مبارك اولئك الذين لديهم سقف فوق رؤوسهم أثناء هذه العاصفة حتى ولو لم يكن ذلك السقف سوى فندق براجانسا. واتجه ريكاردو ريس الى النافذة وفتح الستائر ولكن المطر كان يهطل في رقعة واحدة شاسعة من الماء وبالتالى لم يتمكن من مشاهدة سوى قدر ضئيل من الاشياء وليس هذا فقط وانما أنفاسه تركت سحابة على لوح زجاج النافذة. وتحت حماية الشيش فتح النافذة . كانت كايس دو سودريه مليئة بالسيول وكان الكشك الذى يبيع التبغ والاسبرين قد تحول الى جزيرة وكأن العالم قد تحرر من الرصيف الخاص به وانجرف بعيدا. واحتمى رجلان في مدخل حانة تقع على الجانب الآخر من الشارع وراحا يدخنان السجائر.

لقد كانا يتناولان الخمور وراحا الآن يلفان السجائر في بطء متعمد بينما كانا يتناقشان فى مشكلة ما ميتافيزيقية وربما كانا يتناقشان في المطر الذى كان يمنعهم من إحراز النجاح فى حياتهم وسرعان مااختفيا فى غياهب الظلام بالحانة فاذا كان عليهما أن ينتظرا فانه يمكن لهما أيضاً انتهاز الفرصة والحصول على كأس آخر من الخمور. وظهر عند باب الحانة رجل آخر عارى الرأس ومرتدى ثيابا سوداء لكي يتأمل في السماء ثم اختفى فى غياهبها أيضاً. وأغلق ريكاردو ريس النافذة وأطفأ الأنوار وتمدد فى اعياء على الأريكة ونشر بطانية على ركبتيه. ومثل دودة حرير القز القابعة فى شرنقتها راح يصغي للصوت الحزين للأمطار. وكان متلقيا وقد فتح عينيه تماما بعد أن تطاير النوم من عينيه. وراح يتمتم بأبيات من الشعر «أنت وحيد. ولا أحد يعرفك. إلتزم بالصمت والتظاهر» انها كلمات كتبت فى

أزمنة أخرى وهو يحتقرها لأنها لم تعبر فى صدق عن مشاعر الوحدة القاسية وإنما هى نطقت بألفاظ فقط.

وفى فترة لاحقة من بعد ظهر ذلك اليوم نزل إلى الدور الأول لكى يمنح الفرصة التى يهفو إليها سلفادور فهو سيضطر لأن يفتح هذا الموضوع إن عاجلا أو أجلاً. ومن الأفضل أن يختار هو المكان والزمان. وقال ريكاردو ريس : لا ياسنيور سلفادور فقد سارت الأمور على خير ما يرام تماما وكانوا متسمين بالذوق والمجاملة إلى أقصى حد. والسؤال عندما جاء كان مصاغا فى دقة وذوق : والآن قل لى يا دكتور كيف أحرزت النجاح فى هذا الصباح وهل ضيقوا عليك الخناق. وقال ريس : لا يا سنيور سلفادور لقد سارت الأمور على خير ما يرام وكانوا فى غاية الذوق وكل ما كانوا يريدونه هو بعض المعلومات التى تتعلق بالقنصلية البرتغالية فى ريو دى جانيرو حيث كان ينبغى علىّ أن أوقع على وثيقة هناك مجرد أعمال بيروقراطية محضة ولا شئ أكثر من ذلك. وبدا على سلفادور أنه مقتنع بهذا الكلام ولكنه ظل يموج بالشكوك وهو ما يمكن أن يتوقعه المرء من شخصى رأى قدرا كبيرا من الحياة وخاصة من خلال عمله فى فندق. لسوف يصل غداً إلى قاع هذا الموضوع ويسأل صديقه فيكتور حيث يقول له : يا فيكتور ينبغى علىَّ أن أعرف جوانب شخصية الناس الذين يقيمون عندى فى فندقى وعندئذ سيرد عليه فيكتور محذرا : يا صديقى سلفادور عليك بمراقبة ذلك الشخص اذ عقب الاستجواب قال رئيس النيابة : هذا الدكتور ريس ليس على النحو الذى يبدو عليه وبالتالى ينبغى وضعه تحت المراقبة. ونحن ليس لدينا الآن شكوك معينة ضده ولا يوجد لدينا سوى انطباع عليك بوضعه تحت المراقبة وعليك باخبارنا اذا تلقى خطابات. انه حتى الآن لم يتسلم أية خطابات. وهذا أيضا يعتبر أمرا غريبا وينبغى علينا الذهاب إلى مكتب البريد لنعرف ما إذا كانت هناك خطابات محجوزة من أجله فى داخل المكتب. وماذا عن اتصالاته. هل له أية اتصالات. هنا فى داخل

الفندق ليست له أية اتصالات. حسنًا اذا شاهدت أى شئ مثير للشكوك اخبرني على الفور. وعقب هذه المحادثة الخصوصية فإن الجو بالفندق سيصبح مائجا بالتوتر مرة آخرى لأن كل عامل بالفندق سيوائم بصره لكي يتوافق مع الهدف الذى تتجه اليه بندقية سلفادور. فالحذر المستمر يمكن أن يسمى أيضا بالمراقبة. ويقول فيليب في غمغمة : حتى رامون الطيب أصبح فاتر المشاعر ولا يوجد سوى استثناء واحد كما يعرف الجميع يتمثل فى ليديا تلك الفتاة المسكينة. فهى يبدو عليها الهم والقلق. وقالت ليديا لريس : لو سمحت حدثنى عن هذه الأمور التى تحدث ولن أفشى كلامك على الاطلاق . فقال لها ريس : لايحدث هناك أىّ شيء وهذا مجرد كلام فارغ ابتكره أناس لا يفعلون أى شيء سوى التدخل فى شئون الآخرين . وكل هذا كلام فارغ . فقال : ولكن هذا يمكن أن يحوّل حياة أىّ شخص الى كابوس . فقال : لاتقلقى . ما أن أغادر هذا الفندق سيتوقف هذا الكلام . فقالت : أأنت ستغادر الفندق . انك لم تخبرنى بذلك من قبل . فقال : إننى سأغادر الفندق إن عاجلا أو آجلا فأنا لا أنوى تمضية بقية حياتى هنا . فقالت ليديا : هذا يعنى أننى لن أتمكن من رؤيتك مرة أخرى على الاطلاق بينما كان رأسها مستندا على كتفه مما جعله يشعر بالدمعة التى انسابت من عينيها . وقال : والآن لا ينبغى أن تنخرطى فى البكاء فهذه هى الحياة فالناس يتقابلون ويفترقون ولسوف تتزوجين فى يوم من الأيام . فقالت ليديا : باه Bah لقد فاتنى قطار الزواج وأصبحت كبيرة فى السن ولكن ماذا عنك وإلى أين ستذهب . فقال : سأبحث عن منزل سأبحث عن مكان ملائم فاذا كنت تريدين . فقالت : أريد ماذا وعلى كل حال أنا يمكن لى أن أذهب معك وأقضى أيامى معك فأنا ليس لدىّ أىّ شيء آخر فى الحياة . فقال : يا ليديا لماذا تشعرين بالحب نحوى . فقالت : لست أدرى وربما بسبب إننى ليس لدىّ أى شيء آخر فى الحياة . فقال : أنت لك أمك وأخوك ومن المؤكد أنه كانت لك علاقات مع رجال قبل هذا ومما لاشك فيه أنه

سيكون لك علاقات مع آخرين فأنت جميلة للغاية وسوف تتزوجين في يوم ما وتبدأين في تكوين أسرة . فقالت : ربما ولكن حاليا أنت بمثابة كل ما أملكه في الدنيا . فقال : أنت فتاة جديرة بأن يحبها الناس .

فقالت : أنت لم تردّ على سؤالي حتى الآن . فقال : وماهو ذلك السؤال . فقالت : أتريد لي أن أجيء وأمضي أيامي معك عندما تحصل على مسكن خاص بك . فقال : أتحبين ذلك . فقالت : بالطبع أحبّ ذلك . فقال : اذن ينبغي أن تجيئي معي لحين أن . فقالت : لحين أن تعثر على فتاة من نفس مركزك الاجتماعي . فقال : لم أكن أريد أن أقول ذلك . فقالت : عندما يحدث ذلك سيكون عليك فقط أن تقول لي : يا ليديا إنني لم أعد بحاجة اليك .

فقال : أحيانا أشعر أنني لا أعرف جوانب شخصيتك .

فقالت : أنا خادمة غرف بفندق . فقال : ولكن اسمك هو ليديا كما أن لك طريقة غريبة في قول الكلام . فقالت : عندما يبدأ الناس في التحدث عما يدور في أعماق قلوبهم مثلما أفعل الآن مع وضع رأسي على كتفك فان الكلمات لاتكون هي نفس الكلمات . فقال : آمل أن تعثري على زوج ممتاز في يوم ما . فقالت : وما هي مواصفات الزوج الممتاز من وجهة نظرك . فقال : لا أعرف وعلى كل حال فأنت تدققين كثيرا ومن الصعب ارضاؤك . فقالت : لست كذلك في حقيقة الأمر . فقال : أنت تضطجعين هنا بدون أيّ مستقبل .

فقالت : إنني سعيدة بما لديّ الآن . فقال : سأكون دائما صديقا لك . فقالت : نحن لا نعرف ما سيجلبه الغد لنا .

فقال : وأنت ستكونين دائما صديقة لي . فقالت : من أنا ذلك شيء ما آخر . فقال أوضحي لي الأمور . فقالت : لا أستطيع ولو كان بمقدوري لأصبحت قادرة على توضيح كل شيء .

فقال : أنت تتقنين توضيح الأمور . فقالت : لاتكن سخيفا فأنا فتاة غير متعلمة فقال : ولكنك تعرفين القراءة والكتابة . فقالت : ليس على نحو جيد للغاية

فأنا أقرأ في صعوبة كما لا أستطيع الكتابة بدون الوقوع في أخطاء املائية . وهنـــا جذبها ريكاردو ريس اليـــه وعانقها حيث كان الحوار بينهما قد جلب لهما عاطفة يتعذر تفسيرها أو تعليلها وتتماثل مع الألم حتى أن ما فعلاه بعد ذلك قد تم في رفق شديد ونحن جميعا أيها القراء نعرف ذلك الشيء الذى حدث بينهما .

وطوال الأيام التى أعقبت ذلك انطلق ريكاردو ريس في البحث عن مسكن . كان يغادر الفندق مبكرا في كل صباح ويعود ليلا بعد أن يكون قد تناول غداءه وعشاءه بالخارج . ولقد كان قسم الاعلانات المبوبة بجريدة دياريو دي نوتكياس بمثابة الكتيب الارشادى له ولكنه لم يذهب لمسافات بعيدة عند مشارف المدينة لأن تلك الأماكن البعيدة لم تكن تتلاءم مع احتياجاته أو ميوله . وكان يبحث عن مسكن مفروش ومزود بالأثاث لكى يتجنب دوامة الدخول في شراء واختيار الأثاث والمفروشات والأطباق وبدون وجود إمرأة إلى جانبه لكى ترشده لأن أحدا لايستطيع أن يتصور أن ليديا الفتاة المسكينة الفقيرة ستدخل معه الى المتاجر التنويعية وتخرج منها وترشده عما ينبغى عليه أن يشتريه . أما بالنسبة لمارسيندا فإنه حتى لو كانت موجودة هنا وسماح والدها بذلك فما الذى ستعرفه عن هذه الأمور المتسمة بالطابع العملى خاصة وأن المسكن الوحيد الذى عرفته هو المسكن الخاص بها . وهاتان هما فقط الفتاتان اللتان عرفهما ريكاردو ريس ولايوجد غيرهما . لقد بالغ فرناندو بسوا كثيرا عندما وصفه بأنه دون جوان . وعلى كل حال فإن مسألة ترك الحياة بالفندق ليست سهلة فكل حياة سواء بالفندق أو المنزل تخلق التعقيدات والقصور الذاتى الخاص بها وعلى نحو غير مفهوم من جانب المراقب الخارجى ومن جانب الشخص الذى يتم مراقبته والتعليق عليه . وقصارى القول هيا بنا نكتفى بالأمور القليلة التى نفهمها من الآخرين فهم سيكونون ممتنين بل وربما يقدمون الشكر لنا . ولكن سلفادور لا يشعر بالارتياح لأن حالات الغياب

على فترات مطولة من جانب هذا النزيل بالفندق وعلى نحو مختلف تماما عن النظام الذى كان يتبعه من قبل قد جعله يشعر بالتوتر .

بل وفكر سلفادور في التحدث في هذا الشأن مع فيكتور ولكن احساسا مفاجئا بوخز الضمير جعله يغيّر رأيه في اللحظة الأخيرة . ماذا لو أصبح ريس متورطا في موقف ومن خلال المعالجة السيئة للموقف يصبح هو كمدير للفندق متورطا أيضا بل وعلى نحو أسوأ من تورط ريس .

وتزايدت مراقبته لريس وانتشر هذا الاتجاه بين جميع العاملين بالفندق مما جعل الفندق كله يموج بالارتباك والقلق لأنهم كانوا غير واثقين من الطريقة التى يراقبون بها .

اغفر لى أيها القارىء بسبب هذه التفاصيل المملة التى أسوقها إليك ولكنها تفاصيل لها أهميتها أيضا .

على هذا النحو تكون تناقضات الحياة . في الآونة الأخيرة أشارت التقارير الى إلقاء القبض على لويس كارلوس بريستيس ودعونا نأمل ألا تصل الشرطة لكى تسأل ريكاردو ريس عما اذا كان قد عرف بريستيس في البرازيل أو ما اذا كان بريستيس أحد المرضى الذين عالجهم . وفي الآونة الأخيرة استنكرت ألمانيا تحالف لوكارنو وبعد التهديدات اللا نهائية إحتلت أراضى الراين فى نهاية الأمر . وفي الآونة الأخيرة تم في سانتا كلارا افتتاح ينبوع وسط موجة من الاثارة الجامحة من جانب السكان الذين كانوا يحصلون على المياه من قبل من خلال مضخات الحريق وكان احتفالا محببا للنفس حيث قام طفلان بريئان : ولد وبنت بملء إبريقين بالماء وسط التصفيق والهتافات العالية . وفى الآونة الأخيرة ظهر فى لشبونة رجل رومانى شهير يسمى مانواليسكو ولدى وصوله أعلن أن «النظرية الجديدة التى تنتشر حاليا فى جميع ارجاء البرتغال قد أغرتنى على عبور هذه الحدود فأنا أجيء كتلميذ متسم بالاحترام وكمؤمن متهلل » . وفى الآونة الأخيرة

ألقـى تشـــرشل خطابا أعلن فيه أن ألمانيا هى الدولة الوحيدة فى أوربا حـاليا التى لا تخـاف من الحرب . وفى الآونة الأخيــرة تم فرض حظـر على الفالانج وهو الحزب الفاشستى فى ألمانيا وتم إيداع رئيسه خوسيه أنطونيو بريمو فى السجن .

وفى الآونة الأخيرة تم طبع ونشر كتاب «يأس الانسان» بقلم كيركجارد . وفى الآونة الأخيرة تم عرض فيلم بوزامبو فى سينما تيفولى وهو فيلم يصور الجهود النبيلة التى قام بها البيض من أجل القضاء على روح الصراع الشرس للأجناس البدائية . وريكاردو ريس لم يفعل أى شىء بخلاف البحث لنفسه عن مسكن يوماً وراء يوم وهو مثبط الهمة وقريب من اليأس لدى قيامه بتصفح الجرائد التى تخبره بجميع الأشياء باستثناء الشىء الذى يريد أن يعرفه . فهى تخبره أن فنيزيلوس قد مات وأن أورتنز دى بتنكورت أشار إلى أن الشخص المؤمن بالدولية لا يمكن له أن يكون جنديا بدرجة أقل من الشخص البرتغالى وأن الدنيا كانت تمطر بغزارة بالأمس وأن الشيوعيين تزداد أعدادهم فى أسبانيا وأنه يمكن لك شراء كتاب «خطابات راهبة برتغالية» بمبلغ سبعة ونصف اسكود فقط ولكن الجرائد لا ترشده إلى المكان الذى يمكن العثور فيه على شقة ملائمة وهذا هو الأمر الذى يحتاجه بفارغ الصبر . وعلى الرغم من العناية الشديدة التى يبذلها سلفادور فانه متلهف على الهروب من الجو الخانق الموجود فى فندق براجانسا خاصة وهو يعرف الآن أنه لن يفقد ليديا من خلال المغادرة . فهى قد أعطت وعدها وضمنت اشباع تلك الرغبات التى هى أمر مألوف لنا جميعا . ويبدو على ريكاردو ريس أنه قد نسى فرناندو بسوا اذ خبت صورة الشاعر مثل صورة فوتوغرافية تعرضت لضوء الشمس أو مثل إكليل زهور جنائزية مصنوعة من البلاستيك فقدت لونها . الشاعر نفسه سبق له أن حذره قائلا : إنها فترة تسعة شهور . وربما تكون المدة أقل من تسعة شهور . وها هوذا لم يعاود التجلى والظهور مرة أخرى وربما يكون هو فى

حالة نفسية سيئة أو غاضبا أو ربما يكون هو في حالة موت فهو لا يستطيع الهروب من الالتزامات المتعلقة بحالته .

لايمكن لنا سوى التأمل في هذه الأمور وعلى كل حال فنحن لا نعرف أي شيء عن الحياة فيما وراء القبور ولقد نسي ريكاردو ريس أن يسأله عن ذلك الأمر عندما كانت لديه الفرصة فالأحياء يتسمون بالأنانية الشديدة وقسوة الفؤاد . الأيام تمر على وتيرة واحدة وتتسم باللون الرمادي . توجد أنباء عن حدوث المزيد من العواصف في الريبا تيجو Ribatejo حيث اجتاحت الفيضانات الماشية وتعرضت المنازل للانهيار والغوص في الطين علاوة على انغمار حقول القمح تحت الماء وريكاردو ريس لا يعاني من هذه الكوارث ولا يشاهدها وانما هو في التقارير الواردة بالصحف ويدرس الصور الفوتوغرافية المتعلقة بها .

وتقول العناوين الرئيسية :مشاهد مأساوية ويتأمل ريس في قسوة القدر الذي يواصل ضرباته المميتة في إصرار عنيف . فالقدر بمقدوره إزاحتنا عن هذا العالم بوسائل عديدة للغاية ولكنه يجد متعة منحرفة في اختيار الحديد والنار وهذا الطوفان اللانهائي . ونجد ريكاردو ريس متكئا على أريكة في صالون الفندق ومستمتعا بدفء سخان الكيروسين وبالجو الدافيء إذ لم نكن مزودين بموهبة تعيننا على قراءة ما يدور في داخل القلب البشري فاننا لن نعرف أبدا الأفكار الحزينة التي تجتاحه وبؤس جاره الموجود على مسافة خمسين أو ثمانين كيلو مترا ..

ها أنذا أتأمل في قسوة القدر وعدم مبالاة الآلهة بينما أسمع سلفادور يخبر بيمنتا بأن يذهب الى الكشك لكي يشتري جريدة أسبانية وأسمع وقع أقدام ليديا وهي تصعد على السلالم الى الدور الثاني . وفي تخبّل ألتقط الاعلانات المبوبة مرة أخرى والتي تستحوذ على ذهني باحثا عن اعلانات «غرف للايجار» واستعرض القائمة متتبعها بأصبع السبابة وفي شيء من العصبية والتوتر حيث لم أكن أرغب

في أن يشاهدني سلفادور وأنا أفعل ذلك . وفجأة أصل إلى محطة أتوقف عندها . غرف مفروشة للإيجار بشارع سانتا كاتارينا ومطلوب سداد تأمين على سبيل الضمان . أستطيع مشاهدة المبنى بنفس الوضوح الذى أشاهد به الصور الفوتوغرافية للفيضان حيث يزدان طابقه العلوى بالنقوش فهو نفس المبنى الذى شاهدته بعد ظهر ذلك اليوم الذى تقابلت فيه مع مارسيندا ولسوف أذهب الآن الى ذلك المبنى على الفور ولكن ينبغي عليّ أن أتحلى بالصبر والهدوء وبحيث لا يظهر على وجهى دلائل الاثارة . ينبغي أن أتصرف على نحو طبيعي .

وبعد أن انتهيت من قراءة جريدة دياريو دى نوتيسياس أطويها الآن فى حرص وعناية وأتركها فى نفس المكان الذى عثرت فيه عليها ولا أفعل مثل بعض الناس الذين يبعثرون الصفحات هنا وهناك . وأنهض واقفا وأقول لسلفادور : انني اذهب للنزهة فالمطر قد توقف وما هو التفسير الآخر الذى يمكن أن أقدمه اذا تم تضييق الخناق عليّ . وعلى نحو فجائي يدرك ريكارد و ريس أن علاقته مع الفندق أو مع سلفادور هى علاقة التابع أو المرؤوس . وينظر الى نفسه فى المرآة ومرة أخرى يرى تلميذا للجزويت ويرى انسانا ثائرا ضد مجموعة مبادىء النظام لأنها مجموعة مبادىء للنظام . ولكن هذا شيء أسوأ لانه لايستطيع أن يستجمع شجاعته ويقول : يا سلفادور لسوف أنطلق الآن لالقاء نظرة على شقة واذا وجدتها ملائمة فانني سأترك الفندق فأنا قد سئمت منك ومن بيمنتا ومن جميع العاملين هنا باستثناء ليديا بالطبع التى تستحق أن توجد فى مكان أفضل من هذا المكان . انه لايقول أيّ شيء من هذا الكلام وانما يكتفى بالقول : أراك فيما بعد قليل كما لو كان يطلب أن يسمح له بالخروج من الفندق . فالمرء يظهر الجبن والخوف ليس فقط فى ميدان المعركة أو عندما يفاجأ بسكين مصوب نحو أمعائه . وهناك أناس تهتزّ شجاعتهم مثل الجيلى ولكن الغلطة ليست غلطتهم فهم قد وُلدوا ونشأوا على ذلك النحو .

وفي خــلال دقـائق قليلة كـان ريكاردو ريس قـد وصل الى ألتـو دى سـانتـا كاتارينا . وعلى نفس المقعد الخشبى الطويل كان يجلس نفس الرجلين العجوزين وكانا يحملقان في النهر . واستدارا حولهما عندما سمعا وقع أقدام وقال أحدهما للآخر : ذلك هو الشخص الذى كان موجودا هنا منذ ثلاثة أسابيع . فقال الآخر : تعنى الرجل الذى كـان مع الفتـاة . لأنه على الرغم من أن الكثـيرين من الرجـال والنسـاء قد جاءوا الى هنا من أجل التنزه أو القاء نظرة على المنظر الطبـيعى الا أن الرجلين العـجوزين كانا يعرفان على وجه الدقة الرجل الذى يتم التحدث عنه . من الخطأ أن نظن أن المرء يفقد ذاكرته عقب وصوله الى الشيخوخة وأن الناس العجائز لايحتفظون في ذاكرتهم إلا بالذكريات البعيدة التى تطفو على السطح تدريجيا مثل أوراق النبتة المغمورة تحت الماء لدى انحسار المياه الزائدة . فهناك ذاكرة قـوية للغـاية تجيىء مع التـقدم فى السن لأنهـا ذاكـرة الأيام الأخـيرة أو الصورة النهائية للعالم وللحياة . وعلى الباب الرئيسى للمبنى عثر ريكاردو ريس على ورقة مثبتة بالدبابيس وقد كُتب عليها : المشاهدون المحتمل مجيئهم ينبغى عليهم التقدم بطلباتهم للوكيل الموجود فى بايسكا Baixa .

مازال هناك وقت متبقٍ . فجرى ريس على طول المسافة الى شارع كالهاريز ثم استقل تاكسيا وعاد ومعه جنتلمان قوى البنيان . نعم ياسيدى أنا الوكيل . لقد أحضر معه المفاتيح . وصعدا . ها هى الشقة وهى فسيحة وملائمة وتكفى أسرة كبيرة العدد والأثاث مصنوع من خشب الماهوجنى الأسود اللون وهذا سرير ضخم وخزانة طويلة وهذه غرفة للطعام مزودة بالأثاث الكامل وهذا بوفيه للمائدة وهذا دولاب من أجل الفضيات أو الأوانى الصينية وهذه منضدة طويلة والمكتبة مزدانة بخشب القيقب والمكتب مغطى بالقماش الأخضر الذى تكسى به موائد البليـاردو وهذا هو المطبخ والحمام الذى يعتبر غير متطور ولكنه يفى بالغرض المطلوب . وكانت كل قطعة أثاث عارية وخالية حيث لا توجد أية آنية أو أطباق أو

زخارف أو ملايات أو مناشف . فالمستأجرة الأخيرة وهي أرملة عجوز قد ذهبت لكي تعيش مع أطفالها وأخذت معها كافة المتعلقات الخاصة بها وبالتالى فان هذه الشقة ستؤجر بينما لايوجد بها سوى هذا الأثاث فقط كما ترى . واتجه ريكاردو ريس إلى إحدى النوافذ وأدرك انه لاتوجد أية ستائر وكان بمقدوره مشاهدة أشجار النخيل الموجودة بالميدان علاوة على مشاهدة تمثال آداما ستور ومشاهدة الرجلين العجوزين الجالسين على مقعد طويل خشبي والى ما وراءهما يوجد النهر الملوث بالطين والبواخر الحربية التى تتجه مقدمتها نحو الشاطىء ولايمكن للمرء أن يعرف لدى مشاهدته لها ما اذا كان المدّ على وشك أن يرتفع أو يهبط . لو تلكأنا هنا لفترة أطول فاننا سنعرف . وقال ريس : ما هى قيمة الايجار وما هو مقدار التأمين الذى سيتم سداده من أجل الأثاث . وفي خلال نصف ساعة كانا قد توصلا الى اتفاق . وكان الوكيل يدرك انه يتعامل مع جنتلمان متميز وقال : غدا يا سيدى يسعدنى أن تشرفنى بالزيارة فى مكتبى لكى توقع على العقد وها هو مفتاح الشقة يا دكتور فالشقة هى شقتك من الآن . فشكره ريكاردو ريسْ وأصرَ على ترك تأمين يزيد على النسبة المئوية الاعتيادية . فقام الوكيل بتحرير إيصال على الفور حيث جلس إلى المكتب واستخرج من جيبه قلم حبر . وتحت الصمت المطبق في الشقة لم يُسمع أيّ صوت بخلاف صوت خربشة القلم الحبر على الورقة وصوت أنفاس الوكيل التى تحدث بعض الصفير مما يؤكد أنه كان مصابا بمرض الربو . وقال الوكيل :

ها هو الإيصال لا ، لا تزعج نفسك يمكن لى أن استقل تاكسيا وأعتقد أنك بحاجة لأن تبقى في الشقة لبعض الوقت لكى تحصل على الاحساس الخاص بشقتك الجديدة . فقال ريس : إننى أدرك ذلك جيدا فالناس يصبحون مرتبطين مع بيوتهم .

فقال الوكيل : المرأة التى كانت تعيش هنا يا لها من فتاة مسكينة لقد بكت

بكــاء مريرا عندما تركت هذه الشـقـة وبدون أن تلقي المواسـاة من أحد . فقـال ريس : نحن كثيرا ما نرغم من خلال الظروف أو المرض أو الترمل وكثيرا ما تكون هنا أمور اضـطرارية . فقال الوكيل : في انتظارك بمكتبي غداً . والآن وبعد أن أصبح ريكاردو ريس بمفرده وممسكا بالمفتـاح في يده راح يتـفـقد الغرف مرة أخرى بدون أن يفكر في أي شيء مع الاكتفاء بالقاء نظرة ثم ذهب إلى النافذة . لقد كانت مقدمة البواخر متجهة نحو أعلى النهر وهذا دليل على أن الفيضان ينحسر لقد ظل الرجلان العجوزان جالسين على المقعد الخشبي الطويل .

— ١٠ —

في نفس تلك الليلة قام ريكاردو ريس بابلاغ ليديا بأنه قد استـأجر شـقـة . فانخرطت في البكاء قليلا واشتكت من أنها لن يعد بمقدورها أن تنظر إليه في كل لحظة . وهذه مبـالغة من جانبـها فـهذه كلمـات نابعة من العـاطفـة لأنها لم يكن بمقدورها أن تنظر إليه في كل لحظة عندما كـانا يمضيـان الليل سـويا مـع إطفـاء الأنوار خشية أن يكون هناك شخص ما يتجسس عليهما كما أنه في أوقات النهار كانت ليديا تتـجنبه أو تـخـاطبـه بشكل رسمي للغاية وهـو منظر كـان يسـتمـتـع به المشـاهدون الحـاقدون الذين كـانوا ينتـهزون مـجـيء الفـرصـة لكي يمارسـوا انتـقامـهم . وراح يواسـيـها : لا تبكي لسـوف نشـاهـد بعضـنا البـعض خـلال أيام أجازتك بعيدا عن عيون الآخرين إذا كنت ترغبين في المجيء إليّ . وهذا سؤال لا يتطلب اجابة . وقـالت : بالطبـع أريد المجيء إليك . ولقـد سبق أن قلت لك ذلك . ومتى ستذهب إلى شـقـتك ، فـقـال : بمجـرد أن تصبح الشـقـة جـاهـزة . إذ يوجد بالشقة بعض الأثاث ولكن لا توجد مفارش للسرير ولا أي أدوات للمطبخ وأنا لن أحتـاج للكثـير من الأشيـاء مـجرد عدد قليل من المناشف والملايات والبطاطين في

بادىء الأمر ثم اشترى الباقى تدريجيا . وإذا كانت هذه الشقة قد أغلقت لبعض الوقت فإنها ستحتاج لأعمال التنظيف . فقالت : إذن سأقوم أنا بتنظيفها . فقال : يمكن لى الاستعانة بامرأة ما من تلك المنطقة . فقالت : يمكنك الاعتماد علىّ فى هذا الشأن ولماذا تذهب للبحث عن فتاة ما أخرى . فقال : أنت فتاة طيبة . فقالت : أنا أكون على النحو الذى أنا عليه وتلك هى إحدى العبارات التى لا تتحمل أية أجابة .. وكل واحد منا ينبغى عليه أن يعرف من يكون هو ومن المؤكد أنه لا يوجد هناك نقصان فى النصائح المتعلقة بذلك الموضوع منذ أيام الاغريق والرومان : اعرف نفسك .

وانطلق ريكاردو ريس فى اليوم التالى واشترى مجموعتين كاملتين من بياضات السرير وكذلك مناشف من أحجام مختلفة . ومن حسن الحظ أن الماء والغاز والكهرباء لم تقطعها الشركات المعنية وبحيث تظل الحسابات والفواتير بنفس اسم المستأجرة السابقة أو هكذا اقترح الوكيل فوافق ريس على ذلك الوضع . كما اشترى أيضا بعض الآنية والحلل المصنوعة من الخزف والألمونيوم علاوة على شراء كنكة للقهوة وفناجين وأطباق للفناجين وورق سفرة وشاى وبن وسكر وكافة الأشياء التى يمكن احتياجها لاعداد طعام الإفطار . أما وجبة الغداء والعشاء فيمكن له تناولهما بالخارج . واستمتع بهذه المهام الصغيرة التسويقية حيث ذكرته بأيامه الأولى عقب وصوله إلى ريودى جانيرو . حيث أنجز كل شىء هناك بدون الحصول على مساعدة من أحد . وفى أوقات الفراغ ما بين جولاته بين الدكاكين والمحلات كتب خطابا مختصرا لمارسيندا ضمنه عنوانه الجديد الذى هو من خلال المصادفات الغريبة يقع بالقرب من المكان الذى سبق أن تقابلا فيه . واستأجر ريكاردو ريس تاكسيا وانتقل به من دكان لآخر لكى يأخذ الأشياء التى اشتراها ثم اشترى بعض الفطائر القليلة والفاكهة والبسكويت والشاى علاوة على مستحضرات تساعد على الهضم وبعض النشا المغذى . ثم عاد إلى شارع سانتا

كاتارينا ووصل إليه في نفس الوقت الذي كان فيه الرجلان العجوزان يهبطان للذهاب إلى منزليهما الواقعين في مكان ما بهذا الحي السكني . وبينما كان ريكاردو ريس ينقل الطرود واللفائف من التاكسي ويصعد بها على السلالم في ثلاثة مشاوير متتالية توقف الرجلان العجوزان في سيرهما وراحا يرقبان ويشاهدان الأنوار التي توقد في الشقة الواقعة في الدور الثالث . فقال : أنظر شخص ما يعيش في الشقة التي اعتادت دونا لويزا Dona Luisa أن تسكن فيها . ولم يواصلا المسير إلا عندما شاهدا المستأجر الجديد يظهر عند النافذة ويشاهدهما . حيث انطلقا وهما في حالة من الاثارة العصبية التي تحدث أحيانا والتي تكون بمثابة انكسار مرحب به رتابة الوجود . نحن نعتقد أننا قد وصلنا إلى نهاية الطريق ولكن هذا ليس سوى منحنى يفتح على أفق جديد وأعاجيب جديدة . فمن نافذته الخالية من الستائر شاهد ريكاردو ريس الامتداد الشاسع للنهر . ولكي يتمكن من الرؤية على نحو أفضل أطفأ الأنوار بالشقة . فهبط ضوء رمادي بطبقة من الغبار من السماوات وأصبح ذلك الضوء أكثر إظلاما عقب استقراره . وكانت لمبات المراكب التي تعبر من وإلى كاسيلهاس قد أضيئت بالفعل حيث كانت تذرع المياه الداكنة جيئة وذهابا بجوار السفن الحربية ومراكز نقل البضائع الراسية . المنظر يذكرك برسومات الأطفال . المساء حزين للغاية حتى أن رغبة في البكاء تتفجر من أعماق النفس . ويستند برأسه على زجاج النافذة ويحال بينه وبين العالم من خلال سحابة من التكاثف لدى تردد أنفاسه على السطح البارد الناعم فيشاهد الهيكل الملتوى المتحدي لأدا ماستور وهو يتفكك تدريجيا . وكان الجو قد أصبح مظلما بالفعل عندما خرج ريكاردو ريس من الشقة . وتناول طعام العشاء في مطعم بشارع كوريريوس وهو عبارة عن طابق مسروق (*) له سقف منخفض وكان وحيدا منفردا بين أناس فرادى منعزلين عن بعضهم البعض . ترى

(*) الطابق المسروق : هو طابق متوسط ما بين الطابق الأرضي والذى فوقه . المترجم .

من هم هؤلاء الناس وما هى نوعية الحياة التى يعيشونها وما الذى أحضرهم إلى هذا المكان لكى يأكلوا أنواع الأسماك المختلفة مثل سمك القد وسمك النازلى علاوة على اللحوم المفرومة والبطاطس بينما كل واحد منهم تقريبا يتناول نفس الخمور الحمراء .

وهم متسمون بالطابع الرسمى فى مظهرهم أكثر من اتسامهم بالطابع الرسمى فى بروتوكول المائدة حيث كانوا يطرقون بشدة على كئوسهم مستخدمين سكاكينهم من أجل استدعاء الجرسون . كما كانوا ينظفون أسنانهم الواحدة تلو الأخرى من خلال استخدام أصبع الابهام وأصبع السبابة مثل الكماشة كما كانوا يتجشأون ويفكون أحزمتهم قليلا ويفكون أزرار الصديرية ويفكون حمالات البنطلونات . وقال ريكاردو ريس لنفسه فى تفكير : ذلك هو النحو الذى ستكون عليه وجباتى من الآن فصاعدا وبحيث يتم سماع هذه القعقعة وسماع أصوات الجرسونات وهم يصيحون فى المطبخ : واحد حساء علاوة على سماع الأصوات المكتومة لهؤلاء الناس المنهمكين فى تناول الطعام بالأضافة إلى وجود ذلك الضوء الكئيب وتلك الشحوم المتجلطة على الأطباق الباردة وعدم نقل الأطباق الشاغرة من المناضد الخالية من الزبائن ووجود قطرات من الخمور على المفارش علاوة على فتات الخبز واقماع السجائر التى مازالت تحترق .

كم أن الحياة مختلفة فى فندق براجانسا رغم أنه ليس فندقا من الدرجة الأولى . وعلى نحو فجائى يشعر ريكاردو ريس بأنه محروم من وجود رامون رغم أنه سيشاهده مرة أخرى غدا لأن اليوم هو فقط الثلاثاء ولسوف يغادر الفندق فى يوم السبت . ومع ذلك فهو يدرك أن لحظات الحنين المشابهة لهذه تميل لأن تكون قصيرة الأمد وأن المسألة ليست سوى عادة أو تعود فأنت تفقد عادة لكى تكتسب عادة أخرى . وهو قد أمضى فى لشبونة فترة تقل عن ثلاثة شهور وها هى ريو دى جانيرو تبدو له مثل ذكريات بعيدة عن حياة شخص ما أخر وليس عن

حياته هو ذكريات عن إحدى تلك الحيوات التى لا حصر لها . نعم ففى نفس هذه اللحظة ربما ريكاردو ريس آخر يكون منهمكا فى تنـاول طعام العشاء فى أوبورتو أو طعام الغـذاء فى ريو دى جانيـرو . المطر لم يتساقط طـوال اليـوم مما جعله تمكن من انجاز مشترياته فى هدوء شديد للغاية . وهو الآن يشق طريقه عائدا إلى الفندق وهناك سيخبر سلفادور بأنه بصدد أن يغادر الفندق فى يوم السبت .

ويدخل ريكاردو ريس إلى الفندق ويلقى التحية على كل شخص ويسائل نفسه فى تعجب عمَّ إذا كان ينبغى عليه أن يأخذ سلفادور على جانب لكى يتحدث معه عن قراره بمغـادرة الفـندق ولكنه رأى أن هذه السرية ستكون سخيفة لأنه سيقول فى تمتمة وهذا على سـبيل المثال : استمع إلىّ يا سينيور سلفادور إننى لم أهدف أساساً إلى ذلك ولكنك تعرف الكيفـية التى تكون عليها هـذه الأمور فظروف المرء تتغير بينما الحيـاة تواصل سيرها والموضوع هو أننى قررت أن أترك فندقك المثير للإعجاب حيث عثرت على شـقة وأرجـوك ألا تشعر بالاساءة فأنا آمل أن نستمر فى صداقتنا . وفجأة يجد نفسه يتصبب بالعرق كما لو كان قد أصبح مرة أخرى تلميذا فى الجزويت يركع أمام كرسى الاعتراف ويقول : لقد كذبت ولقد كنت حقـودا ولقد كانت لدى أفكار غير نقية ولقد مارست العادة السرية . لقد رد سلفادور الجـالس إلى مكتب الاستقبال على تحيته واستدار لكى يلتقط المفتـاح من الخطاف . ينبغى على ريكاردو ريس أن ينطق بهذه الكلمات التحريرية على الفـور قبل أن يقوم سلفادور بعرقلته أو اعتراض سبيله .

يا سينيور سلفادور أيمكن أن تجهز الفاتورة الخاصة بى حيث سأغادر الفندق فى يوم السبت القادم . وما أن نطق بهذه الكلمات الجافة حتى اجتاحته مشاعر الندم لأن سلفـادور الواقف هنالك بينما المفتـاح فى يده ظهرت عليه الدهشة الجريحة وأصبح مثل ضحية لعمل من أعمال الخيانة .

فهذه ليست هى الطريقة التى يعامل بها مدير فندق أظهر كل الدلائل التى تشير إلى أنه صديق مخلص . وفى حركة يشوبها التردد يقوم سلفادور باعطائه المفتاح ويتخذ طابع الوقار ويخاطبه فى نغمة أبوية وقووة : آمل أن نكون قد حققنا لك رغباتك أثناء اقامتك هنا يا دكتور . هذه الكلمات المتواضعة التى صيغت فى طابع مهنى بما فيها من لمحة تهكم قد يساء فهمها من حيث الاشارة إلى ليديا ولكن لا لأن سلفادور فى هذه اللحظة لا يحاول سوى نقل شعوره بالاحباط ونقل مشاعره الجريحة . وقال ريكاردو ريس فى تأكيد وفى حرارة : يا سينيور سلفادور كل ما حدث بكل بساطة هو أننى عثرت على شقة فقررت الإقامة بصفة دائمة فى لشبونة نهائيا وإلى الأبد والمرء منا يحتاج لمكان يمكن أن يقول عنه أنه مكانه .

فقال سلفادور : آه . حسنا . ربما أطلب من بيمنتا أن يساعدك فى نقل الحقائب الخاصة بك اذا كانت الشقة هنا فى لشبونة . فقال ريس : نعم الشقة فى لشبونة ولكنى أستطيع تدبّر أمورى حيث سأستأجر شيالا وكان بيمنتا يرغب فى نقل الحقائب لكى يعرف عنوان مسكن ريس وبالتالى ينقل هذه المعلومة لسلفادور . فقال بيمنتا : ولماذا تستأجر شيالا يادكتور بينما استطيع انا القيام بهذه المهمة . فقال ريس : شكرا جزيلا يا بيمنتا حيث أستطيع بسهولة الحصول على شيال . ولكى يتجنب ريس المزيد من الالحاح ألقى كلمات التوديع مقدما حيث قال : أؤكد لك يا سينيور سلفادور أننى احتفظ بأجمل الذكريات عن فندقك حيث كانت الخدمة ممتازة وحيث شعرت كأننى موجود فى منزلى وحيث عُوملت بكل الرعاية والاحترام الشديد . كما أود أن أعبر عن امتنانى لجميع العاملين بدون استثناء للمودة التى أبدوها لى عقب عودتى الى أرض الوطن البرتغال التى أنوى الاقامة بها والبقاء فيها للأبد لكم جميعا جزيل الشكر من كل قلبى . وأضاف : تصبحوا على خير جميعا . ثم صعد الى غرفته وهو واثق من أنهم كانوا يتحدثون عنه من وراء ظهره

وينطقون باسم ليديا . والشيء الذى لايشك فيه أبدا هو أن النقاش استمر على هذا النحو : ينبغى عليك أن تعرف اسم الشيّال الذى سيستأجره فأنا أريد أن أعرف عنوان السكن الذى سينتقل اليه .

ساعة الحائط لديها ساعات معينة تكون شاغرة تماما من المعنى حيث تبدو العقارب وكأنها تزحف نحو اللانهائية ويبدو الصباح وكأنه يمضى فى تثاقل شديد وفترة ما بعد الظهر وكأنها لانهاية لها والليل وكأنه سرمدى . تلك هى الطريقة التى أمضى بها ريكاردو ريس يومه الأخير بالفندق .

وكانت تجتاحه بعض الشكوك فى اللاشعور فقرر انه ينبغى عليه أن يكون مرئيا طوال الوقت . ربما لأنه لم يكن يرغب فى أن يبدو غير ممتن أو غير مبالٍ . وكان رحيله أمرا مسلما به من جانب رامون اذ قال لدى وضعه الحساء فى طبقه: اذن فأنت بصدد أن تتركنا يا دكتور . وهى كلمات تحمل الحزن العميق عندما يتم النطق بها حيث أن الخدم المتواضعين هم فقط الذين يعرفون كيفية النطق بها . كما أن اسم ليديا لم يغادر شفتى سلفادور أبدا حيث كان يستدعيها من أجل كل شيء ومن أجل لاشيء ويأمرها بأن تفعل شيئا ما ثم يأمرها بأن تفعل العكس وكان يرقبها فى كل لحظة ويرقب التعبيرات التى تظهر عليها وعلى عينها باحثا عن دلائل التعاسة والدموع التى تكون أمرا طبيعيا لدى امرأة على وشك أن يتركها عشيقها ومع ذلك فانها كانت تبدو هادئة للغاية وعلى نحو لم تكن عليه من قبل فى أيّ وقت من الأوقات مما يجعل المرء يعتقد أنها لم يكن لديها خطاب وفقا لما يمليه عليها عقلها ولايوجد ضعف من جانب الجسد أو دعارة متعمدة . وراح سلفادور يؤنب نفسه على عدم معاقبتها على مثل ذلك السلوك غير الأخلاقى فى نفس الوقت الذى شك فيه فى سلوكها أو عندما أصبح ذلك الأمر معروفا للجميع ابتداء من الشائعات التى ظهرت فى المطبخ ومخزن الأطعمة . والآن لقد فات الأوان لأن الضيف بصدد مغادرة الفندق ولم يعد هناك داعٍ لاهالة التراب وتوجيه الانتقادات

الشديدة خاصة وأن ضميره يقول له أنه هو نفسه يقع اللوم عليه أيضا لأنه كان يعرف مايحدث ومع ذلك لم يقل أيّ كلام وبالتالى فهو يُعتبر شريكا فى الجريمة . ويقول لنفسه فى تفكير : اننى فقط شعرت بالأسف من أجله فهو قد وصل قادما من البرازيل من الأراضى البرية القفار وبدون أن تكون له أية عائلة لكى تستقبله لدى عودته لذلك عاملته كما لو كان شخصا يمتّ بصلة القرابة لى . ويواسى سلفادور نفسه بهذه الفكرة مرات عديدة ثم تكلم بصوت مرتفع : عندما يتم اخلاء الغرفة رقم ٢٠١ أريد أن تنظف تماما حيث قد حُجزت من أجل عائلة متميزة قادمة من جرانادا .

ولدى انصراف ليديا عقب حصولها على تلك التعليمات راح سلفادور يحملق فى منحنى شفتيها . لقد كان حتى اليوم بمثابة مدير نموذجى يُحتذى به حيث كان مستقيم الأخلاق ولا يفكر أبدا فى الجمع ما بين الشغل بالفندق والمتعة مع الخادمات ولكنه الآن ينبغى عليه أن ينتقم منها من خلال إرغامها على مضاجعته فأما أن توافق وأما أن يطردها الى الشارع .

ونحن نشعر أن هذا الغضب لن يذهب الى ماهو أبعد من ذلك فمعظم الرجال يفقدون شجاعتهم فى اللحظة الأخيرة .

وعقب تناول طعام الغداء فى يوم السبت ذهب ريكاردو ريس الى الشيادو Chiado حيث تعاقد مع اثنين من الشيّالين ولكى لا يجعلهما يمشيان فى تثاقل خلفه فى شارع الكريم مثل حرس الشرف أخبرهما بالوقت الذى يجيئان فيه اليه بالفندق . وانتظرهما فى داخل غرفته بالفندق . انه بمفرده وجالس على الأريكة ولن تجيء إليه ليديا لأن ذلك هو ما اتفقا سويا عليه . قعقعة من وقع أقدام ثقيلة مترامية من الطرقة تعلن عن وصول الشيالين ومعهما بيمنتا . فى هذه المرة لن يضطر بيمنتا لأن يتعب نفسه . أقصى ما سيفعله هو أنه سيقوم بنفس الحركة التى قام بها كل من ريكاردو ريس وسلفادور عندما قام لأول مرة بحمل الحقيبة

الكبيرة حيث اكتفيا بوضع يد أسفل الحقيبة مع ذكر كلمة تحذير على السلالم وهى كلمة نصيحة لا لزوم لها بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم خبرة كبيرة فى حمل الحقائب . ويذهب ريكاردو ريس لكى يودّ ع سلفادور ويترك بقشيشا سخيا من أجل العاملين بالفندق . وزّع هذا البقشيش عليكم على النحو الذى تراه ملائما . فيشكره المدير . ويبتسم بعض الضيوف الذين تصادف وجودهم موافقين على هذه الصداقات الحميمة التى تكونت فى هذا الفندق .

ويشعر الأسبان بالتأثر الشديد لدى رؤية مثل هذه المشاعر الودية . ولاعجب فى أن بلادهم المقسّمة تقفز الى الأذهان فهذه هى تناقضات شبه الجزيرة . وفى أسفل بالشارع كان بيمنتا قد سأل الشيالين بالفعل عن العنوان الذى سينقلان اليه الحقائب . ولكن الجنتلمان لم يذكر لهما العنوان ويعتقد أحدهما أن المكان الذى سيذهبان اليه ليس بعيدا والآخر غير متأكد من ذلك . ولكن لا داعى للقلق لأن بيمنتا يعرف هذين الشيالين بل وكان أحدهما يعمل لصالح الفندق ودائما ما يمكن العثور عليهما موجودين فى الشيادو Chiado ولذلك عندما يرغب فى معرفة هذا السرّ فانه لن يذهب الى مكان بعيد . ويقول له ريكاردو ريس : لقد تركت لك مبلغا صغيرا من المال كعرفان للجميل .. فيردّ بيمنتا : شكرا جزيلا يا دكتور اذا احتجت لأى مساعدة فى أىّ وقت يمكن لك الاعتماد علىّ . انها كلمات شاغرة انها كلمات نفاق خاوية والرجل الفرنسى الذى قال أن الانسان قد مُنح الكلمات لكى يستخدمها فى اخفاء أفكاره كان على حقّ . ولذلك لا ينبغى علينا أن نتوصل الى أحكام متسرعة لأن الشىء المؤكد هو أن الكلمات هى أفضل وسيلة نأمل فيها فى محاولاتنا الرامية الى التعبير عما يفتعل فى داخل أذهاننا من أفكار ورغم ذلك فهى دائما ما تصيبنا بالاحباط . والآن يعرف الشيالان المكان الذى سينقلان اليه الحقائب لأن ريكاردو ريس يذكر لهما العنوان بمجرد أن انسحب بيمنتا . وينطلقان صاعدين فى الشارع . انهما يستخدمان الرصيف الذى به كسور أقلّ .

هذا ليس حملا ثقيلا بالنسبة لشيالين معتادين على نقل البيانوهات وغيرها من الأشياء الأخرى الرهيبة الحجم مع استخدام الرافعات والحبال . ويسير ريكاردو ريس أمامهما على مسافة كافية لكى يتجنب اعطاء انطباع بأنه يقود هذه الحملة ولكن ليس على مسافة بعيدة للغاية مما يجعل الشيالين يشعران أنهما لا يسيران برفقة أحد . لا شيء يمكن أن يكون أكثر دقة ورقة من هذه العلاقات التى تتم بين الطبقات الاجتماعية المختلفة . فالتوافق الاجتماعى هو مسألة ذوق ولباقة ورقة وذكاء وسيكولوجية . وفى منتصف المسافة بالشارع يضطر الشيالان الى التحرك الى جانب واحد فينتهزان هذه الفرصة للاستراحة قليلا واستعادة أنفاسهم المتقطعة لأن موكبا من عربات الترام المليئة بأناس لهم شعر أشقر وبشرة وردية يعبر الطريق فهم سياح ألمان وعمال ينتمون لجبهة العمل الألمانية . وكلهم تقريبا يرتدون الزيّ البافارى والبنطلونات القصيرة والقمصان وحمالة الكتف والقبعة التى لها حافة ضيقة . وبعض عربات الترام مفتوحة مثل أقفاص بحيث يمكن للمطر أن يتساقط على الركاب كما يشاء لأن المظلة المصنوعة من قماش القنب توفر حماية ضئيلة . تُرى ما الذى يقوله هؤلاء العمال الآريين عن حضارتنا البرتغالية وما هو رأى أبناء الجنس الآرى عن هؤلاء الناس الريفيين السُذَّج الذين يتوقفون الآن فى مشيتهم لكى يرقبوا الآريين وهم يمرّون . أنظروا الى ذلك الجنتلمان ذى الشعر الأسود المرتدى معطف مطر وإلى هذين الرجلين غير حليقى الذقن المرتدين ملابس مثل المتشردين واللذين يرفعان الأحمال على أكتافهما ويستأنفان سيرهما على الطريق . ويمرّ الترام الأخير كان العدد الاجمالى للترامات ٢٣ تراما تتجه الى تورى بيليم وإلى موستيرو دوس جيرونيموس وغيرهما من المعالم الأخرى فى لشبونة مثل ألجيس Alge's ودافوندو Dafundo وكروز كويبرادا Cruz Quebrada .

وفى رأسين منحنيين بسبب حملهما بدون شك عبر الشيالان الميدان الذى يقف

فيه تمثال الشاعر الملحمي . وتبعهما الآن ريكاردو ريس وهو يشعر بالخجل لأنه لايحمل أيّ شيء ويضع يديه في جيبه . وفي أسفل هذا الطريق يمكن لك مشاهدة اشـــجار النخيل الخاصة بالتو دي سانتا كاتارينا بين الجبال عند الشاطىء المقابل . وتظهر سحب ثقيلة مثل نساء مفعمات بالصحة على نحو جذاب متجليات عند نوافذهن . وهذه استعارة من شأنها أن تجعل ريكاردو ريس وهو شاعر نادرا ما توجد السحب من أجله . يهزّ كتفيه في احتقار . فالسحب الناعمة كالصوف تكون متسابقة ومتكررة إلى درجة الابتذال . واذا كانت ممطرة فان ذلك يعني أن أبوللو قد أخفى وجهه . هذا هو المدخل المؤدي الى شقتي وهذا هو المفتاح وها هي بداية السلّم وها هي بسطة السلم الثانية رقم اثنين . هذا هو المكان الذي سأعيش فيه . لم تُفتح نوافذ الجيران لدى وصولنا ولم تترك أبواب مفتوحة أو مواربة . يبدو أن أقل الناس حبًا للاستطلاع بلشبونة يسكنون في هذا المبنى أو ربما يكونون منخـرطين في التجسس من خلال ثقب الباب حيث يومض انسان عيونهم في بريق . ونخطوا الآن الى داخل الشقة ومعنا حقيبتان صغيرتان وحقيبة واحدة كبيرة ويتم سداد النقود المتفق عليها علاوة على تقديم البقشيش المتوقع . توجد رائحة عرق لاذعة وحرّيفة . وقالا : اذا احتجت الى أيّ مساعدة يا سيدي فنحن تحت أمرك دائما . وقالا كلمة : دائما في حماس شديد حتى أن ريكاردو ريس صدّقهما ولكنه لم يردّ عليهما .

فالانسان في حالة قيامه بالدراسة يتعلم كيف يكون متشككا . ولدى انصراف الشيالين أغلق ريكاردو ريس باب الشقة . وبدون أن يضيء الأنوار راح يتفقد الشقة كلها بينما وقع أقدامه يحدث صدى على الأرضية العارية الخالية من السجاد ، الأثاث خال من المفارش وتنبعث منه رائحة كرات النفتالين وفروخ بالية من ورق رقيق شبه شفاف مازالت تصطف في بعض الأدراج بينما الزغب متجمع في الأركان . وبالقرب من المطبخ والحمام تنبعث رائحة قوية صادرة عن المجاري

لأن الماء كان منخفضا فى صهريج الماء . وقام ريكاردو ريس بفتح الحنفيات وشد سيفون التواليت عدة مرات . فامتلأت الشقة بأصوات : صوت المياه الجارية وصوت ذبذبة الأنابيب وصوت طرق صادر عن العداد ثم ساد الصمت المطبق مرة أخرى . وفى خلف المبنى كان يوجد فناء به ملابس معلقة لكى تجف علاوة على وجود مساحات صغيرة من الأرض المزروعة بالخضراوات التى لها لون الرماد بالاضافة إلى معلف وأوعية الراقود الضخمة المصنوعة من الأسمنت ومربى للكلاب وأكواخ للأرانب وحظائر للدجاج . وعاد ريس إلى الجزء الأمامى بالشقة لكى ينظر من نافذة غرفة النوم إلى الشارع المهجور . هنالك كان يقف آداماستور شاحبا فى مواجهة السحب المعتمة . إنه عملاق يموج بالغضب فى صمت . بعض الناس يرقبون البواخر وينظرون لأعلى من وقت لآخر كما لو كانوا يتوقعون هطول الأمطار . وعلى نفس المعقد الخشبى الطويل كان الرجلان العجوزان مستغرقين فى مناقشة . وابتسم ريكاردو ريس وقال لنفسه : هذا أمر حسن أنهما منهمكان للغاية فى الكلام لدرجة أنهما لم يلحظا وصول الحقائب . إنه لم يكن ابن نكتة أبداً ولكنه شعر بالتسلية كما لو كان قد خدعهما فى لعبة غير ضارة ومتسمة بروح الصداقة . كان لا يزال يرتدى معطف المطر الخاص به . كما لو كان قد رجع توا من زيارة أو من زيارة طبية كما يقول المثل المأثور فى سخرية لكى يتفحص على وجه السرعة المكان الذى قد يشتريه ذات يوم . وأخيرا قال بصوت مرتفع : مثل رسالة لا ينبغى عليه أن ينساها إننى أعيش هنا وهذا هو المكان الذى أعيش فيه وهذا هو منزلى إنه هذا وليس لى منزل سواه . وفجأة شعر بالخوف . شعر بالرعب الذى يحس به رجل يجد نفسه موجودا فى كهف عميق ثم يفتح بابا فيجده يؤدى إلى ظلام خاص بكهف آخر أكثر عمقا أو يؤدى إلى فراغ وانعدام ولا وجود علاوة على الانزلاق إلى اللاكونية NONBEING . ثم قام بخلع معطفه وجاكتته وعندئذ أدرك أن الشقة باردة . وكما لو كان يقوم بحركات قد تم الاتيان بها

بالفعل فى حياة أخرى راح يخرج محتويات الحقائب بطريقة منهجية منظمة : ملابسه وأحذيته وأوراقه وكتبه وكافة تلك الأشياء الصغيرة سواء أكانت جوهرية ومهمة أو غير مهمة والتى ننقلها معنا من مسكن لآخر والتى تشبه الخيوط المتقاطعة المتشابكة فى شرنقة . وعثر على الروب دى شامبر الخاص به . فارتداه . انه الآن رجل قابع فى استقرار فى داخل منزله . وأضاء المصباح المتدلى من السقف . هذا المصباح يحتاج إلى لمبة على شكل زهرة التوليب . من أجل تخفيض الوهج الضوئى الذى يؤذى عينيه . وبسبب انهماكه فى وضع الأشياء فى أماكنها المألوفة فانه لم يلحظ فى بادىء الأمر أن المطر قد بدأ يتساقط ولكن هبة رياح قوية جعلت الأمطار تطرق على زجاج النافذة يا له من طقس عجيب . ثم اتجه إلى النافذة . الرجلان العجوزان اللذان يشبهان حشرتين داكنتين منجذبتين من خلال الضوء كانا يقفان على رصيف المشاة فى مواجهة بعضهما البعض حيث كان أحدهما طويل القامة والآخر قصير وقد احتمى كل منهما تحت مظلته بينما رأساهما يتجهان لأعلى مثل حشرة فرسة النبى التى تصلى فى تضرع إلى الله . فى هذه المرة لم يشعرا بالخوف من الوجه الذى ظهر متجليا وما أن أصبح المطر أشد قوة شرعا فى السير فى الشارع . وعندما وصلا إلى منزليهما فان زوجتيهما - إذا كانا متزوجين - ستنفجران فيهما فى تأنيب وتوبيخ . مبتل حتى النخاع عليك فقط بالنظر إلى نفسك فى المرآة من الممكن أن يتسبب ذلك فى اصابتك بمرض السل وعندئذ سأعانى من مشقة تمريضك. وعندئذ سيقول الرجلان العجوزان لهما: *شخص ما قد نقل أمتعته إلى شقة دونا لويزا وهو رجل يبدو عليه أنه أعزب* حيث لم يشاهد أى شخص آخر معه على الإطلاق تصورى مكان ضخم كهذا ولا يسكن فيه سوى شخص أعزب. ياله من تبديد لمكان ممتاز *كهذا* . وأنت أيها القارىء قد تسأل عن الكيفية التى عرفت بها هاتان المرأتان أن الشقة كبيرة وشاسعة. ونقول أنه ربما فى أيام دونا لويزا كانت تلك المرأتان تخدمان فى ذلك

المنزل وتقومان بأعمال النظافة وغسل الثياب . فالنساء المنتميات لتلك الطبقة الاجتماعية المنخفضة يمددن أيديهن نحو أى شيء يجيء فى طريقهن إذا كان أزواجهن يحصلون على أجور ومرتبات منخفضة أو يضعون بعض هذه النقود فى جيوبهم من أجل انفاقها على تناول الخمور والاضطجاع مع المومسات . وبالتالى فان هؤلاء الزوجات التعيسات يجدن أنفسهن مضطرات لمسح السلالم وغسل الملابس وبحيث لا يفعلن أى شيئ بخلاف ذلك مما يجعلهن بمثابة استاذات متخصصات فى هذا المجال . ويكون لهن الطرائق الخاصة بهن فى الحياة حيث يفتخرن على سبيل المثال بالملايات الناصعة البياض التى قمن بغسلها وحكها بالصابون المشبع بحامض الكاربوليك والتى تصلح لأن تكون كسوة لمذبح الكنيسة . ولكن إلى أين – أيها القارئ – يجرنا هذا الاستطراد فى الكلام . والآن نقول أن السماء أصبحت معتمة ومظلمة وسرعان ما سيخيم الليل هنا . عندما كان الرجلان العجوزان يقفان على الرصيف وينظران لأعلى فقد بدا عليهما وكأنهما يستدفئان فى الضوء الكامل للنهار الا أن هذا بكل بساطة كان بمثابة التأثير الناجم عن اللون الأبيض لذقنيهما عقب مرور ثمانية أيام بدون حلاقة . ولا حتى فى هذا اليوم وهو يوم الأحد جلسا على كرسى الحلاق أو استخدما موس الحلاقة الخاص بهما ولكن غداً إذا تحسن الجو سيكونان حليقى الذقن وستكون بشرتهما مليئة بخيوط وتجاعيد . وعندما نقول أن شعرهما أبيض فاننا نعنى أنه أبيض فى الأماكن السفلية فقط لأنه فى القمة لا يوجد لديهما سوى كتلة صغيرة حزينة من الشعر الموجود فوق أذنيهما . ولكن علينا أن نعود إلى النقطة التى كنا قد وقفنا عندها . عندما كانا واقفين هنالك على الرصيف كان ضوء النهار مازال موجوداً رغم أنه كان آخذا فى التلاشى السريع ولذلك فهما عقب مشاهدة المستأجر بالدور الثالث لدى ازدياد سقوط الأمطار فانهما شرعا فى النزول من فوق التل وواصلا المسير لدى تزايد الظلام على نحو مستمر وما أن وصلا إلى الناصية حتى خيم

الليل تماما . ومن الأمور الملائمة أن لمبات الشارع كانت مضاءة وكانت تلقى بلآلىء على زجاج النوافذ . وينبغى أن يقال أن لمبات الشارع هذه لا تشبه على الاطلاق تلك اللمبات التى ظهرت فى المستقبل حيث ستصل العصا السحرية للكهرباء إلى ألتو دى سانتا كاتارينا والأماكن المحيطة بها حيث ستضاء اللمبات فى لحظة واحدة مجيدة . أما اليوم فالأمر يتطلب منا الانتظار إلى أن يجيىء شخص ما ليوقدها الواحدة تلو الأخرى .

لقد عاد ريكاردو ريس إلى عمله الروتينى المنزلى لكى يضع حلله وقمصانه ومناديله وجواربه فى المكان المألوف الخاص بها الواحدة تلو الأخرى كما لو كان يؤلف قصيدة غنائية . وكان لون رباط العنق الذى علقه توا يتطلب شراء حلة متلائمة مع ذلك اللون . وعلى المرتبة التى كانت تخص دونا لويزا وهى بالتأكيد ليست هى نفس المرتبة التى فقدت عذريتها عليها منذ سنوات عديدة وانما هى المرتبة التى نزفت بالدماء عليها أثناء انجابها طفلها الأخير والتى عانى عليها ومات زوجها الحبيب الذى كان يعمل قاضيا فى المحكمة العليا على نفس هذه المرتبة راح ريكاردو ريس ينشر الملاءات الجديدة علاوة على اثنتين من البطاطين الصوفية الجديدة . ووضع المساند فى أكياسها الجديدة مع بذل أقصى الجهد ولكنه فعل ذلك فى غير اتقان شأنه فى ذلك شأن أى رجل غير خبير بالشئون المنزلية . ولسوف تظهر ليديا فى نهاية الأمر وربما غداً بيديها السحريتين لكى تنظم كل هذه الفوضى وتعيد ترتيب الأشياء التى نظمت على نحو ردىء . وقام ريس بحمل الحقائب ووضعها فى المطبخ وقام بتعليق الفوط والمناشف فى غرفة الحمام الباردة كالثلج ووضع أدوات الزينة والحلاقة فى الكابينة الحائطية الصغيرة التى كانت تنبعث منها رائحة عفن فطرى بشكل قاطع . وكما رأينا فهو رجل أنيق ومدقق فيما يتعلق بمظهره لأن هذه مسألة افتخار شخصى . وكل ما تبقى الآن هو أن يقوم بترتيب كتبه فوق أرفف الكتب السوداء اللون الموجودة بغرفة المكتبة

مع وضع أوراقه فى أدراج المكتب الأسود غير المثبت على الأرض فى إحكام . والآن فهو يشعر بأنه فى بيته المريح . لقد اهتدى إلى طريقه بعد أن كان ضالاً . البوصلة تظهر للعيان الجهات الرئيسية : الشمال والجنوب والشرق والغرب اللهم الا إذا هبت عاصفة مغناطيسية ودفعت هذه البوصلة إلى نوبة من الجنون .

فى الساعة السابعة والنصف لم يكن المطر قد توقف . ريكاردو ريس يجلس على حافة السرير العالى ويتفحص الغرفة الحزينة الكئيبة . النافذة خالية تماما من الستائر أو الشباك . ويخطر على ذهنه أن الجيران عبر الطرقة ربما يتجسسون عليه ويهمسون بالكلمات مع بعضهم البعض . يمكن لك مشاهدة أى شيء يدور فى الداخل هنالك . انهم يتطلعون فى شغف لمشاهدة مناظر مثيرة أكثر من مجرد هذا المنظر الذى يجلس فيه رجل بمفرده على حافة سرير من طراز قديم بينما وجهه مغلف ومتوار فى سحابة . ينهض ريكاردو ريس ويغلق الشيش الداخلى . أصبحت الغرفة الآن بمثابة زنزانة بها أربعة حوائط صماء وبها باب لو قام بفتحه لأدى إلى باب آخر أو إلى كهف مظلم فاغر فاه فى تثاؤب . لقد سبق لنا أن استخدمنا تلك الصورة ولا داعى لتكرارها مرة أخرى أيها القارىء . ولسنا بحاجة لأن نندهش إذا كان ريكاردو ريس يشعر أن بطنه تقعقع لأن وقت تناول طعام العشاء قد حان . وحتى مع غلق الشيش يمكن لك سماع المياه تطرطش على الرصيف هابطة من الطنف والافريز . ومن الذى يجسر على الخروج فى هذا الجو الرهيب الا إذا كان مضطرا لمواجهة التزام ملح مثل أن ينقذ المرء والده من المقصلة إذا كان والده مازال على قيد الحياة . صالة الطعام بفندق براجانسا هى جنة مفقودة . وهى كأية جنة مفقودة يشتاق اليها كثيرا ريكاردو ريس الذى يود العودة للفندق ولكن ليس ليبقى به . ويذهب ليحضر لفائفه وفطائره وفواكهه المكسوة بحبيبات من السكر من أجل تناول الطعام حيث يشعر بالجوع الشديد .

بالنسبة للشرب لا يوجد سوى ماء الحنفية الذى له مذاق حامض الكربوليك . من المؤكد أن آدم وحواء قد شعرا بالحرمان الشديد خلال تلك الليلة الأولى عقب طردهما من جنة غدن ومن الواضح أن المطر كان يهطل مدراراً آنئذ أيضا . وبينما كانا يقفان فى المدخل قالت حواء لآدم : أتحب أن تتناول البسكويت ونظرا لأنها لم يكن لديها سوى بسكويتة واحدة فإنها كسرتها إلى نصفين وأعطته الجزء الأكبر . فراح آدم يمضغ ويطحن بأسنانه فى بطء بينما يرقب حواء وهى تأكل فى رفق قطعتها الصغيرة مثل طائر صغير فضولى ومحب للاستطلاع . وعلى الجانب الآخر من الباب الذى أغلق فى وجههما للأبد بدون وجود أى هدف شرير أو أى تحريض من جانب الحية فانها كانت قد قدمت له تفاحة . ويقال أن آدم لم يتنبه إلى العرى الخاص بها إلا بعد أن قضم قطعة من التفاحة وأن حواء التى لم يكن لديها الوقت الكافى لكى ترتدى ملابس ظلت شبيهة بزنبقة الحقل التى لا تدور أو تتلوى. وليس بعيدا عن عتبة جنة عدن أمضيا الاثنان الليل فى راحة بعد أن تناولا البسكويت فى وجبة العشاء .. ريكاردو ريس موجود فى شقته بمفرده . ثمرة الكمثرى المكسوة بحبيبات من السكر جعلته يشعر بالغثيان لدى تناول جزء منها . فذهب إلى الحمام لكى ينظف يديه اللزجتين علاوة على تنظيف فمه وأسنانه لأنه لا يستطيع تحمل هذه الدلكيزا Dolceza وهى كلمة ليست برتغالية أو اسبانية ولكنها مأخوذة عن الايطالية لأنها الكلمة الوحيدة التى تتلاءم على ما يبدو فى هذه الحالة. العزلة تثقل على كاهله مثل الليل والليل يلتهمه مثل طعم. من خلال الدهليز الضيق الطويل الواقع تحت الضوء الأخضر الهابط من السقف فانه يبدو مثل حيوان بحرى له حركات بطيئة كسولة ومثل سلحفاة لا حول لها ولا قوة بدون صدفة انه يبحث فى دقة فى المكتب بين مسودات قصائده الشعرية التى يسميها قصائد غنائية ولذلك ظلت محتفظة بذلك الاسم لأن كل شيء ينبغى أن يحصل على اسم. ويقرأ على نحو عشوائى ويسائل نفسه عما اذا كان هو المؤلف لأنه لا يتعرف

على نفسه فى هذه الأشياء المكتوبة. ويستغرق فى التفكير على نحو غامض. انه ينبغى عليه أن ينظم حياته ووقته ويحدد الطريقة التى يقضى بها فتراته الصباحية وفترات ما بعد الظهر والفترات المسائية وبحيث ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا ويعثر على مطعم واحد او اثنين من تلك المطاعم التى تقدم وجبات سهلة الهضم وصحية كما ينبغى عليه أن يعيد قراءة قصائده ويراجعها من أجل المقتطفات الأدبية المختارة التى يخطط لكى يطبعها وينشرها فى وقت ما مستقبلا. كما ينبغى عليه العثور على المقدمات المنطقية اللازمة لمهنته كطبيب. علاوة على التعرف على الناس والسفر الى أجزاء أخرى من البلاد وزيارة اوبورتو وكوامبرا وزيارة الدكتور سامبيو والالتقاء بطريق المصادفة مع مارسيندا. انه لم يعد يفكر فى خططه وأهدافه. انه يشعر بالتعاطف مع المرضى والعجائز ثم يشعر بالعطف على نفسه وتتحول عاطفته الى الاشفاق على الذات والرثاء لها وبينما هو جالس هناك يشرع فى كتابة قصيدة ثم يتذكر فجأة انه قد كتب ذات يوم ما يلى: «إننى أصر فى حزم على أساس القصائد إننى وضعت الشكل والصياغة» أى شخص وضع ميثاقا كهذا لا يستطيع الآن أن يقول عكس ذلك.

ويذهب ريكاردو ريس الى السرير قبل أن تدق ساعة الحائط معلنة العاشرة مساء. المطر مازال يتدفق. لقد أحضر كتابا الى السرير. كان قد اختار كتابين ولكنه قرر أن يترك كتاب «اله المتاهة». وبعد عشر صفحات من خطبة يوم الأحد الأول فى الصوم الكبير Lent أصبحت يداه غير الموضوعتين فى قفاز فى حالة تجمد بسبب شدة البرودة. تلك الكلمات المتحمسة المتوهجة لم تكن كافية لتدفئتها.

«فتش فى داخل منزلك وابحث عن أتفه الأشياء به وعندئذ ستكتشف أن أتفه الأشياء هى الروح الخاصة بك» فوضع الكتاب على الكومودينو. وجثم رابضا فى ارتعاد فجائى ورفع الملاءة لكى تصل الى فمه ثم أغلق عينيه. وأدرك أنه كان ينبغى عليه أن يطفىء الأنوار ولكنه اذا فعل ذلك سيشعر انه مضطر للاستغراق فى النوم

وهو لم يكن على استعداد لاستقبال النوم بعد. فى الأيام الباردة كهذه كانت ليديا تضع له زجاجة ماء ساخن بين الملايات فهل هى بصدد أن تفعل ذلك الآن من أجل دوق مادينا سيللى الذى شغل غرفته بالفندق. هدىء نفسك أيها القلب الغيور فالدوق قد جاء برفقة الدوقة. لقد هبط النوم على ريكاردو ريس. فهو قد أدرك ذلك عندما استيقظ فى ذعر لدى سماعه طرقا على الباب. أيمكن أن يكون الطارق هى ليديا التى انزلقت متسللة وخارجة من الفندق وجاءت تحت هذا الوابل من الأمطار لكى تمضى الليل معى. يالها من فتاة عبيطة. ثم قال لنفسه فى تفكير: لقد كنت مستغرقا فى حلم. وهكذا بدا الأمر لأنه لم يسمع أى طرق آخر على الباب فى الثوانى التى أعقبت الطرق الأول. ربما توجد أشباح فى هذه الشقة وربما هذا هو السبب فى أنهم لم يستطيعوا تأجيرها على مدى فترة طويلة رغم انها فسيحة للغاية وواقعة فى مكان مركزى بالمدينة. الا أن الطرق ترامى مرة أخرى. تات/تات/ تات/تات فى ضربات مكتومة ومتحفظة بهدف عدم ازعاج الجيران. فنهض ريكاردو ريس من السرير ووضع قدميه فى الشبشب ولف الروب دى شامبر حول جسده واتجه من الغرفة الى الصالة وهو يرتعد من البرد ثم نظر الى باب الشقة كما لو كان ينذره بالتهديد. وقال ريس : من الطارق . فجاء صوته خشنا ومتلعثما. فكرر نفس السؤال بعد أن سلك صوته. فترامى الرد فى تمتمة وهمهمة قائلا: انه أنا. انه لم يكن شبحا. انه فرناندو بسوا. ففتح ريس الباب. فوجده أمامه بالفعل. وكان مرتديا حلته السوداء وكان بدون معطف وبدون قبعة. ورغم انه قد جاء من الشارع توا لم يكن يوجد عليه قطرة واحدة من الماء. وتساءل: هل لى أن أدخل. فقال ريس: لم يسبق لك من قبل أن طلبت مني إذنا بالدخول فلماذا هذا التردد والحيرة. فقال بسوا: الأمور قد تغيرت وأنت الآن فى المنزل الخاص بك والمثل الانجليزى الذى تعلمته عندما كنت تلميذا بالمدرسة يشير الى أن بيت الرجل هو قلعته. فقال ريس: تفضل بالدخول لقد كنت فى سريرى.

فقال بسوا: أكنت نائما. فقال ريس: اعتقد انني كنت في سنة من النوم فقال بسوا: لا داعي لتوخي الرسميات معي إرجع الى سريرك. إنني سأزورك لمدة دقائق قليلة. فانزلق ريكاردو ريس تحت الملايات بينما اسنانه تصطك بسبب البرد وبسبب بقايا الخوف. ولم يخلع الروب دي شامبر الخاص به. وجلس فرناندو بسوا في كرسي ووضع ساقا على ساق وشابك يديه على ركبته ونظر فيما حوله في تفحص. وقال: إذن هذا هو المكان الذي تقيم فيه أرى انه كئيبا وموحشا. فقال ريس: الأماكن التي تظل شاغرة لبعض الوقت تعطي دائما ذلك الانطباع. فقال بسوا أتهدف إلى أن تعيش هنا بمفردك فقال ريس: من الواضح انني لن أعيش بمفردي. فأنا قد جئت الى هذه الشقة منذ اليوم وها أنذا استقبل زائرا بالفعل. فقال بسوا: أنا لا أدخل في الحسبان فأنا نادرا ما أكون مرافقا لأي شخص. فقال ريس: أنت تهمني بصفة خاصة ولسوف أعطيك مفتاحا لهذه الشقة. فقال بسوا: وماذا سأفعل بالمفتاح اذا كان بمقدوري اختراق الحوائط فأنا أوفر عليك هذه المتاعب. فقال ريس: لا تستاء من كلامي وأنا أقول لك بكل صراحة إنني سعيد بمشاهدتك فهذه الليلة الأولى ليست سهلة. فقال بسوا: أأنت خائف. فقال ريس: لقد شعرت بشيء من التوتر عندما سمعت الطرق على الباب حيث نسيت أنه من المحتمل أن تكون أنت الذي يطرق ولكن شعوري لم يكن هو شعور بالخوف وانما كان شعورا بالوحدة القاسية. فقال بسوا: مازال أمامك فترة طويلة لكي تعرف جوهر الشعور بالوحدة القاسية. فقال ريس: لقد عشت دائما بمفردي. فقال بسوا: وانا أيضا وليس الشعور بالوحدة القاسية مرادفا للعيش بمفردك. فالوحدة القاسية loneliness هي عدم المقدرة على الابقاء على شخص ما أو شيء ما ليكون برفقتنا. وتساءل ريكاردو ريس: هل تنوي البقاء جالسا هكذا لفترة طويلة. فقال بسوا: ولماذا تسأل؟ فقال ريس: لأنني أشعر بالارهاق. فقال بسوا: لا تقلق ويمكن لك أن تخلد الى النوم اللهم الا اذا كنت تجد أن وجودي هنا مثيرا

للازعاج. فقال ريس: مايزعجني هو أن أراك جالسا هنا في البرد. فقال بسوا: هذا البرد لا يسبب لي أي ازعاج. فأنا بمقدوري الجلوس هنا وانا مرتدٍ قميصا خفيفا وعلى كل حال فانا سأذهب الآن. وعليك الآن بالخلود الى النوم . فقال ريس: أرجوك أن تطفيء الأنوار ثم أغلق ريكاردو ريس عينيه وتمتم: تصبح على خير يا فرناندو وبدا له أنه قد انقضى وقت طويل قبل أن يسمع الرد: تصبح على خير يا ريكاردو. وبعد أن قام ريس بالعد حتى الرقم مائة فتح عينيه بصعوبة. فأدرك أن فرناندو بسوا كان لا يزال جالسا في نفس الكرسي وقد تشابكت يداه على ركبته وهو منظر يدل على أقصى درجات الوحدة القاسية. واستيقظ ريس في منتصف الليل. كان المطر قد توقف وكان العالم يسير عبر فضاء صامت. ولم يكن فرناندو بسوا قد غير من جلسته وكان ينظر في اتجاه السرير بدون أن تظهر أية تعبيرات على وجهه مثل تمثال له عينان شاغرتان. وبعد ذلك بفترة طويلة استيقظ ريكاردو ريس مرة أخرى لدى سماعه صوت الباب ينغلق بصوت مرتفع. لم يعد فرناندو بسوا موجودا بالشقة. لقد غادرها مع ظهور أول ضوء للصباح.

(١١)

مثلما شاهد المرء في أزمنة أخرى وأماكن أخرى فإن الحياة تكون لها التكديرات والمنغصات الخاصة بها. فعندما استيقظ ريكاردو ريس متأخرا في صباح اليوم التالي أحس بوجود طيف من نوع ما بالغرفة. ربما لم يكن ذلك بمثابة شعور بالوحدة القاسية على وجه الدقة وإنما كان بمثابة صمت إلذى هو أخ غير شقيق للوحدة القاسية. وعلى مدى دقائق عديدة راح يرقب شجاعته وهي تتخلى عنه. كان الأمر أشبه بمشاهدة رمال تتحرك في داخل ساعة رملية وهذه استعارة مستنفذة ومع ذلك تظل تتكرر من وقت لآخر. وذات يوم عندما نعيش

مائتى سنة ونصبح أنفسنا الساعة الرملية التى ترقب الرمال فى داخلها لن تكون بحاجة لاستخدام هذه الاستعارة ولكن الحياة قصيرة للغاية بحيث يتعذر الاستغراق فى مثل هذه الأفكار. لقد كنا نتكلم عن تكديرات الحياة ومنغصاتها. عندما استيقظ ريكاردو ريس اتجه الى المطبخ لكى يشعل السخان والموقد فاكتشف انه قد نسى شراء الكبريت بل واكتشف ايضا انه قد نسى أن يشترى مصفاة للقهوة، إن المثل القائل بأن الانسان لا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة بدون مساعدة من الآخرين يعتبر صادقا تماما. وراح يفكر: أن اسهل الحلول هى أن يطرق على باب أحد الجيران : معذرة ياسينيورا اننى المستأجر الجديد بالدور الثالث وقد انتقلت الى شقتى هذه منذ الأمس فقط وكنت أمل. أن أعد لنفسى بعض القهوة واستحم وأحلق ذقنى ولكنى اكتشفت انه ليس عندى كبريت ولا مصفاة للقهوة ولكن هذه لا تهمنى فأنا لدى شاى والمشكلة الرئيسية الآن هى المياه الساخنة من أجل الاستحمام ولذلك لو اعطيتنى كبريتا أكون شاكرا لك للغاية وسامحينى على ازعاجك. ونظرا لأن جميع الناس أشقاء أو شبه أشقاء فان هذا الاجراء يعتبر طبيعيا للغاية بل ولم يكن هو بحاجة الى الخروج الى السلالم الباردة اذا جاءوا اليه لكى يسألوه: أأنت بحاجة الى أى شىء لقد شاهدتك وانت تنقل حقائبك إلى هنا بالأمس وكل الناس يعرفون أن الانتقال الى مسكن جديد يكون على هذا النحو فاذا لم يكن قد تم نسيان الكبريت يكون قد تم نسيان الملح واذا اتضح وجود الصابون تكون فرشاة التنظيف والحك قد ضاعت وهنا تظهر أهمية الجار لجاره. ولكن ريكاردو ريس لم يخرج من أجل طلب يد العون والمساعدة كما لم يطرق أحد على بابه لكى يسأله عما اذا كان يريد أى شىء، لم يكن امامه اختيار سوى أن يرتدى ملابسه وحذاءه ويلف كوفية حول رقبته لكى يخفى ذقنه التى لم يحلقها ويجذب قبعته لاسفل على عينيه. وكان متضايقا من حالة النسيان التى أصابته ومتضايقا أكثر من خروجه فى هذه الحالة المؤسفة من

أجل شراء الكبريت. واتجه الى النافذة أولا لكى يعرف حالة الجو . لقد كانت السماء مظلمة ولا توجد أمطار وكان أداماستور يقف بمفرده اذ كان الوقت مبكرا للغاية بالنسبة للرجلين العجوزين لكى يجيئا ويرقبا البواخر فهما فى هذا الوقت موجودان بكل تأكيد فى منزليهما ويقومان بحلق ذقنهما باستخدام مياه باردة أو ربما زوجتاهما المليئتان بالهموم تقومان بتسخين ماء فى أبريق معدنى لكى يصبح الماء فاترا وليس ساخنا للغاية لأن الرجل البرتغالى الذى لايضاهيه أحد فى العالم من حيث الذكورة والفحولة والرجولة لايتحمل أن يدلل بالطفل . ودعونا نتذكر دائما أننا السلالات المباشرة المنحدرة عن أولئك الأبطال اللوزيتانيين Lusitanians الذين كانوا يستحمون فى البحيرات المتجمدة فى سيرادا استريلا Serra da Estrela والذين ما أن يخرجوا من البحيرات حتى ينطلقوا لتخصيب العذراوات اللوزيتانيات. ومن تاجر فحم يدير حانة فى الجزء السفلى من الحى اشترى ريكاردو ريس نصف دستة من علب الكبريت لكى لايظن الرجل أن عملية البيع الصباحية هذه غير كافية. وحقيقة الأمر أن تاجر الفحم لايذكر أنه باع كبريتا بمثل هذه الصفقة الواحدة الرابحة ، لأن الناس هنا مازالوا معتادين على استعارة كبريت من جيرانهم، ولأن النشاط دب فى جسد ريكاردو ريس من خلال الجو البارد ولأنه كان يشعر بالارتياح من خلال الدفء المنبعث من الكوفية ولأنه لايوجد أناس بالشارع فقد واصل السير لكى يلقى نظرة على النهر وعلى الجبال الواقعة على الجانب الآخر. من هنا كانت الجبال جاثمة فى قرفصاء . وانعكاسات الشمس على صفحة الماء كانت تظهر وتختفى لدى مرور السحب المنخفضة . وسار حول التمثال محاولا العثور على اسم النحات . التاريخ محفور هنالك . لقد صنع هذا التمثال فى عام ١٩٢٧ . ريكاردو ريس لديه عقلية تجعله يبحث دائما عن نماذج السيمترية والتناغم بين الفوضى ، إن تمثال أداما ستور قد شيد عقب رحيلى إلى المنفى بثمانى سنوات وبذلك فقد ظل هذا التمثال موجودا هنا

على مدى ثماني سنوات عندما عدت الى أرض أجدادي وأرض آبائي. إنها أصوات الماضي المجيد التي استدعتني للعودة الى هنا . ويظهر الرجلان العجوزان على الرصيف بينما التجاعيد وآثار حجر الشب تظهران على وجهيهما. وقد أمسك كل منهما بمظلة . إنهما لم يغلقا الرداء الخارجي الذي بدون كمين والذي يطرح على الكتفين بالأزرار ولايرتديان رباط عنق ولكن قميصيهما مغلقان بالأزرار حتى الرقبة ليس لأن اليوم هو يوم الأحد ويوم احترام ولكن بسبب الاحساس بما هو ملائم ووقور مهما كانت ملابسهم الفاخرة بالية . ومن خلال الارتياب في هذا التسكع عند التمثال فإنهما اقتربا وجها لوجه من ريس إنهما واثقان من وجود شيء ما شاذ في هذا الرجل . ترى من يكون هو وما الذي يفعله وكيف يكسب رزقه . وقبل أن يجلسا يقومان بوضع قطعة من الخيش المطوية على المقعد الخشبي الطويل الرطب ثم يجلسان في هدوء وارتياح ويسلكان صوتهما بصوت مرتفع . ويستخرج الرجل الممتلىء جريدة من الجيب الداخلي لردائه . إنها جريدة «أوه سيكيولو» O Seculo وهي الجريدة التي تنظم توزيع الصدقات على الفقراء. إنهما يشتريان دائما هذه الجريدة في يوم الاحد بحيث يشتريها الرجل الممتلىء في أحد الأسابيع ثم يشتريها الرجل النحيل في الأسبوع التالي وهكذا . ويدور ريكاردو ريس حول تمثال آداما ستور مرة ثانية وثالثة . ويرى أن الرجلين أصبحا يموجان بالقلق ونفاد الصبر حيث إن وجوده المتسم بالتململ والضجر يجعل من الصعب عليهما استيعاب الأنباء التي يقرأها الرجل الممتلىء بصوت مرتفع لكي يدعم الفهم الخاص به ولكي يكون في صالح الرجل النحيل الذي لايعرف القراءة والكتابة . ويتوقف عند الكلمات الصعبة ولكن لايوجد الكثير منها لأن الصحفيين والكتاب لاينسون أبدا أنهم يكتبون من أجل جماهير الناس. واتجه ريكاردو ريس الى الدرابزين حيث تظاهر بأنه يتجاهل الرجلين العجوزين حيث يقرأ أحدهما ويصغي الآخر ويعلق . في حافظة نقود لويس أوسيدا تم العثور

على صورة ملونة لسالازار . هذه الدولة ابتلاها الله بالجريمة التى ليس لها حل . رجل يعثر عليه ميتا فى الطريق المؤدى الى سينترا ويقولون إنه قد خنق عقب تخديره بمادة الاتير وأنه قد اختطف وحرم من الطعام وأن الجريمة كانت دنيئة وكلمة دنيئة توضح لنا على الفور عدم موافقتنا على الجرائم وها نحن الآن نعرف أن الشخص المقتول كان يحمل معه صورة الديكتاتور البالغ الحكمة المتسم بالروح الأبوية وفقا لمايقوله الكاتب الفرنسى الذى يسمى تشارلز أو لمونت. وفيما بعد ستؤكد التحريات أن لويس أوسيدا كان بالفعل شديد الاعجاب برجل الدولة البارز ولسوف يتضح أن المحفظة الجلدية الخاصة بالمذكور آنفا قد نقش عليها دليل آخر يدل على الروح الوطنية التي يتحلى بها أوسيدا وهى نقوش شعار الجمهورية والمحلقة (١) بما فيها من القلاع والدروع المنقوش عليها شعار النبالة علاوة على النقش التالى : اشترى البضائع والمنتجات البرتغالية . وينسحب ريكاردو ريس فى حذر تاركا الرجلين العجوزين فى سلام . وكانا مستغرقين للغاية فى هذا اللغز حتى أنهما لم يلحظا رحيله .

لاشىء له أهمية حدث فى ذلك الصباح . كانت هناك بعض المتاعب القليلة مع السخان غير القابل للاستخدام على نحو مريح والذى لم يسبق له أن استخدم على مدى أسابيع إذ راح يشعل عود ثقاب وراء آخر قبل أن يتمكن من جعل الشعلة تستمر فى التوقد . ولاداعى لأن نسهب فى الكلام عن طعامه الكئيب الذى كان يشتمل على كوب من الشاى وثلاث كعكات صغيرات متبقيات من عشاء الليلة السابقة . كما لاداعى لأن نسهب في الكلام عن الاستحمام الذى قام به وسط سحابة من البخار في حوض الاستحمام الذى كان مليئا بالبقع الى حد ما . وفى تدقيق شديد حلق ذقنه مرة ومرتين كما لو كان يستعد للذهاب فى موعد غرامي مع فتاة ماتتوارى شخصيتها خلف ياقة عالية وحجاب على الوجه . على أى نحو يود

(١) آلة فلكية قديمة مؤلفة من حلقات تمثل مواقع الدوائر الرئيسية فى الكرة السماوية. (المترجم) .

استنشاق رائحة صابونها وماء الكولونيا الخاص بها الى أن يختلط ذلك مع الروائح اللاذعة والروائح الطبيعية والروائح المفروضة بالقوة للحم البشرى والتى تستنشقها فتحات الأنف والتى تترك الصدر لاهثا كما لو كان عقب مطاردة عنيفة. أذهان الشعراء أيضا تطوف بهذه الطريقة الدنيوية وتربت على أجساد النساء بل وحتى النساء البعيدات وما يكتب هنا هو شيء وليد اللحظة الجارية ووليد الخيال الذى يتسم بالنفوذ والسخاء الشديدين . أصبح ريكاردو ريس على استعداد لأن يغادر الشقة . لايوجد أحد فى انتظاره كما أنه ليس بصدد الذهاب الى قداس الساعة الحادية عشرة لكى يقدم المياه المقدسة للمتخفى تحت اسم مستعار للابد Eternal Incognita . الشيء المعقول هو أن يبقى فى شقته لحين حلول فترة تناول طعام الغداء . فهو لديه أوراق تتطلب الترتيب وكتب تتطلب القراءة وقرارات ينبغى اتخاذها فما هو نوع المستقبل الذى يرغب فيه وما هو نوع الوظيفة التى يرغب فيها وأين يمكنه العثور على الدافع الذى يحثه على أن يعيش ويعمل وماهى الحكمة أو السبب . إنه لم يكن ينوى الخروج فى هذا الصباح ولكنه الآن ينبغى عليه أن يخرج . إنه من السخف أن يخلع ملابس الخروج مرة أخرى لكى يعترف لنفسه بأنه قد ارتدى تلك الملابس بدون أن يكون على وعى كامل بما كان يفعله . وكثيرا مايحدث هذا . فنحن نتخذ الخطوتين الأوليين لأننا نكون فى حالة من حلم اليقظة أو نكون مشتتى الذهن وبعدئذ لايكون أمامنا خيار سوى أن نتخذ الخطوة الثالثة حتى ولو كنا نعرف أن تلك الخطوة الثالثة خاطئة أو مثيرة للسخرية . فالانسان فى التحليل النهائى هو مخلوق غير عاقل . وعاد ريكاردو ريس الى غرفته معتقدا أنه ربما ينبغى عليه أن يرتب سريره أولا قبل مغادرة الشقة . فهو لاينبغى عليه أن يسمح لنفسه بأن يصبح كسولا فى عاداته ولكن الموقف لم يكن يتطلب ذلك حيث إنه لم يكن يتوقع مجيء أى زائرين . لذلك فانه جلس فى الكرسى الذى أمضى فيه فرناندو بسوا ليلته ووضع ساقا على ساق

مثلما فعل فرنانندو ووضع يديه في تشابك على ركبته مثلما فعل فرنانندو وحاول أن يتخيل نفسه ميتا وراح يتأمل السرير الشاغر بعيني تمثال خاليتين من الحياة . ولكن كان هناك عرق ينبض في صدغه الأيسر كما ارتعش جفن عينه اليسرى . فقال لنفسه في تمتمة : إنني على قيد الحياة ثم قال بصوت مرتفع وجهوري في تكرار : إنني على قيد الحياة . ولأنه لم يكن يوجد هناك أحد لكي يكذبه فانه قد اقتنع بأنه على قيد الحياة بالفعل . فارتدى قبعته وخرج . لقد انضم الى الرجلين العجوزين أطفال يلعبون لعبة الحجلة ويقفزون من مربع محدد بالطباشير الى مربع آخر محدد أيضا بالطباشير وكان لكل مربع رقم خاص به . وهذه اللعبة قد حصلت على أسماء عديدة للغاية . فالبعض يسمونها لعبة القرود وآخرون يسمونها لعبة الطائرة أو لعبة الجنة والجحيم أو لعبة الروليت أو لعبة المجد . ولكن أفضلها جميعا هو اسم : لعبة الرجل لأنها تبدو على ذلك النحو حيث يكون الجسد منتصبا في خط مستقيم ويكون الذراعان ممتدين وحيث تشكل الدائرة العلوية الرأس أو الذهن . الرجل يرقد على أحجار رصيف الشارع ناظرا لأعلى نحو السحب بينما الأطفال يقفزون فوقه بدون أن يدركوا مدى القسوة التي يتسمون بها فهم سيعرفون هذا المعنى عندما يحين الوقت الملائم لهم .. كما يوجد أيضا بعض الجنود الذين وصلوا أيضا مبكرين للغاية لأن خادمات المنازل يجئن الى هنا في فترة مابعد الظهر من أجل التنزه إذا كان الجو ملائما والا ستقول سيداتهم : انظري يا ماريا المطر شديد للغاية يستحسن أن تمكثي هنا اليوم وتقومي بكي الملابس ولسوف أمنحك ساعة إضافية في يوم إجازتك الذي سيبدأ بعد أسبوعين وهذه التفاصيل تستحق أن نشير إليها من أجل أولئك الذين لم يشهدوا مثل هذه الامتيازات مباشرة أو الذين لايعرفون أي شيء عن الفترات الماضية والعادات والتقاليد المتعلقة بها . واستند ريكاردو ريس على الدرابزين العلوي . لقد أصبحت السماء صافية بعض الشيء . وعند البوغاز كان يوجد شريط هائل من الســـماء

الزرقاء . وإذا كانت هناك أية بواخر متوقع وصولها اليوم من ريو دى جانيرو فانها ستدخل الى الميناء فى ظروف ملائمة للغاية . وبعد أن وثق فى دلائل تحسن الجو بدأ يسير فى شارع كالهاريز ونزل هابطا الى أن وصل الى «كاموئيس» Camoes وهنا أحس برغبة شديدة فجائية فى زيارة فندق براجانسا مثل أولئك الطلبة الجبناء الذين تخرجوا من المدرسة ولم يعودوا مضطرين الى الذهاب الى المدرسة الذين شعروا بالكراهية نحوها فى مناسبات عديدة للغاية ولكنهم يستمرون فى زيارة مدرسيهم وزملائهم السابقين الى أن يصبح كل شيء يشعر بالملل من هذا الحج الذى هو عديم الجدوى شأنه فى ذلك شأن كل أنواع الحج حتى أن المؤسسة ذاتها تبدأ فى تجاهلهم . وما الذى سيفعله بالفندق . هل يقوم بإلقاء التحية على سلفادور وبيمينتا . إذن فأنت لم تنسنا يادكتور أتريد أن تتحدث مع ليديا . وفى نوع من الحقد والخبث يتم استدعاء ليديا : الدكتور ريس يرغب فى التحدث معك . ويقول ريس : لم يكن هناك سبب محدد يدعونى الى زيارتكم وكل ما أردته هو أن أقدم لكم الشكر على معاملتى على نحو جيد للغاية وعلى اعطائى مثل هذا التثقيف والتعليم الممتاز على المستوى الابتدائى والثانوى وإذا كنت قد فشلت فى تعلم المزيد فان اللوم يقع على غبائى فقط . وعلى الرصيف وفى مواجهة اجريجا دوس مارتيريس يستطيع ريكاردو ريس شم رائحة عطرية . إنه الزفيز الغالى الصادر عن النساء الورعات الخاشعات اللاتى يقمن الصلاة فى الداخل . لقد بدأ القداس توا بالنسبة لتلك الأرواح المختارة التى تنتمى لعالم أكثر سموا . هنا يمكن لك - إذا كانت لديك حاسة استكشاف غريزية قوية - أن تتعرف على الأرواح المتميزة الجديرة بالتبجيل والاجلال . ومن تلك الرائحة الذكية العطرة يدرك المرء أن الغطاء الموجود فوق مذبح الكنيسة يكون مزدانا بكرات صوفية وشرابات مغطاة بمسحوق الطلق المعطر وأن صانع الشموع قد أضاف الى الشموع المنفق عليها بسخاء كميات كبيرة من أعشاب البتشول العطرية . وما أن

تُسخن وتحرق من الكمية الكافية من البخور فان هذا يبهج الروح على نحو لايمكن مقاومته كما يبهج الحواس الى أقصى حدّ وعندئذ يصبح الجسد هزيلا ويصبح الوجه خاليا من أيّ انفعال اذ يحدث الانجذاب الصوفى والغبطة العامرة فى نهاية الأمر . ويهبط ريكاردو ريس الى قلب المدينة فى خط رحلة مألوفة حيث يجد المكان هادئا مثل يوم أحد فى الأقاليم . بعد تناول وجبة الغـذاء سيجىء سكان الأحياء المجاورة لإلقاء نظرة على فاترينات المحلات التجارية .

انهم يكابدون طوال الاسـبـوع فى انتظار مـجىء هذا اليـوم . وتجىء عـائلا بأكملها حيث يكون الأطفال محمولين بين الأذرع أو مقادين بالأيدى بينما كعوب أقدامهم تؤلمهم بسبب الحذاء الضيق وبعدئذ يطلبون تناول كعكة الأرز واذا كان والدهم فى حالة نفسية جيدة ويودّ أن يظهر ازدهاره المالى فان الأسرة كلها تذهب الى محلّ للألبان وتتناول كميات كبيرة من أكواب اللبن وذلك حتى يمكنهم توفير وجبة العشاء . عندما يجىء وقت الغذاء سيذهب ريكاردو ريس لكى يتناول طعام الغداء فى محل شافى دى أورو حيث يمكن له تناول اللحوم هناك ويخلص نفسه من المذاق الردىء لذلك السكر ثم قبل حلول الليل يشترى تذكرة للذهاب للسينما من أجل مشاهدة فيلم «مراكبية نهر الفولجا» وهو فيلم فرنسى من إخراج بيير بلانشارد . تُرى ما طبيعة نهر الفولجا الذى ابتكروه فى فرنسا . والأفلام – شأنها شأن الشعر – هى فن الوهم والخيال فمن خلال مواءمة مرآة يمكن لك أن تحوّل مستنقعا الى محيط . وما أن غادر دار السينما حتى بدت السماء وكأنها على وشك أن تمطر لذلك قرّر أن يستقلّ تاكسيا . وكان ذلك تصرفا حسنا لأنه ما أن دخل الى شقته وعلق معطفه وقبعته حتى سمع طرقتين على الباب الخارجى للمبنى شىء عجيب لأن فرناندو بسوا اذا ظهر فى وقت النهار محدثا كل هذه الضجة قد تجىء جارة الى نافذتها وتسأل : مَنْ هناك ثم تشرع فى الصراخ : النجدة . النجدة يوجد شبح قادم من العالم الآخر . وفتح ريس النافذة ونظر الى الخارج

لقد كانت ليديا وكانت على وشك أن تفتح مظلتها لدى تساقط القطرات الأولى من الأمطار . تُرى ما الذى جعلها تجيء الى هنا . منذ لحظات كان يفكر قائلا لنفسه إنه لايوجد شيء أسوأ من الحياة المنعزلة ولكنه الآن شعر بالضيق لأن هذه المرأة تسبب له الضيق رغم انه كان بمقدوره - اذا اراد - أن ينتهز الفرصة ويدخل معها فى معركة جنسية مما يؤدى إلى إراحة أعصابه وتهدئة أفكاره .

وعندما ذهب الى بئر السلم لكى يجذب الحبْل شاهد ليديا وهى تصعد على السلالم بالفعل وهى متلهفة ومتيقظة لصد أىّ هجوم عليها . واذا كان هناك تناقض بين هاتين الحالتين للذهن فانها قد حسمت ذلك التناقض . وقال لدى دخولها الى شقته : لم أكن أتوقع مجيئك وكيف تسير الأمور . واتخذت ليديا خطوة للأمام لكى تتلقى أحضانه فاحتضنها وقبَّلها على رقبتها . انه يرى أنه مازال من غير الملائم أن يقبّلها على شفتيها كما لو كانت متساوية معه اجتماعيا اللهم الا اذا كان يضاجعها فى السرير ثم تقترب لحظة النشوة الكبرى مما يجعله ينسى كل شيء . وتقول ليديا : إننى جئت اليوم فقط من أجل أن أعرف ما اذا كنت قد أصبحت مستقرا فى هذا المكان وهو تعبير قد التقطته من خلال عملها بالفندق . وحاول أن يقودها الى غرفة النوم ولكنها حرَّرت نفسها وقالت : لا ينبغى علىَّ ان افعل ذلك الآن . وكان صوتها متلعثما ولكن ذهنها كان قد اتخذ قرارا . وبكلمات أخرى فانها كانت تودّ من كل قلبها أن تضطجع معه فى ذلك السرير وتستقبل بجسدها ذلك الرجل وتشعر برأسه الموجود على كتفيها وتربت بيدها على شعر رأسه ولكن خلف مكتب الاستقبال بفندق براجانسيا يتساءل سلفادور : تُرى بحق الجحيم أين توجد ليديا . وتجوب الشقة كلها على وجه السرعة كما لو كان بمقدورها سماع صوته ، بينما عيناها الخبيرتان تعرفان الأشياء المحتاج اليها . فتقول : لاتوجد فرشاة للحك والتنظيف ولا جرادل ولا ممسحة ولا منفضة ولا صابون مُجزَّع كالرخام ولا صابون تواليت ولا مسحوق التبييض ولا حجر خفاف

ولا مقشّات ولا فرشاة ناشفة ولا ورق تواليت . الرجال يتسمون بالاهمال مثل الأطفال . وتقول له ليديا إنها ستجيء للقيام بأعمال النظافة في يوم الجمعة ولسوف تحضر معها كل الأشياء المطلوبة فيوم الجمعة هو يوم إجازتها الأسبوعية. ويقول ريس : ولكنك تذهبين لزيارة والدتك في يوم الجمعة . فتقول : لسوف أبعث اليها برسالة ثم أرى مايمكن عمله ولسوف أتصل تليفونيا بمتجر قريب . فيقول ريس : لسوف تحتاجين للنقود من أجل شراء تلك الأشياء . فتقول : لسوف أشترى من نقودى الخاصة وأنت تسدد لى القيمة فيما بعد . فيقول ريس : ولماذا. خذى هذه النقود ومن المؤكد انها تكفى للشراء . فتقول ليديا : أيها السيد المسيح. إن مائة اسكود تعتبر ثروة صغيرة . فقال : اننى فى انتظارك فى يوم الجمعة ولكننى لا أشعر بالارتياح لأنك بصدد المجيء من أجل اعمال النظافة . فقالت : لايمكن لك أن تعيش فى هذا المكان وهو على هذا النحو الذى يبدو عليه الآن . فقال : فيما بعد سأقدم لك هدية بسيطة . فقالت : لا أريد أية هدايا وعليك فقط بمعاملتى كما لو كنت الخادمة النهارية الخاصة بك . فقال : كل شخص ينبغى أن يحصل على أجور عادلة فقالت : أجورى هى أن أعامل معاملة متسمة بالشفقة والرفق . فقال ريكاردو ريس : هذه الكلمات من جانبك تستحق قبلة . ثم قبلًها فى هذه المرة على شفتيها . ويضع يده على أُكرة الباب يبدو أنه لايوجد هناك كلام يقال . فالعقد قد تم التوقيع عليه وختمه بالخاتم . ولكن على نحو فجائى تفشى ليديا كلاما من غير تفكير كما لو كانت غير قادرة على السيطرة على نفسها . إذ تقول : السينيوريتا مارسيندا سوف تجيء غدا اذ اتصلوا تليفونيا من كوامبرا فهل تودّ أن أعطيها عنوانك . فيردّ ريكاردو ريس بسرعة كما لو كان قد تمرّن على هذا الردّ : لا شكرا . لاداعى لأن تعطيها العنوان وتظاهرى بأنك لاتعرفين العنوان الذى اسكن فيه . فتقول : يسعدنى أن أكون انا الانسانة الوحيدة التى تعرف هذا السرّ . وتغادر ليديا المكان بعد أن خدعت تماما . وتهبط على السلالم بسرعة

ويتلاحظ لها أن بابا بالدور الثانى قد تُرك مواريا ولأن السكان الآخرين بالمبنى سيرغبون فى إشباع حبّ الاستطلاع لديهم فانها تقول بأعلى صوتها لكى يسمع الجميع : لسوف أجىء اليك يوم الجمعة يا دكتور لكى أقوم بأعمال النظافة . كما لو كــــانت تريد أن تقول للجيران : اســـتمعوا أيها الأعزاء اننى الخادمة النهارية للمستأجر الجديد فلا تظنون الظنون ثم تلقى التحية فى أدب على جارة واقفة :

صباح الخير يا سينيورا ولكن المرأة لا تردّ على التحية الا بصعوبة وتنظر اليها نظرة خالية من الثقة . لأن الخادمات النهاريات عادة لايكن متألقات ومبتهجات على هذا النحو وانما يملْن الى التجهّم وجرّ سيقانهن التى تخشبت بسبب الاصابة بالروماتيزم ودوالى الشرايين . وترقب تلك الجارة وتسدّد نظرات معادية لليديا . ولقد أغلق ريكاردو ريس باب شقته وهو يدرك أنه منافق ويفكر فى هذا النفاق الذى اتسم به . لو كان يتسم بالاخلاص والأمانة لكن قد قال لليديا : لقد سبق أن أعطيت عنوانى لمارسيندا حيث أرسلت لها خطابا على شباك البريد هناك لكى لايصبح والدها متشككا فى الأمر . ولكان قد اضاف كاشفا عما يدور فى سريرة نفسه : ومن الآن فصاعدا فسوف أكون مقيما فى داخل شقتى وبحيث لا أتركها الا من أجل تناول وجباتى بالخارج ثم أعود اليها مباشرة ولسوف أكون فى حالة تيقظ فى جميع الأوقات وذلك خلال الفترة التى تقضيها مارسيندا فى لشبونة . وهى بكل تأكيد لن يجىء غدا الاثنين لأن القطار يصل فى وقت متأخر للغاية ولكنها ربما تجىء الثلاثاء او الاربعاء أو الخميس أو الجمعة . لا ليس يوم الجمعة لأن ليديا ستكون موجودة هنا من أجل القيام بأعمال النظافة . ولكن لاتوجد مشكلة لأن هذه الخادمة وهذه الفتاة التى هى من عائلة طيبة ستكون كل منهما ملتزمة بالمكانة الخاصة بها ولا توجد هناك مخاطر من وراء اختلاطهما مع بعضها البعض وعلاوة على ذلك فان مارسيندا لاتبقى لفترة طويلة فى لشبونة فهى

تجيء فقط من أجل استشارة الاخصائي وبالطبع يوجد هناك ايضا ذلك الموضوع الخاص بوالدها . عظيم ولكن ما الذى تتوقع حـدوثه اذا جاءت الي شقتك . اننى لا أتوقع أىّ شيء وكل ما أريده هو اننى أتمنى أن تجيء الي شقتي. هل تعتقد حقا أن فتاة شابة مثل مارسيندا مع التربية الحازمة التى تلقتها ومع القوانين الأخلاقية الصارمة التى أنشأها عليها أبوها وهو رجل له مهنة تتعلق بالقوانين ستقوم بمفردها بزيارة رجل أعزب في شقته وهل تعتقد أن مثل هذه الأمور تحدث في الحياة الواقعية . لقد سألتها ذات يوم عن السبب الذى يجعلها ترغب فى مشاهدتي فأجابت عليّ بما يفيد أنها لاتعرف السبب وأنا أرى أن هذا الردّ هو أكثر الاجابات المفعمة بالآمال . أحد الطرفين لايعرف والطرف الآخر يبرّر تصرفاته من خلال الجهل . اذن قد يبدو الموقف وكأنه شبيه بآدم وحواء أثناء وجودهما فى جنة عدن ولكن ليست هى بمثابة حواء أو أنا بمثابة آدم . فكما تعرف فآدم كان أكبر من حواء بفارق ضئيل فى العمر وهو فارق يصل الي بضعة ساعات أو أيام فأنا لا أتذكر ذلك على وجه الدقة . وآدم هو جميع الرجال وحواء هى جميع النساء والكل متساو ومختلف وجوهرى وكل واحد منا هو الرجل الأول والمرأة الأولى . ولو أنه من حسن الحظ - اذا لم أكن مخطئا - أن النساء مستمرات في الاتسام بطابع حواء على نحو يفوق اتسام الرجل بطابع آدم . هل أنت تؤسس كلامك هذا على تجربتك الشخصية . لا إننى أقول هذا لأن الأمر ينبغى أن يكون كذلك بالنسبة لنا جميعا. ما كنت ترغب فيه يا فرناندو هو الرجوع الى البداية . اسمى ليس هو فرناندو . آه .

لم يخرج ريكاردو ريس لكى يتناول طعام العشاء . اذ كان لديه بعض الشاى والكعك على المنضدة الكبيرة بغرفة المعيشة المحاطة بسبعة كراسى شاغرة . وتحت النجفة التى بها سبعة فروع ومصباحان أكل ثلاث كعكات صغيرات تاركا

واحدة في طبقه . وراح يحصي مرة أخرى فاكتشف أن رقم ٤ ورقم ٥ مفقودان وسرعان ما عثر على رقم أربعة وهي أركان الغرفة المربعة الشكل ولكن بالنسبة لرقم ستة اضطر لأن ينهض واقفا وينظر فيما حوله فنتج عن ذلك رقم ثمانية وهي جميع الكراسي الشاغرة . واخيرا قرّر انه هو نفسه هو رقم ستة لأنه يمكن أن يتخذ أيَ رقم اذا كان هو بمثابة كيانات لا تُعد ولا تُحصى . وفي ابتسامة معبرة عن السخرية والأسف هزّ رأسه واتجه الي غرفة النوم وهو يتمتم لنفسه قائلا : أعتقد أنني بصدد التعرض للجنون . ومن الشارع أسفله ترامت الهمهمة الدائمة للمطر المتساقط من المزاريب على الأحياء المنخفضة مثل حيّ بوفيستا وحيّ كوندى بارو . وراح يبحث بين كومات الكتب التى لم يتم تصنيفها ووضعها فى الأرفف الى أن استخرج كتاب «آلة المتاهة» . فجلس على الكرسى الذى سبق أن جلس عليه فرناندو بسوا والتقط احدى البطاطين الموجودة على السرير وغطى بها ركبتيه. وأخذ يقرأ من جديد فى الصفحة الأولى . الجسد المكتشف بمعرفة لاعب الشطرنج الأول كان يحتل المربعات الخاصة بالملكة والملك والشخصين التابعين لهما وكان ذراع الجسد ممتدا فى اتجاه معسكر العدوّ . واستمر فى القراءة ولكن حتى قبل أن يصل الى المكان الذى كان قد توقف عنده فى المرة الأخيرة بدأ يشعر بالرغبة فى النوم .

فاستلقى على السرير وقرأ فى صعوبة صفحتين أخريين . ثم استغرق فى النوم ما بين الحركة ٣٧ والحركة ٣٨ عندما كان لاعب الشطرنج الثانى يفكر فى مصير الفيل . ولم يتذكر أنه قام بإطفاء الأنوار . ولكن الأنوار كانت منطفئة بالفعل عندما استيقظ في منتصف الليل . ومن المؤكد أنه كان قد نهض وأطفأ الأنوار . فهذه أشياء نفعلها بطريقة تلقائية لأن جسدنا الذى يتصرف من تلقاء نفسه يحاول أن يتجنب الأمور غير المريحة كلما كان ذلك باستطاعته وذلك هو السبب فى أننا ننام فى الليلة السابقة على المعركة أو تنفيذ حكم

الاعدام والسبب فى أننا فى نهاية الأمر نموت عندما لا نعد نتحمل الضوء المزعج للوجود .

ونظرا لأنه كان قد نسى أن يغلق الشيش فإن الضوء الرمادى للصباح ملأ الحجرة . كان لديه نهار طويل أمامه وأسبوع طويل وكان يرغب بشدة فى البقاء فى السرير وتحت هذه البطاطين الدافئة وبحيث يدع لحيته تنمو وتتحول إلى طحلب إلى أن يجىء شخص ما ويطرق على الباب . من الطارق . إننى مارسيندا . فيصيح فى إثارة : لحظة واحدة . وفى ثوان يجهز نفسه ويحلق شعر ذقنه ويمشط شعره ويخرج منتعشا من الحمام ويرتدى ملابسه الأنيقة النظيفة ويصبح على استعداد لاستقبال الزائرة . ويقول : تفضلى بالدخول يالها من مفاجأة سعيدة . لقد جاءوا لكى يطرقوا على الباب ليس مرة واحدة ولكن مرتين . أولا جاء بائع اللبن الحليب لكى يعرف ما إذا كان الجنتلمان يرغب فى الحصول على اللبن فى كل صباح . ثم جاء الخباز ليعرف عما إذا كان الجنتلمان يحتاج للخبز فى كل يوم . ورد على كل منهما : نعم . فى هذه الحالة ياسيدى ضع ابريق اللبن بالخارج عند ممسحة الأرجل فى كل مساء . فى هذه الحالة يا سيدى علق حقيبة الخبز فى أكرة الباب فى الليلة السابقة . فقال ريس : ولكن من الذى قال لكما إننى انتقلت إلى هذه الشقة فقالا : المرأة الموجودة فى الدور الثانى . فقال ريس : أدرك ذلك . وعلى أى نحو تريدان تسديد الحساب لكما . فقالا : إما أسبوعيا أو شهريا . فقال ريس: إذن فليكن أسبوعيا . فقالا : وهو كذلك يادكتور . فلم يسألهما ريكاردو ريس عن الكيفية التى عرفا بها أنه دكتور . لم يكن هناك داع للسؤال . ولكننا سمعنا ليديا تخاطبه بقولها يادكتور لدى مغادرتها شقته والمرأة الموجودة بالدور الثانى كانت هناك وسمعت كلمة : يا دكتور ومع وجود اللبن والخبز الطازج استمتع ريكاردو ريس بإفطار صحى . صحيح لم يكن لديه زبد أو مربى ولكن مثل هذا الخبز له مذاق جميل للغاية بحيث يمكن الاستغناء عن الزبد أو المربى لو كانت

الملكة ماري انطوانيت قد أكلت خبزاً جميلا كهذا لما احتاجت أن تعيش على خبز البربوش المحلى والذى يعد مع قليل من الزبد والبيض . والآن كل ما ينقصه هو الحصول على جريدة ولكن حتى هذا سيتم تقديمه حالاً . اذ يسمع ريكاردو ريس أثناء وجوده فى غرفة النوم صيحات بائع الصحف : أوه سيكيولو أوه نوتيكياس فيسرع إلى النافذة لكى يفتحها فتطير إليه الجريدة فى الهواء وقد طويت مثل رسالة خطية سرية وقد تبللت من الحبر الذى لم يسمح له الجو أن يجف . فتظهر فى أصابعه تلوثات وتلطخات سوداء دهنية . والآن فى كل صباح سيطرق هذا الحمام الزاجل على زجاج نافذته إلى أن تفتح النافذة من الداخل . فصيحات بائع الصحف والجرائد يمكن أن تسمع من الطرف البعيد للشارع وإذا حدث تباطؤ فى فتح النافذة وهو أمر دائما ما يحدث تقريبا تلقى الجريدة فى الهواء بحيث تدور مثل قرص معدنى وإذا لم تصل إلى هدفها يلقى بها مرة أخرى . لقد فتح ريكاردو ريس بالفعل النافذة على مصراعيها وتلقى فى يديه الرسول الذى يجلب له أخبار العالم . وينحنى على عتبة النافذة ويقول : شكرا جزيلا يا سينيور مانويل . ويرد بائع الصحف : أى خدمة ولسوف تتم المحاسبة شهريا .

والآن فإن المسألة هى مسألة انتظار . فى هذا اليوم الأول يمكن أن يمضى الوقت فى قراءة الجرائد علاوة على قراءة الطبعات المسائية للصحف . ويمكن له أن يعيد القراءة ويقوم بالتحليل والتأمل والتفكير ثم يقوم بتنقيح قصائده الغنائية أو يستأنف قراءة كتاب «اله المتاهة» ويتأمل فى السماء من خلال نافذته ويستمع لكلام المرأة التى تسكن فى الدور الثانى وهى تدردش على السلالم مع المرأة التى تقيم فى الدور الرابع . وهو يدرك أنه سوف يستمع لتلك الأصوات الحادة العالمية كثيراً . ولسوف ينام ويروح فى اغفاءة ويستيقظ ولا يترك الشقة الا من أجل الخروج لتناول طعام الغذاء ويحيث يتناول طعاما سريعا فى مطعم قريب بشارع كالهاريز ثم يرجع إلى الصحف التى سبق أن قرأها بالفعل ثم يعود إلى قصائده

الغنائية الفاترة وإلى الافتراضات الستة التى تتعلق بنتيجة الحركة التاسعة والأربعين ثم يمر من أمام المرآة وينظر خلفه ليرى ما إذا كان الشخص الذى مر مازال موجودا هناك . ولسوف يرى أن هذا الصمت هو أمر لا يطاق بدون الاستماع لنغمات موسيقية وبذلك ينبغى عليه أن يشترى جراموفون فى يوم من هذه الأيام . ولكى يرى الموديل الذى يتلاءم معه أكثر فإنه يتصفح الاعلانات التى تشير إلى ماركات محددة : بلمونت + فيليبس +RCA + فيلكو + ستيوارت / وارنر . ويكتب ملاحظات ويكتب عبارة : جهاز استقبال بالفعل المتغاير الفوقى Superhetrodyne ولا يفهم من هذه الكلمة سوى المقطع الأول منها وهو Super بل وفهمه لهذا المقطع لا يكون متسما بأى يقين . ياله من مخلوق انطوائى مسكين منعزل عن الناس . إنه يصاب بالذهول عندما يفاجأ بإعلان يعد النساء بأن يكون لهن ثديان فى حالة ملائمة فى خلال ثلاثة أو خمسة أسابيع عن طريق استخدام الطريقة الباريسية التى تسمى إكسوبر Exuber أو الطريقة التى تزود بالحيوية والتى تشتمل على ثلاث رغبات أساسية هى : تثبيت الثديين على ما هما عليه Bust Raffermer + تكبير الثديين Bust Developer + تصغير الثديين Bust Reducer . ويتم الحصول على نتائج محددة وواضحة تحت إشراف مدام هلين ديوروى بشارع ميروميسنيل الذى يقع فى باريس بالطبع حيث الفاتنات الساحرات يقمن بتثبيت وتنمية وانقاص الثديين على التوالى أو فى آن واحد . ويقوم ريكاردو ريس بتفحص اعلانات مذهلة أخرى : الخمور الشافية المقوية ماركة باناكو فهى خمور مليئة بمقومات الغذاء الطبيعية + سيارات جويت + غسول الفم ماركة براجيل + صابون سيلفر نايت + خمور ايفيل + خطابات راهبة برتغالية + مكتبة بلاسكو ايبانيز + فرشاة الاسنان ماركة تيك + قاتل الآلام ماركة فيرامون + صبغة الشعر ماركة نوافا + ديسوبورول مزيل رائحة العرق . ثم يتنهد ويعود إلى الفقرات الأخبارية التى سبق أن قرأها وتأملها واستوعبها : وفاة

الكساندر جلازونوف مؤلف ستينكا رازين + سالازار المتسم بالحنو الأبوى قد أنشأ مطاعم مجانية فى المؤسسة القومية لكى يجعل العاملين يشعرون بالسعادة . +ألمانيا تؤكد أنها لن تسحب قواتها من أراضى الراين + العواصف الأخيرة سببت خرابا ودمارا فى ريباتيجو + اعلان حالة حرب فى البرازيل وتم إلقاء القبض على مئات من الناس + هتلر يقول: إما أن ننتصر على القدر الخاص بنا أو نهلك + ايفاد قوات حربية إلى مقاطعة باداجوز حيث قام الآلاف من العمال بغزو العزب والضيعات الريفية + فى مجلس العموم البريطانى يشير الكثيرون من المتحدثين إلى أن الرايخ يجب أن يمنح حقوقا متساوية + توجد تطورات جديدة ومثيرة فى قضية أوسيدا + لقد تم البدء فى تصوير فيلم «ثورة مايو» الذى يحكى قصة لاجىء يصل إلى البرتغال لكى يفجر ثورة ليست هى الثورة ولكن ثورة أخرى ويتم كسبه لصالح القضية الوطنية بمعرفة ابنة صاحب البنسيون الذى يقيم فيه تحت اسم مستعار . وهذا الخبر الأخير قرأه ريكاردو ريس مرة ومرتين وثلاثة مرات فى مجهود لتخليص نفسه من أصداء خفيفة تحوم فى أزيز فى داخل ذاكرته ولكن ذاكرته تخونه فى المرات الثلاث ولكن ما أن انتقل إلى حكاية اخبارية أخرى وهى الاضراب العام فى كورونا حتى أصبحت تلك الفكرة الغامضة واضحة ومحددة . إذ لم تكن شيئا بعيدا . اذ كانت «المؤامرة» ذلك الكتاب وتلك الماريليا وهى تلك القصة التى تدور عن تحول آخر إلى الوطنية ومثلها العليا ومن الواضح أن هذه القصة لها متحمسات من النساء مما أدى إلى نتائج هامة من بينها أن الأدب والفن السابع يقدم الكثير من الثناء على ملائكة الكتاب والتضحية اللائى يناشدن الأرواح الجامحة إن لم تكن المفقودة للرجال . لا أحد بمقدوره مقاومتهن عندما يضعن يدا على كتف أو إلقاء نظرة طاهرة محتشمة تحت دمعة معلقة . انهن لسن بحاجة إلى اصدار أمر قضائى وإجراء استجوابات . النساء المقدسات

ملائكة الرحمة الراهبات البرتغاليات ابنات مريم والأخوات التقيات سواء وجدن في أديرة أو مواخير في قصور أو أكواخ ابنات صاحبة بنسيون أو سيناتور فما هي الرسائل النجمية والتليباثية التي يتم تبادلها بينهن حتى أن مثل هذه الظروف المختلفة تحدث مثل هذه النتيجة المتناغمة والتي هي ليست سوى تخليص رجل من أخطار فقدان روحه . وكمكافأة عظمى تقدم هؤلاء النساء له صداقة أخوية أو أحيانا تقدمن حبهن بل وحتى أجسادهن وغيرها من المنافع الأخرى التي يمكن أن تقدمها زوجة محبوبة وهذا يدعم أمل الرجل في السعادة التي ستجيء إذا جاءت أية سعادة في أعقاب الملاك الطيب الهابط من المذابح الكنسية لأن في النهاية ودعونا نعترف بذلك هذا ليس سوى تجل ثان للعقيدة المريمية ، وهكذا نرى أن ماريليا وابنة صاحبة البنسيون هما بمثابة تجسدات للعذراء البالغة التقديس حيث تلقيان بنظرات مليئة بالشفقة وتضعان أيديهما على التقرحات الجسدية والمعنوية علاوة على تحقيق معجزة الصحة والتحول السياسي . الإنسانية سوف تحقق خطوة عظيمة للأمام عندما تبدأ مثل هذه النساء الصالحات في ممارسة الحكم في العالم . وابتسم ريكاردو ريس لدى تأمله في هذه الأعمال الحزينة المتسمة بالاحترام والتوقير . يوجد هناك شيء ما غير مستحب يتعلق بمشاهدة رجل يبتسم لنفسه وخاصة إذا ابتسم لنفسه في المرآة الخاصة به ومن الأمور الملائمة أنه يوجد باب مغلق بينه وبين باقي أرجاء العالم . وبعدئذ ساءل نفسه : وماذا عن مارسيندا ترى ما هي نوعية مارسيندا من حيث هي امرأة . هذا التساؤل لا صلة له بالموضوع . إنه مجرد لعبة ذهنية لشخص ليس لديه أي إنسان لكي يتحدث معه . أولا ينبغي عليه أن يدرس ما إذا كان لديها الشجاعة التي تدفعها إلى زيارته في شقة وبعدئذ سيكون عليها أن توضح السبب الذي جعلها تجيء إلى هذا المكان المغلق المنعزل الذي يشبه بيت عنكبوت توجد في منتصفه العنكبوتة الذئبية الجريحة .

اليوم هو اليوم الأخير من الفترة المحددة التى لم يوافق أحد عليها . يلقى ريكاردو ريس نظرة على ساعة الحائط . الوقت قد تجاوز الرابعة توا . النافذة مغلقة السحب القليلة الموجودة بالسماء عالية . فى حالة عدم مجيء مارسيندا لن يكون لديها العذر الذى يقال عادة : لقد كنت أود من كل قلبى الحضور ولكن المطر كان شديدا للغاية . وعلى الرغم من أن والدى كان موجودا بالخارج ومنطلقا وراء إحدى مغامراته الغرامية كان سلفادور بكل تأكيد سيقول لى : من المؤكد أنك لست بصدد الخروج يا سينيورينا مارسيندا فى هذا الجو الرهيب . وينظر ريكاردو ريس إلى ساعة يده . لقد أصبح الوقت يشير إلى الرابعة والنصف . ومارسيندا لم تحضر ولن تجيء . والضوء فى داخل الشقة آخذ فى التلاشى بسرعة والأثاث يختفى وراء ظلال مرتعشة. يمكن للمرء الآن أن يعرف السبب فى معاناة آداماستور. الترقب المتسم بالقلق يصبح أمرا لا يُطاق إلى حدٍّ كبير وعلى نحو فجائى يترامى طرق من أكرة الباب الخارجى. المبنى يبدو عليه وكأنه يرتعد من القمة إلى القاع كما لو كان هناك زلزال يهز الأساسات. لا يندفع ريكاردو ريس متجها إلى النافذة لذلك لا تكون لديه فكرة عن الشخص الذى سيظهر عندما يذهب إلى بسطة السلم لكى يجذب الحبل . ويسمع المرأة الموجودة بالدور الرابع وهى تفتح الباب الخارجى الرئيسى وتقول : أوه إننى آسفة لقد اعتقدتُ أن ذلك الطرق كان من أجلى ، وهذه عبارة مألوفة تتداول عبر الأجيال بمعرفة النساء الفضوليات المحبات للاستطلاع. انها مارسيندا . ويشاهدها ريكاردو ريس وهى تستند على الدرابزين . وبعد أن تقطع نصف المسافة صاعدة على السلالم تنظر لأعلى لكى تتأكد من أن الشخص الذى تسعى لمقابلته يعيش هنا بالفعل . ثم تبتسم. انها ابتسامة لها مستقبل وليست شبيهة بتلك الابتسامات المنعكسة فى مرآة وذلك هو الفارق . ويرجع ريكاردو ريس إلى باب شقته. ومارسيندا تصعد على مجموعة السلالم الأخيرة ويتنبه ريس إلى أن الضوء مقطوع فى بئر السلم

وبذلك فإنه على وشك أن يستقبلها بين طيات الظلام تقريبا وبينما يتذبذب على مستوى آخر من التفكير يسائل نفسه فى دهشة : كيف أمكن لابتسامتها أن تكون مشعة ومضيئة إلى هذه الدرجة الكبيرة. وعندما تقف ماثلة أمامى ما الذى سأقوله لها. لا يمكن لى أن أسألها : كيف كانت أحوالك . ولا يمكن له أن يصيح بطريقة سوقية مبتذلة : لم يخطر على ذهنى أن أشاهدك هنا . ولا يمكن له أن يقول بطريقة رومانتيكية : لقد كنت على وشك أن أفقد الأمل ولقد كنت أشعر باليأس المرير ولماذا تأخرت كثيرا فى المجىء . وتدخل إلى الشقة وأقوم أنا بغلق الباب . ولم يقل أى منا كلمة واحدة . ويمسك ريكاردو ريس بيدها اليمنى لكى يرشدها فقط إلى الدخول فى المتاهة المنزلية. لن يكون من الملائم أن يصطحبها إلى غرفة النوم وسيكون من السخف اصطحابها إلى غرفة الطعام حيث يجلسان على الكراسى المحيطة بالمنضدة الطويلة ويجلسان بجوار بعضهما البعض أو فى مواجهة بعضهما البعض، وكم عدد الذين سيجلسون هناك نظرا لأنه متعدد الكيانات على نحو لا يحصى ولا يُعدّ وهى أيضاً بالتأكيد بمثابة أكثر من إنسانة واحدة إذن فليتم الجلوس فى غرفة المكتبة بحيث تجلس مارسيندا على أريكة واحدة وأنا أجلس على أريكة أخرى . لقد دخلا الآن مصباح السقف مضاء وكذلك المصباح الموجود فوق المكتب مضاء . وتنظر مارسيندا فيما حولها نحو الأثاث الثقيل وإلى خزانتى الكتب بما فيهما من كتب قليلة وإلى ورقة النشاف الخضراء . ثم يقول لها ريكاردو ريس : اننى سوف أقبّلك. انها ملتزمة بالصمت . وفى بطء تسند بيدها اليمنى مرفق ذراعها الأيسر . أهذه حركة احتجاج ومناشدة من أجل الرحمة أو استسلام . ثم تضع ذراعها عبر جسدها مثل حاجز . ويتخذ ريكاردو ريس خطوة للأمام ولكنها لا تتحرك. وعندما يكاد يتلامس معها تحرّر مارسيندا مرفق ذراعها الأيسر وتسمح ليدها اليمنى بالسقوط فتتدلى ميتة مثل يدها الأخرى وإذا ما كانت هناك حياة متبقية فى كيانها فإنها تكون موزعة ما بين قلبها النابض

وركبتيها المرتعشتين لدى مشاهدتها هذا الرجل وهو يقترب منها . وتشعر بنشيج يتكون في داخل حلقها وتتلامس شفتاهما . وتسائل نفسها في تعجب: أهذه قبلة. ولكنها ليست سوى بداية قبلة. إذ يضغط بفمه على شفتيها وتفتح شفتاه شفتيها. هذا هو مصير الجسد وقدره. وقدره هو أن يُفتح . والآن تلتف ذراعا ريكاردو ريس حول خصرها وكتفيها ولأول مرة يتلامس ثدياها مع صدر رجل. وهي تدرك أن القبلة لم تنته بعد وهي قبلة لا يمكن أن يتخيل أحد أنها يمكن أن تنتهي ويعود العالم إلى براءته البدائية وهي تدرك أيضا أنها ينبغي عليها أن تفعل شيئا بخلاف الوقوف هناك مع إسدال ذراعيها لأسفل. وتتحرك يدها اليمنى لأعلى لتصل إلى كتفي ريكاردو ريس بينما يدها اليسرى ميتة أو نائمة. اليد اليسرى تحلم وتتذكر الحركات التي سبق أن قامت بها ذات مرة مع تصغير الأصابع والعبور بها خلف رقبة الرجل . وتردّ على ريكاردو ريس قبلة بقبلة بينما يداها في يديه . لقد كنت أتوقع ذلك عندما قررت المجيء إليه، لقد كنت أدرك ذلك عندما غادرت الفندق وكنت أتوقع ذلك عندما تسلقت تلك السلالم وشاهدته وهو مستند على الدرابزين ، لقد أدركت أنه سيُقبلني. وتترك يدها اليمنى كتفه وتنزلق لأسفل في اعياء بينما يدها اليسرى لم تكن هناك على الإطلاق. هذه هي اللحظة التي يتراجع فيها الجسد ويكاد يترنح عندما وصلت القبلة إلى المرحلة التي لم تعد فيها كافية . هيا بنا نفصل ما بينهما قبل أن ترغمنا القوى المتصاعدة على التقدم نحو المرحلة التالية وهي تفجر جديد من القبلات واندفاع متهور ورغم أن الشفاه لم تعد قانعة ببعضها البعض إلا أنه يتم الرجوع إليها باستمرار. وأي شخص لديه أية تجربة من هذا القبيل يعرف هذه النتيجة ولكن مارسيندا لا تعرف لأنها يتم تقبيلها واحتضانها بمعرفة رجل لأول مرة في حياتها فتكتشف على نحو فجائي أنه كلما طالت مدة القبلة ازدادت الحاجة إلى تكرارها. انه تصعيد للاحتياج يبدو وكأنه لا نهائي. هروبها يقع في مكان آخر. يقع في هذا النشيج الموجود في حلقها

والذى لا يتزايد أو يتفجر فى انطلاق. إنه مجرد صوت ضعيف يتوسل : دعنى أذهب . ثم تضيف خشية أن تكون قد أساءت إليه : دعنى أجلس . فيقودها ريكاردو ريس إلى الأريكة وهو لا يعرف ما الذى يفعله معها بعد ذلك ولا يعرف ما إذا كان ينبغي عليه أن يتخذ قرارا بممارسة الحب معها أو يطلب منها العفو والغفران ولا يعرف ما إذا كان ينبغي عليه أن يركع عند قدميها أو يظل ملتزما بالصمت منتظرا إياها لكى تتكلم أولا . كل هذا يفاجأ به كأمور زائفة. فالشىء الحقيقى الوحيد كان عندما قال : إننى سأقوم بتقبيلك. ثم قبلها بالفعل. وتكون مارسيندا جالسة وقد وضعت يدها اليسرى فى حجرها فى منظر كامل مثل شاهد على الحقائق. ويكون ريكاردو ريس جالسا هو الآخر وينظران إلى بعضهما البعض وهما على وعى بجسديهما كما لو كان كل منهما بمثابة صدفة هامسة كبيرة . وتقول له مارسيندا: ربما ما كان ينبغي علىَّ أن أقول هذا ولكننى كنت أدرك أنك ستقوم بتقبيلى. ويميل ريكاردو ريس للأمام ويرفع يدها اليمنى إلى شفتيه ثم يتكلم أخيرا : لا أعرف ما إذا كنت قد قبلتك بسبب الحب أم بسبب اليأس . فتجيب قائلة : لم يسبق لأحد أن قبلنى من قبل على الإطلاق ولذلك لا أستطيع أن أعرف الفارق ما بين الحب واليأس ولكن من المؤكد أنك تعرف على الأقل ما شعرت به. فقال ريس : لقد شعرتُ بقبلتك مثلما يشعر البحر بالموجة إذا كانت لهذه الكلمات أىّ معنى . ولقد ظللتُ منتظرا إياك طوال هذه الأيام ومسائلا نفسى عما يمكن أن يحدث إذا جئت ولم أعتقد أبداً أن الأمور ستصبح على هذا النحو ولكنك عندما جئت إلى هنا أدركت أن تقبيلى لك هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن أفعله معك. وأنا عندما قلت منذ لحظات إننى لا أعرف ما إذا كنت قد قبلتك بدافع من الحب أم بدافع من اليأس وإذا كنت أدرك آنئذ ما أعنى فإننى لم أعد أدرك ما أعنى . فقالت : إذن فأنت لا تشعر باليأس كما لا تشعر بالحب نحوى. فقال : كل رجل يشعر بالحب إزاء المرأة التى يقبلها حتى ولو كانت القبلة

متسمة باليأس. فقالت : ما هى الأسباب التى تدعوك للشعور باليأس . فقال : إنه سبب واحد وهو الشعور بالخواء وعدم الجدوى. فقالت : كيف يمكن لرجل أن يشتكي بينما يستطيع استخدام يديه الاثنتين. فقال ريس : إننى لا أشتكى وانما أقول بكل بساطة إن المرء ينبغي عليه أن يمر بتجربة اليأس قبل أن يقول لامرأة – مثلما قلت لك توا – : إننى سأقوم بتقبيلك . فقالت : ربما تكون قد قلت هذه العبارة بدافع من الحب . فقال : لو كان ذلك حبا لكنت قد قبلتك على الفور وبدون أن أخبرك مقدما . فقالت : إذن فأنت لا تحبنى . فقال : إننى مغرم بك ومعجب بك للغاية . فقالت : ولكن ذلك ليس هو السبب فى قيامنا بتقبيل بعضنا البعض . فقال: حسنا لا . فقالت : وما الذى سنفعله الآن بعد هذا الذى حدث فها أنذا موجودة فى شقة رجل لم أتحدث معه سوى ثلاث مرات فى حياتى كلها فلقد جئت إلى هنا لكى أراك وأتحدث معك ولكى يتم تقبيلى ولا أرغب فى التفكير فى الباقى. ولربما في يوم ما نفكر في الباقي . ربما في يوم ما ولكن ليس اليوم. فقال : لسوف أحضر لك فنجانا من الشاي وبعض الكعك. فقالت : دعنى أساعدك ولكن بعدئذ ينبغى علىّ أن أنصرف فقد يعود والدى إلى الفندق ويسأل عنى. فقال : خدى راحتك . ولماذا لا تخلعى جاكتتك . فقال : إننى مرتاحة على هذا الوضع.

وأثناء تناولهما للشاى بالمطبخ اصطحبها ريكاردو ريس في جميع أرجاء الشقة وألقيا نظرة خاطفة على غرفة النوم ثم عادا إلى غرفة المكتبة. وهنا تساءلت مارسيندا : هل بدأت فى الكشف على المرضى . فقال : لم أبدأ وربما أحاول إنشاء عيادة ولو لممارسة الطب على مدى ساعات قليلة فقط فى كل يوم . فالمسألة تتوقف على اعادة تنظيم نفسي. ولسوف يكون ذلك بمثابة بداية. فقالت : ذلك هو كل ما نحتاجه . فنحن لا نريد سوى بداية . وهل سببت لك الشرطة أية متاعب أخرى. فقال : لا بل ولا تعرف الشرطة حاليا المكان الذى أقيم فيه هنا فى هذه

الشقة. فقالت : إذا أرادوا أن يعرفوا فانهم سيعرفون مكانك بكل سهولة. وقال : وماذا عن ذراعك فقالت : لم يعد لدى أى أمل فى الشفاء ووالدى يعتقد أنه ينبغى علىَّ الذهاب إلى القديسة سانت فاطيما ويقول والدى إنه إذا كان لدىّ إيمان فقد تظهر معجزة مثلما حدث للآخرين الذين تم شفاؤهم من خلال المعجزات . فقال : عندما يبدأ المرء فى الإيمان بالمعجزات لا يعد يكون هناك أمل . وأنا أشك فى أن هذه المغامرات الغرامية بصدد أن تنتهى وانما ستستمر لبعض الوقت. قولى لى يا مارسيندا ما الذى تؤمنين به. فقال: فى نفس هذه اللحظة. فقال: نعم. فقالت: فى نفس هذه اللحظة لا أؤمن إلا بالقبلة التى منحتنى إياها. فقال: يمكن لنا أن نحصل على قبلة أخرى. فقالت: لا. فقال: ولم لا: فقالت: اننى غير متأكدة من أننى سأشعر بنفس الشعور الناجم عن القبلة الأولى والآن ينبغى على أن أنصرف فنحن سنغادر فى الصباح الباكر غدا. وعند الباب مدت يدها وقالت: أكتب إلى خطابات وأنا سأرد عليك بالخطابات لحين حلول الشهر التالى إذا كان والدى مازال يرغب فى العودة إلى لشبونة. فقال: اذا لم تجىء الى لشبونة سأذهب الى كوامبرا. فقالت دعنى اذهب ياريكاردو قبل أن أبدأ فى طلب قبلة أخرى منك، فقال: يامارسيندا أرجوك ان تبقى لفترة أطول. فقالت: لا. ثم نزلت على السلالم بسرعة بدون أن تنظر لأعلى على الإطلاق. وانغلق الباب الرئيسى للعمارة بصوت مرتفع وعندما دخل ريكاردو ريس الى غرفة نومه سمع وقع أقدام فوقه ثم سمع صوت نافذة تفتح. انها الجارة التى تقطن فى الدور الرابع والتى تريد أن ترى بنفسها نوعية تلك المرأة التى كانت فى زيارة للمستأجر الجديد وتريد أن ترى ما اذا كانت تهز فخذيها دائما أم ان هناك شيئا ما مشكوكا فيه ولكى ترى ما إذا كانت هذه العمارة السكنية متسمة بالهدوء والسلام والاحترام.

(١٢)

حوارات وأحكام عابرة. اذ تقول الجارة التى تسكن فى الدور الرابع: بالأمس جاءت فتاة وأخرى جاءت اليوم. فتقول الجارة التى تسكن فى الدور الثانى. انا لم أشاهد الفتاة التى جاءت بالأمس ولكنى شاهدت الفتاة التى جاءت هنا اليوم لكى تنظف الشقة وهى لا تبدو لى شبيهة بخادمة. فتقول امرأة الدور الرابع: أنت على حق فى هذا الرأى فأنا كنت بصدد الاعتقاد بأنها ربة منزل منتمية لأسرة ميسورة الحال لو لم تجىء محملة باللفائف والحاجيات والصابون المنزلى حيث عرفته من رائحته علاوة على أنها كانت تحمل القرشاة حيث كنت موجودة هنا على السلالم لكى أنفض ممسحة الأرجل عندما جاءت. فتقول امراة الدور الثانى: الفتاة التى جاءت بالأمس كانت صغيرة فى السن وترتدى قبعة من الطراز الحديث ولكنها لم تمكث لفترة طويلة فما معنى هذا. فقالت امراة الدور الرابع: صراحة لا أعرف ماذا أقول فهو لم يجىء الى هنا الا منذ اسبوع ومع ذلك فقد زارته فتاتان بالفعل وهذه الفتاة التى جاءت من أجل التنظيف لا تثير الشكوك فهذا أمر طبيعى فالرجل الذى يعيش بمفرده يحتاج للاستعانة بفتاة لكى تنظف له شقته. اما الفتاة الأخرى فإنها يمكن أن تكون احدى قريباته فمن المؤكد ان له اقارب. فقالت امرأة الدور الثانى : ولكننى أرى أن الأمر غريب للغاية هل لاحظت أنه طوال هذا الأسبوع لم يغادر الشقة أبدا إلا فى فترة تناول طعام الغداء. فقالت امرأة الدور الرابع: هل عرفت أنه دكتور. فقالت امرأة الدور الثانى: لقد عرفت ذلك بالفعل لأن الفتاة الخادمة قالت له وهى تكلمه: يا دكتور عندما كانت هنا يوم الأحد. فقالت امرأة الدور الرابع: هل تعتقدين أنه دكتور فى الطب أم دكتور فى المحاماه. فقالت امرأة الدور الثانى: لا استطيع أن أعرف ولكن لا تقلقى فأنا عندما أذهب لتسديد قيمة الايجار سوف أسأل لأن الوكيل يعرف كل شىء بكل تأكيد. ومن المفيد دائما أن يكون هناك طبيب مقيم فى نفس المبنى فالمرء قد يحتاج للطبيب على نحو

فجائي. فقالت امرأة الدور الرابع : طالما أنه إنسان يمكن الاعتماد عليه فإنني سأرى ماذا كان بمقدوري أن أمسك بهذه الخادمة التابعة له وأذكرها بأن تغسل مجموعة السلالم الخاصة بها مرة واحدة اسبوعيا فهذه السلالم كانت تظل دائما نظيفة للغاية.

فقالت امرأة الدور الثاني: نعم قولي لها ذلك ولا تدعيها تعتقد ان بمقدورها ان تعاملنا مثل اثنتين من الكلاب. فقالت امرأة الدور الرابع منهية الحوار والأحكام : ينبغي عليها أن تعرف مع من تتعامل. والشيء الوحيد المتبقي لكي نذكره هو المشهد الصامت لصعودها في بطء على السلالم وهي مرتدية شبشبها المصنوع من نسيج متشابك حيث تتوقف عند باب ريكاردو ريس وتصغي في عناية مع وضع أذنها على ثقب المفتاح. باستطاعتها سماع المياه الجارية وسماع صوت الخادمة وهي تغني بصوت منخفض.

لقد كان يوما مليئا بالعمل الكثير بالنسبة لليديا. اذ ارتدت السمق او الثوب الخارجي الفضفاض الذي كانت قد أحضرته معها وربطت شعرها وغطته بمنديل وشمرت كميها وشرعت في العمل في حماس وتجنبت مداعبات ريكاردو ريس لانها لا تسعى الى تحقيق اية متعة بخلاف متعة التنظيف وغسل الملابس ومسح الأرضية. وهي معتادة للغاية على انجاز هذه الأشياء لدرجة أنه لا يوجد هناك مجهود حقيقي يبذل ومن ثم فهي تغني ولكن بصوت منخفض لكي لا يعتقد الجيران ان الخادمة تأخذ حريتها خلال يوم العمل الأول لها في شقة الدكتور. وعندما حان موعد الغداء فإن ريكاردو ريس الذي ظل طوال فترة الصباح يطرد من غرفة النوم لكي يذهب الى المكتبة ومنها إلى غرفة الطعام ومنها إلى المطبخ ومنه إلى الحمام ثم البزوغ من الحمام ليبدأ مرة أخرى في ترتيب عكسي مع قضاء فترة راحة قصيرة في الغرفتين الشاغرتين أدرك ان ليديا لا تظهر أية دلائل تشير إلى موافقتها على مقاطعتها أثناء العمل. لذلك قال لها في شيء من

الارتباك. كما تعرفين فأنا ليس لدى أى طعام بالمنزل. هذا تعبير عن أفكاره متسم بالارتباك : وبدون اخفاء فإن هذه العبارة يمكن أن تبدو علىْ هذا النحو: اننى سأخرج لكى أتناول طعام الغداء ولكنى لا استطيع أن آخذك معى إلى المطعم لأن ذلك قد يبدو غير ملائم فماذا ستفعلين؟ فتجيب: اذهب لتتناول غداءك. وانا قد احضرت معى من الفندق حساء وبعض اللحوم ولسوف أتناولهما وهذا سيكفينى ويمكن لك أيضا أن تتأخر بالخارج لبعض الوقت لكى لا تعرقلنى أثناء العمل. وكانت تضحك أثناء تكلمها وتمسح العرق عن وجهها باستخدام ظهر يدها اليسرى بينما يدها اليمنى تثبت المنديل الذى كان قد أنزلق بعض الشىء عن رأسها. فوضع ريكاردو ريس يده على كتفها وقال: حسنا وداعا مؤقتا. ثم غادر الشقة. وبينما كان عند منتصف المسافة على السلالم سمع صوت أبواب تفتح بالطابق الثانى والطابق الرابع. كانت الجارتان تخرجان من أجل تنبيه ليديا فى آن واحد. والآن ياعزيزتى لا تنسى أن تغسلى مجموعة السلالم الخاصة بسيدك. ولكن لدى مشاهدتهما الدكتور سارعتا الى التراجع الى الداخل. ما أن يسير ريكاردو ريس على الرصيف بالشارع فإن المرأة بالدور الرابع ستنزل إلى المرأة بالدور الثانى من أجل أن تنخرطا فى حديث هامس. لقد أصيبت بالذهول. هل سبق لك أن شاهدت مستأجرا يخرج ويترك الخادمة فى شقته. فقالت الأخرى: ينبغى أن أقول إن هذه ثقة كبيرة وربما هى التى كانت تنظف فى مسكنه السابق. وترد زميلتها: ربما ياسينيورا ربما فأنا لا استنكر هذا الوضع ولكن ربما يكون بينهما ايضا علاقة جنسية فالرجال اشرار ويتسمون بالخبث ولا تفوتهم اية فرصة على الاطلاق. فتقول الأخرى: أغربى عن وجهى . إنه دكتور فى الطب. فتقول زميلتها: يمكن للدكتور أن يكون خبيثا وشريرا فالرجال اشرار. فتقول الأخرى: زوجى ليس رديئا على هذا النحو. فتقول زميلتها: وكذلك زوجى ليس رديئا وإلى اللقاء مرة اخرى ياسينيورا ولا تنسى ان تنبهى الخادمة. فتقول الأخرى القاطنة

بالدور الثاني : لا تقلقي لن تمر من أمام بابي الا بعد أن أصدر الأوامر اليها واتضح انه لم يكن هناك داع لتنبيهها . ففي منتصف فترة ما بعد الظهر خرجت ليديا الى بسطة السلم ومعها فرشاة وممسحة وجردل. وراحت المرأة الموجودة بالدور الرابع ترقب في هدوء من عل بينما السلالم الخشبية تضج بضربات الفرشاة الثقيلة وكان يتم التخلص من المياه القذرة من خلال عصرها في الجردل وتم تغيير مياه الجردل ثلاث مرات بينما المبنى كله قد امتلأ بالرائحة النظيفة للصابون القوى. وتقول امرأة الدور الثاني : لايمكن انكار هذا المجهود الكبير فالخادمة تتقن عملها تماما ثم تستعد لتنظيف مجموعة السلالم الخاصة بها لدى وصول ليديا الى بسطة السلم الخاصة بها وتقول لليديا: أقول لك صراحة ايتها الفتاة انك قد نظفت تلك السلالم على نحو رائع ومن المريح ان نعرف اننا لدينا مستأجر بالدور الثالث يمكن الثقة فيه والاعتماد عليه. فتقول ليديا: الدكتور يصر على أن يكون كل شيء في حالة نظافة ونظام ويجب أن يرى الاشياء وهي تنجز في اتقان لأن المنظر عندئذ يدخل السرور على النفس. فتقول المرأة القاطنة بالدور الرابع وهي تنحني مستندة على الدرابزين: المنظر جميل بكل تأكيد. ثم تمنت ليديا لهما قضاء وقت سعيد في فترة ما بعد الظهر. وصعدت على السلالم حاملة معها الجردل والفرشاة والخيشة والصابون. ثم أغلقت الباب في إحكام وراءها وقالت لنفسها في تمتمة: كلبتان عجوزتان متكبرتان وراغبتان في مجرد اصدار الأوامر. لقد انتهت من أعمالها وكل شيء أصبح أنيقا تماما .يمكن الآن لريكاردو ريس أن يرجع ويمر بإصبعه على سطح الأثاث مثلما تفعل دائما ربات البيوت من أجل محاولة اكتشاف غلطة واحدة علاوة على تفحص كل صغيرة وكبيرة . وعلى نحو فجائي تجتاح ليديا موجة من الحزن الهائل أو احساس بالكآبة في النفس واليؤس ليس بسبب انها تشعر بالارهاق ولكن لانها تدرك - وان كانت غير قادرة على التعبير بالكلمات - انها قد أوفت بالغرض المطلوب منها وكل ما تبقى لكى تفعله

هو أن تنتظر وصول سيدها وهو سوف يشكرها وسوف يرغب فى تقديم تعويض لها فى مقابل مثابرتها واجتهادها وهى سوف تصغى اليه فى ابتسامة جامدة وتتسلم أو لا تتسلم الأجر ثم تعود الى الفندق. بل انها اليوم لم تقم بزيارة والدتها لكى تعرف منها ما اذا كانت هناك اية أخبار واردة عن أخيها بل ولا هى تشعر بالندم على هذا ولكن الأمر يبدو وكأنها لاتمتلك أى شيء خاص بها. والآن تغير ملابسها وترتدى البلوزة والجونلة. وبينما يبرد العرق على جسدها تجلس على مقعد خشبى بالمطبخ وقد طوت يديها فى حجرها ولاذت بالانتظار. وتسمع صوت أقدام على السلالم وصوت المفتاح وهو يدخل فى الكالون. انه ريكاردو ريس . ويقول مازحا وهو فى الممر : هذا يشبه الدخول إلى مسكن الملائكة . فتنهض ليديا واقفة على قدميها وتبتسم لدى سماع مثل هذا التملق ولكن على نحو فجائى تشعر بالقناعة والرضا ثم تشعر بالتأثر الشديد لدى اقترابه منها وقد مدّ يديه وفتح ذراعيه، وتقول: اوه لاتلمسنى فأنا مغطاة بالعرق وكنت بصددد مغادرة المكان. فيقول: لا تذهبى الآن. مازال الوقت مبكرا. تناولى قدحا من القهوة . ولقد اشتريت بعض الكعك المخلوط بالكريمة. ولماذا لا تأخذى حماما اولا لكى تشعرى بالانتعاش. فتقول: يا لها من فكرة أنا آخذ حماما فى شقتك من الذى سمع من قبل عن مثل هذا الاجراء ، فيقول: لم يسمع أحد من قبل عن هذا ولكن دائما مايكون هناك ما يسمى بالمرة الأولى افعلى كما اقول لك.

فلم تعترض مرة أخرى . لم يكن بمقدورها ان تعترض حتى لو كانت التقاليد الاجتماعية لاتنص على ذلك . لأن ذلك كان من أسعد لحظات حياتها حيث تفتح المياه الساخنة الجارية وتخلع ملابسها وتنزل نفسها فى بطء فى حوض الاستحمام وتشعر بأطرافها المرهقة وهى تسترخى فى الدفء المحسوس للماء مع استخدام الصابون والاسفنج لكى تغطى جسدها برغوة الصابون بما فى ذلك ساقاها وفخذاها وذراعاها وبطنها وثدياها مع الادراك فى نفس الوقت ان هناك

رجلا عند الجانب الآخر من الباب فى انتظارها وتقول لنفسها فى تفكير: استطيع ان اتخيل ما يفعله وما يفكر فيه ولكن اذ كان عليه أن يجيء الى هنا وإذا كان عليه أن يرانى ويرقبنى بينما انا عارية هنا سيكون الأمر مثيرا للخجل والخزى. أيمكن أن يكون الخجل هو الذى يجعل قلبها يدق بسرعة هائلة أم ان السبب فى ذلك هو الخوف. وتأخذ خطوة خارجة من الحمام. دائما ما يبدو الجسد البشرى جميلا عندما يخرج من الماء لامعا ومتلألئا . ذلك هو ما خطر على ذهن ريكاردو ريس وهو يفتح الباب. ليديا عارية تماما وتغطى ثدييها وما بين ساقيها بيديها. وتقول في توسل: لاتنظر إلىّ. هذه هى أول مرة تواجهه على هذا النحو. وتضيف: أرجوك ان تبتعد وتدعنى ارتدى ملابسى وقالت تلك العبارة بصوت منخفض ملىء بالخجل ولكنه يبتسم *لها ابتسامة مليئة بالرقة والرغبة بل والنزوع الى الأذى* ويقول لها: لا ترتدى ملابسك ولكن اكتفى بتجفيف جسدك. ويقدم لها فوطة كبيرة ويلفها حولها ثم يذهب الى غرفة نومه ويخلع ملابسه. كان السرير قد تم ترتيبه توا وكانت الملايات جديدة ولها رائحة جميلة . وتدخل ليديا الى غرفة النوم ممسكة الفوطة بإحكام لكى تخفى جسدها ولا تمسك بها مثل حجاب شفاف ولكنها تسقطها لدى اقترابها من السرير حيث تشعر بالشجاعة فى نهاية الأمر. ليس هذا يوما تشعر فيه بالبرد لأن جسدها كان يحترق بالسخونة فى الداخل والخارج أما [illegible]

تسقطها لدى اقترابها من السرير حيث تشعر بالشجاعة فى نهاية الأمر. ليس هذا يوما تشعر فيه بالبرد لأن جسدها كان يحترق بالسخونة فى الداخل والخارج أما
الثانى وضعت الجارة كرسيى مطبخ بدون مسند فوق بعضهما وجلست قابعة فوقهما معرضة نفسها لأخطار السقوط على الأرض وخلع كتفها حيث كانت تحاول فك شفرة ومعرفة معانى الأصوات التى تصل إليها مخترقة السقف . وجهها قرمزى اللون مع حب الاستطلاع والإثارة وعيناها تلمعان مع الفسوق

المكبوت. هذه هى الطريقة التى تحيا وتموت عليها هؤلاء النساء. ترى فى أى شئ ينهمك الدكتور وتلك الفتاة الوقحة على ما تعتقد. ولكن من يدرى ربما هما منهمكان فقط فى العمل الشريف المتعلق بقلب المراتب والطرق عليها وعندما رحلت ليديا بعد ذلك بنصف ساعة لم تجرؤ الجارة بالدور الثانى على فتح بابها وان كان للتجاسر الحدود الخاصه به واكتفت بالنظر من خلال ثقب الباب الذى يختلس منه النظر وراحت ترقب بعين شبيهة بعين الصقر الهيكل الرشيق الذى مر بسرعة وهو مغلف برائحة رجل وكما لو كانت هذه الرائحة بمثابة درع. وفى سريره يغلق ريكاردو ريس عينيه. فطالما انه قد تم إشباع رغبات جسده فإنه يمكن له البدء فى اضافة المتعة الرقيقة المحيرة المتعلقة بالشعور بالوحدة. ويتدحرج على المساحة التى كانت تشغلها ليديا فيشم الرائحة الغريبة الخاصة بحيوان غريب ولكنها رائحة مشتركة لا تتعلق بأحدهما ولكن بكليهما . نكتفى بهذا القدر من الكلام وهيا بنا نلتزم بالصمت فالخوض فى هذه النوعية من المعرفة ليس من اختصاصنا.

اليوم يبدأ بالصبح والأسبوع يبدأ بيوم الأحد. ومع ظهور الضوء الأول للنهار بدأ ريكاردو ريس فى كتابة خطاب مطول لمارسيندا مع الانهماك فى تفكير عميق. ما الذى نكتبه لامرأة قمنا بتقبيلها بدون الاعلان عن حبنا. اذ تم التماس العفو منها سيكون ذلك سيئا خاصة وأنها قد تبادلت القبلة بقبلة من جانبها مليئة بالعاطفة. ومن ناحية أخرى اذا لم نقل أثناء تقبيلها: اننى أحبك فلماذا نلفق هذه الكلمات الآن وندخل فى مخاطر عدم تصديق تلك الكلمات. الرومان يؤكدون لنا باللغة اللاتينية أن الأعمال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات. فدعونا ننظر بعين الاهتمام إلى الأعمال على النحو الذى تمت عليه ونغفل الكلمات لأن الكلمات تكون زائدة عن الحاجة ولا لزوم لها. فالكلمات هى الطبقة الأولى من الشرنقة. وينبغى علينا أن نستخدم الكلمات التى لا تعطى وعدا والتى لا تسعى إلى تحقيق أى شئ

بل والتى لا توحى بأى شئ. ولندع الكلمات تحمى مؤخرتنا لدى تراجع الجبن الخاص بنا تماما مثل هذه العبارات المتشظية العامة الملتبسة. وذهب ريكاردو ريس للبحث عن وظيفة طبيب يحل محل طبيب فى إجازة وبحيث يعمل ساعتين فى اليوم ولمدة ثلاثة أيام أسبوعيا أو حتى لمرة واحدة أسبوعيا حتى ولو أدى الأمر إلى أن يعمل فى عيادة تطل على فناء خلفى اذ تكفى أية غرفة صغيرة من أجل الكشف على المرضى مع وجود أثاث بها من طراز قديم علاوة على سرير يقع خلف ستارة من أجل الفحص والكشف الروتينى بالاضافة إلى مصباح مكتب من أجل فحص بشرة المريض فى مزيد من الدقة ووعاء للبصق من أجل الذين يعانون من الالتهاب الشعبى واثنتان من المطبوعات تعلقان على الحائط واطار من أجل أن توضع به شهادة الدبلوما الخاصة به ونتيجة حائط للأيام تبين لنا عدد الأيام التى مازال علينا أن نعيشها . وبدأ بالبحث فى الأماكن البعيدة بعض الشئ مثل: القنطرة وانبامبولها ربما لأنه قد سبق له المرور عند هذه الأماكن عندما دخل إلى البوغاز . وسأل عما إذا كانت هناك أية أماكن شاغرة وتحدث مع أطباء لم يكن يعرفهم ولم يكونوا يعرفونه وشعر بأنه سخيف عندما كان يخاطبهم بعبارة: أيها الزميل العزيز وعندما كانوا يخاطبونه بنفس الطريقة. وقال أحدهم: لدينا مكان شاغر هنا ولكنه بصفة مؤقتة حيث يوجد زميل فى إجازة ونتوقع له أن يعود فى الاسبوع القادم . فراح يبحث فى الحى السكنى عند كوندى بارو ثم عند روسيو ولكنه لم يعثر على أماكن شاغرة . وهناك شئ حسن أيضا وهو أنه لا يوجد عجز فى عدد الأطباء لأننا فى البرتغال لدينا أكثر من ٦٠٠ ألف حالة إصابة بمرض الزهرى كما أن معدلات الوفيات بين الأطفال مرتفعة للغاية فمن بين ألف طفل يولدون يموت ١٥٠ طفلا . وبعدئذ تخيل حجم الكارثة لو لم يكن لدينا تحت تصرفنا مثل هذا العدد من الأطباء الممارسين الممتازين. وأخيرا وفى يوم الأربعاء اكتشف وجود مكان شاغر قريب من مسكنه ويقع فى براسا كاموس ومن حسن

حظه أنه وجد نفسه متمركزا فى عيادة لها نافذة تطل على الميدان . وهى عيادة تخص طبيبا متخصصا فى أمراض القلب والرئتين ولكنه هو نفسه أصيب بمرض القلب فاضطر للحصول على إجازة وحل محله ريكاردو ريس بصفة مؤقته . وحالته ليست خطيرة ولكن تماثله للشفاء يستغرق حوالى ثلاثة أشهر. ولم يكن ريكاردو ريس بارزا فى هذا التخصص ولعلنا نتذكر أنه قال إنه غير متخصص فى أمراض القلب مما يجعله لا يستطيع إبداء أى رأى بشأن حالة مرض القلب الذى تعانى منه مارسيندا ولكن القدر لا يكتفى بتحريك الأمور وإنما هو قادر أيضا على ممارسة السخرية ولذلك فان ريس وجد نفسه مرغما على أن يطوف بسرعة بالمكتبات بحثا عن مراجع طبية قد تعينه على إنعاش ذاكرته وتزويده بأحدث التقنيات والوسائل فى مجال الطب العلاجى والطب الوقائى . وقام بزيارة الطبيب صاحب العيادة والذى يقضى فترة النقاهة وأكد له أنه سيبذل جهده فى العمل فى هذا المجال الجليل المحترم وسوف يستشيره من وقت لآخر من أجل الاستفادة من خبرته وعلمه الوفير . وتناقشا فى الشئون الادارية للعيادة ومرتب الممرضة والمصاريف الجارية والمبلغ الذى سيحصل عليه صاحب العيادة.. ولم يكن من المتوقع أن يجعل المبلغ المتبقى من ريكاردو ريس رجلا غنيا ولكنه لايزال لديه مبلغ كبير بالعملة البرازيلية مدخر لوقت الحاجة اليه . ونظرا لأنه لم يكن لديه شئ آخر يمكنه أن يفعله فانه يذهب إلى العيادة فى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ويواظب على هذه المواعيد الثابتة وفى بادئ الأمر ينتظر المرضى الذين لا يجيئون وبعدئذ عندما يجيئون يحرص تماما على الا يهربوا منه وبعدئذ تفقد هذه البدعة الجديدة الاثارة المتعلقة بها ويبدأ فى ممارسة العمل الروتينى الخاص بتفحص الرئتين المصابتين المنهارتين والقلوب المصابة بالتليف الموضعى مع الرجوع إلى الكتب من أجل شفاء الحالات التى لا يمكن شفاؤها. ونادرا ما يتصل تليفونيا لاستشارة زميله صاحب العيادة رغم وعوده بزيارته بانتظام لكى يستشيره. نحن جميعا

نستفيد من حياتنا بأقصى درجة ممكنة ونستعد من أجل ملاقاة الموت. وعلاوة على ذلك فإنه من المحرج والمربك أن يسأل: ما هو رأيك أيها الزميل أنا شخصيا لدى انطباع بأن قلب هذا المريض يتعلق من خلال شعرة خيط فهل لديك أى مخرج او حل بخلاف الحل الذى يقود المرء إلى العالم الآخر فالأمر هنا أشبه ما يكون بالتحدث عن حبل موجود فى منزل رجل قد حكم عليه بالإعدام شنقا.

حتى الآن لم يصل خطاب من مارسيندا كرد على الخطاب الذى أرسله اليها ريس. فأرسل ريس لها خطابا ثانيا حدثها فيه عن حياته الجديدة وعن أنه بدأ يمارس مهنة الطب مرة أخرى وفقا لأوراق الاعتماد المستعارة لاخصائي مشهور. وأضاف : فأنا أستقبل مرضاى بالعيادة التى تقع فى براسا دى لويس كاموس وهى على مسافة قريبة للغاية من شقتى وبجوار فندقك . ان الانسانة التى قبلها والذكرى التى لا يزال يحتفظ بها عن تلك القبلة تذبل وتتوارى خلف ضباب الزمن. وفى محلات بيع الكتب لا يستطيع العثور على كتاب قادر على انعاش ذاكرته. وبدلا من ذلك يجد معلومات عن آفات متعلقة بالقلب والرئتين بل وكثيرا ما يقال إنه لا توجد هناك أمراض ولا يوجد فقط سوى أشخاص مرضى . فهل هذا يعنى انه لا توجد هناك قبلات وإنما فقط أشخاص مقبلون.

حالة الطقس تتحسن ومع ذلك فالعالم يسير من سيىء لأسوأ. فالربيع وفقا للتقويم قد حل بالفعل ويمكن مشاهدة البراعم والأوراق الصغيرة التى تنبت على أغصان الأشجار ولكن الشتاء يغزو هذه الأجزاء من وقت لآخر. وتهطل أمطار هائلة فتكتسح الأوراق والبراعم فى الفيضان إلى أن تعاود الشمس الظهور مرة أخرى مما يساعدنا على نسيان كوارث المحصول الأخير والثور الغارق المنتفخ المتعفن المنجرف مع تيار الماء والكوخ الذى تداعت حوائطه والاغراق الفجائى الذى يجذب جثتى رجلين إلى شبكة المجارى الخاصة بالمدينة بين البراز والغائط والحشرات الطفيلية. الموت ينبغى أن يكون بمثابة انسحاب بسيط مثل الممثل

المساعد الذى يخرج فى تحفظ وحذر. فهو يحـرم من حق إلقاء كلمة نهائية عندما لا تصبح هناك حاجة لوجوده . ولكن نظرا لأن العالم شاسع للغاية ويحتوى على أحداث أكثر درامية فانه يتجاهل هذه الشكاوى التى نتمتم بها بين أسنان مطبقة عن عدم توفر اللحوم في لشبونة . هذه أنباء لا ينبغي على المرء أن يذيعها أو يسربها إلى الخارج فلنترك ذلك للأمم الأخرى التى تنقصها حاسة الخصوصية اللوزيتانية Lusitanian الخاصة بنا. عليك بالنظر بعين الاعتبار فى الانتخابات الأخيرة في ألمانيا والتى تمت فى برونسفيك حيث سار الفيلق الاشتراكى/الوطنى فى موكب بالشوارع مع ثور يحمل لافتة كتب عليها: هذا الثور لا يدلى بصوته فى الانتخابات . لو كان هذا فى البرتغال لكنا قد أخذنا الثور لكى يدلى بصوته وعندئذ نـأكل شرائحه الطرية وأعضاءه التناسلية ونستخدم ذيله فى اعداد الحساء . من الواضح أن الجنس الألماني يختلف كثيرا عن الجنس الخاص بنا هنا الجماهير تصفق بأيديها وتندفع من أجل مشاهدة المواكب وتلقى التحية بالطريقة الرومانية وتحلم بوجود زى رسمى للمدنيين ومع ذلك فهى تلعب دورا متواضعا على المسرح الكبير للعالم . وكل ما نأمل فيه هو أن يتم استئجارنا لكى نقوم بدور الكومبارس وهذا يوضح لنا السبب فى أننا لا نعرف أبدا أين نضع أقدامنا أو ماذا نفعله بأيدينا عندما نقف في طوابير بالشوارع من أجل تكريم الشباب الذى يمر . الطفل البرىء بين ذراعى أمه لا يأخذ حماسنا الوطنى بجدية فيقوم بجذب أصبعنا الوسطى الذى يمكن له الوصول اليه . ومع أمة مثل أمتنا من المستحيل أن نكون معتدين بأنفسنا ومتسمين بالوقار أو يقدم المرء منا حياته على محراب وطن الأسلاف والأجداد. وينبغى علينا أن نتعظ ونأخذ الدروس ونرى كيف أن الألمان سالفى الذكر يطالبون بأن يكون هتلر رئيسا فى الويلهيلمزبلاتز ونرى كيف أنهم يلتمسون فى حماس قائلين: نحن نريد الفوهرير نحن نتضرع إليك يا فوهرير نحن نريد مشاهدتك يا فوهرير ويظلون يصيحون إلى أن تبح أصواتهم ويتصبب

العرق من وجوههم بينما النساء العجائز بشعرهن الأبيض يناشدن فى دموع والنساء الحوامل يرتجفن مع أرحامهم المتورمة وصدورهن المتنهدة والرجال مزودون بعضلاتهم القوية وإراداتهم الحديدية والكل يهتف ويصفق بالأيدى إلى أن يتجلى الفوهرير عند النافذة وعندئذ تتفجر الهستيريا بغير حدود ويصيح الجميع فى صوت واحد: هايل Heil هتلر . لو كنت فقط قد ولدت ألمانيا. ولكن لا داعى لأن يكون المرء طموحا للغاية إلى هذه الدرجة لا داعى لأن تعقد مقارنة مع الألمان يكفى أن ننظر إلى الطليان الذين يحققون حاليا الانتصارات فى حروبهم فمنذ أيام قليلة انطلقت طائراتهم على طول المساحة حتى مدينة هارار Harar وحولت كل شئ بها إلى رماد فإذا كانت دولة مثل ايطاليا تقوم بهذه المخاطر فلماذا ينبغى أن نعاق نحن من خلال الأغانى الشعبية الحزينة Fado البرتغالية. ان سوء حظنا يكمن فى عدم توفر الفرص لدينا . صحيح نحن لدينا امبراطورية تعتبر من أعظم الامبراطوريات بل وتزيد مساحتها على مساحة أوربا كلها ومع ذلك فنحن عاجزون عن إلحاق الهزيمة بجيراننا المباشرين بل ولا نستطيع استرداد أوليفينسا olivenca. ولكن إلى أين تقودنا مثل هذه المبادرة الجريئة . دعونا ننظر ونرى ما ستسفر عنه الأمور عند الحدود وفى تلك الأثناء هيا بنا نستمر فى أن نستقبل فى بيوتنا وفنادقنا أولئك الأسبان المتدفقين الذين هربوا من الاضطرابات الكبيرة فهذا هو كرم الضيافة التقليدى البرتغالى وإذا أعلن عنهم فى يوم ما أنهم أعداء لإسبانيا فإننا سنقوم بتسليمهم للسلطات التى ستتعامل معهم على النحو الذى يروق لها فالقانون قد وضع من أجل أن ينفذ ، وتوجد بين البرتغاليين رغبة قوية نحو الاستشهاد أو الموت فى سبيل المبدأ أو الرغبة الشديدة فى التضحية وإنكار الذات ومنذ أيام قليلة قال أحد زعمائنا : لا يمكن لأم أن ترشد ابنها لمصير اسمى وأنبل من مصير الاستشهاد دفاعا عن الوطن الأم . ابن الزنا . يمكن لنا تخيله وهو يزور عنابر الولادة ويتفحص بطون النساء الحوامل ويسألهن عن موعد الولادة

بالنسبة لهن ويخبرهن بأن الخنادق بحاجة إلى جنود . ولكن أية خنادق . لا يهم . لسوف تكون هناك خنادق على كل حال .وكما نرى من هذه النذائر بالنحس والشؤم فإن العالم لا يوحى بظهور أى قدر كبير من السعادة . ولقد تمت الآن تنحية ألكالا زامورا من رئاسة الجمهورية وتشير الشائعات إلى احتمال حدوث انقلاب عسكرى فى أسبانيا . فإذا حدث ذلك ستحدث أوقات عصيبة وحزينة بالنسبة للكثيرين من الناس . ولكن ليس هذا هو السبب الذى يجعل الناس يهاجرون . فالبرتغاليون لا يهمهم ما إذا كانوا يعيشون فى الوطن الأم فى العالم الخارجى فأهم شئ هو العثور على مكان يمكن لنا فيه أن نأكل وندخر بعض الأموال سواء أكان هذا المكان هو البرازيل التى هاجر إليها فى شهر مارس ٦٠٦ برتغالى أو الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية التى هاجر اليها ٥٩ برتغاليا أو الارچنتين التى هاجر اليها ما يزيد على ٦٥ برتغاليا ولكن بالنسبة لكل دول العالم الأخرى فقد هاجر اليها اثنان فقط من البرتغاليين . وفرنسا لا تصلح بالنسبة للأجلاف الريفيين البرتغاليين حيث يوجد بها نوع آخر من الحضارة .

والآن حل عيد الفصح . وتقوم الحكومة بتوزيع الصدقات والمواد الغذائية فى جميع أرجاء البلاد وبالتالى فهى توحد ما بين إحياء الذكرى الكاثوليكية الرومانية لمعاناة وانتصارات السيد المسيح وبين الاشباع المؤقت للبطون المحتجة . والفقراء الذين لا يكونون دائما متسمين بالنظام يقفون فى صفوف عند أبواب مجالس الأبرشيات وبيوت الصدقة بل وتوجد حاليا شائعات تشير إلى أنه فى نهاية مايو ستتم إقامة مأدبة فاخرة فى نادى جوكى لصالح أولئك الذين تشردوا نتيجة للفيضانات التى حدثت فى ريباتيجو وهم أولئك التعساء الذين ظلوا يحومون هنا وهناك بينما بنطلوناتهم مبللة على مدى شهور عديدة . واللجنة المنظمة لتلك المأدبة قد حرصت على أن يحضرها عدد من أبرز الشخصيات بالمجتمع الارستقراطى البرتغالى سواء من الناحية الأدبية أو الثروات المادية ولذلك فإن أهالى ريباتيجو

محظوظون للغاية بشرط أن يصبروا على الجوع حتى شهر مايو. وهناك اعلانات عن دواء مغذ يسمى بوفريل Bovril ويشير الإعلان إلى أنه يمكن القضاء على المجاعة فى ارجاء البلاد لو تم تزويد كل مواطن بزجاجة بوفريل فهو غذاء وطنى وطعام وطنى وعالمى وفيه الشفاء من جميع الأمراض. لو كنا قد تناولنا البوفريل منذ البداية لما كنا قد أصبحنا الآن جلدا على عظم .

ويقوم ريكاردو ريس بجمع المعلومات عن الاعلانات المماثلة ويكتب ملاحظاته عن هذه الأدوية المفيدة ، إنه ليس مثل الحكومة التى تصر على تدمير بصرها من خلال القراءة ما بين السطور مع اغفال الحقائق والتركيز على النظريات . فإذا كان الصباح مشرقا وجميلا فإنه يخرج لكى يقرأ الصحف وهو جالس تحت أشعة الشمس وتحت الحملقة الواقية لتمثال آداماستور . وعلى المقعد الخشبى الطويل الآخر يتحدث الرجلان العجوزان فى دردشة فى انتظار أن يفرغ ريكاردو ريس من قراءة جريدته لأنه عادة ما يتركها على المقعد الخشبى عقب الانتهاء من قراءتها. الرجلان العجوزان يجيئان إلى هنا فى كل يوم على أمل أن يظهر الجنتلمان فى المنتزه . الحياة منجم من المفاجآت لا ينضب ، ونحن نصل إلى مرحلة من العمر لا يكون لدينا فيها أى عمل نفعله سوى أن نرقب البواخر القادمة من ألتوسانتا كاتارينا ونكافأ على نحو فجائى بجريدة على مدى يومين متتاليين فى بعض الأحيان حيث يتوقف ذلك على الطقس .

وذات مرة شاهد ريكاردو ريس أحد الرجلين العجوزين وهو يهرول فى عصبية نحو المقعد الذى كان يجلس عليه ولذلك قام بالعمل الخير وقدم له الجريدة بنفسه قائلا له : ها هى الجريدة ، وهما قد تقبلا الجريدة منه بالطبع ولكنهما يشعران الآن بشئ من الاستياء بعد أن أصبحا يدينان له بالجميل . ويجلس ريكاردو ريس فى ارتياح على المقعد الخشبى وقد وضع ساقا على ساق مع الاستمتاع بالدفء الجميل للشمس الواقع على جفنى عينيه شبه المغلقتين ويتلقى الأخبار من جميع

أرجاء العالم . ويعرف أن موسوليني قد وعد بسرعة إبادة القوات العسكرية الأثيوبية وأن السلاح الروسى قد أرسل إلى اللاجئين البرتغاليين الموجودين فى إسبانيا علاوة على اعتمادات وأموال أخرى يراد بها إنشاء اتحاد الجمهوريات السوفيتية /الأيبيرية المستقلة وأن البرتغال هى هبة الله من خلال أجيال متلاحقة ومتعاقبة من القديسين والأبطال وأنه من المتوقع أن يشارك ٤٥٠٠ من العمال فى موكب تنظمه الحركة التعاونية بشمال البرتغال من بينهم ٢٠٠٠ من العمال الذين يعملون فى شحن وتفريغ السفن + ١٦٥٠ من صناع البراميل + ٢٠٠ من العمال الذين يملأون الزجاجات بالمواد + ٤٠٠ من عمال المناجم القادمين من سو بيدرو دا كوفا + ٤٠٠ من العمال القادمين من مصانع المعلبات بماتوسينيوس + ٥٠٠ من الأعضاء المساعدين المنتمين لمنظمات الاتحاد فى لشبونة. ويقرأ أيضا أن القارب البخارى الفاخر الذى يسمى ألفونصو دى ألبوقيرق سيتجه إلى لايكوس من أجل حضور احتفالات العمال التى تقام هناك . وأن الوقت سيتم تقديمه بمقدار ساعة وأنه يوجد هناك اضراب عام فى مدريد وأن جريدة أوه كريم معروضة للبيع اليوم وأن أعضاء من الحكومة أشرفوا على توزيع الطعام على ٣٢٠٠ من الفقراء فى أويورتو وأن الموسيقار أوتورينو مؤلف سيمفونية نافورات روما قد انتقل إلى رحمة الله ، ومن حسن الحظ أن العالم لديه شئ ما من أجل كل شخص ، ولا يستمتع ريكاردو ريس بكل شئ يقرؤه ولكنه لا يستطيع اختيار الأنباء وينبغى عليه تقبلها مهما كانت . وموقفه يختلف تماما عن موقف رجل امريكى عجوز يتلقى فى صباح كل يوم نسخة من جريدة النيويورك تايمز التى هى جريدته المفضلة. وهى طبعة خاصة تصدر من أجله حيث تراعى الصحة الضعيفة لهذا القارئ المتخاذل الذهن الذى وصل عمره إلى ٩٧ عاما حيث تحرص هذه النسخة الخاصة على عدم تقديم أى شئ سوى الأخبار السارة والمقالات المليئة بالتفاؤل وذلك لكى لا ينزعج هذا الرجل العجوز من الكوارث التى تسود العالم

والتي تتزايد حدتها يوما بعد يوم . وهذه النسخة التي تطبع من أجله توضح وتبرهن على أن الأزمة العالمية الاقتصادية بصدد الزوال السريع وأنه لم تعد توجد هناك بطالة وأن النظام الشيوعي الموجود في روسيا بدأ يميل إلى الاتجاهات الامريكية وأن البلاشفة قد ارغموا على الاعتراف بفضائل أسلوب الحياة الأمريكية. وكانت هذه الأنباء الجميلة تقرأ على مسامع چون روكفلر أثناء تناوله طعام الإفطار وحتى بعد أن طرد سكرتيره فإنه يمكن له من خلال بصره الضعيف أن يقرأ كل هذه الأنباء السارة . فأخيرا وبعد طول انتظار يسود السلام ربوع الكرة الأرضية ولا تشن آية حرب إلا إذا كانت نافعة والربحية أصبحت مستقرة ومعدلات الفائدة أصبحت مضمونة . إنه لم يعد لديه وقت كثير متبق في حياته ولكن عندما تحين ساعة وفاته فإنه سيموت في سعادة . وبعد أن انبهر ريكاردو ريس من هذا الخبر الذي قرأه توا عن روكفلر وضع الجريدة في حجره وراح يفكر: كيف سمح روكفلر وهو رجل غني وصاحب نفوذ بأن يخدع على هذا النحو، ويتظاهر الرجلان العجوزان بالانهماك في الدردشة ولكنهما ينظران بزاوية من العين في انتظار حصولهما على نسختهما من النيويورك تايمز وينهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه ويشير للرجلين العجوزين اللذين يقولان : أوه شكرا جزيلا يا سيدي . ويتقدم الرجل الممتلئ مبتسما ويرفع الجريدة المطوية كما لو كانت موضوعة على صينية من الفضة الجريدة في حالة جيدة وكأنها جديدة تماما . هذه ميزة أن يكون للمرء يدان ماهرتان لطبيب ممارس . يدان في نعومة أيدي السيدات . ثم يعود إلى مقعده ويستقر مرة أخرى إلى جوار الرجل النحيل العجوز ولا تبدأ قراءتهما من الصفحة الأولى . إذ ينبغي علينا أن نتفحص أولا لنرى ما إذا كانت هناك تقارير تتعلق بالتمردات وتفجرات العنف والكوارث وحالات الوفيات والجرائم وخاصة الجريمة التي ترتعد لها الأبدان والتي تتعلق بالوفاة الغامضة للويس أوسيدا Luis Uceda والتي لم تتم معرفة معلومات كافية عنها .

وعندما يعود ريكاردو ريس إلى شقته يكتشف وجود ظرف على ممسحة

الأرجل . الظرف له لون بنفسجي فاتح ولا يوجد عليه اسم المرسل ، وبصعوبة قرأ خاتم البريد الملطخ المكتوبة عليه كلمة : كوامبرا . وأمسك الخطاب المغلق في يده ووضعه على الكومودينو فوق كتاب «إله المتاهة» كان يفضل أن يتركه هنالك لبعض الوقت ربما لأنه قد عاد من الخارج توا وهو يشعر بالارهاق عقب تمضية ساعات من الاستماع إلى خشخشة الرئات المريضة أو المصابة بالسل للبرتغاليين. ثم جلس على حافة السرير وشرع في القراءة . صديقي العزيز : لقد تلقيت خطاباتك بسرور عظيم وخاصة الخطاب الثاني الذي قلت فيه إنك بدأت في استقبال المرضى والكشف عليهم ، كما أنني استمتعت بخطابك الأول أيضا ولكنني لم أفهم تماما كل الكلام الذي كتبته أو ربما أنا خائفة من الفهم . صدقني إني لا أرغب في أن أبدو غير ممتنة . ولكن لا يسعني إلا أن أسأل نفسي عما يكون هذا وما هو المستقبل الموجود هناك وأنا لا أعني المستقبل بالنسبة لنا ولكن المستقبل بالنسبة لي ، بل إنني لا أعرف ما تريده أنت أو ما أريده أنا . لو أن حياة المرء كلها يمكن أن تتكون من لحظات معينة ولا حتى هذا لم يكن لي به خبرة كبيرة ولكن الآن كانت لدي هذه الخبرة الواحدة وهي خبرة لحظة وكيف أنني أرغب لو كانت هي حياتي ولكن حياتي هي ذراعي اليسرى التي هي ميتة والتي ستظل ميتة . وحياتي هي أيضا بمثابة السنوات التي تفصل بيننا حيث ولد واحد منا في وقت متأخر للغاية أو ولد الآخر في وقت مبكر للغاية . ما كنت بحاجة لأن تتكبد كل تلك المشاق وتقطع كل تلك الكيلومترات قادما من البرازيل . والمسافة لا تهم ولكن الزمن هو الذي يفرق بيننا ، إلا أنني لا أريد أن أفقد صداقتك التي هي في حد ذاتها بمثابة كنز غال وعلاوة على ذلك لا توجد جدوى من وراء أن أطلب المزيد ، ولسوف أجيء في يوم من تلك الأيام إلى لشبونة كالمعتاد وعندئذ سأقوم بزيارتك في العيادة الخاصة بك حيث يمكن لنا أن نتجاذب أطراف الحديث وأعدك بألا أضيع الكثير

من وقتك ومن المحتمل أيضا ألا أجئ لأن والدى أصبح مثبط الهمة ويعترف بأنه ربما لا يوجد أى علاج لحالتى وأنا أعتقد أنه يقول الحقيقة علي كل حال وهو لم يعد بحاجة إلى هذه الحجة لكى يزور لشبونة كما يحلو له وكان آخر اقتراح قاله لى هو أن نذهب للحج إلى سانت فاطيما فى شهر مايو وهو الذى لديه هذا الإيمان ولست أنا ولكن ربما ايمانه هو يكون كافيا من وجهة النظر الالهية. وانتهى الخطاب بكلمات الصداقة : والى أن نلتقى يا صديقى العزيز سأتصل بك تليفونيا عقب وصولى مباشرة . ثم أغلق ريكاردو ريس عينيه وقال لنفسه فى تفكير: إننى أرغب فى النوم ثم قال لنفسه بصوت منخفض: عليك بالنوم كما لو كان يقوم بتنويم نفسه مغناطيسيا ... عليك بالنوم الآن عليك بالنوم الآن إلا انه كان لايزال ممسكا بالخطاب بأصابع مهتزة مترنحة. ويسقط الخطاب من يده ثم يستعيده ويضعه فى ظرفه ويخفيه بين اثنين من كتبه . ولكن ينبغى عليه ألا ينسى العثور على مكان أكثر أمنا لاخفاء فيه ذلك الخطاب لان ليديا ستجىء فى يوم من تلك الايام.من اجل تنظيف الشقة ثم تكتشف وجود هذا الخطاب. ثم ماذا بعدئذ . انها ليست لديها اية حقوق بالطبع فى هذا الشأن فهى اذا كانت تجىء الى هنا فلانها ترغب فى ذلك وليس بسبب اننى اطلب منها ذلك ولكن دعونا نأمل فى ألا تتوقف عن المجىء . فما الذى يريده ريكاردو ريس اكثر من ذلك.. ذلك الرجل العاق .. امرأة تضطجع معه فى السرير بارادتها الحرة مما لا يجعله بحاجة لان يطوف خلسة من اجل اصطياد امرأة والدخول فى مخاطر الاصابة بأمراض تناسلية . بعض الرجال لهم حظ سعيد للغاية ولكن ريكاردو ريس مازال غير قانع ومستاء لانه لم يتلق خطاب حب وغرام من مارسيندا . كل الخطابات الغرامية تعتبر سخيفة . ومن السخف كتابة خطاب غرام بينما الموت يصعد على السلالم بالفعل. ويقف ريكاردو ريس امام المرآة الكاملة الطول بالحجرة الصغيرة ويقول لنفسه: اننى لم اتلق ابدا اى خطاب غرام لا يتناول سوى الحب فقط بل ولم أكتب فى

حياتى خطاب غرام موجها إلى احد فهذ الكيانات التى لا حصر لها الموجودة فى داخلى ترقبنى لدى شروعى فى الكتابة ر عندئذ تتخاذل يدى وتصبح هامدة وفى نهاية الأمر أتوقف عن الكتابة . وأخذ حقيبته السوداء التى توجد بها الادوات الطبية واتجه الى المكتب وعلى مدى نصف الساعة التالية راح يكتب التاريخ المرضى للعديد من المرضى الجدد ثم ذهب لكى يغسل يديه . وراح ينظر فى تمعن لنفسه فى المرآة ثم جفف يديه فى بطء كما لو كان قد انتهى تواً من الكشف على مريض وتفحص عينات البلغم . وقال لنفسه فى تفكير: اننى يبدو علىّ الارهاق . ثم رجع الى غرفة النوم . وفتح الشيش الخشبى للنافذة فتحة غير كاملة . لقد قالت ليديا انها ستحضر ستائر النافذة مع زيارتها التالية . انه فى اشد الحاجة لهذه الستائر لان غرفة النوم مكشوفة للغاية .

كان الظلام قد بدأ يطبق على المكان . وبعد دقائق قليلة خرج ريكاردو ريس لكى يتناول طعام العشاء.

ذات يوم ربما يسأل شخص فضولى عن الكيفية التى يوجه بها ريكاردو ريس نفسه اثناء جلوسه الى مائدة الطعام وما إذا كان يحدث صوتا اثناء تناوله الحساء وما إذا كان ينقل الشوكة والسكين من يد لاخرى اثناء استخدامهما وما اذا كان يمسح فمه قبل ان يشرب او ما اذا كان يترك تلطخات على كوبه عقب الشرب وما إذا كان يستخدم كثيرا عيدان الخلة لتنظيف أسنانه وما اذا كان يفك أزرار صديريته عقب الانتهاء من تناول الطعام وما إذا كان يراجع على فاتورة الحساب بنداً بنداً، ربما سيقول الجرسونات البرتغاليون / الغاليون انهم لم ينتبهوا ابدا إلى مثل هذه التفاصيل . وكما تعرف يا سيدى فإن الجرسون منا يقابل جميع انواع الناس وعقب مرور بعض الوقت لا نعد نلحظ اى شىء . فالرجل يأكل على النحو الذى تعلمه ولكن الانطباع الذى تركه الدكتور هو انطباع عن شخص مهذب فهو يدخل الى صالة الطعام ويلقى بتحية ما بعد الظهر أو تحية المساء على كل

شخص ثم يطلب على الفور نوع الطعام الذي يريده وبعدئذ يبدو الأمر وكأنه غير موجود على الاطلاق . هل هو يأكل دائما بمفرده . نعم دائما يأكل بمفرده ولكنه لديه بالفعل عادة غريبة . وما هي تلك العادة. في كل مرة كنا نبدأ فيها في ازالة الادوات من الجانب المقابل بالمائدة كان دائما ما يطلب منا ان نتركها في مكانها ويشير الى ان المائدة المعدة لشخصين تبدو اكثر جاذبية . وفي احدى المرات عندما كنت اقوم بالتخديم عليه حدث شيء غريب للغاية . ما هو ذلك الشيء. عندما كنت اصب الخمور ملأت الكأسين بطريق الخطأ : كأسه وكأس الضيف غير الموجود هل تفهم ما أعني . نعم افهم وماذا حدث بعد ذلك . قال ان ملء الكأسين يعتبر عملا ممتازا ومنذ ذلك الوقت فصاعدا كان يصر دائما على ضرورة ملء الكأس الاخرى وفي نهاية الوجبة كان يشربها في جرعة واحدة مع إغلاق عينيه اثناء الشرب. يا له من شيء عجيب . كما تعرف ياسيدى فإننا نحن معشر الجرسونات نشاهد بعض المناظر العجيبة ، هل هو فعل ذلك في جميع المطاعم الاخرى التي تردد عليها . آه ذلك لا استطيع الاجابة عليه فالامر يتطلب منك ان تسـأل في المطاعم الاخرى . هل يمكن لك ان تتذكر ما اذا كان قد تقابل في اى وقت من الاوقات مع صديق له او مع احد المعارف ولو لم يجلسا الى نفس المنضدة . على الاطلاق فهو دائما ما كان يعطي الانطباع بانه شخص قد عاد لتوه من الخارج هل تريد ان تسأل شخصا آخر ياسيدى حيث ينبغي عليّ ان اذهب الآن لكى اخدّم على الزبون الموجود هناك في الركن . لا اريد توجيه اية اسئلة اخرى واشكرك شكرا جزيلا على هذه المعلومات . ثم انتهى ريكاردو ريس من تناول قهوته التي سمح لها بأن تبرد وطلب موافاته بالفاتورة . واثناء انتظاره رفع الكأس الثانية التي كانت ممتلئة بين يديه الاثنتين كما لو كان يشرب نخب شخص ما جالس في مواجهته على نفس المنضدة وبعدئذ تناول الخمور وهو يغلق عينيه في بطء وبدون ان يراجع على فاتورة الحساب سدد المبلغ مع دفع بقشيش ملائم وتمنى للجميع مساء طيبا وغادر المكان.

هل شاهدت ذلك ياسيدى تلك هى الطريقة التى يتصرف بها. ويتوقف ريكاردو ريس عند حافة رصيف الشارع ويبدو عليه التردد . ويقترب ترام وعلى اللافتة المضيئة التى تبين الجهة التى ينطلق اليها كتبت كلمة استريلا Estrela ويتصادف ان تكون المحطة في نفس تلك البقعة التى يقف فيها ريكاردو ريس . فيشاهد سائق الترام الجنتلمان الواقف عند حافة الرصيف . وصحيح أن الجنتلمان لم تبدر عنه دلائل تشير الى رغبته فى توقف الترام ولكن السائق صاحب الخبرة يستطيع ان يدرك ان الجنتلمان قد ظل منتظرا . فيدخل ريكاردو ريس الى الترام . فى مثل هذه الساعة المتأخرة يكون الترام شاغرا ويقوم الكمسارى بدق الجرس : بينج بينج . الرحلة تستغرق بعض الوقت ويتجه الترام الى افينيدا دا ليباردادى وعلى طول شارع اليكساندر هيركولانو ومنه عبر البراكا دو براسيل ومنها الى شارع اموريراس. وما ان يصل الى المكان العلوى فانه يتابع الانطلاق الى شارع سيلفا كارفالهو وعبر كامبو دى أوريق ومنه الى شارع فريرا بورجيس وهناك عند التقاطع مع شارع دومينجوس سيكويرا ينزل ريكاردو ريس من الترام . ونظرا لان الوقت قد تجاوز الساعة العاشرة ليلا فانه لا يوجد هناك اناس كثيرون كما لا تشاهد سوى انوار قليلة فى الواجهات الطويلة للمباني. وهذا امر متوقع لان السكان يميلون لقضاء معظم اوقاتهم فى الجزء الخلفى من المبنى مع وجود النساء فى المطبخ لغسل آخر اطباقهن بينما الاطفال يكونون قد ذهبوا للنوم فى السرير بالفعل فى حين يتثاءب الرجال امام جرائدهم او يحاولون - على الرغم من الاستقبال الردىء الناجم عن سوء الاحوال الجوية - فتح الراديو على محطة سيرفى Serville لسبب ما غير محدد ربما لانهم لم يسبق لهم ان اتيحت لهم الفرصة للذهاب هناك. ويسير ريكاردو ريس فى شارع سارائيفا دى كارفاليو فى اتجاه المقابر. ولدى اقترابه من المقابر يتناقص عدد الناس الذين يتقابل معهم تدريجيا الى أن اصبح الطريق مهجورا بالفعل. ويختفى فى الامتداد

المظلم ما بين عمودى انارة ثم يبزغ مرة اخرى الى الضوء الكهرمانى الاصفر الضارب الى الحمرة. والى الامام وتحت الظلال يكون بمقدوره سماع صوت مفاتيح الحارس الليلى المحلى الذى يبدأ فى جولاته . ويعبر ريكاردو ريس الميدان متجها نحو البوابة الرئيسية التي تكون مغلقة. وينظر الحارس اليه من على مسافة ثم يستأنف السير حيث يعتقد ان شخصا ما يرغب فى تخفيف أحزانه من خلال البكاء في الليل ولربما يكون قد فقد زوجة او طفلا يا له من رجل مسكين ولربما يكون قد فقد امه لان الامهات دائما ما ينتقلن الى رحمة الله .. امرأة ضئيلة ضعيفة عجوز على نحو متزايد اغلقت عينيها للمرة الاخيرة بدون ان تشاهد ابنها وتقول لنفسها اثناء سكرات الموت : ترى الى اين ذهب بحق الجحيم ثم تلفظ انفاسها الاخيرة وتلك هى الطريقة التى يموت بها الناس . وربما لان الحارس الليلى هو المسئول عن هدوء هذه الشوارع فان مثل هذه الأفكار الرقيقة تخطر على باله . انه شخصيا ليست لديه ذكريات عن امه الخاصة به . كيف ان هذا كثيرا ما يحدث: وهو اننا نشعر بالاسف من اجل الآخرين ولا نشعر ابدا بالاسف من اجل انفسنا . ويذهب ريكاردو ريس الى البوابة ذات القضبان الحديدية ويلمس القضبان بيديه ، ومن الداخل وعلى نحو يكاد يكون غير مسموع يترامى همس . فالنسيم يدور حول أغصان اشجار السرو الصنوبرية المسكينة الخالية من الاوراق . ولكن الحواس تخدع . فالصوت الذى نسمعه ليس سوى شخير وغطيط اولئك الناس النائمين فى تلك المبانى الطويلة وفى تلك المبانى المنخفضة وراء الحوائط توجد توترات من الموسيقى وطنين من الكلمات والمرأة التى تقول فى تمتمة: اشعر بالارهاق الشديد اننى ذاهبة للاستلقاء فى فراشى. وذلك هو ما يقوله ريكاردو ريس لنفسه: اشـــعر بالارهاق الشديد . ويمد يده من خلال القضبان الحديدية ولكن لا تبزغ يد اخرى لكى تصافح يده . هؤلاء الناس الذين تحولوا الى جثث لا يستطيعون عمل اى شىء ولا حتى مجرد رفع ذراع.

(١٣)

وظهر فرناندو بسوا عقب مرور ليلتين . كان ريكاردو ريس بصدد العودة عقب تناول طعام العشاء المكون من حساء وسمك وخبز وفاكهة وقهوة. يوجد كأسان على المنضدة . وهو كما نعرف ينهى كل وجبة بتناول كأس من الخمور. ومع ذلك فلا يوجد جرسون واحد يمكن ان يقول عن هذا الزبون: انه كان معتادا على تناول كميات كبيرة من الخمور حيث كان ينهض تاركا المنضدة وهو يكاد يسقط عليها . ولكن فى كل مرة ظهر فيها فرناندو بسوا كان ريكاردو ريس صافى الذهن وحاد الادراك دائما. وهو صافي الذهن الآن بينما يرقب الشاعر الذى ظهره مدار نحوه والذى يجلس على المقعد الخشبى الطويل القريب للغاية من تمثال آداماستور. تلك الرقبة الطويلة النحيلة واضحة للغاية وكذلك الشعر الخفيف المتناثر الموجود أعلى الرأس . وعلاوة على ذلك لا يوجد اناس كثيرون يتجولون بدون قبعة أو معطف مطر. الطقس قد اصبح بكل تأكيد اكثر اعتدالاً ولكن الجو يتحول الى البرودة الشديدة ليلاً. وجلس ريكاردو ريس بجوار فرناندو بسوا وفى الظلام تأكد امتقاع بشرة الشاعر وبياض قميصه ولكن الباقى كان قاتما بل وكان من الصعب تمييز حلته السوداء عن الظلال الملقاة من جانب التمثال . ولا يوجد أى شخص آخر فى المنتزه . وهناك عند الشاطىء الآخر للنهر يمكن مشاهدة صف من الأنوار المرفرفة على صفحة الماء ولكنها تشبه النجوم حيث تتلألأ وترتعش كما لو كانت على وشك أن تنطفىء ولكنها تستمر فى عناد . وقال ريس : لقد اعتقدت أنك لن ترجع أبداً . فقال بسوا : لقد جئت منذ أيام قليلة لزيارتك ولكن عند الباب أدركت أنك مشغول مع ليديا ولذلك غادرت المكان . وأضاف : إننى لم أكن مغرما أبداً بالتابلوهات واللوحات الحية tableau vivantes . وكان بمقدور المرء أن يفهم معنى ابتسامته الناتئة. وكانت يداه متشابكتين فوق ركبته واستطرد بسوا :

وماذا عن الفتاة الجذابة المهذبة للغاية والتي لها ذراع مشلول وهل سبق لك أن ذكرت لي اسمها . فقال ريس : إنها تسمى مارسيندا . فقال بسوا : إنه اسم جميل قل لى : هل شاهدتها مؤخرا . فقال ريس : لقد شاهدتها عندما جاءت إلى لشبونة فى آخر مرة أى منذ حوالى شهر . فقال بسوا : هل أنت فى حالة حب وغرام معها . فقال ريس : لست أدرى . فقال بسوا : وماذا عن ليديا هل أنت تحبها . فقال ريس : ذلك وضع مختلف . فقال بسوا : ولكن هل أنت تحبها أم لا . فقال ريس : إنها لا تحرمنى من جسدها . فقال بسوا : وما الذى نستنتجه من ذلك فقال ريس : لا شيء . ولكن أرجوك أن تتوقف عن توجيه أسئلة إلىّ تتعلق بشئونى الخاصة فأنا مهتم للغاية بأن أعرف السبب فى عدم مجيئك إلى منذ فترة. فقال بسوا : لأننى بكل صراحة كنت متضايقا . فقال ريس : متضايقا منى . فقال بسوا : نعم ليس بسبب أنك على النحو الذى أنت عليه ولكن بسبب أنك تقف على ذلك الجانب . فقال ريس : أى جانب. فقال بسوا : جانب الأحياء . انه من الصعب على الشخص الذى مازال على قيد الحياة أن يفهم الموتى . فقال ريس : وأنا أظن أنه من الصعب أيضا على الرجل الميت أن يفهم الأحياء . فقال بسوا : الرجل الميت لديه ميزة أنه كان ذات يوم على قيد الحياة ولذلك فإن الأشياء المتعلقة بالحياة الدنيا تكون مألوفة له مثلما أن الأشياء المتعلقة بالعالم الآخر تكون مألوفة له أيضا فى حين أن الأحياء يكونون عاجزين عن تعلم الحقيقة الجوهرية الوحيدة والاستفادة منها . فقال ريس : وما هى تلك الحقيقة الجوهرية . فقال بسوا : هى أن المرء ينبغى عليه أن يموت . فقال ريس : أولئك الذين هم على قيد الحياة يدركون أننا سنموت . فقال بسوا : أنت لا تعرف هذه الحقيقة ولا أحد يعرفها تماما مثلما أننى كنت لا أعرف هذه الحقيقة عندما كنت على قيد الحياة فالذى نعرفه بكل تأكيد وبدون أدنى شك هو أن آخرين يموتون . فقال ريس : هذه فلسفة تافهة إلى حد ما . فقال بسوا : بالطبع إنها تافهة . فأنت ليست لديك

فكرة عن كيف أن كل شيء يصبح تافها عندما يشاهد من هذا الجانب للموت : فقال ريس : ولكنني أتواجد عند جانب الحياة . فقال بسوا : اذن ينبغي عليك أن تعرف الاشياء الهامة الموجودة على ذلك الجانب . فقال ريس : أن تكون على قيد الحياة يعتبر أمرا هاما . فقال بسوا : يا عزيزى ريس . عليك باختيار كلماتك فى دقة . فليديا الخاصة بك على قيد الحياة ومارسيندا الخاصة بك على قيد الحياة ومع ذلك فأنت لا تعرف أى شيء عنهما ولن تعرف حتى لو حاولتا إخبارك لأن الحائط الذى يفصل الأحياء عن بعضهم البعض ليس أقل إبهاما واعتاما من الحائط الذى يفصل الأحياء عن الموتى . وكل شخص يؤمن بهذا فإن الموت بالنسبة له يصبح عزاء برغم كل شيء .

ونظر ريكاردو ريس عبر النهر . لقد انطفأت بعض الأنوار بينما أصبحت أنوار أخرى مرئية بصعوبة بل وصارت أكثر اعتاما لدى تجمع شبورة ضبابية فوق الماء. وقال ريس : لقد قلت إن السبب فى عدم مجيئك هو أنك كنت متضايقا. فقال بسوا: هذا صحيح . فقال ريس : متضايقا منى . فقال بسوا : لست متضايقا كثيرا منك . فالذى ضايقنى وجعلنى أشعر بالاعياء هو كل هذه الحركة جيئة وذهابا وكل هذا الصراع العنيف ما بين الذاكرة التى تجذب والنسيان الذى يدفع . فهذا صراع عديم الجدوى لأن النسيان والإهمال يكسب دائما فى نهاية الأمر . فقال ريس : أنا لم أنسك . فقال بسوا : يا عزيزى ريس العالم ينسى كما سبق أن قلت لك فالعالم ينسى كل شيء . فقال ريس : هل تعتقد أنك قد نسيت . فقال بسوا : العالم مهمل وكثير النسيان للغاية حتى أنه يفشل فى ملاحظه عدم وجود الشيء الذى قد نسى . فقال ريس : يوجد قدر كبير من الغرور فى هذه الكلمات . فقال بسوا : بالطبع لا يوجد شاعر أكثر غرورا من شاعر صغير . فقال ريس : فى هذه الحالة فأنا بالتأكيد أكثر غروراً منك . فقال بسوا : اسمح لى أن أقول لك وبدون أى رغبة فى تملقك إنك لست شاعرا رديئاً . فقال ريس : ولكن شعرى ليس

فى مثل جودة شعرك . فقال بسوا : أعتقد أنك على نفس القدر من الجودة . وقام ريكاردو ريس بجذب معطفه حوله وقال : الجو يزداد برودة وإذا كنت ترغب فى المجىء معى إلى منزلى فإنه يمكن لنا عندئذ أن نتناقش لفترة أطول . فقال بسوا: ألا تتوقع مجىء أحد لزيارتك اليوم . فقال ريس : لا وأنا أرحب بأن تبقى طوال الليل مثلما فعلت فى المرة الأخيرة . فقال بسوا : هل تشعر بالوحدة فى هذه الليلة. فقال ريس : ليس لدرجة أن أكون متلهفا للغاية لأن يرافقنى أحد ولكن لأنه قد خطر على ذهنى أن الرجل الميت قد يرغب من وقت لآخر فى أن يجلس على كرسى وتحت سقف فى راحة وارتياح . فقال بسوا : لا أتذكر أنك فكه ومرح للغاية يا ريكاردو . فقال ريكاردو ريس : إننى لا أحاول أن أكون مرحاً . ثم نهض واقفا على قدميه وتساءل : حسناً هل ستجىء معى . فسار فرناندو بسوا وراءه ثم لحق به عند أول عمود للإنارة . وعند المدخل تقابلا بالمصادفة مع رجل قد اتجه بأنفه لأعلى فى الهواء ولكن عندما اقترب ريكاردو ريس أكثر منه هجمت على أنفه رائحة البصل . فأدرك على الفور أنه مخبر الشرطة . توجد هناك روائح تستحق كل منها مائة كلمة سواء أكانت روائح ذكية أو رديئة . فالروائح تكشف عن الأشياء شأنها فى ذلك شأن الصورة الكاملة الطول . فما الذى يجعل هذا الرجل يجىء ويطوف خلسة فى هذا المكان . وربما لأن ريكاردو ريس لم يرغب فى أن يلحق بنفسه الخزى والعار أثناء وجود فرناندو بسوا فإنه أخذ زمام المبادرة وتكلم أولاً : لماذا تجىء إلى هنا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل يا سنيور فيكتور . فبذل مجهودا لكى يقدم اجابة معقولة حيث لم يكن لديه تبرير عن هذه المرحلة المبكرة من المراقبة إذ قال : إننى قد جئت إلى هنا بطريق المصادفة يا عزيزى الدكتور من قبيل المصادفات البحتة . حيث كنت أزور امرأة قريبة لى وهى امرأة مسكينة تسكن فى شارع كوندى بارو ومصابة بمرض السل . ثم أضاف فيكتور فى جرأة : اذن فأنت يا دكتور لم تعد مقيما بالفندق . فقال ريس إننى أسكن هنا

في هذه العمارة بالدور الثالث . ثم استأذن فيكتور مطلقا هبة من أنفاس رديئة للغاية وهو يقول : إلى اللقاء وأتمنى لك حظا سعيدا يا دكتور وإذا كنت بحاجة لأى شيء عليك بالمجيء للتحدث مع فيكتور ولقد قال رئيس النيابة منذ أيام قليلة إنه لو كان كل شخص في نفس أمانة وأخلاق ريكاردو ريس لأصبحت مهنتنا بمثابة متعة كبيرة .ولسوف يبتهج كثيرا عندما أقول له إنني تقابلت معك بطريق المصادفة . فقال ريس : طابت ليلتك يا سنيو فيكتور . وبينما كان ريكاردو ريس يعبر الشارع بينما فرناندو بسوا يسير وراءه خيل لمخبر الشرطة أنه شاهد ظلين على الأرض . هذه هى تأثيرات الضوء المنعكس وهى مجرد وهم فالعينان بعد مرحلة معينة من العمر تصبحان غير قادرتين على التمييز ما بين المرئى وغير المرئى . واستمر فيكتور في التسكع على رصيف الشارع منتظرا لحين اشعال الضوء في الدور الثالث فهذا مجرد روتين من أجل التأكد تماما من أن ريكاردو ريس كان يعيش هناك . لم يكن الأمر يتطلب الكثير من الكلام والاستفسارات أو المشي هنا وهناك . فبمساعدة من جانب سلفادور تتبع خطى الشيالين وبمساعدة الشيالين حدد موقع المبنى . الناس على حق عندما يقولون إن أى شخص له لسان في رأسه باستطاعته أن يسافر إلى روما بينما المسافة من المدينة الخالدة إلى ألتو سانتا كاتارينا ليست كبيرة .

وفي ارتياح جلس فرناندو بسوا على الأريكة بغرفة المكتبة وتساءل وهو يضع ساقا على ساق : من كان صديقك هذا . فقال ريس : إنه ليس صديقا لى . فقال بسوا : شكرا لله . لأن رائحته الكريهة تصل إلى عنان السماء فأنا قد ظللت مرتديا نفس البدلة ونفس القميص على مدى الشهور الخمسة الأخيرة بل ولم أغير ملابسى الداخلية ومع ذلك فرائحتى ليست على ذلك النحو الشنيع ولكن إذا لم يكن هو صديقك فمن يكون هو إذن ومن يكون رئيس النيابة الذى يمتدح أخلاقك. فقال ريس : كلاهما عضوان في مركز الشرطة وقد تم استدعائى منذ فترة

قصيرة لاستجوابى . فقال بسوا : لقد كنت أعتقد أنك إنسان مطيع للقوانين وغير قادر على ازعاج السلطات . فقال ريس : وأنا بالفعل رجل مطيع للقوانين. فقال بسوا : من المؤكد أنك فعلت شيئا ما مما أدى إلى استدعائك واستجوابك . فقال ريس : لقد وصلت قادما من البرازيل وذلك هو كل ما فى الأمر . فقال بسوا : أراهن على أن ليديا كانت عذراء ثم ذهبت وهى ملتاعة ومنزوعة الشرف لكى تقدم شكوى رسمية. فقال ريس : حتى لو كانت ليديا عذراء وأنا سلبت شرفها فلن تكون ادارة الدفاع وأمن الدولة هى جهة الاختصاص التى تتلقى منها الشكوى . فقال بسوا : أتلك هى الادارة التى قامت بأستدعائك . فقال ريس : نعم فقال بسوا : وهنا يخطر على بالى أن ذلك الذى حدث كان بمثابة اساءة موجهة ضد الأخلاق العامة . فقال ريس : لا توجد هناك أمور خاطئة تتعلق بأخلاقى . ومن المؤكد أن أخلاقى ليست أسوأ من أخلاق الناس الذين أشاهدهم فيما حولى . فقال بسوا : أنت لم تحدثنى أبدا عن هذه المناوشة التى تمت بينك وبين رجال الشرطة . فقال ريس : لم تتح لى الفرصة لأنك توقفت عن المجىء لزيارتى . فقال بسوا : هل ألحقوا بك أى أذى أو ضرر وهل ألقوا القبض عليك ووجهوا إليك الاتهامات . فقال ريس : لا . لم يوجهوا إلى سوى بعض الأسئلة القليلة مثل : من هم أصدقائى بالبرازيل ولماذا رجعت من البرازيل إلى البرتغال وما هى الاتصالات التى قمت بها بالبرتغال منذ عودتى إليها . فقال بسوا : يا لها من نكتة إذا كنت قد حدثتهم عنى . فقال ريس : يمكن لى أن أتخيل التعبيرات التى تظهر على وجوههم إذا كنت قد قلت لهم إننى أتقابل من وقت لآخر مع شبح الشاعر المشهور فرناندو بسوا . فقال بسوا : معذرة يا عزيزى ريس ولكننى لست شبحاً . فقال ريس : فمن تكون إذن . فقال بسوا : لا أستطيع أن أخبرك فالشبح يجىء من العالم الآخر ولكنى بكل بساطة أجىء من الجبانة الموجودة فى برازيريس فقال ريس : عندئذ فهل فرناندوا بسوا الميت هو نفس فرناندو بسوا الذى كان على قيد

الحياة ذات يوم . فقال بسوا : بمعنى ما واحد نعم . فقال ريس : على كل حال كان سيصبح من الصعب للغاية توضيح هذه الاجتماعات التى تتم بيننا لرجال الشرطة . قال بسوا : أكنت تعرف أننى قد كتبت ذات مرة بعض أبيات من الشعر من أجل مهاجمة سالازار . فقال ريس : وهل هو أدرك أنه الهدف الذى ينصب الهجاء اللاذع عليه . فقال بسوا : لا أعتقد أنه أدرك ذلك . فقال ريس : قل لى يا فرناندو من يكون ذلك السالازار الذى ألقاه القدر علينا . فقال بسوا : إنه ديكتاتور البرتغال وحاميها ومرشدها الأبوى وأستاذها ومعلمها والعاهل الدمث الأخلاق وهو إنسان متوازن فى سيميترية . فقال ريس : يا عزيزى فرناندو إن حب السيميترية والتوازن ينبع من رغبة حقيقية لدينا فى التوازن لأن التوازن يحمينا من السقوط ولكن من الملاحظ أن الصحافة الأجنبية تمتدح سالازار كثيرا. فقال بسوا: تلك المقالات تكون موجهة ومدفوعة الأجر وذلك هو ما سمعته من الناس. فقال ريس : ولكن الصحافة المحلية تتغنى بسالازار ويكفى أن تقرأ فى جريدة محلية واحدة لكى تعرف منها أن البرتغال هى أكثر الدول ازدهارا وقناعة على سطح الكرة الأرضية وأن أية دولة أخرى إذا حذت حذونا فسوف تزدهر أيضا. فقال بسوا : تلك هى الطريقة التى تهب بها الرياح . فقال ريس : أرى أنك ليست لديك ثقة كبيرة بالصحف والجرائد . فقال بسوا : لقد اعتدت أن أقرأها . فقال ريس : أنت تقول ذلك بنغمة توحى بأنك تحاول الاذعان وترويض نفسك . فقال بسوا : بنغمة توحى بالارهاق : وأنت تعرف ماذا أعنى. فالانسان بعد أن يبذل مجهودا جسمانيا كبيرا تصبح عضلاته مرتخية وضعيفة وعندئذ يصبح المرء راغبا فى اغلاق عينيه والخلود إلى النوم . فقال ريس : بوادر النوم ظاهرة على وجهك . فقال ريس : مازلت أشعر بالارهاق الذى عشت تجربته فى الحياة . فقال ريس: الموت شيء عجيب. فقال بسوا : بل الموت أكثر غرابة عندما تشاهده من الشاطيء الذى أقف عليه ثم تدرك على نحو فجائى أنه لا توجد حالتان من الموت

متشابهتان فأن تكون ميتا ليس هو نفس الشيء بالنسبة لكل شخص . ففي بعض الأحيان يأخذ المرء معه كل أعباء الحياة . ثم أغلق فرناندو ريس عينيه وألقى بظهره الى الوراء على الأريكة . وخيل لريكاردو ريس أنه شاهد دموعا بين رموش عينيه ولكنها ربما تكون مثل الظلين اللذين شاهدهما فيكتور أى بمثابة تأثيرات الضوء المنعكس لأن – كما يعرف كل شخص – الموتى لا يبكون أبدا . ذلك الوجه المكشوف بدون نظارة والذى به شارب رفيع ولأن الشعر على وجه المرء وجسده يعيش لفترة أطول كان يعبر عن أسف وحزن عميقين .. أسف لا سبيل إلى علاجه مثل الجراح التى يصاب بها المرء فى فترة الطفولة . ثم فتح فرناندو بسوا عينيه وابتسم قائلا : لقد حلمت بأننى مازلت على قيد الحياة. فقال ريس : إنه وهم وخداع مثير . فقال بسوا : الشيء المثير لايكمن فى أن يحلم رجل ميت بأنه على قيد الحياة لأنه برغم كل ذلك قد عاش تجربة الحياة ذات يوم وبالتالى أصبح لديه شيء ما يحلم به. ولكن الأغرب من ذلك هو أن يحلم رجل على قيد الحياة بأنه أصبح ميتا لأنه لم يسبق له أن شاهد فى حياته تجربة الموت : فقال ريس : سرعان ما ستقول لى إن الحياة والموت هما نفس الشيء. فقال بسوا : تماما يا عزيزى ريس . فقال ريس : فى خلال يوم واحد قلت لى ثلاثة أشياء مختلفة تماما وهى : أنه لا يوجد هناك موت + أنه يوجد هناك موت + أن الحياة والموت هما نفس الشيء . فقال بسوا : لم يكن هناك سبيل آخر لحسم التناقض ما بين العبارتين الأولى والثانية وبعد أن قال ذلك ابتسم ابتسامة تشير إلى الاطلاع على بواطن الأمور . ونهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه وقال : إننى ذاهب لإعداد بعض القهوة ولسوف أرجع إليك حالاً . فقال بسوا : استمع الى يا ريكاردو . طالما كنا نتناقش فى أمور الصحافة فاننى أود أن أسمع آخر وأحدث الأنباء . فهذه هى الطريقة الوحيدة التى نختتم بها سهرتنا هذه . فقال ريس : الصحف موجودة فى غرفة نومى ولسوف أذهب لاحضرها . ثم ذهب الى المطبخ وعاد ومعه

ابريق قهوة صغير مصنوع من الخزف الصينى وفنجان وملعقة وسلطانية سكر ووضع كل ذلك على المنضدة المنخفضة الموجودة بين الأرائك . ثم خرج مرة أخرى وعاد ومعه الصحف . ثم صب القهوة فى الفنجان وقام بتحريك بعض السكر. وقال : من الواضح أنك لم تعد قادرا على أن تشرب أى شيء . فقال بسوا : لو كانت قد تبقت لدى ساعة زمنية من الوجود على قيد الحياة لكنت قد قايضتها من أجل الحصول على نفس هذه الدقيقة التى أتناول فيها قدحا من القهوة الساخنة . فقال ريس : أنت تقدم أكثر مما قدمه هنرى ملك انجلترا الذى قايض مملكته فى سبيل الحصول على حصان . فقال بسوا : لكى لا يفقد مملكته ولكن دعك من تاريخ انجلترا وحدثنى عما يحدث حاليا فى عالم الأحياء . فتناول ريكاردو ريس نصف فنجان القهوة ثم فتح احدى الصحف وتساءل : أتعرف أن اليوم هو عيد ميلاد هتلر حيث يبلغ الآن من العمر ٤٧ عاما. فقال بسوا : لا أعتبر ذلك خبراً هاما. فقال ريس : ذلك لأنك لست ألمانيا ولو كنت ألمانيا لأصبحت أقل ازدراءً له . وقال بسوا : وما هو مضمون ذلك الخبر . فقال ريس : يشير الخبر إلى أن هتلر استعرض موكبا يضم ٣٣ ألف جندى فى جو من التبجيل والمهابة التى تصل الى درجة التقديس وهذه هى نفس الكلمات المستخدمة هنا ولكى أعطيك فكرة عليك فقط بالاستماع إلى هذا الاقتباس المأخوذ عن الخطاب الذى ألقاه جوبلز فى تلك المناسبة. فقال بسوا : اقرأ لى ذلك الاقتباس . فقال ريس : عندما يتكلم هتلر يبدو الأمر وكأن قبة معبد قد رفعت فوق رؤوس الشعب الألمانى . فقال بسوا : يا لها من لغة شبيهة بلغة الشعر . فقال ريس : بل ولقد قال بالدور فون شيراخ زعيم حركة شباب الرايخ إن هتلر هو هبة الله لألمانيا وعبادة الفوهرر تتخطى كافة أنواع العقائد والولاءات . فقال بسوا : الشيطان نفسه لا تخطر على ذهنه هذه الفكرة التى تنصب على ضرورة أن تتم عبادة الرجل الذى قام بتوحيد الأشياء

التى تقسمت من خلال عبادة الله . وهذا يجعل الاشتراكية الوطنية بمثابة مشروع مقدس . اقرأ لى أخبارا أخرى. فقال ريس : وفقا لبيان مقدس صادر عن الأسقف الخاص بمنطقة متيلين فان البرتغال هى السيد المسيح والسيد المسيح هو البرتغال فقال بسوا: هل هذا مكتوب فى الجريدة. فقال ريس: هذا مكتوب بالحرف الواحد: البرتغال هى السيد المسيح والسيد المسيح هو البرتغال . فقال بسوا: تماما . ثم راح يفكر للحظات وأخيرا صدرت عنه ضحكة جافة مكتومة شبيهة بالكحة لا تنم عن سرور ثم قال : فلنرث لحال هذه البلاد ولنرث لحال هذا الشعب وكرر تلك العبارة مرتين بينما دموع حقيقية تتجمع فى عينيه وهو مازال يضحك فى كحة . ثم قال : أعتقد أننى قد تماديت فى كلامى عندما قلت إن البرتغال مقدسة فى قصيدتى المشهورة الصادرة تحت عنوان : «المنساجم» . وصب ريكاردو ريس لنفسه قدحا آخر من القهوة . فقال له فرناندو بسوا محذرا : لو شربت قهوة وراء أخرى فستصاب بالأرق . فقال ريس : لا يهم فالليل الخالى من النوم لم يسبب ابدا أى ضرر لأى أحد بل وأحيانا يكون من الأمور المفيدة المساعدة . فقال بسوا : إقرأ لى المزيد من الأخبار ولكن قل لى أولا باختصار هل ترى أن هذه البدعة أو الهرطقة الأخيرة التى ظهرت فى البرتغال وفى ألمانيا أمر مثير للازعاج لأنه يستخدم الله فى الشئون السياسية . فقال ريس : قد يكون ذلك مثيرا للازعاج ولكن لا يمكن اعتباره بدعة أو هرطقة . إذ نجد أن العبرانيين قد رقوا الله إلى رتبة الجنرال كما نجد أن العرب قد غزوا أوربا تحت صيحات : الله أكبر وتلك مشيئة الله كما أن الانجليز قد استخدموا الله وجنوده من أجل أن يحرس ملكهم . كما يقسم الفرنسيون بأن الله فرنسى الجنسية. ولقد أقسم جيل فيسينتى الخاص بنا أن الله برتغالى الجنسية . فقال بسوا : من المؤكد أنه على صواب إذا كان السيد المسيح هو البرتغال ذاتها والآن اقرأ لى بعض الأنباء قبل أن استئذن وأتركك فى رعاية الله. فقال ريس : ألن تبقى لحين حلول الصباح

هنا. فقال بسوا : لا والآن إقرأ لى الأنباء . فقال ريس : البابا بيوس الأول يشجب عدم أخلاقية بعض الأفلام السينمائية + لقد أعلن ماكسيمينو كوربيا أن أنجولا تتسم بالطابع البرتغالى أكثر من البرتغال ذاتها + فى أولهايو Olhao تم توزيع الخبز على الفقراء فى ميدان الثكنات التابع للحرس الجمهورى الوطنى + تشير بعض الاشاعات الى أن حزبا سريا قد تشكل على أيدى الجيش فى إسبانيا + طبقا لما جاء بجريدة بيبلو جاليجو فان خمسة آلاف من الإسبان قد لجئوا إلى البرتغال + فى تافيرنيس يباع السلمون بـ ٣٦ اسكود للكيلو . وتلك هى كل الاخبار اللهم إلا إذا كنت تريد سماع أنباء عن التمردات وأعمال الشغب والعنف. فقال بسوا: كم الساعة الآن. فقال ريس : تقريبا فى منتصف الليل . فقال بسوا: الوقت يمر بسرعة كبيرة .

فقال ريس : هل أنت بصدد الذهاب الآن . فقال بسوا : نعم فقال ريس : أتود لى أن اصطحبك . فقال . بسوا : لا . ثم نهض من الأريكة واقفا وقام بغلق جاكتته بالأزرار وواءم العقدة فى رباط عنقه ثم قال : حسنا إننى منطلق الآن ولسوف اراك ولسوف أراك فى أية فرصة قادمة وشكرا على صبرك الجميل معى والعالم أسوأ حاليا مما كان عليه عندما تركته وإسبانيا تتجه على نحو أكيد إلى حرب أهلية. وقال ريس : حاول ألا تحدث أى صوت لدى هبوطك على السلالم لكى لايلحظك الجيران. فقال بسوا: لسوف أهبط مثل الريش . فقال ريس : ولاتغلق الباب الخارجى للعمارة فى عنف. فقال بسوا : لا تقلق ولاتهتم فان غطاء المقبرة لا يحدث أى صدى للصوت . فقال ريس : طابت ليلتك يا فرناندو . فقال بسوا : إحرصى على أن تنام نوما جيدا يا ريكاردو.

ولم ينم ريكاردو ريس نوما مريحا ربما بسبب تأثير هذه المحادثة الكئيبة عليه وربما بسبب تناوله كميات كبيرة من القهوة.

إذ استيقظ مرات عديدة أثناء النوم . وهو أثناء نومه خيل إليه أنه بمقدوره سماع ضربات قلبه منبعثة من داخل وسادته . وعندما استيقظ استلقى على ظهره لكن يوقف ذلك الصوت ولكنه بدأ يسمعه مرة أخرى متراميا من داخل صدره أو في داخل قفص الضلوع وتذكر عمليات تشريح الجثث التى سبق أن شاهدها وكان بمقدوره رؤية قلبه النابض الحي وهو يخفق فى كرب عظيم كما لو كان كل انقباض هو آخر انقباض له. وعاد اليه النوم المتقطع الصعب وأخيرا استقر فى نوم عميق لدى بزوغ تباشير الفجر. وعندما جاء بائع الجرائد وألقى بالجرائد فى نافذته لم يبذل محاولة للنهوض . كما سمع بائع اللبن وهو يترك له الكمية المعتادة عند الباب وسمع ايضا بائع الخبز وهو يعلق له حقيبة الخبز فى أكرة الباب. لسوف تحضر ليديا كل هذه الأشياء إلى داخل الشقة عندما تصل اليه عقب الساعة الحادية عشرة لأن هذا اليوم هو يوم اجازتها. وهى ليس بمقدورها المجىء اليه فى وقت مبكر أكثر من هذا لأن سلفادور أمرها بتنظيف وتجهيز ثلاث غرف أخرى . كما أنها لن تبقى لديه لفترة طويلة. إذ ينبغى عليها أن تزور والدتها التى تعيش بمفردها ولكى تعرف ما إذا كانت هناك أخبار عن أخيها الذى سافر إلى أوبورتو على متن الباخرة الفونصو دى ألبوقريق ثم عاد . وسمعها ريكاردو ريس وهى تدخل إلى شقته فنادى عليها بصوت ملىء بالنعاس . فظهرت عند المدخل وهى مازالت ممسكة بالمفتاح والخبز واللبن والجريدة بين ذراعيها وقالت : صباح الخير يا دكتور . فرد عليها : صباح الخير ياليديا . تلك هى الطريقة التى تمت بها التحية بينهما منذ اليوم الأول الذى تلاقيا فيه وتلك هى الطريقة التى ستستمر على ذلك النحو . فهى لن تقول له أبدا : صباح الخير يا ريكاردو حتى ولو طلب منها ذلك خاصة وأنه قد رفع الكلفة بينهما بحيث يستقبلها وهو فى هذه الحالة بدون أن يكون ذقنه حليقا وبدون أن يغتسل أو يمشط شعره بينما تنبعث بعض الروائح غير المستحبة من فمه. واتجهت ليديا إلى المطبخ لكى تضع اللبن والخبز ورجعت ومعها

الجريدة ثم انطلقت الى المطبخ مرة أخرى لكى تقوم بإعداد طعام الافطار بينما يقوم ريكاردو ريس بفتح صفحات الجريدة مع الامساك بها من عند الحواف لكى لايوسّخ أصابعه بأحبار الطباعة مع رفع الجريدة لأعلى لكى لا توسّخ الملاية. ومن المطبخ تترامى الرائحة المثيرة للشهية الصادرة عن الخبز المحمّص كما تترامى الأصوات المكتومة للآنية البخارية وعندئذ يظهر وقع أقدام ليديا فى الدهليز. وفى هدوء ورباطة جأش تماما فى هذه المرة تحمل الصينية وتقوم بنفس الروتين المهنى باستثناء أنها ليست بحاجة للطرق لأن الباب مفتوح. وقالت: أرى أنك مازلت قابعا فى السرير فى هذا الصباح. فقال: لم أنم نوما مريحا ولم أستطع النوم الا بعد مرور فترة طويلة للغاية. فقالت: هل ظللت بالخارج لفترة متأخرة بالليل. فقال: يا ليتنى فعلتُ ذلك. فالذى حدث هو أننى آويت الى الفراش قبل منتصف الليل بل اننى لم أغادر الشقة وسواء أكانت ليديا تصدقه أم لا فنحن نعرف أنه يقول الصدق. الصينية تقبع على حجر الضيف بالغرفة رقم ٢٠١ وتقوم الخادمة بصبّ القهوة واللبن وتقرّب التوست والمربى من يديه وتوائم وضع ورق السفرة ثم تقول له: لا أستطيع البقاء اليوم لسوف أقوم بتنظيف المكان على وجه السرعة ثم أنطلق لأننى أرغب فى زيارة والدتى لأنها بدأت تشتكى من أنها أصبحت لا ترانى فى هذه الأيام الا نادرا بل وسألتنى عما اذا كنت قد عثرت لنفسى على رجل وعما اذا كنت أفكر فى الزواج. فيبتسم ريكاردو ريس فى ارتباك وقلق ولا يعرف كيف يتصرّف. نحن بالتأكيد لا نتوقع منه أن يقول: أنت لديك رجل بالفعل أما بالنسبة للزواج فمن الملائم أنك أثرت هذا الموضوع فقد حان الوقت لنناقش مستقبلنا. لا انه يكتفى بالابتسام وينظر اليها فى تعبير أصبح متسما بالطابع الأبوى على نحو فجائى. واتجهت ليديا الى المطبخ بدون أن تأخذ معها أىّ ردّ اذا كانت قد توقعت سماع أىّ ردّ. وهى قد قالت تلك الكلمات بدون تفكير. فأمها لم تذكر أبدا فى أىّ

مرة الرجال أو الزواج. وانتهى ريكاردو ريس من تناول الطعام ودفع بالصينية أسفل السرير واستند بظهره للوراء لكى يقرأ الجريدة. الموكب الكبير الذى نظمته المنظمات التعاونية قد أظهر انه ليس من المتعذر التوصل الى اتفاقية عادلة ومعقولة بين أصحاب العمل والعمال. واستمر في القراءة فى هدوء بدون أن يعطى اهتماما كبيرا بالمناقشة فهو فى أعماق قلبه لم يكن بمقدوره أن يقرّر ما اذا كان يوافق أو لا يوافق على ما جاء بتلك المقالة الافتتاحية. ثم تحول الى الانباء الاجنبية. فى فرنسا سيعقد غدا أول اقتراح سرّى فى الانتخابات التشريعية + القوات الحربية تحت قيادة بادو جليو تستعد لاستئناف الزحف نحو أديس أبابا. وفى نفس هذه اللحظة ظهرت ليديا عند باب غرفة النوم وقد شمّرت عن كميها، وتساءلت فى لهفة: هل شاهدت المنطاد بالأمس. فقال ريس: أىّ منطاد فقالت: منطاد زبلين. لقد مرّ هنا من فوق الفندق. فقال: لم أشاهده. ولكنه كان يشاهده فى نفس هذه الدقيقة على الصفحة المفتوحة للجريدة. إنه منطاد عملاق يحمل اسم الرجل الذى شيده وهو جراف زبلين وهو ملاح جوى وجنرال وكونت ألمانى. وهناك يطير فوق مدينة لشبونة وفوق النهر والبيوت ويتوقف الناس على أرصفة الشوارع ويبزغون من الدكاكين والمحلات وينظرون من نوافذ الترام ويظهرون فى بلكوناتهم ويصيحون مع بعضهم البعض لكى يشاركوا فى مشاهدة ذلك المنظر العجيب. وقال ريكاردو ريس: توجد صورة للمنطاد هنا بالجريدة. فاقتربت ليديا من السرير وأصبحت قريبة للغاية حتى بدا من العار عدم احتضان ردفيها بذراعه الشاغرة. فضحكت وقالت له: تأدّب وأضافت: انه ضخم بل انه بالجريدة يبدو أضخم من حجمه الطبيعى وماذا عن ذلك الصليب المثبت هناك فى المؤخرة. فقال ريس: انهم يسمونه الصليب المعقوف الذى هو شارة الحزب النازى الألمانى والرايخ الثالث. فقالت: انه قبيح المنظر. فقال: أؤكد لك أن الكثيرين من الناس يعتقدون انه أجمل صليب. فقالت: انه يذكرنى بالعنكبوت فقال: ذات يوم كانت

هناك ديانات فى الشرق يمثل فيها هذا الصليب السعادة والخلاص. فقالت: أحقا. فقال: نعم إننى لا أمزح. فقالت: اذن لماذا يوضع الصليب المعقوف على ذيل زبلن. فقال: لأن هذا المنطاد ألمانى والصليب المعقوف قد أصبح الآن شعارا لألمانيا. فقالت: شعار النازيين. فقال: ماذا تعرفينه عن النازيين. فقالت: لا أعرف سوى ما قاله لى أخى. فقال: أخوك الذى هو فى البحرية. فقالت: نعم أخى دانييل انه الأخ الوحيد لى. فقال: هل هو قد رجع من أويورتو. فقالت: اننى لم أتقابل معه ولكنه قد عاد. فقال: كيف تعرفين انه قد عاد. فقالت: لأن باخرته قد رست أمام تيرايرو دو باكو. فقال: ألا تودّين الاضطجاع معى فى السرير. فقالت: لقد وعدت والدتى بأن أجىء اليها فى فترة الغداء. فقال: لمجرد وقت ضئيل وبعدئذ يمكن لك الذهاب الى والدتك. ثم أنزل ريكاردو ريس يده لكى يُربِّت على ساقها ثم رفع جونلتها ووصل الى ما فوق رباط الجورب وتلامس مع بشرتها العارية. فقالت ليديا: لا. لا ولكنها بدأت تُصاب بالتفكك والتخاذل وراحت ركبتاها ترتعشان. وفى نفس هذه اللحظة أدرك ريكاردو ريس لأول مرة فى حياته انه فى حالة عدم انتصاب. وفى ذعر وهلع سحب يده وقال فى تمتمة: شغِّلى المياه من أجلى فأنا أريد أن آخذ حماما. ولم تدرك حقيقة الوضع وبينما كانت تفكّ حزام الوسط بجونلتها وتفك بلوزتها كرّر قوله بصوت عال فجائى: ينبغى على أن آخذ حماما شغِّلى المياه من أجلى. ثم ألقى بالجريدة على الارض وانزلق تحت الملايات وأدار وجهه نحو الحائط وكاد يقلب صينية الافطار. وراحت ليديا ترقبه فى دهشة. وقالت لنفسها فى تعجب: تُرى ما الذى فعلته أنا. وكانت يداه المختفيتان عن أنظارها تحاولان ايقاظ عضوه الرخو وكافحتا فى هذا الشأن ولكن بدون جدوى فاجتاحه الغضب الشديد واليأس المرير فى نوبات متلاحقة على التوالى. فانسحبت ليديا فى حزن وأخذت معها الصينية وذهبت لتغسل الأطباق الى ان أصبحت تتلألأ مثل شمس الصباح ولكنها أشعلت السخان فى بادىء الأمر وجعلت المياه تجرى فى حوض الاستحمام

وتفحصت درجة حرارة الماء لدى تدفقها من الحنفية ومرت بأصابعها المبللة على عينيها المبللتين بالدموع. وقالت لنفسها: ترى ما الذى فعلته مما أدى الى ازعاجه فى اللحظة التى كنت أنا فيها على استعداد للنوم فى السرير معه. حالات سوء الفهم من هذه النوعية يتعذّر تفاديها. فهو لو كان قد قال لها: اننى لا أستطيع حاليا لأننى لست فى حالة نفسية ملائمة لكانت قد تفهمت الموقف بكل بساطة حيث يحدث ذلك كثيرا للرجال بل انها كانت على استعداد للاضطجاع معه فى السرير فى صمت بدون اَية ممارسة مع العمل على مواساته والتهدئة من مشاعره الى أن يتغلب على الذعر الذى أصابه وحيث تقول له: توقف عن ذلك الذعر فليس هذا هو نهاية العالم. بل ويمكن لكليهما ان يناما معا فى سلام وهدوء وبحيث تنسى هى أن والدتها كانت تتوقع لها الحضور مع وضع طعام الغداء على المنضدة وعندئذ تقول والدتها لابنها البحار: هيا بنا نتناول معا طعام غدائنا فأنت لم يعد بمقدورك الاعتماد على أختك اذ لايبدو عليها انها نفس الفتاة فى هذه الأيام. تناقضات الحياة وحالات الظلم بها تكون على ذلك النحو.

ظهرت لىديا عند باب غرفة النوم. وقالت: لسوف أقابلك بعد أسبوع. وانصرفت وهى تموج بالبؤس تاركة إياه فى حالة ليست أقل بؤسا. فهى لاتعرف نوعية الخطأ الذى ارتكبته وهو يعرف جيدا نوعية الكارثة التى حلّت به. صوت المياه الجارية ورائحة البخار تسود فى جميع أرجاء الشقة ويظل ريكاردو ريس مستلقيا بالسرير على مدى دقائق أخرى قليلة. وهو يعرف أن حوض الاستحمام ضخم ولدى امتلائه بالمياه يصبح شبيها بالبحر الأبيض المتوسط. وأخيرا ينهض واقفا ويتجه الى الحمام. ومن حسن الحظ انه لايستطيع مشاهدة نفسه فى المرآة المعتمة من خلال البخار. من المؤكد ان هذا هو العطف والشفقة الذى تبديه المرايا فى لحظات حرجة معينة. وبعدئذ يقول لنفسه فى تفكير: هذا ليس هو نهاية العالم وهذا يمكن أن يحدث لأى شخص والدور سيجىء علىّ ان عاجلا أو آجلا. ما الذى تظنه يا

دكتور. لا تقلق ولا تهتم. لسوف أكتب لك روشتة بها اسم حبوب جديدة من أجل معالجة هذه المشكلة الصغيرة والشيء المهم في هذا الموضوع هو ألا تقلق وعليك بالخروج للنزهة او الذهاب لمشاهدة فيلم واذا كانت هذه هي أول مرة يحدث فيها ذلك فيمكن ان تعتبر نفسك رجلا محظوظا. وخلع ريكاردو ريس ملابسه ودخل الى بحيرة الماء تدريجيا ثم غمر نفسه في الماء كما لو كان يتخلىّ عن عالم الهواء. ومع الاسترخاء دُفعت أطرافه نحو سطح الماء لكي تطفو بين طبقتين من الماء مما جعل النشاط يدبّ في عضوه مرة أخرى. فراح ريكاردو ريس يرقب في حزن واكتئاب عضوه كما لو كان ذلك الشيء لاينتمي اليه. هل هذا العضو خاص بي أم أنا الذي أنتمي اليه ولم يكن يسعى للحصول على اجابة. فالسؤال في حدّ ذاته يسبب له قدرا كبيرا من الكرب العظيم.

وبعد مرور ثلاثة أيام ظهرت مارسيندا في العيادة. وقالت لموظفة الاستقبال إنها ترغب في أن تكون آخر مَنْ يقابل الطبيب لأنها لم تحضر الى العيادة من حيث هي مريضة. وقالت: عندما ينصرف جميع المرضى الآخرين قولي للطبيب إن مارسيندا سامبو موجودة هنا. ثم وضعت في جيب موظفة الاستقبال ورقة مالية من فئة العشرين إسكود. وبُلغت الرسالة في اللحظة الملائمة أي في اللحظة التي خلع فيها ريكاردو ريس معطفه الأبيض الذي يكاد يشبه رداء الكاهن والذي لا يكاد يصل الى ٣/٤ الطول العادي مما يوضح السبب في أنه لم يكن ولن يكون أبدا الكاهن الكبير لهذه الديانة المتعلقة بالشئون الصحية وانما مجرد حافظ لغرفة المقدسات ومسئول عن تفريغ وغسل أوعية الخمور المقدسة ومسئول عن اشعال واطفاء الشموع وعن كتابة الشهادات بما في ذلك شهادة الوفاة. في بعض الأوقات كان يشعر بالأسف والندم لأنه لم يتخصص في مجال توليد النساء ليس بسبب أن ذلك المجال يتعلق بأغلى الأعضاء وأكثر خصوصية للنساء ولكن بسبب أن ذلك كان يعني إحضار أطفال الى العالم أطفال أناس آخرين يكونون بمثابة

عزاء لنا عندما لا يكون لنا أطفال من صلبنا أو على الأقل يكون لنا أطفال من صلبنا ولكننا لا نعرفهم لأننا اختلطنا مع نساء عديدات بدون زواج رسمي. فهو كطبيب يولّد النساء كان سيشعر بالقلوب الجديدة وهي تدقّ في عنف لدى مجيئها الى العالم ومن وقت لآخر يمسك في يديه تلك المخلوقات النحيلة اللزجة المغطاة بالدماء والمخاط والدموع والعرق ويسمع الصرخة الأولى التى ليس لها أيّ معنى أو لها معنى يندّ عن فهمنا. وارتدى الروب دى شامبر بسرعة وحاول ان يقرّر ما اذا كان ينبغي عليه أن يستقبلها عند الباب او ينتظرها خلف مكتبه مع وضع احدى يديه بطريقة مهنية على كتابه «الرفيق الملازم الطبي» الذى يُعتبر ينبوع المعرفة الطبية وانجيل الأحزان. ومع الاقتراب من النافذة التى تطل على الميدان وأشجار الدردار وأشجار الزيزفون المزهرة وتمثال الفارس فانه اختار ذلك الميدان ليكون مكانا يستقبل فيه مارسيندا اذا أمكن أن يقول لها بدون أن يبدو سخيفا: انه فصل الربيع انظرى كيف تبدو الطبيعة ممتعة وبهيجة بينما ذلك الحمام قابع على رأس كاموس في حين حمام آخر قابع على كتفيه. السبب الحقيقى الوحيد لاقامة التماثيل هو تقديم مجثم للطيور ولكن التقاليد الاجتماعية هى التى سادت. وظهرت مارسيندا عند بابه وقالت لها موظفة الاستقبال: تفضلي بالدخول. وموظفة الاستقبال لديها حُسنّ الادراك السليم ولديها خبرة في فن التمييز ما بين الطبقات الاجتماعية المختلفة. ونسى ريكاردو ريس أشجار الدردار والزيزفون ولاذ الحمام بالفرار محلقا فى الجو مما يؤكد أن شيئا ما قد سبب له الازعاج. الصيد بالبنادق ممنوع طوال العام فى لويس دى كاموس. لو كانت هذه المرأة بمثابة حمامة فانها لن تتمكن من الطيران بذلك الجناح الجريح. وقال ريس: كيف كانت أحوالك يا مارسيندا انني مسرور لمشاهدتك وكيف حال والدك هل هو على ما يرام. فقالت: انه على مايرام شكرا جزيلا يا دكتور كان غير قادر على المجيء ولكنه يرسل اليك

تحياته. وتنفيذا للأوامر الصادرة اليها انسحبت موظفة الاستقبال وأغلقت الباب وراءها. واستمر ريكاردو ريس في الامساك بيدْ مارسيندا وظلا على هذا النحو في صمت الى أن أشار الى كرسي. فجلست بينما يدها اليسرى مازالت في جيبها. وحتى موظفة الاستقبال التي لايغيب عنها أيّ شيء على استعداد لأن تُقسم بأن تلك الفتاة الموجودة الآن في غرفة الكشف لا توجد بها أية دلائل تشير الى تعب جسماني بل وهي في حقيقة الأمر جذابة للغاية وربما تكون نحيلة بعض الشيء ولكنها صغيرة في السن للغاية كما أن النحافة متلائمة معها.

وقال ريكاردو ريس: والآن كيف صحتك في هذه الأيام فقالت مارسيندا: على نفس المنوال ولم يحدث تغيّر وأنا أشك في أنني سأعود الى الاخصائي أو على الأقل الاخصائي الموجود هنا في لشبونة. فقال ريس: لاتوجد دلائل للتحسن ولا أيّ شيء يدلّ على بوادر حركة أو يدل على انك تستردّين بعض الاحساس. فقالت: لايوجد شيء من ذلك القبيل فقال ريس: وماذا عن قلبك. فقالت: انه يعمل في اتقان. هل ترغب في فحصه. فقال ريس: انني لستُ الطبيب الخاص بك. فقالت: ولكنك الآن طبيب اخصائي في القلب ومن المؤكد انك اكتسبت بعض العلم والمعرفة مما يجعلني استشيرك. فقال: انني أحلّ محلّ زميل مؤقتا كما أوضحت لك في خطابي. فقالت: هل تشعر بالأسف لأنك ارسلت لي ذلك الخطاب. فقال ريس: الأسف هو أكثر الأمور في العالم المتسمة بعدم الجدوى والناس الذين يبدون أسفهم لا يريدون سوى الغفران لهم وبعدئذ يرجعون مرة أخرى الى الضعف الخاص بهم لأن كل واحد منا في أعمق أعماقه يستمر في الافتخار بضعفه. فقالت: إنني لم أشعر بالأسف بسبب ذهابي الى شقتك بل وحاليا لا أشعر بالأسف على ذلك واذا كان سماحي لك بأن تقبلني علاوة على قيامي بتقبيلك يعتبر غلطة فأنا مازلتُ أفتخر بهذه الغلطة. فقال: ما تم بيننا لم يكن سوى قبلة واحدة

وليس خطيئة مميتة. فقالت: لقد كانت تلك هى أول قبلة أتلقّاها فى حياتى ولهذا السبب فاننى لا أشعر بالندم. فقال ريس: ألم يقم أىّ شخص بتقبيلك من قبل. فقالت: تلك كانت هى أول قبلة أتلقاها. فقال: لقد حان موعد اغلاق العيادة. أتوبين المجيء الى الشقة حيث يمكن لنا التحدث في مزيد من الخصوصية. فقالت: لا أفضل ذلك. فقال: يمكن أن ندخل العمارة على انفراد بحيث يكون هناك فاصل زمنى. اننى لا أريد أن أعرضك للخزى والعار. فقالت: لا. اننى أفضل البقاء هنا بالعيادة لفترة أطول اذا كان ذلك ملائما. فقال: صدقينى. اننى لن أسبب لك أىّ أذى. فأنا فى حقيقة أمرى انسان مُسالم للغاية. فقالت: نحن مختلفان كثيرا فى حياتنا كما يوجد بيننا ذلك الفارق الكبير فى العمر وفى مصائرنا. فقال: انت تكرّرين نفس الكلام الذى قمت بكتابته فى خطابك. فقالت: حقيقة الأمر اننى معجبة بك يا ريكاردو وكل ما هنالك أننى لا أستطيع تحديد حجم هذا الاعجاب. فقال ريس: عندما يصبح رجل فى نفس سنى فانه يبدو سخيفا اذا بدأ فى الاعلان عن حبه وغرامه فقالت: ولكننى استمتعت بقراءة تلك التصريحات عن الحب والتى أقوم بسماعها الآن. فقال: اننى لا أصدر أىّ كلام عن الحب فقالت: لا. فقال: نحن نتبادل التحيات والأزهار وصحيح أن الازهار جميلة ولكنها تُقطف وسرعان ما تذبل والزهور غير مدركة لهذا المصير الذى نحن نتظاهر بأننا لا نلحظه. فقالت: اننى أضع ازهارى فى الماء ولسوف أرقبها الى أن تذبل الألوان. فقال: اذن فأنت لن ترقبيها لفترة طويلة. فقالت: أنا أرقبك الآن. فقال: أنا لستُ زهرة. فقالت: أنت رجل وأنا قادرة على معرفة الفارق ثم اتجه ريكاردو ريس الى النافذة وجذب الستارة. لم يكن هناك حمام قابع على التمثال وبدلا من ذلك كان يطير بسرعة فى حلقات فوق التمثال على شكل دوّامة هوائية. فاقتربت منه مارسيندا وقالت: اثناء مجئى الى هنا شاهدت حمامة قابعة على ذراع التمثال بمكان قريب من قلبه. فقال: ذلك شيء طبيعى تماما لأن الحمام يفضل البقعة المحمية التى تشبه المأوى

وقالت: لا يمكن لك مشاهدة التمثال من هنا فهو يواجه الجهة الأخرى. ثم أُسدلتْ الستارة مرة أخرى. وتحركا في ابتعاد عن النافذة. ثم قالت مارسيندا: ينبغي على أن أذهب الآن. فأمسك ريكاردو ريس بيدها اليسرى ورفعها الى شفتيه ثم راح يُربّت عليها في رفق وبطء كما لو كان يبث الحياة أو يعيد الحياة لطائر فاقد الاحساس ومُخدَّر بسبب البرد. وفي اللحظة التالية شرع في تقبيل مارسيندا على شفتيها فتبادلت معه القبلات وعندئذ شعر بتدفق الحياة الى عضوه مرة أخرى. اذن فلم يكن ذلك العضو قد مات الى الأبد. وأخيرا قالت في تدهور: ينبغي علىّ أن أذهب الآن. لقد خارت قواها وتداعت وألقت بنفسها في كرسي. وقال ريكاردو ريس في توسل: أرجو أن توافقي على الزواج مني. فنظرت اليه في شحوب وقالت: لا وقالت كلمة لا في بطء شديد للغاية وأضافت: لأننا عندئذ لن نكون سعداء . وظلا ملتزمين بالصمت الشديد على مدى دقائق عديدة . وللمرة الثالثة قالت مارسيندا: ينبغي على أن أذهب الآن ولكنها في هذه المرة نهضت واقفة واتجهت بالفعل نحو الباب . فسار وراءها وحاول تعطيلها ولكنها أصبحت موجودة بالفعل في الصالة وظهرت فتاة الاستقبال عند الطرف البعيد بالصالة في حين قال ريكاردو ريس بصوت مرتفع: لسوف اصطحبك قليلا إلى الخارج . وقام بذلك بالفعل . وتبادلا تحية «إلى اللقاء» وتصافحا بالأيدى . وقال : بلغي سلامي لوالدك فقالت : ذات يوم ولكنها لم تستكمل عبارتها وربما شخص ما آخر سوف يستكمل لها هذه العبارة ومن يعرف متى يحدث ذلك ولأى سبب يحدث ذلك ولكن حاليا لايوجد سوى هذا .. «ذات يوم» ويغلق الباب وتتساءل موظفة الاستقبال : أأنت بحاجة إلي يا دكتور . فقال : لا فقالت: حسنا بعد إذنك سوف أنطلق خارجة. كل شخص بالمكان قد انطلق الآن بما في ذلك الأطباء الآخرون وقال ريس: لسوف أمكث لدقائق قليلة أخرى اذ ينبغي أن اقوم بفرز وتصنيف بعض الأوراق فقالت: طابت ليلتك يا دكتور فقال لها: طابت ليلتك يا كارلوتا لأن ذلك كان هو اسمها.

وعاد ريكاردو ريس إلى مكتبه وفتح الستارة . لم تكن مارسيندا قد وصلت إلى أسفل السلالم . كانت خلال الشفق الأحمر تتغلغل في الميدان . وكان الحمام قابعا على الأغصان العلوية لأشجار الدردار وصامتا للغاية مثل مجموعة أشباح أو كان هذا ظلال الحمام الذى كان قد قبع على نفس تلك الأغصان فى سنوات ماضية أو كان قد قبع على الأطلال التي توجد هنا ذات يوم قبل تسوية الأرض من أجل تشييد الميدان وإقامة التمثال . والآن وبعد أن عبرت مارسيندا الميدان متجهة نحو شارع الكريم فإنها تستدير حولها لكى تعرف ما اذا كانت الحمامة مازالت قابعة على ذراع كاموس بين الأغصان المزهرة لأشجار الزيزفون فيقع بصرها فى لمحة خاطفة على وجه أبيض خلف زجاج نافذة لو أن أى أحد شاهد هذه الحركات لما فهم معناها ولا حتى كارلوتا التي خبأت نفسها تحت السلالم لكى تتجسس حيث شكت فى أن الزائرة ستعود إلى العيادة لكى تتكلم مع الدكتور حبيب قلبها . هذه فكرة ليست رديئة على الاطلاق ولكنها لم تخطر أبداً على ذهن مارسيندا كما أن ريكاردو ريس لم يخطر على باله أن يسأل نفسه عما اذا كان ذلك هو السبب الذى جعله يبقى بالعيادة لبعض الوقت.

(١٤)

وبعد أيام قليلة وصل خطاب له نفس اللون البنفسجى الشاحب . وبه نفس خاتم البريد الأسود وعليه نفس خط اليد الواضح المكتوب فى زاوية لأن الورقة غير مثبتة فى مكانها بمساعدة من اليد الأخرى . يوجد نفس التردد لفترة طويلة قبل أن يقوم ريكاردو ريس فى نهاية الأمر بفتح الظرف ليجد نفس الوجه المغتاج المنهك ونفس الكلمات: كم كنت مغفلة عندما قمت بزيارتك . لن يحدث ذلك مرة أخرى ولن نشاهد بعضنا البعض مرة أخرى ولكن صدقنى عندما أقول لك إننى

لن أنساك أبداً طالما أنا باقية على قيد الحياة حتى لو أصبحت الأمور مختلفة وأصبحت كبيرة فى السن وأصبحت يدى غير قابلة للشفاء تماما . نعم فالأخصائى اعترف أخيراً أنه لايوجد علاج وأن العلاج باستخدام الأشعة فوق البنفسجية والصدمات الكهربائية والتدليك هو مضيعة للوقت وأنا كان لى نفس هذا الرأى تقريبا ولكنى لم انخرط فى البكاء إننى لا أشفق على نفسى وإنما أشفق على ذراعى التى أتعهدها بالرعاية كما لو كانت طفلا صغيرا لن يترك فراشه أبداً وأقوم بالتربيت عليها كما لو كانت حيوانا ضالا صغيرا عثر عليه بالشارع يا ذراعى المسكين ما الذى سيحل بذراعى بدونى. ولذلك أقول لك وداعا يا صديقتى العزيزة ووالدى مازال يصر على أنه ينبغى على الذهاب إلى سانت فاطيما ولذلك قررت أن أذهب لمجرد أن أدخل السرور عليه وألبى رغبته اذ كان هذا هو ما يحتاج اليه من أجل ارضاء ضميره واقناعه بأن تلك هى مشيئة الله لأننا لانستطيع أن نفعل شيئا يتعارض ويتناقض مع مشيئة الله وارادته وبالتالى ينبغى علينا أن نتوقف عن ذلك . اننى لا اطلب منك أن تنسانى يا صديقى وانما على العكس من ذلك حيث آمل أن تفكر فىّ فى كل يوم ولكن لا تكتب لى خطابات لأننى لن أذهب مرة أخرى إلى شباك مكتب البريد والآن ينبغى على أن أغلق هذا الخطاب بعد أن قلت كل ما كان على أن أقوله . مارسيندا لاتكتب بهذه الطريقة فهى تراعى كل قواعد الإعراب والترقيم وانما ريكاردو ريس هو الذى يقفز من سطر لآخر بحثاً عن ماهو جوهرى مع تجاهل أسلوبها فى التعبير. ولكن على الرغم من أنه قرأ الخطاب مرة ثانية وثالثة الا أنه لم يستخلص منه المزيد من المعلومات لأنه كان قد قرأ كل شئ تماما مثلما أن مارسيندا قد قالت كل شئ . رجل يتلقى خطابا محكم الإغلاق لدى مغادرة باخرته الميناء فيقوم بفتحه وهو فى منتصف المحيط . ولا يوجد شئ سوى البحر والسماء وظهر المركب الذى يقف عليه والخطاب يقول إنه من الآن فصاعدا لن يكون هناك المزيد من الموانىء التى

يمكن اللجوء اليها بالنسبة له ولا المزيد من الأراضى المجهولة التى يمكن اكتشافها ولايوجد مكان مقصود تنتهى عنده الرحلة ولاشئ قد ترك له سوى الابحار مثل الهولندى الطائر مع رفع الأشرعة ولفها وتزويد المضخة بالرجال وممارسة أعمال الاصلاح والخياطة وازالة الصدأ والانتظار . ومع الاستمرار فى الامساك بالخطاب يتجه إلى النافذة ويشاهد آداماستور علاوة على مشاهدة الرجلين العجوزين الجالسين فى ظل العملاق آداماستور . ويسائل نفسه عما اذا كان شعوره بالاحباط هو شعور حقيقى وليس مجرد انتحال وتمثيل وعما اذا كان يعتقد حقا أنه فى حالة حب مع مارسيندا وأنه فى أعمق أعماقه لم يكن يرغب على الاطلاق فى الزواج منها أو ما اذا كان كل ذلك هو التأثير الردىء الذى ينجم عن الشعور بالوحدة القاسية وعن الحاجة إلى الاعتقاد بأنه توجد هناك أشياء ممتازة فى الحياة مثل الحب على سبيل المثال وعن السعادة التى يتحدث عنها الناس التعساء دائما اذا كانت السعادة والحب أمرين ممكنين بالنسبة لصاحبنا ريكاردو ريس أو بالنسبة لفرناندو بسوا اذا افترضنا أنه ليس ميتا . لايوجد شك فى أن مارسيندا توجد على قيد الحياة فمن الواضح أنها هى التى كتبت هذا الخطاب ولكن من هى مارسيندا وماهو الشئ المشترك بين الفتاة التى شوهدت لأول مرة فى صالة الطعام بفندق براجانسا عندما كانت غير معروفة له وبين هذه المارسيندا التى يملأ اسمها وشخصيتها أفكار ومشاعر وكلمات ريكاردو ريس . مارسيندا هى مكان للرسو أو هى المرسى والمرفأ والملاذ ووسيلة الأمان فماذا كانت عليه آنئذ وماذا أصبحت عليه الآن إنها الأثر الذى تخلفه السفينة الجارية فى الماء والذى يظهر على السطح ويختفى عقب مرور السفينة . لا يزال يوجد بعض الرذاذ الناجم عن مخضة الدفة . لقد مررت من خلال الرذاذ فما هو الشئ الذى مر من خلالى ويقوم ريكاردو ريس بقراءة الخطاب مرة أخرى . الفقرة الأخيرة التى تكتبها تقول فيها: لاتكتب خطابات من أجل إرسالها إلى فيقول لنفسه بأنه سيكتب بالطبع واذا

أوفت هي بوعدها فان الخطاب سيظل قابعا في شباك مكتب البريد لأن الشئ المهم هو أن يكتب . ولكنه بعدئذ يتذكر أن الدكتور سامبيو يعتبر شخصية مشهورة للغاية في مدينة كوامبرا .. لأن الذي يشغل منصب الموثق العام يكون دائما شخصية مرموقة بالمجتمع وكما نعرف فان مكاتب البريد تكون مليئة بالموظفين المخلصين ولذلك فمن الممكن أن يشق ذلك الخطاب السرى طريقه إلى عنوان مسكنه أو عنوان مكتبه مما قد يثير غضبا شديداً . انه لن يكتب . في هذا الخطاب سيتحدث عن كل الأمور التي لم يتحدث عنها ليس على أمل تغيير مجرى الأحداث ولكن لكي يؤكد على أن تلك الأحداث عديدة للغاية لدرجة أن قول كل شيء عنها لن يغير مجراها . ومع ذلك فهو كان يود على الأقل أن يجعل مارسيندا تعرف أن الدكتور ريس وهو الرجل الذي قام بتقبيلها وطلب الزواج منها هو شاعر وليس مجرد طبيب ممارس عادي يعمل بشكل مؤقت مكان طبيب آخر هو اخصائي في أمراض القلب والرئة وأنه ليس طبيبا بديلاً رديئاً على الرغم من النقصان في تدريبه العلمي حيث لايوجد دليل يشير إلى ارتفاع معدل الفضيلة منذ أن شرع في ممارسة الطب . تخيلوا دهشة مارسيندا لو كان قد قال لها منذ البداية: أكنت تعرفين يا مارسيندا أنني شاعر وبحيث يقولها بالنغمة العادية لا يعطي أهمية كبيرة لموهبته الفنية . كانت ستدرك بالطبع أنه إنسان متواضع وكانت ستشعر أنه يتملقها لأنه أفضى اليها بشئ سرى وكانت ستنظر اليه في رقة رومانتيكية وتقول: ياله من أمر رائع وكم أناسعيدة الحظ ويمكن لي الآن معرفة الفارق عندما أحب على أيدى شاعر وينبغي على أن أطلب منه أن يقرأ لي أشعاره وقصائده وأنا واثقة من أنه سيخصني ببعض أشعاره ويهدى لي بعض قصائده لأن هذه عادة شائعة بين الشعراء . ولكي يتجنب ريكاردو ريس أية تفجرات ناجمة عن الحقد والغيرة فإنه سيوضح قائلا إن النساء اللاتي تجدهن مارسيندا مشارا إليهن في قصائده لسن نساء حقيقيات وانما هن مجرد لوحات تجريدية غنائية

ومجرد خيال فني ومجرد محاورات خياليات اذا كان بمقدور المرء أن يعطى اسم محاورة لانسانة ليس لها صوت. الشاعر لايطلب من الموزيات أو الإلهات الشعر الخاصة به أن تتكلم وانما يطلب منهن الحضور فقط فهو يريد أن تحضر كل من نييرا Neaera وليديا Lydia وشلواه Chloe. وهناك صدفة بالنسبة لك فبعد كتابة قصائد على مدى سنوات عديدة للغاية باسم ليديا الأثيرية اتقابل بطريق المصادفة مع خادمة غرف بفندق لها نفس الاسم فقط ولكن لايوجد أى تشابه على الاطلاق فى كل النواحي الأخرى . ويوضح ريكاردو ريس الأمور ثم يوضحها مرة أخرى ليس لأن الأمر بالغ التعقيد والصعوبة ولكن لأنه قلق ازاء الخطوة التالية وازاء القصيدة التي سيختارها وماذا ستقوله مارسيندا عندما تسمعها وماهو التعبير الذى سيظهر على وجهها وهى ربما قد تطلب أن تشاهد بعينيها الأشياء التى سمعته وهو يقرأها وبعدئذ تقرأ القصيدة بنفسها بصوت منخفض: في مجمع بحرين متغير ومتقلب حيث يتشكل النهر من خلال أمواجه عليك بتأمل ايامك فاذا وجدت نفسك تبدو مثل آخر التزم بالصمت . ويقرأ هو هذه القصيدة ثم يقرؤها مرة أخرى ويدرك من خلال النظر إلى وجهها أنها تدرك المعنى وربما ساعدها على الفهم تذكرها لتلك الكلمات التى قالها فى غرفة الكشف الطبى فى آخر مرة كنا فيها معا والتى كانت عن رجل يجلس على حافة شاطئ النهر ويرقب المياه وهى تمر وينتظر لأن يشاهد نفسه وهو يمر أيضا منجرفا مع التيار . من الواضح أنه يوجد اختلاف كبير ما بين النثر والشعر وذلك هو السبب فى أننى فهمت الكلام على نحو جيد للغاية فى المرة الأولى ثم أجد نفسى الآن أكافح من أجل فهم المعنى فيسألها ريكاردو ريس: هل تحبين هذا فتقول: أوه احبه كثيرا للغاية . وهذه اجابة سارة ومرضية تماما ولكن الشعراء يكونون دائما غير راضين عن انتاجهم ولذلك نجد ريكاردو ريس يبدو حزينا ومكتئبا مثل أداماستور الذى لايستطيع تخليص نفسه من الرخام الذى حبس فيه من خلال الاختيال والخداع

بعد أن تحول جسده وعظامه وكذلك لسانه إلى حجر وتتساءل مارسيندا: لماذا أصبحت صامتا وهادئا للغاية . ولكنه لايجيب عليها.

اذا كانت هذه هموم شخصية فان البرتغال اذا نظرنا اليها ككل لاتخلو من أفراحها ومباهجها فقد تم الاحتفال بعيدين سنويين: العيد الأول هو دخول البرفسور أنطونيو دى أوليفيرا سالازار فى الحياة العامة منذ ثمانى سنوات . يبدو ذلك وكأنه قد تم بالأمس فالزمن يتطاير بسرعة وذلك من أجل انقاذ بلاده وبلادنا من جحيم الهاوية واستعادة ثرواتها ووضع نظرية سياسية جديدة وغرس الايمان والحماس والثقة فى المستقبل وفقا لما تشير اليه الصحف . أما العيد الثانى فهو يتعلق أيضا بالأستاذ المبجل وان كان الحدث من المباهج الشخصية مباهجه ومباهجنا ألا وهو الاحتفال بعيد ميلاده السابع والأربعين . فهو قد ولد فى نفس العام الذى ولد فيه هتلر ولكن قبل مولد هتلر بأيام قليلة . وهذا يعتبر أمرا من قبيل المصادفات . كما نحن بصدد الاحتفال بيوم العمل الوطنى من خلال موكب يضم الآلاف من العمال فى برشلونة حيث يمدون جميعا أذرعهم بالطريقة الرومانية فقد ظلت هذه الحركة باقية منذ أيام براجا Braga التى سمى فيها باسم براسار أوجاستا.

ريكاردو ريس موجود فى السرير بينما رأس ليديا مستلق على ذراعه الأيمن فى حين جسداهما المفرزان للعرق لايغطيهما سوى ملاية . إنه عار تماما بينما قميص النوم الخاص بها الفضفاض مرفوع فوق خصرها. إنهما قد نسيا أو تناسيا ذلك الصباح الذى شعر فيه بالعجز الجنسى ولم تعرف هى ما الذى فعلته لكى يرفض النوم عليها . الجارات فى بلكوناتهن بالأماكن الخلفية من العمارة يتجاذبن أطراف الحديث مع تبادل الكلمات التى لها مغزى علاوة على تبادل الحركات التأكيدية مثل الايماء بالرأس والغمز بالعين: لقد عادا إلى الممارسة مرة أخرى + العالم منحرف وفاسد وفاسق + من كان يصدق أن يحدث هذا فى هذه

العمارة + إنهما لايخجلان من نفسهما . وليديا تشعر بالسعادة . فالمرأة التى تذهب فى النوم فى السرير بإرادتها الحرة مع رجل لايهمها كثيرا ما يقوله الناس عنها فى دردشتهم . حالا سيكون عليها أن تنهض من السرير وتغسل الأطباق المتسخة التى تراكمت وتقوم بكى ملايات السرير بالمكواة علاوة على كى القمصان التى يرتديها ذلك الرجل المستلقى إلى جوارها . وتقول لنفسها فى تفكير: على أى نحو أصف نفسى هل أنا عشيقته إننى لست عشيقته وذلك بسبب وجود الفارق الاجتماعى وكل ما سيقوله الناس هو أن ريكاردو ريس لديه خادمة ممتازة لأنها تفعل له كل شئ . وتمدد ليديا ساقيها وتقترب منه فى حركة أخيرة من المتعة الهادئة فيقول ريكاردو ريس : الجو حار فتبتعد عنه قليلا وتحرر ذراعه ثم تجلس معتدلة القامة فى السرير وتبحث عن جونلتها . لقد حان الوقت لكى تنجز بعض الأعمال . وفي نفس تلك اللحظة يقول لها: أنا ذاهب غداً إلى سانت فاطيما . فاعتقدت أنها اساءت الفهم فقالت: إلى أين أنت ذاهب. فقال: إلى فاطيما. فقالت: لقد كنت أعتقد أنك لاتوافق على مثل هذه الأشياء فقال: إننى ذاهب بدافع من حب الاستطلاع فأنا شخصيا لم يسبق لى الذهاب من قبل إلى فاطيما فقالت: أسرتى لاتهتم بالدين والدين ليس هو الموضوع الذى يشغل اهتماماتهم . فقال ريس: اننى مندهش من كلامك هذا وما كان يعنيه ريكاردو ريس هو أن الناس المنتمين عادة للطبقات السفلية الفقيرة هم الذين يؤمنون بهذه العبادات والتكريسات ولكن ليديا لم ترد على كلامه . وراحت ترتدى ثيابها على وجه السرعة حتى أنها لم تنتبه كثيرا عندما أضاف ريس قائلا: هذه الرحلة ستكون مفيدة بالنسبة لأنها ستجدد نشاطى بعد أن ظللت قابعا هنا لفترة طويلة ومحبوسا فى مكان ضيق : فقالت: هل ستظل هناك لفترة طويلة . فقال: لا سأذهب إلى هنا ثم أعود على الفور . فقالت: وأين ستنام هناك فالمكان هناك مزدحم للغاية بل ويضطر الناس للنوم فى العراء والأماكن المكشوفة فقال: سأبحث فى ذلك الأمر عندما أصل إلى هناك وعلى

كل حال لم يمت أحد أبداً بسبب قضاء ليلة في العراء . فقالت: وربما تتقابل بطريق المصادفة مع السينيوريتا مارسيندا . فقال: من . فقالت: السينيوريتا مارسيندا اذ سبق لها أن قالت لي إنها تأمل في زيارة فاطيما في وقت ما في خلال هذا الشهر . فقال: أوه . فقالت: وقالت لي أيضاً إنها لم تعد تزور الأخصائي الموجود في لشبونة وأنهم قد قالوا لها إنه لا أمل على الاطلاق في الشفاء يا لها من فتاة مسكينة. فقال: يبدو أنك تعرفين معلومات كثيرة عن السينيوريتا مارسيندا . فقالت: معلومات قليلة للغاية ولاشئ سوى أنها بصدد الذهاب إلى فاطيما وأنها لن تجيء مرة أخرى إلى لشبونة فقال: هل تأسفين لذلك . فقالت: لقد كانت دائما شفوقة على للغاية. فقال : وأنا لااعتقد أنه من المحتمل أن أتقابل معها مرة أخرى بين هذا الحشد الكبير من جماهير الناس . فقالت: في بعض الأحيان تحدث هذه الأشياء . أنظر إلى هنا في شقتك من كان يصدق أن يحدث هذا وأنت عندما وصلت قادما من البرازيل كان هناك احتمال بأن تذهب إلى فندق آخر فتلك هي مصادفات الحياة انه القدر. الذي يلعب دوره . فقال: هل تؤمنين بالقدر. فقالت: لايوجد هناك شئ أكثر يقيناً من القدر فقال: الموت أكثر يقيناً من القدر . فقالت: والموت أيضا هو جزء من القدر ولكن ينبغي على الآن أن أكوي قمصانك وأغسل الأطباق واذا تبقى بعض الوقت سأذهب لكي أزور والدتي فهي دائما ما تشتكي وتقول إنها لا تشاهدني كثيرا في هذه الأيام.

ومع الاستناد بظهره على وسائده فتح ريكاردو ريس كتابا تحت عنون «أوه ديسبرسيدو» بقلم كارلوس كويروس وبعد دقيقة أدرك أنه لم يكن يقرأ وإنما كانت عيناه مثبتتين على الصفحة فقط وعلى بيت من الشعر أصبح معناه غامضا على نحو فجائي . وقال لنفسه في تفكير: هذه لبنت ليديا هي فتاة غير عادية فهي تقول الأشياء البسيطة للغاية كما لو كانت تستخلص زبد الكلمات الأكثر عمقا والتي

لاتستطيع ولن تستطيع النطق بها . لو لم أقل لها إنني بصدد الذهاب إلى فاطيما لكانت قد أخفت عني معلوماتها عن مارسيندا بسبب الاستياء أو الغيرة ولكانت قد أخفت عني أنها تدردش من وقت لآخر مع مارسيندا . وهاتان المرأتان : الضيفة وخادمة الفندق الفتاة الغنية والخادمة الفقيرة ماذا يكون لديهما لكي تتناقشا فيه معا وماذا لو أنهما دخلتا في مناقشة تتعلق بي وبدون أن تشك إحداهما في الأخرى أو حتى مجرد العكس من ذلك وبحيث تلعبان دور حواء في مواجهة حواء مع الدخول في الكثير من أعمال سبر الأغوار واللف والدوران واللجوء إلى الحركات الدفاعية علاوة على أعمال الدس والتلميحات وفترات الصمت المليئة بالدهاء والخبث . وليس من المستبعد أن تكون مارسيندا قد قالت لها في بساطة ذات يوم : لقد قبلني الدكتور ريس في فمي ولكننا لم نذهب إلى ما هو أعمق من ذلك . وعندئذ ردت ليديا قائلة : انني أنام معه في السرير بل ونمت معه قبل أن يقبلني. بل وراحتا تتناقشان بعد ذلك في أهمية هذه الفوارق . فتقول ليديا : انه يقبلني فقط قبل الممارسة بالسرير وأثناءها ولكن ليس بعد الانتهاء من الممارسة . وتقول مارسيندا : بالنسبة لي فقد قال لي إنني سوف أقبلك ولكنه لم يفعل معي ما يفعله الرجال بالنساء وأنا لا أعرف هذا الموضوع لأن الرجال لم يفعلوا ذلك معي على الإطلاق . فتقول ليديا : لا تقلقي يا سينيوريتا مارسيندا فأنت سوف تتزوجين ذات يوم وعندئذ ستعرفين مذاق الممارسة وتقول مارسيندا : أنت قد عشت تجربة الممارسة فهل هي ممتعة . وتقول ليديا : تكون الممارسة ممتعة عندما تشعرين بالاعجاب نحو الشخص الآخر . وتقول مارسيندا : وهل أنت معجبة بالشخص الآخر . فتقول ليديا : نعم ، وتقول مارسيندا : وأنا معجبة به أيضا ولكنني لن أراه مرة أخرى على الإطلاق. فتقول ليديا : يمكن لك أن تتزوجيه . فتقول مارسيندا : لو تزوجنا ربما أصبح غير معجبة به . فتقول ليديا : أما بالنسبة لي فإنني أعتقد أنني سأكون معجبة به باستمرار وإلى الأبد . ولم تنته المحادثة عند تلك النقطة

ولكن أصواتهما انخفضت وأصبحت هامسة ربما لأنهما انخرطتا في التحدث عن الأسرار الشخصية وحالات الضعف والانهيار التي تنتاب النساء حيث أصبح الكلام صادقا تماما ما بين حواء وحواء . انصرف يا آدم أنت غير مطلوب هنا . وريكاردو ريس الذي يقرأ ولا يقرأ وقع بصره بالمصادفة على كلمة امرأة بذيئة Fishwife مكتوبة على الصفحة بحروف كبيرة : أوه ايتها المرأة البذيئة . ارحلي . أرجوك أن ترحلي يا زهرة الجنس . الرب لا يغفر لهن لأنهن يدركن تماما ما يفعلن . وتصبح المناقشة الشعرية حادة ما بين هذا العم وابن الأخ . أنت فاسد ولا سبيل إلى تقويمك يا بسوا . وأنت أيضا فاسد يا كوايروس . وهنا يغلق ريكاردو ريس الكتاب وينهض واقفا ويرتدي الروب دي شامبر ويضع قدميه في الشبشب ويذهب للبحث عن ليديا . فوجدها بالمطبخ حيث كانت تقوم بكي الملابس بعد أن خلعت بلوزتها لكي تشعر بالمزيد من البرودة . وعندما شاهدها ريكاردو ريس على هذا النحو ببشرتها البيضاء اعتقد أنه مدين لها بقبلة فأمسكها برفق من كتفيها العاريتين وجذبها نحوه ثم قبلها في قبلة بطيئة ممتدة مما جعل ليديا لاهثة ومتقطعة الأنفاس . إنه لم يقبلها بنفس هذه الطريقة من قبل على الإطلاق ، والآن ستكون قادرة على أن تقول لمارسيندا إذا قدر لها أن تراها مرة أخرى : إنه لم يقل لي : أنا سوف أقبلك وإنما فاجأني بقبلة عميقة ومطولة ومستمرة لفترة طويلة .

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي سافر ريكاردو ريس إلى سانت فاطيما . وتحرك القطار من محطة روسيو في الساعة الخامسة وخمسة وخمسين دقيقة ولكن قبل أن يصل القطار بنصف ساعة كان الرصيف بالمحطة مزدحما للغاية بالمسافرين وبأناس من كل الأعمال يحملون معهم السلال والركائب والبطاطين والزجاجات الضخمة الواسعة الجوف الضيقة العنق المكسوة بقضبان مجدولة والكل يتحدث مع بعضهم البعض وينادون بصوت مرتفع على بعضهم

البعض . وكان ريكاردو ريس قد حرص على شراء تذكرة سفر بالدرجة الأولى بالقطار مع حجز مقعد ولم يكن يحمل أية أمتعة تقريبا سوى حقيبة صغيرة حيث تجاهل تحذيرات ليديا من أن الناس في سانت فاطيما ينامون في العراء وقال لنفسه بأنه سيدرس الموقف عقب وصوله إلى سانت فاطيما لأنه من المؤكد أنه توجد أماكن للإقامة والإعاشة من أجل السياح والحجاج الذين لهم مكانة اجتماعية عالية ، وجلس ريكاردو ريس في ارتياح بجوار النافذة وراح يتأمل المناظر الطبيعية المتلاحقة وفي نهر تاجوس العظيم والأراضي السبخة التي مازالت مغمورة بالماء في أماكن متفرقة هنا وهناك علاوة على التأمل في الثيران التي تحملق على نحو عشوائي بالاضافة إلى النظر إلى الفرقاطات والسفن الحربية المبحرة في أعالي النهر فوق مياه متألقة في لمعان . عقب غياب دام ستة عشر عاما كان قد نسي هذا المنظر والآن طبعت صور جديدة ذاتها إلى جوار تلك الصور المستعادة من خلال الذاكرة كما لو كان قد قام بهذه الرحلة منذ الأمس فقط . وعند المحطات ونقاط الإشارة بالطريق يصعد إلى القطار المزيد والمزيد من الركاب . القطار هو قطار ماشية حقيقي . ولا يمكن أن يكون هناك مقعد واحد شاغر بالدرجة الثالثة منذ أن غادر القطار محطة روسيو Rossio والمسافرون محشورون في الطرقات بالقطار . ومما لا شك فيه أنه قد تم غزو الدرجة الثانية بالفعل حاليا وسرعان ما سيبدأ الغزو هنا بالدرجة الأولى ولكن لا جدوى من وراء التذمر وابداء الشكوى لأن أي شخص يرغب في السلام والهدوء ينبغي عليه أن يسافر بالسيارة وليس القطار . وبعد محطة سانتاريم وعلى طول الصعود حتى وادي فيجويرا يتحرك القطار مطلقا دخانا متقطعا علاوة على إطلاق هبات من البخار ويئز تحت حمله الثقيل ويتحرك في بطء شديد حتى يمكن للمرء بسهولة أن يقفز من القطار ويلتقط بعض الأزهار ثم يقفز عائدا إلى القطار مرة أخرى . ومع الإصغاء يعرف ريكاردو ريس أن المسافرين في هذه المقصورة بالقطار سينزلون

كلهم فى محطة سانت فاطيما باستثناء شخصين فقط . والحجاج يتحدثون عن النذر الخاص بهم ويتناقشون في من قام بأكبر عدد من الحجات إلى سانت فاطيما . ويدعى واحد منهم ربما فى صدق وربما فى كذب أنه على مدى السنوات الخمس الأخيرة لم يتخلف عن الحج ولو مرة واحدة . ويقول آخر إنه قد حقق ثماني حجات بما في ذلك هذه الحجة . ولكن لم يفاخر أحد منهم بأنه يعرف الأخت لوسيا Lucia معرفة شخصية . ولدى سماع ريكاردو ريس هذه المناقشات بين الناس فانه يتذكر الكلام الذى تم فى غرفة الانتظار فى عيادته ويتذكر تلك الافضاءات بالأمور السرية المثيرة للحزن والكآبة والتى تدور حول فتحات وثقوب الجسد البشرى حيث يمارس كل نوع من أنواع المتعة وحيث يمكن للحظ العاثر أن يسدد ضرباته فى هجوم . وعند محطة مالتو دى ميراندا وعلى الرغم من عدم صعود مسافرين إلى القطار توقف القطار قليلا . ففتح ريكاردو ريس النافذة لكى ينظر إلى الخارج . فشاهد امرأة عجوزا حافية القدمين ومرتدية ملابس سوداء تحتضن ولدا نحيلا يبلغ من العمر حوالى ١٣ عاما وتقول له : يا عزيزى ، وكان كلاهما فى انتظار تحرك القطار حتى يمكن لهما العبور على القضبان الحديدية . وهذان الشخصان لم يكونا مسافرين إلى سانت فاطيما . فالمرأة العجوز قد جاءت لكى تقابل حفيدها الذى يعيش فى لشبونة . وأخيرا نفخ ناظر المحطة فى صفارته فبدأ القطار فى التحرك فى بطء شديد ولكنه زاد من سرعته تدريجيا . والآن يصبح الطريق ممتدا فى خط مستقيم فيصبح بمقدور المرء أن يعتقد أن ذلك قطار سريع . الصياح يعطى شهية لريكاردو ريس وعلى الرغم من أن الوقت مازال مبكرا بالنسبة لموعد تناول الغداء إلا أن الناس يبدأون فى فك لفائف الطعام الموجودة معهم . فيغلق ريكاردو ريس عينيه ويروح فى اغفاءة من النوم من خلال اهتزازات العربة التى تهدهده كما لو كان مستلقيا فى سرير للأطفال . ويشهد أحلاما واضحة ومفعمة بالحياة إلا أنه لا يستطيع تذكرها لدى استيقاظه . ويتذكر

أنه لم تتح له الفرصة لكى يخبر فرناندو بسوا بأنه بصدد الذهاب إلى سانت فاطيما . فما الذى سيظنه إذا جاء إلى الشقة ولم يجدنى هناك وربما يظن أننى قد رجعت إلى البرازيل بدون كلمة وداع وبدون توديعى الأخير له . وبعدئذ يتخيل مشهدا مع مارسيندا من حيث هو مشهد رئيسى ومركزى فيشاهدها وهى راكعة بينما أصابع يدها اليمنى متشابكة مع أصابع يدها اليسرى مع الرفع لأعلى الثقل الميت ليدها المشلولة . وتمر صورة مجسمة لسيدتنا المباركة ولكن لا تحدث أى معجزة وهذا أمر غير مدهش إذا وضعنا فى الاعتبار نقصان الإيمان لدى مارسيندا . وتنهض مارسيندا على قدميها فى استسلام واذعان فيشاهد ريكاردو ريس نفسه وهو يقترب منها ويلمسها باصبعيه الأوسط والسبابة على صدرها وبالقرب من قلبها ولا شئ يحتاج إليه أكثر من ذلك . فيصيح الحجاج قائلين : المعجزة المعجزة وقد نسوا الكروب والمحن الخاصة بهم على نحو فجائى لأن كل ما يريدونه هو مشاهدة معجزة أخرى . والآن يجيئون فى قطعان وفى تدافع من خلال الجماهير أو يجيئون وهم يجرون أنفسهم فيحدق الناس المعوقون والمشلولون والمصابون بالسل والمطحونون تحت وطأة الأمراض المختلفة والمصابون بالعمى والمعتوهون والمخبولون حول ريكاردو ريس لكى يتضرعوا ويتوسلوا إليه من أجل أن يقوم بعمل آخر من أعمال الرحمة . وخلف هذه الغابة من الحجاج المنتحبين فى بكاء وعويل تلوح مارسيندا وقد رفعت لأعلى كلتى ذراعيها ثم تختفى عن الأنظار فى غياهب الزحام . يا لها من مخلوقة عقوقة وغير معترفة بالجميل فهى قد شفيت ثم رحلت . وفتح ريكاردو ريس عينيه وهو غير متأكد مما إذا كان قد استغرق فى النوم أم لا ثم سأل المسافر الموجود إلى جواره : ما هى المسافة المتبقية لكى نصل إلى هناك . فقال جاره : نحن نكاد نكون قد وصلنا بالفعل . إذن فهو قد نام واستغرق فى النوم على مدى فترة طويلة .

وأفرغ القطار كل ما فى جوفه لدى توقفه عند محطة سانت فاطيما . وشعر

الحجاج بالإثارة من خلال رائحة القداسة والطهارة المنتشرة فى الجو فتدافعوا بالمناكب وساد الذعر والفوضى عندما وجدت العائلات نفسها مقسمة ومتباعدة عن بعضها البعض . وكان المكان المكشوف الشاسع شبيها بمعسكر حربى يستعد من أجل الدخول فى معركة . ولسوف يقطع معظم الحجاج مسافة عشرين كيلو مترا سيرا على الأقدام من أجل الوصول إلى كوفا دا إيريا إلا أن البعض يسارعون للانضمام إلى صفوف الناس الذين سيستقلون الاتوبيسات وهؤلاء هم الحجاج الذين يعانون من السيقان الضعيفة ومن القدرة المحدودة على الاحتمال والذين يشعرون بالارهاق لدى بذل أدنى مجهود . كانت السماء صافية كما كانت الشمس ساطعة ودافئة . وانطلق ريكاردو ريس لكى يبحث عن مكان يتناول فيه طعاما . وكان يوجد الكثير من الباعة الجائلين بالشوارع الذين يبيعون الفطائر المحلاة والفطائر المحشوة بالجبن وأنواع البسكويت المختلفة والتين المجفف وأباريق الماء وفواكه الموسم وأكاليل الزهور والفول السودانى والترمس . ولكن لا يوجد مطعم واحد يمكن أن يستأهل كلمة مطعم . وكانت بيوت الطعام القليلة ممتلئة بالناس كما كانت الحانات مكتظة بالناس حتى الباب . انه سيكون بحاجة للتحلى بالصبر قبل أن يجد نفسه جالسا أمام شوكة وسكينة وطبق به طعام . ومع ذلك فهو قد استفاد من الروح المسيحية التى تتغلغل فى هذا المكان لأنهم عندما أدركوا أنه أنيق الملبس سمح له الكثير من الناس الواقفين فى الطابور بأن يقف أمامهم وبذلك تمكن ريكاردو ريس من تناول طعام الغداء بأسرع مما كان يتصور حيث تناول سمكة مقلية صغيرة وبطاطس مهروسة مع الزيت والخل واثنتين من البيض المقلى المزوج صفاره مع بياضه . وتناول خمورا شبيهة بخمور المحراب وأكل خبزا ريفيا رائعا . وبعد أن قدم الشكر لأصحاب المطعم ذهب لكى يبحث عن وسيلة للانتقال . لقد أصبح الميدان أقل ازدحاما وأصبح على استعداد لاستقبال حمولة قطار آخر قادما من الجنوب إلى الشمال ولكن الحجاج استمروا فى الوصول

سيرا على الأقدام قادمين من أماكن كثيرة بعيدة . وصدر صوت شبيه بصياح الأوز عن أتوبيس يطوف باحثا عن مسافرين بهدف ملء المقاعد القليلة المتبقية . فجرى ريكاردو ريس في هرولة مرتطما بالسلال ولفائف من الحصير والبطاطين وتمكن من الحصول على مقعد بالأتوبيس . انه كفاح عظيم من جانب رجل يحاول أن يهضم طعامه فيشعر بالإرهاق بسبب حرارة الجو . ثم تحرك الأتوبيس في قعقعة عالية مثيرا سحبا من التراب الصادر عن الطريق المرصوف على نحو رديء. وكان السائق يطلق صوت الأتوبيس الشبيه بصياح الأوز على نحو متواصل وبدون إمهال مما كان يجعل مجموعات الحجاج تتبعثر في داخل الحفرات الموجودة على جانب الطريق وكان يقود الأتوبيس في حدة لكي يتجنب المطبات والحفر الموجودة على الطريق كما كان يبصق بصوت مرتفع من وقت لآخر ملقيا بالبصاق من النافذة .

وكان الطريق يعج بطابور لا نهائي من الحجاج السائرين على الأقدام ولكن كانت توجد أيضا عربات تجرها الثيران ومركبات حيث تتقدم كل منها وفقا للإيقاع الخاص بها . ومن وقت لآخر كانت سيارة ليموزين غالية الثمن يقودها سائق يرتدى الزى الرسمي الخاص بالسائقين ويطلق بوق سيارته من وقت لآخر وقد حمل في داخل السيارة نساء طاعنات في السن مرتديات ثيابا لها لون أسود أو رمادي أو أزرق داكن ورجالاً ممتلئين ومرتدين حللا داكنة ولهم نفس وعي أولئك الذين انتهوا توا من عد نقودهم لكي يجدوا أنها قد تضاعفت . ويمكن مشاهدة هؤلاء القابعين في داخل سيارات الليموزين عندما تهدئ السيارات من سرعتها بسبب وجود موكب كبير من الحجاج يسير تحت توجيه قسيسه الأبرشي. فالقسيس هنا يعمل كمرشد روحاني وسياحي في آن واحد . والغالبية العظمى من المؤمنين يمشون حفاة الأقدام . والبعض منهم يحملون مظلات مفتوحة لحماية أنفسهم من حرارة الشمس وهؤلاء هم الناس الذين لهم رؤوس ضعيفة والذين قد يتعرضون لنوبات من الاغماء والدوخة .

الترانيم التى يتغنون بها غير متوافقة النغمات . والأصوات العالية للنساء تبدو شبيهة بالتفجع والنواح اللانهائى الذى على هيئة بكاء ولكن بدون دموع . والرجال الذين ينسون دائما الكلمات لا يتغنون إلا بالمقاطع الايقاعية على سبيل المسايرة فى نـــوع من الصـــوت العميق المنخفض . ولا يطلب منهم شئ أكثر من ذلك . لا يطلب منهم سوى مداومة الحفاظ على المظهر الخارجى . ومن وقت لآخر يمكن أن يشاهد الناس جالسين على طول سياج من الشجيرات تحت ظلال الأشجار من أجل استجماع قواهم لمواجهة المرحلة الأخيرة من الرحلة ومنتهزين فرصة هذا التوقف لكى يتناولوا كسرة خبز وسجق وفطائر مقلية وسردين مقلى منذ ثلاثة أيام فى داخل قريتهم النائية المنعزلة . وبعدئذ يعودون إلى السير على الطريق وقد استعادوا قوتهم . النساء يحملن سلال الطعام فوق رؤوسهن بل ويقوم بعضهن بإرضاع أطفالهن أثناء السير ويهبط الغبار والتراب عليهم جميعا فى سحب كثيفة إذا مر اتوبيس بجوارهم ولكنهم لا يأبهون لذلك ولا يشعرون بأى شئ فهذا يبين ما يمكن أن تفعله العادات والتقاليد . والعرق يتصبب من جباه الرهبان والنساك والحجاج ويشكل قنوات صغيرة فى التراب وهم يجففون عرقهم باستخدام ظهور أيديهم . والحـــرارة تســود وجـــوههم ومع ذلك لا ترفع النســاء مناديلهن عن رؤوســهن كما يظل الرجال مرتدين جاكتاتهم ولا يفكون أزرار قمصانهم ولا يفتحون ياقاتهم . وهذا يذكرنا بالعادات الموجودة بالصحراء والتى تشير إلى أن ما يحمى الإنسان من البرد يحميه أيضا من الحرارة ولذلك فهم يغلقون ملابسهم كما لو كانوا يخفون أنفسهم فى داخلها .

وعند منحنى بالطريق كان جمهور قد تجمع تحت شجرة حيث راح أناس يصيحون ونساء يمزقن شعورهن بينما جسد رجل ممدد على الأرض . ويخفض سائق الأتوبيس من سرعته لكى يسمح للمسافرين بإلقاء نظرة على هذا المشهد ولكن ريكاردو ريس يقول أو بالأحرى يصيح قائلا للسائق : توقف هنا ودعنى

ـ ما حدث فأنا طبيب . ويمكن سماع همهمة الاحتجاجات الصادرة عن المسافرين الذي يرغبون في الوصول بسرعة إلى أرض المعجزات ولكن احتجاجهم سرعان ما يهدأ بسبب حرصهم على عدم الاتسام بقسوة القلب . فهبط ريكاردو ريس من الأتوبيس وشق طريقه بين الجماهير المحتشدة وركع في التراب بجوار الرجل العجوز وجس نبض الشريان الموجود في رقبته ثم قال : لقد مات . وأثار هذا النبأ موجة جديدة من الانفجار في البكاء بالدموع لأن الرجل الميت كان له أقارب كثيرون بينما أرملته وهي امرأة أكبر في السن من زوجها الميت راحت تنظر إلى الجثة بعيون جافة خالية من الدموع . وصعد اثنان من الجمهور إلى الأتوبيس لكي يبلغوا السلطات بسان فاطيما بالوفاة لكي يقوموا بعمل الترتيبات اللازمة والتي تتعلق بنقل الجثة ودفنها في أقرب جبانة . وعاد ريكاردو ريس إلى مقعده بالأتوبيس ويقول الرجلان اللذان صعدا إلى الأتوبيس للركاب المجاورين لهما بأن الرجل المتوفي كان مريضا للغاية عندما جاء إلى هنا وكان ينبغي عليه البقاء في منزله ولكنه أصر على المجئ وقال إنه سيشنق نفسه إذا تركوه في منزله وفي نهاية الأمر مات بعيدا عن بيته فلا أحد يهرب من مصيره وقدره . فأومأ ريكاردو ريس برأسه في موافقة بدون أن يدري أن رأسه كان يتحرك وقال : نعم يا سيدي ذلك هو القدر ولنأمل في أن يقوم شخص ما بتثبيت صليب تحت تلك الشجرة حتى يمكن للمسافرين في المستقبل أن يصلوا الصلاة الربانية على روح هذا الرجل الذي مات بدون أن يدلي باعترافاته الدينية وبدون أن يتلقى الطقوس الكنسية رغم أنه كان متجها مباشرة نحو السماوات منذ اللحظة التي غادر فيها منزله.

هذا هو المكان ويتوقف الأتوبيس وينزل منه المسافرون ويذهب السائق لكي يفتح الغطاء الأمامي للموتور مستخدما قطعة من القماش البالي لكي يحمي يديه. وترتفع في الهواء سحب من البخار وروائح الماكينات التي تجعل بعض الناس

يشعرون بالغثيان، وينضم ريكاردو ريس إلى موكب الحجاج . ويحاول أن يتخيل الشكل الذى يبدو عليه هذا الموكب إذا شوهد من السماء . المنظر سيبدو مثل سرب من النحل القادم من جهات مختلفة والمنصب عند نقطة في الوسط على هيئة نجمة. هذه الفكرة أو أكان السبب هو ضوضاء موتور جعلته ينظر ببصره لأعلى نحو ارتفاعات شاهقة ورؤى أثيرية. وهنالك بالسماوات كانت توجد طائرة ترسم من خلال العادم دائرة هائلةوتسقط منشورات وربما تكون صلوات مكتوبة وربما خرائط توضح الطريق المؤدى إلى بوابات الجنة . وتهبط المنشورات فى بطء حيث لا توجد أية نسمة من الهواء. الأنوف تتجه إلى السماء. ويمد الحجاج أيديهم فى شغف للامساك بها والتى لها ألوان الأبيض والأصفر والأخضر والأزرق. وغالبية الناس فى هذا التجمع الروحانى لا يعرفون القراءة والكتابة ولذلك فهم لا يعرفون ماذا يفعلون بهذه المنشورات. وينظر رجل مرتد لملابس ريفية إلى ريكاردو ريس ويظن فيه أنه شخص يستطيع القراءة. فيسأل : ما هو المكتوب هنا يا سيدى؟ . فيقول ريكاردو ريس: انه إعلان عن البوفريل. فينظر الرجل إلى ريس فى شكوك وتردد: تُرى أيطلب منه أن يشرح له معنى كلمة بوفريل أم لا وأخيرا يطوى الورقة ويضعها في جيبه. حافظ دائما على الشيء الذى قد يبدو غير مفيد لأنك دائما سوف تجد استخداما له.

بحر من الناس . وحول الأرض الفضاء المقعرة الهائلة توجد مئات من الخيام التى يعسكر فى داخلها الآلاف كما توجد أوانى القلى والتحمير فوق نيران خلوية وتوجد كلاب تحرس المؤن علاوة على وجود أطفال يصيحون بالاضافة إلى الذباب الذى يتدخل في كل شيء. ويتجول ريكاردو ريس بين الخيام وقد جذب انتباهه هذا الفناء للمعجزات فهو شاسع وممتد مثل أى مدينة كبيرة. هذا مخيم للغجر مستكمل بالعربات والبغال والحمير المليئة بالتقيحات والجروح مما يزيد من متعة وسعادة الذباب.

ويسير ريكاردو ريس حامـــلا معه حقيبته ولكنه لا يعـرف إلى أين يذهب. إذ لا يوجد مكان محجوز له هنا ولا حتى مجرد خيمة ولقد اقنع نفسه الآن بأنه لا توجد أية مساكن إيوائية ناهيك عن الفنادق. وإذا كان يوجد هنا فى مكان ما خفى تكية للحجاج فمن غير المحتمل أن تكون بها أية مراتب قش شاغرة لأن هذه المراتب يتم حجزها منذ فترة طويلة . فلتنفذ مشيئة الله. الشمس حارقة ومازالت هناك ساعات طويلة قبل حلول الليل. ولا توجد دلائل تشير إلى احتمال تحسن الجو وهبوط درجة الحرارة. عندما قرر ريكاردو ريس المجيء إلى فاطيما فإن ذلك كان بدافع من الأمل فى مشاهدة مارسيندا. حقيبة خفيفة ولا تضم سوى شفرة الحلاقة والصابون وفرشاة الحلاقة وتغييرة من الملابس الداخلية وجورب وحذاء قوى له نعل متين ينبغى عليه أن يستخدمه لكى لا يتلف حذاءه الغالى الثمن الذى ينتعله . لو كانت مارسيندا موجودة هنا فإنها لن تكون جالسة فى خيمة. فابنة موثق عام يعمل فى كوامبرا تستحق مكانا أفضل من ذلك ولكن أين هو ذلك المكان الأفضل ؟ وشرع ريكاردو ريس فى البحث عنها وابتدأ بالذهاب إلى المستشفى. فهو مكان جيد يمكن البدء منه . واستخدم أوراق اعتماده كطبيب فسمح له بالدخول فشق طريقه بين الغوغاء وحشود الناس . وراح ينظر ويفتش ويبحث فى كل مكان وفى جميع أرجاء العنابر والدهاليز والطرقات وبين المرضى الراقدين على نقالات ومراتب موضوعة على الأرض بينما أقاربهم يحدثون ضجيجا عاليا للغاية من خلال الصلوات التى تتخللها تنهدات عميقة وصراخ مدو وتوسلات موجهة للعذراء. وفى عنبر المشفى لم يزد عدد الأسرة على ثلاثين سريرا بينما عدد المرضى يقترب من ثلاثمائة. الناس قابعون أو مستلقون فى أى بقعة تكون شاغرة على الأرض حتى أن المرء يتعثر فيهم أثناء سيره . شيء حسن أننا لم نؤمن بالعين الحسودة. مارسيندا غير موجودة هنا ولا يندهش ريكاردو ريس من ذلك فهى على كل حال قادرة على أن تمشى على قدميها وكل ما هنالك أن ذراعها

اليسرى مشلولة، وطالما أنها معتادة على وضع يدها المشلولة فى جيبها فلن يلحظ آحد وجود ذلك العجز بذراعيها . وبالخارج تكون الحرارة أشد سوءاً ولكن الشمس لا تنفث روائح كريهة.

جماهير الناس آخذة في التزايد كما لو كان يتم ذلك من خلال الانشطار. مثل حشود سوداء هائلة من النحل الذى يقتفى أثر العسل المقدس فإنها تئز وتدندن وتفرقع وتتحرك فى موجات بطيئة وتتهدهد من خلال الحجم الخاص بها. من المتعذر العثور على أى شخص في هذا المرجل والذى هو ليس مرجل بيرو بوتيليو ولكنه يحترق على كل حال، ويذعن ريكاردو ريس للأمر الواقع ويبدو له الآن أن العثور على مارسيندا أو عدم العثور عليها لم يعد أمراً له أهمية. فإذا شاء القدر أن نلتقى فإننا سنلتقى حتى لو حاولنا التخفى عن بعضنا البعض. كم هو سخيف لأنه يعبر عن أفكاره من خلال استخدام هذه الكلمات. فلو كانت مارسيندا موجودة هنا ولا تعرف أننى موجود هنا فإنها بذلك لن تحاول أن تخفى نفسها ولذلك تزداد فرصة لقائنا . الطائرة تستمر فى التحليق في دوائر فوق رؤوسنا بينما المنشورات الملونة تتراقص فى الهواء. ولكن لا أحد يعيرها اهتمامه الآن اللهم باستثناء القادمين الجدد الذين يشاهدون ذلك لأول مرة. وشعر ريكاردو ريس باحتقان وجهه فخلع جاكتته وشمر عن ذراعيه وراح يهوى على نفسه من خلال استخدام قبعته كمروحة. وعلى نحو فجائى شعر بثقل ساقيه مع الارهاق . فيذهب للبحث عن مكان ظليل. بعض زملائه الحجاج يقضون فترة القيلولة بعد أن أنهكتهم الرحلة الطويلة وكل تلك الصلوات التى أقيمت على الطريق. انهم يستجمعون قواهم قبل أن يقدم رسميا تمثال العذراء ويُعرض أمام حشود الناس وقبل أن يبدأ موكب الشموع والسهر الليلى الطويل بجوار ضوء المشاعل ومصابيح الزيت. وهو أيضا راح فى سنة من النوم بعد أن استند بظهره على جذع شجرة زيتون مع وضع قفاه على طحالب لينة. وعندما فتح عينيه شاهد مساحات من السماء

الزرقاء من بين الأغصان فتتذكر الولد النحيل الذى كان عند محطة القطار والذى قالت له جدته: يا عزيزى . ما الذى يفعله ذلك الطفل فى نفس هذه اللحظة؟ من المؤكد أنه قد خلع حذاءه فذلك هو أول شيء يفعله عندما يصل إلى القرية والشيء الثانى هو أن ينزل إلى النهر. وربما تحذره جدته قائلة : لا تنزل الآن فالشمس مازالت شديدة السخونة . ولكنه لا يصغى لكلامها كما أنها لا تتوقع أن تُسمع. فالأولاد فى هذه السن يرغبون فى أن يكونوا أحراراً وليسوا ممسكين بجونلات أمهاتهم. وهم يلقون بالحجارة على الضفادع ولا يعتقدون انهم يسببون أى ضرر ولكنهم سيشعرون بالندم ذات يوم. ويجد ريكاردو ريس أن كل هذا سخيف. إذ كان من السخف أن يقتنع بالفكرة التى جعلته يسافر من لشبونة مثل شخص يسير وراء سراب وهو يدرك فى كل الأوقات أن المسألة كانت سراباً ولا شيء أكثر من السراب. فها هو قد أصبح جالسا تحت ظل شجرة زيتون بين أناس لا يعرفهم وفى انتظار لا شيء. ويتمتم ريكاردو ريس قائلا لنفسه : هل أنا عشت تجربة الحياة حقا . فيعتقد الحاج الموجود إلى جواره أن تلك التمتمة هى بمثابة صلوات جديدة يجب أن تمر أولا بمرحلة الاختبار.

الشمس تهبط نحو الأفق ولكن الحرارة لا تخمد والمكان مزدحم للغاية ومع ذلك لايزال الناس يجيئون ويتوافدون من كل حدب وصوب بينما البعض يحاول الحصول على موقع متميز فى المقدمة وعلى نحو فجائى يدرك ريكاردو ريس وجود نوع آخر من الحج ألا وهو الحج الذى يقوم به المتسولون والشحاذون كما يدرك أنه يوجد متسولون حقيقيون ومتسولون زائفون. وأن المتسول الحقيقى هو رجل فقير يقوم بأعمال التسول فى حين أن المتسول الزائف قد حول التسول إلى مهنة وأصبح الناس يعرفون أن المرء يمكن له أن يكون غنيا بالفعل من خلال ممارسة التسول الزائف. وكلا النوعين لهما نفس التكنيك ونفس الأساليب التى تعتمد على النشيج والشكوى والتضرع ومدّ اليد أو أحيانا مدّ اليدين بطريقة مسرحية درامية

بحيث يصعب مقاومتها: الصدقات من أجل أرواح احبائك الذين رحلوا وانتقلوا إلى رحمة الله + الله سوف يعوضك عن كل الخسائر + عليك بالشفقة على رجل مسكين كفيف . وبعضهم يعرض ساقا مليئة بالجروح والتقيحات وآخرون يعرضون ذراعا مبتورة. ويبدو الأمر وكأن بوابات جهنم قد فتحت لأن هذه المناظر المريعة لا يمكن أن تجيء إلا من جهنم . والآن يجيء الدور على هؤلاء الذين يبيعون تذاكر اليانصيب حيث يحدثون ضجيجا هائلا وهم ينادون على أرقام التذاكر الرابحة مما يجعل المصلين يتوقفون في صلواتهم رغم قطعهم نصف المسافة نحو السماوات . ويتم هجوم من جانب بائعي البطاطين وأربطة العنق والمناديل والسلال ومن جانب العاطلين الذين يضعون شريطا على الذراع ويبيعون صورا مقدسة. وها هي فكرة جيدة قد خطرت على ذهني الآن وهي أن يضع العاطلون شريطا على الذراع عليه كلمة «عاطل» وذلك حتى لا ينساهم الناس ولا ينساهم أصحاب الأعمال وحتى يمكن احصاؤهم في مزيد من السهولة. والأسوأ من ذلك كله هم حشود الباعة الجائلين لأنهم يزعجون هدوءنا الروحي علاوة على ازعاج هدوء هذا المكان المقدس. ويتجنبهم ريكاردو ريس ويبتعد كثيراً عنهم لكي لا يهجمون عليه على الفور وينادون : انظر إلى هذه الصورة انها صفقة رابحة وهذه الصورة انها مباركة وانظر هذه هي صورة سيدتنا المباركة مطبوعة على الصينيات والتماثيل هذا بالاضافة إلى الصلبان والميداليات والقلوب المقدسة لكل من السيد المسيح والسيدة مريم العذراء . ويستمر ريكاردو ريس في البحث ولكن هل سيجدها . لقد ذهب بالفعل إلى المستشفى وطاف بالخيام وتجول في السوق المكشوف في جميع الاتجاهات والآن ينزل إلى الأرض المستوية التي يتنزه فيها المشاة وسائقو العربات فيشاهد حشوداً كثيفة من الناس ويشاهد ممارساتهم الروحية وأعمال الإيمان الخاصة بهم وصلواتهم الجديرة بالشفقة الهزيلة ويشاهد النذور التي يحققونها من خلال الزحف على أربع كل بركبتين داميتين ويشاهد أيدٍ تساند

امرأة تائبة وتمسكها من تحت الابطين قد أن يغمى عليها بسبب الآلام وبسبب الغبطة الروحية الصوفية التى لا يمكن للمرء أن يتحملها كما يشاهد المرضى الذين أُحضروا من المستشفى وقد وضعت نقالاتهم فى صفوف. وبين هذه الصفوف سيتم حمل تمثال السيدة العذراء المقدسة على محفة مزدانة بالورود البيضاء. ويتفحص ريكاردو ريس الوجوه المختلفة بحثا عن مارسيندا ولكنه لا يعثر عليها. وكما لو كان فى حلم ليس له معنى مثل حلم عن طريق لا يؤدى إلى أى مكان ومثل حلم عن ظل لا يعكسه أى شىء ومثل حلم عن كلمة نطق بها الهواء ثم أنكرها الهواء . الترانيم بدائية وجوقة المنشدين لها أصوات مرتعشة وتتوقف باستمرار وتبدأ من جديد . فى الثالث عشر من شهر مايو فى كوفا دا إيريا يوجد صمت مطبق على نحو فجائى. فالتمثال على وشك أن يخرج من كنيسة التجليات . الارتجاف والرعشة تسرى فى أوصال الجماهير ، فالقوة الخارقة للطبيعة قد هبت فوق ٢٠٠ ألف رأس ومن المؤكد أن شيئا ما سيحدث. وتسود حمى صوفية بين المرضى الحاملين لمناديلهم وصلبانهم ويأخذهم القساوسة لكى يلمسوا التمثال مستخدمين هذه الأشياء المقدسة الموجودة فى أيديهم ويعودون بهم إلى المتضرعين المتوسلين فى حين أن التعساء الفقراء يتضرعون : أيتها السيدة فاطيما امنحى الحياة لى + أيتها السيدة فاطيما امنحينى معجزة المشى + أيتها السيدة فاطيما ساعدينى لكى أُبصر + أيتها السيدة فاطيما أعيدى لى صحتى + أيتها السيدة فاطيما + أيتها السيدة فاطيمـــا + أيتها السيدة فاطيما . والأبكم لا يتوسل ولكنه ينظر فى ارتياب إذا كان لا يزال لديه عينان ينظر بهما. وراح ريكاردو ريس يصغى ويرهف السمع لكى يسمع هذه العبارة : أيتها السيدة فاطيما انظرى بكل الرعاية إلى ذراعى اليسرى وامنحى الشفاء لى إذا كان بمقدورك أن تفعلى ذلك. ولكنه لم يسمعها على الإطلاق.

وحُمل التمثال إلى الخارج وتم السير به فى موكب ثم اختفى . ولم يكن بمقدور

الناس المكفوفين أن يبصروا ولم يتمكن الناس البكم من أن يتكلموا وظل المصابون بالشلل على ما هم عليه من شلل . والأطراف المفقودة لم ترجع إلى أصحابها ولم تتناقص آلام الناس. وراح الناس يبكون في دمـوع بمرارة ويلقـون باللوم على أنفسهم : لقد كان إيماني ناقصا . وكانت العذراء قد غادرت محرابها من أجل أن تمنح بعض المعجزات القليلة ولكنها وجدت المؤمنين متذبذبين في إيمانهم فقالت : لا توجد شجيرات تصلح لإشعال النيران هنا كما لا يوجد الزيت الأبدى للمصابيح وبذلك لن يتم أى شيء فى هذا ودعوهم يرجعون إلينا فى العام القادم. وتظهر ظلال المساء مع اقتراب حلول الشفق الأحمر وفق ايقاع موكبى أيضاً . وعلى نحو تدريجى تفقد السماء الزرقة الشديدة للنهار وتتحول إلى لون رمادى فاتح ولكن هنالك نجد أن الشمس المتوارية خلف الأشجار الموجودة على التلال البعيدة تنفجر في بركان له لون قرمزى وبرتقالي وأحمر ويبدو من غير المعقول أن يحدث كل هذا فى صمت . سرعان ما سيرخي الليل سدوله وتشعل نيران المخيمات . لقد توقف الباعة الجائلون عن الصراخ بينما يقوم المتسولون بعد مكاسبهم من النقود وتحت الأشجار يتم تغذية الأجساد وتفتح حقائب الظهر والكل يأكل ولكن نوعية الطعام تختلف وفقا للوضع الاجتماعى .

وعثر ريكاردو ريس على مأوى مع مجموعة من الحجاج الذين يشاركون فى خيمة. لم تتم مناقشات . فقد شاهدوه واقفا هنالك وقد ظهرت الحيرة على وجهه مع الامساك بحقيبة صغيرة وبطانية كان قد لفها تحت ذراعه. وهو بدوره وجد أن الخيمة ستكون ملائمة له طالما أن الجو لا يصبح باردا للغاية فى الليل. وقالوا له : خُذْ راحتك . فقال : لا . شكرا جزيلاً. ولكنهم أصروا وقالوا : نحن نعرض عليك من كل قلوبنا وبمنتهى الصدق أن تشارك معنا . وأدرك أنهم يقولون قولا صادقا فانضم إلى هذه المجموعة التى جاءت من أبرانتيس Abrantes . هذا التنفس بصوت مسموع والذى يمكن سماعه في جميع أرجاء كوفا دا إيريا ينجم عن

مضـغ التبغ مثلما ينجم عن الصلاة والتضرع والتوسل إلى الله. وتحت الضوء الخافت لنيران المعسكرات لا يتمكن ريكاردو ريس من العثور على مارسيندا كما أنه لن يشاهدها بعد ذلك أثناء موكب الشموع ولا حتى في نومه عندما يهجم عليه الارهاق والاحباط والرغبة في الاختفاء من على وجه الأرض. ويرى نفسه كشخصين : ريكاردو ريس الوقور المبجل الذي يغتسل ويحلق ذقنه يوميا وهذا الريكاردو ريس الآخر المتشرد الطويل اللحية والذى له ملابس مكرمشة وقميص متسخ وقبعة ملوثة بالعرق وحذاء مغطى بالتراب. والأول يطلب التوضيح من الثانى قائلا له : لو سمحت لماذا جئت إلى سانت فاطيما بدون أن يكون لديك أى إيمان حيث لم يكن لديك سوى حلم جامح وحتى لو تقابلت مع مارسيندا بالفعل فما الذى ستقوله لها ؟ هل يمكن لك أن تتخيل كيف أنك ستبدو سخيفا إذا هى ظهرت أمامك الآن إلى جوار والدها أو بمفردها . أنظر إلى نفسك في تفحص . هل تعتقد حقا أن فتاة حتى ولو كانت لها يد واحدة ستقع فى غرام طبيب فى منتصف العمر ومثير للسخرية . وفي خنوع وتواضع يتقبل ريكاردو ريس هذا النقد ويشعر بالفعل بالخجل من نفسه لأنه أصبح فى هذه الحالة الرثة المتدنية ثم يجذب البطانية ليغطى بها رأسه ويستسلم للنوم. وبالقرب منه كان شخص ما يشخر فى ارتياح وبدون أن يعطى للعالم كله أدنى اهتمام وخلف شجرة الزيتون القوية الصامدة توجد همهمة لا يمكن أن ينظر إليها بطريق الخطأ على أنها صلوات علاوة على وجود ضحكات مكتومة وتنهدات غير متفجرة من خلال الغبطة الصوفية الروحية . الفجر آخذ في البزوغ. بعض الناس الذين يصحون مبكرين يمدون أذرعهم وينهضون واقفين من أجل تحريك جمرات النيران . يوم جديد آخذ فى البزوغ ويشهد محاولات جديدة من جانب أولئك الذين يسعون للحصول على ثمار وفواكه الجنة.

ويقرر ريكاردو ريس مغادرة المكان قبل الظهر. إنه لا ينتظر لحين حلول حفل الودا ع الذى يقام تكريما للعذراء فهو قد استودع الناس وقال لهم «مع السلامة»

وفي تلك الأثناء حلقت الطائرة مرتين وأسقطت المزيد من الإعلانات عن البوفريل وكما هو متوقع كان الأتوبيس العائد به عدد قليل من المسافرين . أما الخروج العظيم فسوف يجيء فيما بعد.. وعند المنحنى بالطريق كان قد تم تثبيت صليب خشبي في الأرض، وبرغم كل شيء لم تظهر أي معجزة على الاطلاق.

(١٥)

الايمان بالله وبسيدتنا المباركة ابتداء من عهد أفونصو هنريك حتى الحرب العظمى. تلك هي العبارة التى استحوذت على ذهن ريكاردو ريس منذ عودته من سانت فاطيما. ولا يستطع ان يتذكر ما اذا كان قد قرأها في جريدة أو كتاب أو ما إذا كان قد سمعها في موعظة بالكنيسة أو في خطبة بل وربما تكون قد كتبت في اعلان عن البوفريل ، الكلمات تثير اعجابه الي درجة الانبهار والتعبير فصيح ومعد بحيث يثير العواطف ويشعل القلوب لأنه يبرهن على اننا شعب مختار لقد كانت هناك شعوب اخرى في الماضي ولسوف تكون هناك شعوب اخرى في المستقبل ولكن لا يوجد شعب تحمل على مدى هذه الفترة الطويلة للغاية وشهد ٨٠٠ عام من الولاء الراسخ ومن الالفة المستمرة مع القوى السماوية، وصحيح اننا كنا نسير ببطء في خلق الامبراطورية الخامسة وأن موسوليني قد جرى بسرعة وسبقنا ولكن الامبراطورية السادسة لن تزوغ وتتملص منا ولا حتى الامبراطورية السابعة وكل ما نحتاج اليه هو الصبر والصبر هو طبيعة متأصلة فينا . نحن الآن نقف بالفعل على الطريق الصحيح وفقا للتصريح الذى أدلى به صاحب السيادة رئيس الجمهورية الجنرال انطونيو اوسكار دى فراجوسو كارمونا في خطبة ينبغي ان تكون نموذجا لجميع الحكام الذين سيحكمون الامة فيما بعد . إذ اشار في خطبته الى ان البرتغال قد اصبحت تتمتع الآن بكل الاحترام في جميع ارجاء

العالم وأنه ينبغي علينا ان نكون فخورين بكوننا برتغاليين ، فهذه عاطفة لا تقل نبلا عن العاطفة السابقة عليها وكلتاهما جديرتان بالاستشهاد بهما على نحو بارز. ويمكن لنا ان نفتخر بهذا الاحترام الذي يكنه لنا العالم كله لأننا قمنا بالإبحار في المحيطات وأعالي البحار في ولاء واخلاص وكيف يمكن لنا ان نعيش بدون الولاء والاخلاص ؟ لقد عاد ريكاردو ريس من فاطيما مرهقا ومتحرق البشرة وبدون ان يتمكن من مشاهدة مارسيندا او اية معجزة فقضى ثلاثة ايام متواصلة في شقته ولم يعاود الدخول الى العالم الخارجي الا من خلال هذه الخطبة الوطنية التي ألقاها الرئيس المبجل. ولذلك أخذ الجريدة معه وذهب لكي يجلس تحت ظلال تمثال أداماستور. وكان الرجلان العجوزان هناك حيث كانا يرقبان ويندهشان من وصول البواخر التي جاءت لزيارة هذه الارض الموعودة التي تناولتها الدول الاخرى بالمناقشة العميقة. سفن وبواخر عديدة عليها أعلام مع اطلاق أبواقها الاحتفالية بينما بحارتها مصطفون على ظهر السفن من اجل القاء التحية. ويزغ الضوء اخيرا في رأسي هذين الخفيرين عندما اعطاهما ريكاردو ريس الجريدة التي كان قد قرأها بعمق واستوعب ما فيها وحفظ ما جاء بها عن ظهر قلب. نعم لقد تطلب الامر الانتظار على مدى ٨٠٠ عام لكي نشعر بالافتحار بأننا برتغاليون من ألتو دي سانتا كاتارينا تحييك ثمانية قرون: أوه أيها البحر العظيم . الرجلان العجوزان : النحيل والممتلىء يقومان بمسح دمعة مختلسة، حيث يأسفان من أنهما لا يستطيعان البقاء للأبد في هذا المكان المطل على البحر من أجل أن يرقبا السفن والبواخر القادمة، فمثل هذه السعادة الغامرة يصعب تحملها على نحو يفوق تحمل قصر حياتهما ، ومن المقعد الذي يجلس عليه ريكاردو ريس يشاهد لعبة حب ما بين جندي وخادمة. الجندي يغازلها وهي تبعده من خلال صفعات قليلة، هذا يوم من اجل الغناء وتسبيح الرب الذي هو تسبيح الناس الذين ليسوا من الاغريق . الازهار في قمة تفتحها والانسان يكون سعيداً

اللهم الا إذا التهمته الطموحات التى لا تشبع ، يقوم ريكاردو ريس بتقييم طموحاته ويرى فى نهاية الأمر إلى انه لا يهفو ولا يشتاق الى اى شىء والى انه قانع بأن يراقب النهر والسفن المارة والجبال والسلام السائد هنالك الا انه مع ذلك لا يشعر بالسعادة فى داخل كيانه ولا شىء سوى هذا القرص الحشرى السخيف الذى لا يتوقف ابدا، ويتمتم قائلا: انه الطقس ثم يسائل نفسه عن الاحاسيس التى قد يشعر بها لو انه تقابل بالفعل مع مارسيندا فى فاطيما او كما يقول الناس عادة انهما وقعا فى اذرع بعضهما البعض.. نحن لن نفترق عن بعضنا البعض بعد ذلك على الاطلاق. فقط عندما اعتقدتُ اننى فقدتك أدركت تماما اننى احبك للغاية . وهى قد تستخدم كلمات وعبارات مماثلة وبعدئذ لا يعرفان اى كلام آخر يقولانه حتى ولو كانت لهما مطلق الحرية فى الجرى خلف شجرة زيتون مع التكرار لنفسيهما الهمسات والضحكات والتنهدات التى قام بها آخرون . ويشك ريكاردو ريس مرة اخرى ويشعر مرة اخرى بقرص الحشرات يتزايد فى داخل عظامه، لا يمكن للمرء ان يقاوم الزمن، ونحن واقعون فى داخل نطاق الزمن، ونحن نصطحب الزمن ولا شىء اكثر من ذلك. وبعد ان فرغ الرجلان العجوزان من الجريدة فإنهما يجريان القرعة من خلال الالقاء بعملة لكى يعرفا من منهما الذى سيأخذ الجريدة معه الى منزله . وحتى الرجل الذى لا يعرف القراءة يشتهى الفوز بهذه الجائزة ، لانه لا شىء افضل من الجرائد فى تبطين أدراج المكاتب وكل الادراج الاخرى.

وعندما وصل الى عيادته فى فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم قالت له كارلوتا موظفة الاستقبال: لقد وصل خطاب باسمك يا دكتور وانا وضعته على مكتبك. وعندئذ شعر ريكاردو ريس ان ضربة قد سددت الى قلبه أو معدته . نحن فى مثل هذه اللحظات نفقد الهدوء ورباطة الجأش بل ولا نستطيع تحديد المكان الذى اصابته الضربة لان المسافة التى تفصل القلب عن المعدة صغيرة للغاية كما يوجد

هناك ايضا الحجاب الحاجز الذى يتأثر بالحركات الصادرة عن كل من القلب والمعدة . لو اعاد الله خلق الانسان من جديد فى هذه الايام ربما جعل جسده اقل تعقيداً، الخطاب من مارسيندا. لقد كتبته لكى تخبرنى بأنها لم تستطع السفر الى سانت فاطيما او انها سافرت بالفعل وشاهدته من على مسافة بعيدة بل ولوحت له بيدها السليمة ثم شعرت باليأس اولا لانه لم يشاهدها وثانيا لان العذراء لم تقدم لها الشفاء والآن يا حبيبى.. اننى فى انتظارك فى كوينتا داس لاجريماس اذا كنت مازلت تحبنى . من الواضح انه خطاب من مارسيندا. انه يوجد هنالك فى منتصف القصاصة المستطيلة للورق النشاف الاخضر اللون والمظروف له لون بنفسجى فاتح . لا هذا اللون إذا شوهد من عند الباب يبدو أبيض اللون وهذا خداع بصرى. نحن نتعلم بالمدرسة ان الازرق + الاصفر = اخضر وان الاخضر + البنفسجى = ابيض وان الابيض + القلق يجعل وجهنا شاحبا. الخطاب ليس بنفسجى اللون ولا هو قد جاء من كوامبرا . لقد فتحه ريكاردو ريس فى حرص وحذر ووجد بداخله قصاصة ورق صغيرة مكتوباً عليها بخط ردىء للغاية شبيه بخط الاطباء : عزيزى الزميل احيط سيادتكم علما بأننى شفيت تماما وآمل ان استرد عيادتى واستأنف العمل مع بداية الشهر القادم. وأنتهز هذه الفرصة لكى أعبر لك عن شكرى العميق على قيامك بالعمل نيابة عنى اثناء فترة المرض الذى اصابنى واتمنى لك النجاح فى العثور بسرعة على وظيفة جديدة تسمح بالاستفادة العظيمة من خبراتك ومهاراتك الكبيرة.

واستمر الخطاب على مدى سطور عديدة اخرى تضم النواحى الرسمية الاعتيادية التى تراعى فى كل الخطابات الاخرى، وأعاد ريكاردو ريس قراءة هذا الخطاب مرة اخرى وأعجبته لباقة زميله التى حولت الجميل الذى قدمه لريكاردو ريس الى جميل قدمه ريكاردو ريس اليه مما سمح لريكاردو ريس ان يترك العمل برأس مرفوع شامخ ، كما اصبح بمقدور ريس أن يأخذ هذا الخطاب معه اثناء

البحث عن عمل ويعرضه كخطاب توصية بل وكدليل على تقديم الخدمة الجيدة والمخلصة للجماهير من المرضى ... فهو سيكون مثل الخطاب الذى سيقدمه فندق البراجانسيا لليديا إذا قررت ترك هذا الفندق من اجل العمل فى وظيفة اخرى او من اجل الزواج . وارتدى معطفه الابيض واستدعى المريض الاول . فى غرفة الانتظار يوجد خمسة مرضى آخرين ينبغى فحصهم . انه لن يكون لديه الآن وقت لكى يعالجهم من امراضهم ومن حسن الحظ ان حالاتهم ليست خطيرة للغاية مما لا يجعلهم يموتون على يديه فى خلال الاثنى عشر يوما المتبقية قبل انتهاء الشهر.

ليديا لم تظهر فى الافق . صحيح ان هذا ليس هو يوم اجازتها ولكنها تعرف ان الرحلة لفاطيما هى رحلة ذهاب وعودة مباشرة وتعرف انه قد يكون قد تقابل مع مارسيندا هناك وبذلك كان ينبغى عليها أن تجىء لكى تعرف على الأقل ما إذا كانت صديقتها مارسيندا قد اصبحت فى حالة جيدة وما إذا كانت ذراعها قد شفيت . لقد كان بمقدور ليديا ان تجىء الى ألتو دى سانتا كاتارينا والعودة منها ولا يستغرق ذلك منها سوى نصف ساعة. او كان بمقدورها المجىء الى عيادته القريبة للغاية من الفندق الذى تعمل به . ولكنها لم تحضر ولم تسأل ، ويقبع ريكاردو ريس فى داخل شقته ولا يتركها إلا من اجل الذهاب للعمل أو تناول طعام العشاء . وهو من نافذته يرقب النهر والمنحدرات البعيدة لمونتجو وصخرة آداماستور والرجلين العجوزين المواظبين واشجار النخيل. ومن وقت لآخر ينزل من اجل الذهاب الى المنتزة وقراءة صفحات قليلة من كتاب ما.. ويعود الى منزله مبكرا ويفكر فى فرنانو بسوا الذى اصبح ميتا الآن كما يفكر فى ألبرتو كايرو الذى اختفى وهو فى ريعان شبابه والذى كان تتعلق عليه آمال كبرى . ويفكر فى ألفارو دى كامبوس الذى ذهب الى جلاسجو او هذا هو على الاقل ما قاله فى البرقية حيث اشار الى انه ربما يستقر هناك ويعمل فى بناء السفن حتى نهاية فترة حياته او الى ان يخرج على المعاش. ومن وقت لآخر يذهب ريكاردو ريس الى

السينما ويشاهد فيلم «خبزنا اليومى» وهو فيلم من اخراج كينج فيدور أو يشاهد فيلم «التسع والثلاثون سلَمة» من تمثيل روبرت دونات ومادلين كارول. ولا يستطيع مقاومـــة الذهاب الى سو لويس Sao Luis لكى يشاهد «أوديوسكوب» وهو فيلم 3-D.

يقولون ان الزمن لا يتوقف من اجل اى رجل وانما يواصل الزحف والمسير على الاشياء المألوفة التى مازالت تتكرر ومع ذلك هناك أناس يشعرون بالغيظ من الايقاع البطىء الذى يمر به الزمن . ينبغى انقضاء ٢٤ ساعة لكى تشكل يوما وفى نهاية اليوم تكتشف انه لم يكن جديرا بالاهتمام ثم تكتشف ان اليوم التالى ليست له اهمية ايضا، لو كان فقط بمقدورنا ان نثب ونتخطى كل الاسابيع العقيمة التى لا طائل تحتها من اجل ان نعيش ساعة واحدة من الانجاز ولحظة واحدة من الاشـراق الرائع. وتبـدأ فكرة العـودة الى البـرازيل تراود ريكاردو ريس. ومن الواضح ان موت فرناندو بسوا كان سببا قويا دعاه الى عبور المحيط الاطلنطى عقب غياب دام ستة عشر عاما من اجل الاقامة بالبرتغال واستئناف ممارسته لمهنة الطب مع كتابة قصيدة من وقت لآخر وبحيث يكبر فى السن ويحتل مكانة الشاعر الذى مات حتى ولو كان احد لا يلحظ هذا الاستبدال . ولكنه الآن يتعجب: هذه ليست دولته اذا كانت فى الحقيقة هى دولة اى شخص. أما البرتغـال فهـى لا تنتمى الا لله العظيم وسيدتنا المباركة. إنها اسكتش حزين له بعدان وخال من النقش البـارز ولا حـتى مع المشـاهد الخـاصـة «للمـجـالات السـمـعـيـة Audioscopes». وفرناندو بسوا سواء أكان ظلا ام شبحا يظهر متجليا من وقت لآخر لكى يدلى ببعض التعليقات التهكمية الساخرة ولكى يبتسم فى كرم وصداقة ثم يختفى . وريكاردو ريس لا يهتم بالعودة بسببه. ومارسيندا قد توقفت عن المجىء وهى تعيش فى كوامبرا بشارع غير معروف له وايامها تمر يوما وراء يوم بدون شفاء . ربما تكون قد اخفت خطاباته فى ركن ما بالعلية أو فى حشوة

تبطين كرسي او في درج سري استخدمته امها امامها او في حقيبة خادمة منزل لا تستطيع القراءة وجديرة بالثقة وربما مارسيندا تقرأ خطاباته مرارا وتكرارا مثل شخص يتلو ويكرر حلما مرات عديدة لكي لا ينساه ولكن عبثا لان احلامنا وما نتذكره من احلامنا ليس بينهما اي شيء مشترك. وليديا سوف تجيء غدا لأنها دائما ما تجيء في ايام اجازاتها ولكن ليديا هي الخادمة / الممرضة لأنّا كارنينا وهي مفيدة من حيث جعل المنزل نظيفا ومن حيث تلبية بعض الاحتياجات الاخرى ولكنها لا تستطيع ان تملأ - من خلال الامور القليلة التي يمكن ان تقدمها - فراغ ريكاردو ريس ولا حتى العالم كله يمكنه أن يملأ فراغه اذا تقبلنا صورته عن نفسه. مع بداية شهر يونيو سيصبح ريكاردو ريس عاطلا وسيكون عليه ان يبحث مرة اخرى عن مكان شاغر وعن وظيفة مؤقتة في الطب بحيث يحل محل طبيب في اجازة وذلك لكي يجعل الايام تمر في مزيد من السرعة. ومن حسن الحظ انه مازال لديه لفيفة كبيرة من الاوراق المالية الانجليزية من فئة الجنيه لم يسحب منها اية نقود كما توجد هناك ايضا تلك النقود التي مازالت مودعة في بنك برازيلي وهذه المبالغ العديدة ستكون كافية تماماً لتأجير عيادة بصفة مؤقتة أو تشييد بناء لممارسة الطب العام يكون خاصاً به لأن الطب العام هو ما يحتاج اليه معظم المرضى . ولا داع لأن يعمل على سبيل الهواية في مجال امراض القلب والرئتين . بل ويمكنه استخدام ليديا من اجل تقديم الرعاية للمرضى فهي انسانة ذكية ومستهترة اخلاقيا . وليديا سرعان ما تتعلم من خلال ارشادات بسيطة كيفية نطق الكلمات على نحو جيد وبذلك تهرب من مصيرها في الحياة كخادمة غرف بالفندق. ولكن هذا ليس سوى حلم يقظة لرجل يستهلك الوقت في الانخراط في تفكير عديم الجدوى . فريكاردو ريس لن يسعى للحصول على عمل لأن أفضل شيء يمكن له ان يفعله هو ان يرجع الى البرازيل على ظهر الباخرة هايلاند بريجيد لدى قيام هذه الباخرة بالرحلة التالية . انه سوف يعيد في تكتم وسرية

كتاب «اله المتاهة» الى صاحبه ولن يعرف الاوبريان OBrien أبدا كيف ظهر الكتاب المفقود مرة اخرى على نحو فجائى.

ووصلت ليديا وقالت فى شىء من البرود: مساء الخير وبدا عليها وكأنها منسحبة الى داخل نفسها . ولم تسأل أية أسئلة فاضطر ريس لأن يتحدث قائلا: لقد ذهبت الى فاطيما . فتساءلت : أوه هل اعجبتك ؟. على أى نحو ينبغى على ريكاردو ريس ان يرد؟ انه من حيث هو شخص غير مؤمن بزيارة الاضرحة المقدسة ليس من المتوقع له ان يكون قد عاش تجربة الغبطة الصوفية الروحانية ومن ناحية اخرى فهو لم يذهب بدافع من حب الاستطلاع فقط ولذلك يقصر نفسه على قول كلام عمومى: عدد هائل من الناس والتراب فى كل مكان بل واضطررت ان انام في العراء وهو شىء سبق لك ان حذرتينى منه ولكن من حسن حظى ان الليل كان دافئا . فقالت: يا دكتور انت لست من ذلك النوع من الناس الذين يعيشون حياة خشنة اثناء الحج . فقال: لقد ذهبت لأرى الشكل الذى يبدو عليه هذا الحج . وتمكث ليديا فى المطبخ وتشغل المياه الساخنة من اجل ان تغسل الاطباق وأوضحت بدون أن تقول كلاما كثيرا بأنه لن يتم هناك لقاء جسدى بينهما. أيمكن أن يكون السبب فى هذا الحظر هو مشكلة الحيض المألوفة أم شىء من الاستياء او الجمع ما بين الدماء والدموع؟.. وجلس على مقعد طويل بالمطبخ وراح يرقبها اثناء قيامها بالعمل، ثم قال: ولم أتقابل بالمصادفة مع الدكتور سامبيو وابنته وهو أمر متوقع بسبب وجود هذا العدد الهائل من الجماهير المحتشدة . وقيلت هذه الكلمات بطريقة عفوية فهى ترفرف فى المنتصف فى انتظار شخص ما لكى يعير اهتماما وانتباها ، ولكن ما هى نوعية الانتباه فهو ريما يقول الصدق وربما يقول الكذب . وهذا هو عجز الكلمات واتسامها بالازدواجية والنفاق الموجود فى داخل بنائها . الكلمة تكون كاذبة وبنفس هذه الكلمة الكاذبة يمكن لنا أن نقول الصدق فنحن لسنا ما نقوله ونحن لا نكون

صادقين الا اذا صدقنا الاخرون . والتصديق من جانب ليديا غير معروف لانها تتساءل بكل بساطة: أكانت هناك اية معجزات . فقال: لو حدثت هناك معجزات فإنني لم أشاهدها ولم تشر التقارير الواردة بالصحف الى حدوث أية معجزات . فقالت: السينيوريتا مارسيندا مسكينة اذا كانت قد ذهبت الى هناك على امل ان يتم شفاؤها ومن المؤكد انها اصيبت بالاحباط الشديد. فقال: لقد كانت تعلق آمالا قليلة. فقالت: وكيف تعرف ذلك؟ وركزت ليديا حملقتها على ريكاردو ريس بسرعة خاطفة مثل طائر مذعور . فقال لنفسه في تفكير: انها تحاول الايقاع بي في المصيدة . ثم رد عليها قائلا: عندما كنت مقيما بالفندق كانت مارسيندا ووالدها يرتبان بالفعل من أجل زيارة سانت فاطيما. فقالت: أوه . حقا . هذه هي المبارزات الصغيرة التي يرهق الناس أنفسهم بها إلى أن يكبروا ويصبحوا طاعنين في السن. من الأفضل تغيير موضوع الحديث وهنا تجئ أهمية الجرائد فهي تخزن الحقائق في ذاكرة الانسان وتساعد على استمرار المناقشات بالنسبة للرجلين العجوزين الموجودين في ألتو دى سانتا كاتارينا وبالنسبة لريكاردو ريس وليديا لأن بعض حالات الصمت لا تكون مفضلة على الكلمات . وقال ريس في نوع من الافتتاحية: وما هي الاخبار عن أخيك ؟ فقالت: أخي على ما يرام ولماذا تسأل ؟ فقال: لقد تذكرته بسبب قراءتي لشئ ما بالجريدة عبارة عن خطاب ألقاه مهندس معين يسمى نوبر جوديس Nobre Guedes والجريدة مازالت لدى هنا. فقالت: إنني لم أسمع من قبل عن هذا الجنتلمان. فقال : اذا عرفنا ما ينبغي عليه أن يقوله عن البحارة فإنني أشك في أن أخاك سينادى عليه بكلمة جنتلمان. فقالت: وما الذي يقوله؟ فقال: انتظري. لسوف أحضر الجريدة. وغادر ريكاردو ريس المطبخ وذلك إلى غرفة المكتبة وعاد ومعه جريدة اوه سكيولو O Seculo حيث استغرق نص الحديث صفحة كاملة تقريبا. وقال: هذا هو نص الخطاب الذي ألقاه نوبر جوديس في الاذاعة الوطنية التي تشجب الشيوعية وهو يشير في احدى

النقاط إلى البحارة. فقالت ليديا: هــل هو يقول أى كلام عن أخــى ؟ فقال : انه لا يذكر أخاك بالاسم ولكن لكى أقدم لك مثالا فإنه قال هذا الكلام: يوجد منشور لعين ومروع متداول بين الناس حاليا ويعرف باسم «البحار الأحمر» . فقالت: ما معنى كلمــة لعين execrable ؟ فقال: هذه الكلمة تعنى شيئاً ما شريراً وحقيراً ورديئاً للغاية . فقالت: شئ ترغب فى أن تصب اللعنات عليه. فقال: هذا صحيح تماما . فقالت : لقد سبق لى مشاهدة «البحار الأحمر» وهو لم يجعلنى أشعر بالرغبة فى صب اللعنات عليه . فقال: هل أخوك أراك اياه ؟ فقالت: نعم . لقد كان هو دانيال . فقال : اذن أخوك شيوعي . فقالت: أنا لست متأكدة من ذلك ولكنه بكل تأكيد يناصر الشيوعية. فقال: وما الفارق ؟ فقالت: انه من وجهة نظرى لا يبدو مختلفا عن أناس آخرين. فقال: أتظنين أنه لو كان شيوعيا لأصبح شكله مختلفا؟ فقالت: اننى لا أعرف ولا أستطيع التوضيح والتفسير. فقال : حسنا . هذا المهندس الذى يسمى جوديس يقول أيضا إن ملاحى البرتغال ليسوا مصطبغين باللون الأحمر أو الأبيض أو الأزرق وانما هم برتغاليون فقط. فقالت: هل هو يعتقد أن كلمة برتغالى تشير إلى لون معين؟ فقال: هذا رائع للغاية . أى شخص ينظر اليك سيقول إنك لن تتسببى فى كسر طبق ومع ذلك يمكن أن تفلت من يديك كمية كبيرة من الأطباق . فقالت: يدى ثابتة وأنا لست معتادة على كسر الأطباق وانظر إلى الآن ها أنذا أغسل اطباقك ولا ينزلق أى طبق من يدىّ. فقال: انت فتاة غير عادية. فقالت: هذه الفتاة غير العادية ليست سوى خادمة غرف بفندق ولكن قل لى هل جوديس قال أى كلام آخر عن البحارة ؟ فقال: عن البحارة لا . فقالت: اننى أتذكر الآن أن دانيال ذكر اسم بحار يسمى أيضا جوديس ولكن اسمه كان مانويل فقال: اسمه بالكامل : مانويل جوديس وهو فى انتظار صدور حكم بشأنه ومجموع المقدمين للمحاكمة أربعون شخصا. فقالت: الكثيرون لهم اسم جوديس . فقال: حسنا ولكن هذا اسمه بالكامل هو مانويل جوديس . وتم

الانتهاء من غسل الأطباق ومازال أمام ليديا أعمال أخرى. اذ ينبغي عليها تغيير الملايات وترتيب السرير وفتح النافذة من أجل تجديد الهواء بالغرفة وتنظيف الحمام ووضع فوط ومناشف جديدة بالحمام. وبعد أن انتهت من كل تلك الأعمال عادت إلى المطبخ لكى تقوم بتجفيف الأطباق وهنا يتسلل ريس فى خلسة وراءها ويضع ذراعه حول خصرها. وتحاول أن تتجنبه ولكنه يقبلها على رقبتها مما جعل الطبق ينزلق من يديها ويتحطم ويتناثر إلى قطع صغيرة فوق الأرضية ، فقال ضاحكا: اذن فأنت قد كسرت طبقا فى نهاية الأمر. وكان من المحتم أن يحدث ذلك إن عاجلا أو آجلا فلا أحد يستطيع الهروب من قدره ومصيره. ثم أدارها نحوه وقبلها بقبلة كاملة فى شفتيها. ولم تعد تقاومه ولكنها قالت له بكل بساطة: لا نستطيع أن نفعل ذلك اليوم.

وبعدئذ كان فرناندو بسوا هو الذى قام بزيارة ريكاردو ريس . فبعد مرور أيام عديدة ظهر متجليا قبل منتصف الليل مباشرة عندما كان جميع الجيران قد أخلدوا للنوم فى السرير . وصعد على السلالم على أطراف أصابع قدميه متخذاً هذا الاجراء الوقائى لأنه لم يكن متأكدا أبدا من أنه غير مرئى. فى بعض الأحيان كان الناس ينظرون عبره ومن خلاله حيث كان يدرك ذلك من خلال عدم وجود تعبيرات على وجوههم ولكن فى حالات نادرة كانوا يحملون نحوه كما لو كان هناك شئ عجيب يتعلق به ولكنهم لا يعرفون طبيعةأذلك الشئ العجيب. ولو قال لهم أحد إن هذا الرجل المرتدى ثيابا سوداء ليس سوى شبح فإنهم لن يصدقوا ذلك . إذن لقد صعد فرناندو بسوا على السلالم وطرق فى خفة على الباب وفق الاشارة المتفق عليها مع ريس مع الحرص على أن لا يتسبب فى إحداث مشهد درامى مثل أن تشاهده امرأة على بسطة السلم فتصرخ بأعلى صوتها قائلة: النجدة يوجد لص يوجد حرامى أهذا معقول ؟ فرناندو بسوا المسكين حرامى؟ ذلك الرجل الذى أُخذ منه كل شئ بما فى ذلك حياته ذاتها. وحاول ريكاردو ريس وهو جالس فى غرفة

مكتبه أن يؤلف قصيدة وما أن كتب بيتا واحدا وهو: نحن لا نشاهد الأقدار التي تسحقنا نحن ننسى وجودها . حتى سمع طرقا خفيفا فأدرك على الفور من يكون الطارق وسارع إلى فتح الباب ثم قال مرحبا: يا لها من مفاجأة سارة ، أين كنت بحق الجحيم ؟ فأشار فرناندو بسوا إلى أنه قد جاء توا من المقابر الريفية بمنطقة برازارز حيث لا يستطيع هناك مجرد الخلود إلى الراحة في سلام لأن جدته ديونيسيا الضارية الشرسة قد دفنت أيضا هناك وتطلب منه يوميا تقريرا تفصيليا عن حالات مجيئه وذهابه فيرد حفيدها في ضيق : كنت أتريض في نزهة مثلما يرد الآن على ريكاردو ريس وان كان في غير ضيق أو توتر. وغاص فرناندو بسوا في الأريكة مع الاتيان بحركة تدل على أنه يشعر بإعياء لا نهائي ثم رفع يده إلى جبهته كما لو كان يحاول تهدئة ألم أو إبعاد سحابة من نوع ما ثم نزل بأصابعه على وجهه في تمليس وعلى عينيه بكل تأكيد مع الضغط على زاويتي فمه والتمليس على شاربه وذقنه المدبب . بدا على الأصابع وكأنها ترغب في اعادة تشكيل ملامحه وارجاعها إلى شكلها الأصلي ولكن الفنان قد التقط ممحاة بدلا من قلم رصاص فتقوم بالازالة أثناء مرورها ويفقد جانب واحد كامل من الوجه ملامحه الرئيسية وهو أمر متوقع لأن ستة شهور قد مضت على وفاة فرناندو بسوا. وقال ريس في تذمر وشكوى: رؤيتي لك تقل تدريجيا في هذه الأيام . فقال بسوا: لقد حذرتك في اليوم الأول . فأنا أصبح نسّايا أكثر وأكثر مع مرور الزمن بل والآن وهناك في شارع كالهاريس كان علي أن أفكر في عمق لكي أتذكر الطريق المؤدي إلى شقتك. فقال ريس: كان عليك فقط أن تحدد موقع تمثال آداماستور . فقال فرناندو: لو كنت قد ركزت ذهني على آداماستور لكنت قد وقعت في المزيد من الارتباك والخبطة لانني كنت سأعتقد أنني رجعت زمنيا للوراء بثماني سنوات في دوربـــان Durban وبذلك اتعرض للضياع مرتين : في الزمان وفي المكان أيضا. فقال ريس: حاول أن تجئ إلى هنا مرات كثيرة وبهذه الطريقة يمكن لك أن تنعش

ذاكرتك. فقال بسوا: اليوم تم ارشادى من خلال رائحة بصل عالقة في الجو . فقال ريس: رائحة بصل؟ فقال بسوا: يبدو أن صديقك البصل لم يتوقف عن التجسس عليك . فقال ريس : هذا أمر سخيف . فقال بسوا: لا يمكن لك أن تعرف أبدا ما يدور في ذهن رجل الشرطة وربما تكون أنت قد أعطيت انطباعا حسنا وربما فيكتور يرغب في كسب صداقتك ولكنه يدرك أنك تعيش في عالم المختارين بينما هو يعيش في عالم الملعونين وذلك هو السبب في أنه يمضي الليل محملقا لأعلى نحو نافذتك ليرى ما اذا كان يوجد هناك أى ضوء مثل رجل واقع في حب جنوني. فقال ريس: أنت تقول نكتة على حساب أعصابي. فقال بسوا: انني حزين للغاية من أجلك . فقال ريس: ولكن هذا التجسس المستمر ليس له ما يبرره على الاطلاق . فقال بسوا: هناك بعض المبررات. مثال ذلك هل من الطبيعي لأى شخص أن يزوره شخص قادم من العالم الآخر. فقال ريس: ولكن لا أحد يستطيع مشاهدتك . فقال بسوا: هذا يتوقف على أمور أخرى ففي بعض الأحيان لا يكون لدى الشخص الميت الصبر على أن يظل غير مرئى أو أحيانا تنقصه الطاقة ولا يضع في الحسبان الحقيقة التي مفادها أن هناك أناسا معينين من الأحياء لهم عيون تستطيع مشاهدة غير المرئى. فقال ريس: من المؤكد أن هذا لا ينطبق على فيكتور. ثم رفع ريكاردو ريس قصاصة الورق التي كان يكتب عليها أبياتا من الشعر وقال: لدى هنا بعض أبيات من الشعر ولا أعرف على أى نحو ستنتهي. فقال بسوا: إقرأها لي. فقال ريس: إنه مجرد مطلع للقصيدة بل وربما أغير هذا المطلع أيضا . فقال بسوا : اقرأها لي. فقال ريس: «لأننا لا نشاهد الأقدار التي تحطمنا وتسحقنا فإننا ننسى أنها توجد» : فقال بسوا: انني معجب بهذا البيت الشعرى ولكنى أرى - بقدر ما أتذكر - أنك قد كتبت كثيرا في نفس هذا المعنى حيث كتبت ذلك آلاف المرات وبآلاف الطرق المختلفة قبل أن تسافر إلى البرازيل ويبدو أن المناطق الاستوائية لم تنعش ولم تثر عبقريتك الشعرية وليس لدى كلام

آخر أقوله. فقال ريس: أنا لست مثلك . فقال بسوا: لسوف تصبح مثلى ولا داع لأن تشعر بالقلق . فقال ريس: الالهام الخاص بى هو من النوع الذى يمكن أن نسميه بالالهام الداخلى . فقال بسوا: الالهام هو مجرد كلمة . فقال ريس: أنا آرجوس Argos له ٩٩٩ عيناً وكلها عمياء. فقال بسوا: وهذه استعارة جميلة أيضاً وتوحى بأنك لا يمكن أن تكون فى جودة رجل الشرطة . فقال ريس: على فكرة - يا فرناندو - هل تقابلت فى أى وقت من الأوقات بطريق المصادفة مع رجل يسمى أنطونيو فيّرو وهو سكرتير *الدعاية الوطنية* ؟ فقال بسوا: نعم فنحن كنا صديقين وأنا مدين له بحصولى على جائزة قدرها خمسة آلاف ريس reis عن ديوانى الصادر تحت عنوان «المنساجم» ولماذا تسأل؟ فقال ريس : لسوف تعرف فى خلال لحظات . لدى هنا خبر. هل تعرف أن الجوائز الأدبية التى منحتها الحكومة قد صرفت للمستحقين منذ أيام قليلة ؟ فقال بسوا: وكيف يمكن لى أن أعرف؟ فقال ريس: سامحنى فأنا أنسى دائما أنك لم تعد تستطيع القراءة. وقال بسوا: ومن الذى كسب الجائزة فى هذا العام؟ فقال ريس: لقد كسبها كارلوس كويروس. فقال بسوا: آه. كارلوس . فقال ريس: أكنت تعرفه ؟ فقال بسوا: كان كارلوس كويروس ابن أخ امرأة تسمى أوفيلينيا Ophelinha ويكتب اسمها بـ ph بدلا من F وهذه المرأة ظللتُ واقعا فى حبها لبعض الوقت. حيث كنا نعمل فى نفس المكتب. فقال ريس: اننى لا استطيع أن أتخيل أنك تقع فى الحب والغرام. فقال بسوا: نحن نقع فى الحب مرة واحدة على الأقل طوال فترة حياتنا وذلك هو ما حدث بالنسبة لى. فقال ريس: اننى متلهف لأن أعرف نوعية خطابات الحب التى كنت تكتبها . فقال : أذكر أنها كانت إلى حد ما أقل تفاهة من معظم خطابات العشق والغرام والحب. فقال ريس: ومتى حدث هذا الحب؟ فقال بسوا: لقد بدأ بمجرد أن سافرت أنت إلى البرازيل. فقال ريس: وهل استمر هذا الحب؟ لفترة طويلة ؟ فقال بسوا: مدة كافية بالنسبة لى لأن أكون قادرا على أن أقول مثل الكاردينال جونزاجا إننى أيضا قد

عرفت الحب. فقال ريس: أجد من الصعب على أن أصدق هذا. فقال بسوا: هل تعتقد أنني أكذب؟ فقال ريس: لا بكل تأكيد وكيف تقول كلاما كهذا فنحن لم نكذب على بعضنا البعض في أي وقت من الأوقات على الاطلاق وعندما كان الموقف يتطلب منا أن نكذب كنا نقصر انفسنا على استخدام الكلمات التي تكذب . فقال بسوا: اذن فما هو الشئ الذي تجده صعبا للغاية بحيث لا يمكن لك أن تصدقه؟ فقال ريس: هو أنك قد وقعت في الحب فأنت من خلال معرفتي بجوانب شخصيتك تماما تعتبر من وجهة نظري ذلك النوع من الشخص الذي هو غير قادر على الحب. فقال بسوا: مثل دون جوان؟ فقال ريس: نعم مثل دون جوان ولكن لسبب مختلف فدون جوان كان غير قادر على الحب بسبب وجود قدر هائل من الشبق لديه مما كان يضطره إلى توزيع ذلك الشبق على النساء اللاتي يرغب فيهن بينما الوضع بالنسبة لك بقدر ما أتذكر هو العكس من ذلك تماما. فقال بسوا: وماذا عنك ؟ فقال ريس: انني شئ ما يوجد في المنتصف. انني أمثل الوضع العادي أو المتوسط لا أمثل الأشياء الزائدة على اللازم أو الأقل من اللازم وبكلمات أخرى إنني أمثل العاشق المتوازن على نحو جيد. وعلى كل حال فالحب يتسم بالتعقيد يا عزيزي فرناندو. فقال بسوا: لا يمكن لك أن تشتكي فأنت لديك ليديا الخاصة بك . فقال ريس: ليديا هي خادمة غرف بفندق. فقال بسوا: وأوفيلينيا كانت كاتبة على آلة كاتبة. فقال ريس: بدلا من التناقش في شئون النساء فنحن نتناقش في وظائف النساء. وقال بسوا: وعندك أيضا الفتاة التي قابلتها في الحديقة ماذا كان اسمها ؟ فقال ريس: مارسيندا . وأضاف : خبرتي المحدودة تقول إن العاطفة هي الاتجاه المشترك للرجال إزاء النساء. فقال بسوا: يا عزيزي ريكاردو كان ينبغي أن نقضي وقتا أطول مع بعضنا البعض.

ونهض فرناندو بسوا واقفا على قدميه وراح يجوب غرفة المكتبة جيئة وذهابا ثم رفع قصاصة الورق التي كان ريكاردو ريس قد كتب عليها أبيات الشعر التي

قرأها وقال: كيف تسنى لك أن تقول هذا البيت «ولأننا لا نشاهد الأقدار التى تحطمنا فإننــا ننسى أنها توجــد» ولا بد أن يكون المرء أعمى بالفعل عنـــــدما لا يشاهد الأقدار وهى تحطمنــا يوما وراء يوم كما يقول المثل الشعبى: «لا يوجد أناس أكثر عمى من اولئك الذين لن يشاهدوا».

(١٦)

حشرات زيز الحصاد تغنى بدون أن يراها أحد فى أشجار النخيل الواقعة فى ألتو دى سانتا كاتارينا. ويصاب آداماستور بالصمم بسبب الكوراس العالى النغمة الصادر عنها والذى لا يستحق أن يطلق عليه الاسم الجميل لكلمة «موسيقى» ولكن مسألة الموسيقى تتوقف إلى درجة كبيرة على الذى يصغى ويستمع. ولكن العملاق المحبوب لم يكن يسمع تلك الأصوات وهو يمشى الهوينا ويذرع الشاطئ جيئة وذهابا فى انتظار مجئ القوادة دوريس Doris وعـــمل الترتيبات اللازمة للقاء المرغوب فيه للغاية لأن البحر كان يغنى آنئذ وكان الصوت المحبوب لتيتيس Thetis يرفرف فوق المياه كما يقال عادة عن روح الإله . ولكن الذى يغنى هو زيز الحصاد الذكر حيث يقوم بحك جناحيه فى اهتياج لكى ينتج هذا الصوت الاستحواذى القاسى عديم الشفقة الشبيه بصرخات قاطع الرخام لدى الاصطدام بعرق أكثر صلابة فى داخل الحجر الرخامى. الجو خانق وشديد الحرارة. فى سانتا فاطيما كانت الشمس مثل جمرات محترقة ولكن بعدئذ وعلى مدى أيام أصبحت السماء ملبدة بالغيوم بل وأمطرت رذاذا فى بعض الأحيان. وفى نهاية الأمر انحسر الفيضان بالأراضى المنخفضة ولم يتبق من ذلك البر الشاسع الممتد فى داخل الأرض سوى مستنقعات صغيرة من نفايات المياه التى تجففها الشمس تدريجيا. وفى الصباح عندما يكون الهواء مازال منعشا يحضـــر

الرجلان العجوزان مظلتيهما ولكن أصبحت الحرارة الآن شديدة الوطأة ولذلك تستخدم الشماسي من حيث هي مظلات خفيفة للوقاية من الشمس . البواخر والسفن تدخل إلى الميناء وتغادره مع أعلامها ومداخنها وبحارتها الذين يشبهون النمل وأبواقها التي تصم الآذان . البحار عقب سماع ذلك الضجيج مرارا وتكرارا أثناء العواصف بالبحر ينتهي به الأمر الى أن يتحدث حديث الند للند مع اله الأعماق. هذان الرجلان العجوزان لم يذهبا الى البحر على الاطلاق ولكن دماءهما لا تبرد في قشعريرة عندما يسمعان ذلك الزئير الجبار وان كان زئيرا مكتوما من خلال المسافة ان الارتجاف والاهتزاز يوجد في أعماق كيانهما وكما لو كانت هناك سفن تبحر في داخل قنوات شرايينهما وفقدت في غياهب ظلام جسديهما ووسط العظام العملاقة للعالم. عندما تخف الحرارة سيرجعان الى ألتو لكي يجلسا على نفس المقعد الخشبي الطويل ولكن مع فتح مظلتيهما لأن الحماية من جانب الأشجار لا يعتمد عليها كما نعرف فما أن تنزل الشمس قليلا حتى تختفي ظلال أشجار النخيل. هذا الرجلان العجوزان سوف ينتقلان الى رحمة الله بدون أن يعرفا أن أشجار النخيل لا تعتبر أشجارا أن يكون الناس على هذا القدر الكبير من الجهل هو شيء لا يصدقه العقل. ولكن ليس من المهم أن تكون شجرة النخيل بمثابة شجرة أم لا. فالذي يهم هو الظلال التي تنجم عنها. ونحن اذا قمنا بتوجيه سؤال لهذا الدكتور الذي يجيء الى هنا يوميا في فترة ما بعد الظهر عما اذا كانت شجرة النخيل تعتبر شجرة أم لا فإنه سيضطر الى العودة الى منزله من أجل الرجوع الى انسكلوبيديا النبات الخاصة به اللهم الا اذا كان قد تركها في البرازيل. أغلب الظن أن كل ما يعرفه عن عالم النباتات هو المجاز الضئيل الذي يزين به قصائده من خلال الازهار بوجه عام وقليل من أكاليل الغار لأنها ترجع الى الأزمنة الميثيولوجية وبعض الاشجار التي ليس لها اى اسم سوى كلمة شجرة والكرمات وعباد الشمس وبنات السمار الذي يرتعش مع التيار ونبات اللبلاب

وأنواع الفل والورد. ويتحدث الرجلان العجوزان فى حرية مع ريكاردو ريس ولكنه عندما يترك شقته لا يخطر على باله أن يسألهما: هل عرفتما أن شجرة النخيل لا تعتبر شجرة ؟ ولأنهما متأكدان تماما من الأمور التى يعتقدان انهما يعرفانها فإنه لن يخطر لهما أبدا أن يسألاه قائلين: يا دكتور هل شجرة النخيل هى شجرة . وذات يوم سيسيران فى طريقين منفصلين ولسوف يظل السؤال الجوهرى عما اذا كانت شجرة النخيل بمثابة شجرة لأنها تشبه شجرة أو ما اذا كان هذا الظل الذى نلقيه على الأرض هو حياة لأنه يشبه الحياة بدون إجابة.

بدأ ريكاردو ريس يعتاد على الاستيقاظ من النوم متأخرا. وتعلم ان يكبت أية رغبة فى تناول طعام فى الفترة الصباحية. والصينيات المليئة بالأطعمة الغنية التى اعتادت ليديا احضارها الى غرفته بفندق البراجانسيا تبدو الآن وكأنها تنتمى لماضى شخص ما آخر. انه يذهب للنوم متأخرا ثم يستيقظ ولكنه يستأنف النوم مرة أخرى ويقوم بدراسة النوم الخاص به وبعد محاولات عديدة نجح فى تثبيت ذهنه على حلم واحد بحيث يكون دائما هو نفس الحلم وهو عن شخص يحلم بأنه لا يرغب فى أن يخفى حلما بآخر مثل محو انطباعات الأقدام الواشية. هذا شىء بسيط فكل ما عليك أن تفعله هو أن تجرجر غصن شجرة وراءك بحيث لا تترك وراءك سوى بعض الأوراق المتناثرة التى سرعان ما تذروها الرياح وتختلط مع التراب. وعندما يستيقظ من النوم يكون موعد تناول الغداء قد حل. فيغتسل ويحلق ذقنه ويرتدى ملابسه فى حركات آلية لا يشارك فيها الذهن الا نادرا. هذا الوجه المغطى برغوة الصابون هو قناع يمكن أن يتلاءم مع وجه أى رجل. وعندما يكشف الموسى تدريجيا عما تحته يثار اهتمام ريكاردو ريس من خلال ما يراه بل ويشعر بالانزعاج وكما لو كان خائفا من احتمال بزوغ آفة او كارثة من نوع ما. ويتفحص نفسه فى دقة فى المرآة ويقارن وجهه بالوجه المختلف غير المعروف الذى كان لديه ذات يوم. ويقول لنفسه انه طالما يحلق ذقنه فى كل يوم ويشاهد فى كل يوم هاتين

العينين وهـــذا الفم وهذه الأنف وهـــذا الذقن وهـــذين الخدين الشاحبين وهذين العضوين الاضافيين السخيفين اللذين يسميان بالأذنين فإن مثل هذا التغير يعتبر أمرا مستحيلا ومع كل ذلك فهو يشعر بأنه متأكد تماما من أنه قد أمضى سنوات فى مكان ما بدون مرايا لأنه حاليا ينظر ولا يستطيع التعرف على نفسه، وفي كثير من الأحيان يتقابل بالمصادفة - لدى خروجه لتناول طعام الغداء - مع الرجلين العجوزين لدى مجيئهما في الشارع فيلقيان بالتحية عليه : نهارك سعيد يا دكتور . فيرد عليهما : نهاركما سعيد . رغم انه لا يعرف اسميهما وقد يكونان بمثابة شجرتين او نخلتين. وعندما يشعر بأنه منحرف المزاج فإنه يذهب للسينما ولكنه يرجع عادة الى شقته عقب الغداء. الحديقة مهجورة فى التوهج الوحشي للشمس ولمعان النهر يحدث زغللة في العيون وآداماستور محبوس فى داخل كتلة صخرية وعلى وشك أن يطلق صرخة هائلة لأنه غاضب من الوجه الذى منحه له النحات ولأنه حزين لأسباب لا نعرفها منذ صدور القصيدة الملحمية التاريخية التى كتبها كاموس. ومثل الناس الطاعنين فى السن يحتمى ريكاردو ريس بظلال مسكنه الذى عاد اليه التعفن السابق تدريجيا. وتقوم ليديا بفتح كل النوافذ عندما تجيء ولكن هذا لا ينفع لأن رائحة العفن تبدو وكأنها تنبعث من الأثاث ومن الحوائط ذاتها والصراع غير متكافيء على نحو أكيد وليديا بدأت تجيء على مدى مرات أقل من ذى قبل. ومع اقتراب فترة المساء ومع ظهور الدلائل الأولى للنسيم يخرج ريكاردو ريس ويجلس على مقعد خشبى طويل بالحديقة وبحيث لا يكون قريبا للغاية أو بعيدا للغاية عن الرجلين العجوزين. واعطاؤه لهما جريدة الصباح عقب الانتهاء من قراءتها يعتبر هو الاحسان الوحيد الذى يقوم به. فهو لا يقدم لهما الطعام لأنهما لم يطلبا منه تزويدهما بأى طعام على الرغم من انهما لم يطلبا الحصول على هذه الصفحات المطبوعة للأبناء ايضا ويمكن لك ايها القاريء أن تعتبر أى العملين اكثر كرما لو تم الاتيان بهما معا. ولو سألنا

ريكاردو ريس عما يفعله في شقته بمفرده طوال كل ذلك الوقت، فإنه قد يهز كتفيه بكل بساطة. ربما يكون قد نسي أنه انخرط في بعض القراءات وكتب قليلا من الشعر وتجول في الدهاليز والطرقات وأمضى بعض الوقت في الجزء الخلفي من المبنى المطل على الفناء أسفله وعلى أحبال الملابس المغسولة والملايات البيضاء والفوط والمناشف وعلى حظائر الدواجن وعلى القطط النائمة على الحوائط والجدران تحت الظلال. لا توجد هناك كلاب ولكن لا توجد ممتلكات تتطلب الحراسة. ثم هو قد رجع الى قراءاته والى أشعاره حيث يكتب ويمزق الاوراق مرارا وتكرارا عندما يشعر أن القصيدة التي كتبها لا تستأهل الاحتفاظ بها. وبعدئذ كان ينتظر لحين أن تخف درجة الحرارة ولحين أن يبدأ النسيم الأول لفترة المساء. وبينما كان يهبط على السلالم ظهرت الجارة التي تسكن بالدور الثاني عند بسطة السلم. الزمن قد خفف من حدة الدردشة الخبيثة ولم يعد يوجد هناك نفس الاهتمام الشديد اذ عاد المبنى كله الى الهارمونية والتوافق والتعايش الودى وتساءل ريس : حسنا هل يشعر زوجك بالتحسن ؟ فقالت : شكرا جزيلا لك يا دكتور فمساعدتك كانت عملا من أعمال العناية الالهية كانت بمثابة معجزة. فقال : ذلك كل ما نسعى اليه فنحن نسعى لمشاهدة أعمال العناية الالهية والمعجزات. فقالت : أليس من المعجزات أن يكون لدينا طبيب يسكن معنا في نفس العمارة بحيث يمكن له المجيء لمساعدتنا عندما نتعرض للآلام ؟ فقال ريس : هل أفرغ محتويات أمعائه ؟ فقالت : لقد تخلص من كل ما في جوفه شكرا لله يا دكتور. وهكذا هي الحياة فاليد التي تكتب اسم الدواء المسهل للأمعاء بالروشتة تكتب ايضا الشعر الرفيع المستوى او الشعر المقبول على الاقل «تكون لديك شمس مشرقة اذا كانت توجد هناك شمس مشرقة وتكون لديك ازهار اذا كانت توجد هناك ازهار وتكون لديك ثروة كبيرة اذا ابتسم لك الحظ».

الرجلان العجوزان يقومان بقراءة الجريدة ونحن نعرف بالفعل أن أحدهما امى لا يعرف القراءة والكتابة ولذلك فهو يكون اكثر انخراطا في التعليقات عندما تجيء

الفرصة لإبداء التعليقات وبذلك تكون آراؤه وتعليقاته بمثابة وسيلة لعمل تعادل فى كفتى الميزان. فإذا كان أحدهما يعرف فالآخر يشرح ويفسر. استمع الى هذه القصة عن لون سيكس هاندريد مثيرة للضحك حقا. وانا قد عرفته على مدى سنوات. وعرفته عندما كان يقود تراما وكان دائما ما يصطدم بالعربات الكارو حيث كان يحلو له ان يفعل ذلك فوضعوه في السجن ٣٨ مرة وأخيرا اصدروا قرارا بفصله من العمل بعد أن اكتشفوا انه لا سبيل الى اصلاحه على الاطلاق ولكن اللوم كان يقع بعض الشىء على سائقى العربات الكارو لأنهم كانوا يتحركون في سرعة ضئيلة للغاية ولا يسرعون ابدا وعندئذ كان لون سيكس هاندريد يدوس على الجرس بكعب حذائه ذى الرقبة ويرغى ويزبد موجها الشتائم للعربجية الى أن يصبح غير قادر على تحمل الموقف والصبر اكثر من ذلك ومن هنا كان ينطحهم ويرتطم بقوة بهم ويتفجر الشجار والمعارك فتجىء الشرطة وتأخذ كل شخص الى السجن ولكن لون سيكس هاندريد يقود الآن عربة كارو ايضا ويتشاجر مع سائقى الترام الذين هم زملاؤه السابقون لأنهم يعاملونه بنفس الطريقة التى اعتاد ان يعامل بها سائقى العربات الكارو والمثل القديم يقول : كما تزرع تحصد . وهكذا اختتم الرجل العجوز الذى لا يعرف القراءة كلامه بحكمة أعطت كلامه تأثيرا شفائيا. وكان ريكاردو ريس جالسا على نفس المقعد الخشبى الطويل وهو امر نادرا ما يحدث ولكن كل المقاعد الاخرى مشغولة اليوم. ولإدراكه ان مونولوج الرجل العجوز كان لصالحه فإنه تساءل: وهذا اللقب التهكمى لون سيكس هاندريد كيف حصل عليه ؟ فقال الرجل العجوز الأمي: انه عمل فى شركة الترام وكان رقمه ٦٠٠ ثم اطلق الناس عليه كلمة لون بسبب سلوكه الردىء. فقال ريس : لقد فهمت . وعندما عاد الرجلان العجوزان الى القراءة سمح ريكاردو ريس لافكارة بأن تطوف فى تجوال. ترى ما هو اللقب التهكمى الذى يتلاءم معى؟ ربما يكون ذلك الدكتور بارد اختصارا للعائد من البرازيل . الرجلان العجوزان يحبان

ان تنصب القراءة على الدراما النابضة بالحياة عن الحياة اليومية مثل حالات النصب والدجل والسلوك المتنافى مع الاخلاق والحشمة وأعمال العنف او اليأس والأعمال الخفية الغامضة التى تتم فى الليل والجرائم المتعلقة بالعاطفة والجنين المتخلَّى عنه وحوادث تصادم السيارات وعجل مولود برأسين وكلبة ترضع القطط الصغيرة. على الاقل فإن هذه الكلبة لا تشبه اوجولينا التى أكلت صغارها. وتدور مناقشاتهما الآن عن ميكاس سلوى التى لها اسم حقيقى وهو ماريا كونسيكو والتى صدر ضدها ١٦٠ حكماً بالسجن بسبب السرقة علاوة على نفيها الى افريقيا مرات عديدة. وبعدئذ كانت هناك جوديت ميلكاس الكونتيسة المزيفة القادمة من كاستيلو مليور والتى خدعت ضابطا برتبة ملازم يعمل فى الحرس الجمهورى الوطنى واستولت على مبلغ ٢ كونتو ثم ٥٠ ريس وهو مبلغ من المال سوف يبدو تافها للغاية بعد مرور خمسين عاما من الآن ولكنه فى تلك الاوقات العجاف يعتبر بمثابة ثروة، حيث ان نساء بينافينتى اللاتى يعملن من الفجر حتى غروب الشمس فى مقابل عشرة آلاف ريس يمكن أن يشهدن على ذلك. الانباء الأخرى اقل اثارة وأقل متعة: عقد مهرجان لمدة يوم فى نادى جوكى حضره الآلاف من الضيوف ولا ينبغى علينا أن نندهش من حضور كل هذا الحشد الكبير للغاية فنحن نعرف كيف ان البرتغاليين يحبون كثيرا المهرجانات وخاصة الاحتفالات التى تنظم لصالح ضحايا فيضان ريباتيجو ومن بينهم ميكاس دى بوردا التى هى من بينافينتى والتى سوف تتسلم نصيبها من المبلغ الاجمالى الذى يبلغ ٤٥٠٧٥٣ اسكود.

الاخبار عن باقى انحاء العالم لم تتغير كثيرا والاضراب عن العمل مازال مستمرا فى فرنسا حيث وصل الآن عدد العمال المضربين حوالى ٥٠٠ الف عامل ومن المتوقع للحكومة التى يرأسها البرت ساروت ان تقدم استقالتها ويعقب ذلك حكومة جديدة يقوم بتشكيلها ليون بلوم وسيظهر انطباع ولو بصفة مؤقتة يشير الى انه تمت تلبية مطالب المضربين.

وفى الصباح المبكر ذات يوم وبينما يرقد ريكاردو ريس يغفو فى سنة من النوم يسمع طلقات مدافع صادرة عن السفن الحربية الموجودة فى نهر التاجوس. حيث انطلقت ٢١ طلقة رزينة على فترات منتظمة مما جعل زجاج النوافذ يهتز. فظن ان حربا اخرى قد تفجرت وبعدئذ تذكر انه كان قد قرأ فى اليوم السابق ان العاشر من يونيو هو العيد القومى للبرتغال الذى يذكرنا بالاجداد ويؤكد على تفانينا فى تحقيق انجازات المستقبل. وبينما هو شبه نائم ساءل نفسه فى تعجب عما اذا كانت لديه القوة التى تعينه على أن يقفز خارجا من هذه الملايات لكى يفتح النوافذ على مصاريعها ويدع التحيات المدوية فى بطولة تدخل بدون اعاقة وتشتت الظلال الموجودة فى داخل شقته وتبدد العفن الفطرى ورائحة العفن الماكرة. ولكن بينما كان يفكر فى هذا الأمر ويتناقش مع نفسه تلاشت آخر الذبذبات وهبط صمت هائل مرة اخرى على ألتو دى سانتا كاتارينا وهنا أغلق ريكاردو ريس عينيه واستسلم للنوم مرة أخرى. الحياة على هذا النحو تدار على نحو ردىء. فنحن ننام عندما ينبغى علينا أن نكون متيقظين ونرحل عندما ينبغى علينا ان نكون فى حالة وصول ونغلق النافذة عندما ينبغى علينا ان نتركها مفتوحة. وفى فترة ما بعد الظهر ولدى عودته عقب تناول طعام الغداء شاهد باقات من الزهور عند قدمى تمثال كاموس حيث وضعت اجلالا من جانب اتحاد الوطنيين نحو الشاعر الملحمى البطولى الذى عبر عن شجاعة الأمة وبسالتها حتى يمكن للجميع ان يعرفوا اننا تخلصنا من الاكتئاب الذى اصابنا بالضعف وحط من قدرنا فى القرن السادس عشر. وصدقنى اننا اليوم شعب سعيد للغاية وبمجرد ان يهبط الظلام سنشعل كل المصابيح ذات الضوء الغامر هنا فى الميدان بل وسيتم انارة تمثال السينيور كاموس بل وسيتغير تماما منظر هذا التمثال من خلال الاشراق المبهر للأبصار .. وصحيح ان عينه اليمنى مصابة بالعمى ولكنه مازال يستطيع الرؤية بعينه اليسرى واذا اشتكى من ان الضوء مبهر للغاية وعبر عن ذلك بكل حرية وبدون اى تردد

فإنه يمكن لنا بكل سهولة ان نخفض الضوء بحيث يصبح شبيهها بضوء الشفق الأحمر وهو التوهج الاصلي الذي اعتدنا عليه. لو كان ريكاردو ريس قد خرج في هذا المساء لكان قد تقابل مع فرناندو بسوا في براسا دي لويس دي كاموس الذي كان جالسا على احد تلك المقاعد الخشبية الطويلة كما لو كان يستمتع بنسيم الهواء الجميل. ولقد جاءت الى نفس المكان عائلات وأفراد بحثا عن نفس هذا الانتعاش وتجديد النشاط وتوجد كميات هائلة من الضوء حتى انها تكاد تكون مماثلة لضوء النهار فتتوهج الوجوه كما لو كانت تمر بحالة من الغبطة الصوفية الغامرة ومن هنا يمكن للمرء أن يفهم السبب في أن هذا اليوم يسمى : العيد القومي للأمة. ولكي يشارك فرناندو بسوا في الاحتفال بهذه الذكرى السعيدة فإنه يحاول ان يتلو في داخل ذهنه تلك القصيدة التي وردت في ديوان «المنساجم» والتي أهديت لكاموس ويتطلب الأمر مرور بعض الوقت لكي يدرك انه لا توجد هناك قصيدة كهذه . أهذا معقول ؟ لن يتأكد الا من خلال الرجوع الى الديوان ذاته. وفي نفس هذه اللحظة وفي شقته بالدور الثالث بشارع سانتا كاتارينا كان ريكاردو ريس يحاول أن يكتب قصيدة من أجل مارسيندا لكي لا تقول الاجيال القادمة انها قد ماتت بدون ان تأخذ نصيبها من التبجيل والاحترام «انني متلهف من الآن على مجيء الصيف وانا ايضا أبكي من أجل أزهاره التي أدرك أنها سوف تذبل بكل تأكيد». ذلك هو الجزء الأول من القصيدة والى حد كبير لن يخمن احد انه يتكلم عن مارسيندا ولكن غالبا ما يبدأ الشعراء من عند الأفق لأن ذلك هو أقصر طريق يؤدي الى القلب. وبعد ذلك بنصف ساعة او ساعة او اكثر من ساعة لأن الأمر اذا كان يتعلق بكتابة الشعر فإن الزمن اما ان يتباطأ او يسرع تشكل الجزء الأوسط من القصيدة . انه ليس التفجع والرثاء الذي تبدى في بادىء الأمر وانما هو تقبل الشيء الذي ليس له علاج... بعد أن عبرتُ عتبة كل عام المحتومة أبدأ أشاهد أمامي الوادي الخالي من الأزهار والجحيم الذي يدمدم في قعقعة».

الوقت الآن فى الفجر والمدينة كلها تنام والاضواء المبهرة الغامرة المحدقة بالتمثال قد تلاشت لأنها بدون مشاهدين لها لا تخدم اى غرض. ويعود فرناندو بسوا إلى بيته ويقول : لقد رجعت الآن يا جدتى. وفى نفس هذه اللحظة تستكمل القصيدة نفسها فى شيء من الصعوبة. اذ تم ادخال شولة منقوطة بدون رغبة حيث قاومها ريكاردو ريس ولم يكن يريدها ولكنها انتصرت «وأنا أقطف الوردة لأن القدر يقطف مارسيندا ويعزها ويدللها ويتمسك بها ويبقيها لديه . دعوها تذبل على صدرى وليس على السطح النهارى الشاسع المنحنى للكرة الأرضية». ويستلقى ريكاردو ريس على السرير وهو ومرتدٍ ثيابه الكاملة بينما يده اليسرى ملقاة على قصاصة الورق . لو انتقل الآن من مرحلة النوم إلى مرحلة الموت سيظن الناس بطريق الخطأ أن تلك القصاصة هى وصيته أو خطاب توديع ولن يعرفوا ماذا يصنعون بتلك القصاصة حتى بعد قراءتهم لها لأنه من الذى سمع عن امرأة تسمى مارسيندا ؟ فمثل هذا الاسم يجيء من كوكب آخر والمثال على ذلك كلمة بليموندا Blimunda أيضا فهى اسم غامض بانتظار أن يستخدم بمعرفة امرأة مجهولة . على الأقل امرأة تسمى مارسيندا قد عثر عليها ولكنها تعيش فى مكان بعيد .

هنا إلى جواره وعلى نفس هذا السرير كانت توجد ليديا عندما شعرا بالأرض تهتز . استمر الارتجاف لفترة قصيرة ولكنه هز المبنى من أعلاه لأسفله قبل أن ينقضى مما جعل الجيران الواقفين على السلالم فى حالة هستيريا وجعل النجفة تهتز مثل بندول الساعة . وكانت تلك الأصوات المليئة بالرعب تبدو فاحشة وداعرة . المدينة كلها ربما من خلال ذكرى رهيبة عن زلازل أخرى مازالت محفورة فى داخل أحجارها كانت تنتظر وهى مشدوهة فى ذهول بين طيات الصمت الذى لا يحتمل والذى أعقب الهزة الأرضية عندما لا يستطيع المرء أن يفكر وإنما يسائل نفسه : هل الهزة الأرضية ستعود مرة أخرى ؟ وهل أنا سأموت؟ بقى ريكاردو

ريس وليديا فى السرير .. وكانا عاريين تماما . ومستلقيين على ظهريهما مثل تمثالين وبدون أن يكون هناك مجرد ملاية تغطى جسديهما . لو جاء الموت فى هذه اللحظة لوجدهما فى حالة استسلام واذعان ورضا ولوجدهما مازلا يتنفسان فى أنفاس لاهثة عميقة ولوجدهما مازالا مبللين بالعرق والافرازات الخاصة بهما بينما قلباهما يدقان فى عنف لأن جسديهما لم ينفصلا إلا منذ دقائق قليلة مما جعلهما مليئين بالحياة تماما . وعلى نحو فجائى يرتجف السرير ويهتز الأثاث ويصدر صوت كالصرير من الأرضية والسقف . هذه ليست اللحظة النهائية المتسمة بالدوخة لهزة الجماع وإنما هى الأرض تزأر من داخل أعماقها . وقالت ليديا : نحن بصدد أن نموت . ومع ذلك فهى لم تمسك فى تشبث بالرجل الموجود إلى جوارها على النحو الذى يمكن أن يتوقعه المرء . النساء بوجه عام يكن على هذا النحو . أما الرجال فهم الذين يقولون فى رعب : الأمر بسيط للغاية . عليك بالالتزام بالهدوء لقد انتهت هذه الموجة فهى كلمات يقولونها من أجل تهدئة أنفسهم وليس تهدئة الآخرين . ومع الارتجاف فى رعب قال ريكاردو ريس هذا ايضا وكان على حق لأن موجة الزلزال قد انتهت بالفعل وهدأت تدريجيا أصوات الجيران الذين كانوا يصيحون على السلالم إلا أن المناقشات استمرت حيث نزل أحدهم إلى الشارع وذهبت إحداهن إلى نافذتها من أجل أن ترقب الضجيج العمومي . ولدى استعادة الهدوء والسلام على نحو تدريجي تستدير ليديا نحو ريكاردو ريس فيستدير هو الآخر نحوها ويضع كل منهما ذراعه على جسد الآخر فيقول مرة أخرى : لقد كان الأمر بسيطا للغاية . فتبتسم له إلا أن ابتسامتها كانت تحمل معنى مختلفا وكان من الواضح أنها لا تفكر فى الهزة الأرضية . انهما فى حالة استلقاء مع تبادل النظرات إلا أنهما كانا بعيدين للغاية عن بعضهما البعض ومختلفين من حيث الأفكار التي تدور فى رأس كل منهما على نحو ما نشهده الآن عندما تقول فى سرية وعلى نحو فجائى : أعتقد أننى حامل

فالحيض قد تأخر الآن عن موعده بعشرة أيام . فيحاول أن يكسب بعض الوقت فيقول : ماذا قلت ؟ فتقول ليديا : العادة الشهرية تأخرت عن موعدها بعشرة أيام وأعتقد أنني حامل . ومرة أخرى تبدو أكثر اتزانا وتماسكا منه . إنها على مدى الأسبوع الماضي وفي كل يوم وفي كل لحظة لم تفكر في أي شيء آخر بخلاف هذا الموضوع . وربما هي فكرت في هذا الموضوع عندما قالت منذ لحظات : نحن بصدد أن نموت . وقد يتساءل المرء في تعجب عما إذا كان ريكاردو ريس متضمناً في ذلك الجمع . إنه يتوقع منها أن تسأل سؤالا مثل : ما الذى ينبغي على أن أفعله ؟ولكنها تظل ملتزمة بالصمت ومخفية العظم العانى الخاص بها من خلال انحناء خفيف لركبتيها . لا توجد دلائل مرئية على الحمل اللهم إلا إذا كان بمقدورنا أن نفك شفرة ما تقوله عيناها . ويبحث ريكاردو ريس في ذهنه عن الكلمات المناسبة ولكن كل ما يجده في داخل نفسه هو اللامبالاة وعدم الاكتراث كما لو أنه يشعر أنه غير متورط في هذا الموضوع وذلك على الرغم من أنه يدرك أنه مضطر لتقديم المساعدة من أجل حلّ هذه المشكلة . أو بالأحرى هو يرى نفسه قائما بدور طبيب أفضت له مريضته بسرها . اذ تقول له : آه يا دكتور إنني حامل وهذا الحمل جاء في وقت غير ملائم على الإطلاق . والطبيب لا يقول لها : يمكن عمل إجهاض لك بسهولة ولا تكوني ساذجة وبلهاء . وإنما على العكس من ذلك فهو يتخذ طابع الوقار ويقول : إذا لم تكوني قد اتخذت أنت وزوجك الاجراءات الوقائية فإنه من المحتمل أن تكوني حاملا ولكن فلننتظر على مدى أيام قليلة أخرى فلربما تكون العادة الشهرية قد تأخرت عن موعدها فذلك يحدث في بعض الأحيان . ولكن ريكاردو ريس لا يستطيع التحدث بمثل هذا الحياد لأنه والد هذا الجنين حيث لا توجد أية دلائل تشير إلى أن ليديا في خلال الشهور القليلة الأخيرة قد اضطجعت مع أي رجل آخر سواه وما زال الأب يجاهد مع الكلمات من أجل اختيار الملائم منها . وأخيرا وبعد أن تحسس طريقه في حذر شديد وبعد أن قام

بتقييم كل عبارة سيقولها فإنه يقوم بتوزيع اللوم حيث يقول : لقد كنا مهملين وغير ملتزمين بالحرص والحذر وبالتالى كان من المتوقع أن يحدث هذا الحمل على نحو أكيد إن عاجلا أم آجلاً . ولكن ليديا لا تتساءل قائلة : ما هى التدابير التى كان على أن اتخذها فهو لم يسحب نفسه أبداً أثناء اللحظة الحرجة بالجماع بل ولم يستخدم أبدا الأكياس المطاطية ولكن هذا لا يزعجنى . وإنما تقول بكل بساطة : إننى حامل . وبرغم كل شىء فإن الحمل يحدث لكل امرأة تقريباً وأن تصبح امرأة حاملا لا يعتبر زلزالا . ويتخذ ريكارود ريس قراراً أنه ينبغى عليه أن يعرف نواياها ومقاصدها ولا داع للزوغان وتجنب هذه المشكلة ، فيتساءل : أتفكرين فى الاحتفاظ بالطفل ؟ وطالما أنه لا يوجد أحد يسترق السمع وإلا فإن ريكاردو ريس سيجد نفسه متهما بالتحريض على الاجهاض ولكن قبل سماع الشهود وقبل أن يصدر القاضى حكمه تأخذ ليديا خطوة للأمام وتعلن : لسوف أحتفظ بالطفل . ولأول مرة يشعر ريكاردو ريس بإصبع يلمس قلبه .إنه لا يمر بتجربة آلام أو التواء أو برد ولكنه احساس على غير مثال مثل أول تصافح بالأيدى بين رجلين ينتميان لكوكبين مختلفين وكلاهما من الآدميين ولكنهما غريبان عن بعضهما البعض تماما . ويسائل ريكاردو ريس نفسه فى صمت : ما هو الجنين البالغ من العمر عشرة أيام ؟ ولا يستطيع العثور على إجابة . فى سنواته كطبيب كان قد شاهد خلايا تتكاثر من خلال الميكروسكوب كما شاهد رسومات توضيحية تفصيلية فى الكتب إلا أنه الان لا يرى أى شىء سوى هذه المرأة الصامتة الكئيبة غير المتزوجة والتى تعمل خادمة غرف بفندق والتى تسمى ليديا والتى انكشف ثدياها وبطنها ولا شىء مغطى فى خجل سوى عظام العانة كما لو كانت تخفى سرا . وجذبها نحوه فاستسلمت مثل شخص ما يجد أخيرا ملاذا يبتعد به عن العالم كله . وعلى نحو فجائى يحمر وجهها خجلاً ويتفجر بالغبطة الغامرة ويتوسل مثل عروسة خائفة بينما تقول : ألست غاضبا منى ؟ فيقول : كيف تقولين ذلك ولماذا ينبغى أن أكون

غاضبا ؟ هذه الكلمات لا تعبر بصدق عما يعتمل في داخل كيانه . إذ كان غضب هائل يموج في داخل كيان ريكاردو ريس وهو يقول لنفسه في تفكير صامت : لقد أوقعت نفسي في ورطة كبيرة وإذا لم يتم اجهاضها سيصبح لدى طفل بين يدى ولسوف اضطر للإعتراف به على أنه طفلى فأنا إنسان متسم بالالتزام الأخلاقي يا لها من ورطة شديدة . لم يخطر على بالى من قبل أن شيئا من هذا القبيل يمكن أن يحدث لي . واقتربت ليديا منه في تودد وهي ترغب في أن يمسك بها في احكام لأن ذلك سيجعلها تشعر بالارتياح ثم قالت بطريقة عرضية هذه الكلمات التي لا يصدقها العقل : إذا كانت لا ترغب في الاعتراف بالطفل فهذا لا يهمني فالطفل يمكن أن يكون غير شرعي مثلي أنا تماما . فشعر ريكاردو ريس بالدموع تملأ عينيه بعضها دموع الخجل والحياء والبعض الآخر دموع الشفقة لو كان هناك شخص ما يستطيع أن يعرف الفارق . وأخيرا وفي اخلاص في نهاية الأمر احتضنها وقبلها . تصوروا أنه قبلها في قبلة طويلة وعميقة للغاية في شفتيها بعد أن شعر بالتخفف من هذا العبء الهائل . توجد لحظات كهذه في الحياة نظن فيها أننا نمر بتجربة العاطفة بينما هي في حقيقة الأمر ليست سوى اندفاع للتعبير عن الاقرار بالفضل والعرفان بالجميل . ولكن الانغماس في الشهوات الحسية يعطي انتباها ضئيلا نحو هذه الأمور الرقيقة ففي خلال ثوان أصبح ريكاردو ريس وليديا متحدين في اتصال جنسي مليء بالتأوهات والتنهدات فهما لم يعودا بحاجة للاحتراس والحذر الآن بعد أن أصبح الطفل موجودا في الرحم بالفعل .

هذه هي أيام من الجنة والنعيم . فقد حصلت ليديا على اجازة من العمل بالفندق وأصبحت تمضي كل وقتها تقريبا مع ريكاردو ريس ثم تذهب لتنام في منزل والدتها وذلك بهدف تجنب الشائعات التي تتفجر بين الجيران الذين على الرغم من العلاقات الطيبة التي تكونت منذ أن قدم الدكتور بعض النصائح الطبية

يستمرون فى التعليق فى خبث على هذه الاتصالات المشينة التى تتم بين السيد والخادمة وهو أمر شائع فى لشبونة هذه مهما تمت محاولات الاخفاء فى حذر شديد . فقد يلمح شخص ما حساس إلى أن الناس بمقدورهم أيضا أن يفعلوا أثناء النهار ما يفعلونه عادة أثناء الليل ولكن آخر قد يرد مشيرا إلى أنه أثناء النها لا يوجد متسع من الوقت بسبب التنظيف الهائل الذى يتم فى فصل الربيع فى البيوت فى كل عيد فصح عقب الشتاء الطويل مما يوضح السبب فى أن خادمة الدكتور تجىء مبكرة فى كل صباح وتغادر شقته مع حلول الشفق الأحمر وتنجز أعمالها على خير ما يرام مستخدمة الفرشاة والمنفضة وفرشاة الحك ومقشة وقطعة من الخيش ، فالشقة تحتفل بسبت البعث وأحد عيد الفصح من خلال أعمال هذه الخادمة المتواضعة التى تمر بيديها فوق الأشياء فتحولها إلى أشياء لامعة نظيفة . ولو كانت مارسيندا تعيش هنا من حيث هى سيدة المنزل الشرعية لما استطاعت أن تتنافس - حتى ولو كانت يداها الاثنتان سليمتين - مع ليديا فى أعمال النظافة . فمنذ أيام قليلة كانت الشقة تنتشر بها رائحة العفن الفطرى والتراب ورائحة المجارى المسدودة بينما يتغلغل الضوء والنور الآن فى كل الأركان البعيدة ويجعل كل الزجاج شبيها بالبللور ويلمع كل سطح بينما السقف فى حد ذاته يصبح مضاء بالانعكاسات لدى دخول الشمس من النوافذ . ومن خلال العمل اليدوى الحقير كان هذا التحول الرائع يتحقق . وربما كانت هذه الشقة سماوية الطابع وذلك بسبب كثرة ممارسة الحب ما بين ريكاردو ريس وليديا وتلك هى متعة الأخذ والعطاء الخاصة بهما وأنا لا أعرف ما الذى دهاهما حتى يمارسا بهذه الكثرة والقوة . أيكون الصيف هو الذى يشعل السخونة فى جسديهما ؟ أيكون السبب فى ذلك هو وجود ذلك الاهتياج الضئيل لديها .

ولكن أجازة ليديا قد انتهت الآن ويعود كل شىء إلى الوضع الطبيعى السابق فهى سوف تجىء - كما كان يحدث قبل - مرة واحدة أسبوعيا فى يوم اجازتها ،

والآن وحتى إذا عثرت الشمس على نافذة مفتوحة يكون الضوء مختلفا حيث يكون أكثر ضعفا . اذ أن منخل الزمن قد بدأ ينخل مرة أخرى التراب الشديد النعومة الذى يجعل الخطوط الخارجية تتعتم ويجعل الملامح ضبابية ومشوشة . فعندما يطوى ريكاردو ريس أغطية السرير في الليل فإنه لا يكاد يرى الوسادة التى سيريح عليها رأسه إلا بصعوبة . وفى الصباح لا يستطيع النهوض بدون أن يتعرف على نفسه أولا ويحدد مستخدما يديه الاثنتين خطأ وراء خط ما يمكن أن يعثر عليه من نفسه مثل بصمة اصبع تنطمس جزئيا من خلال ندبة غائرة كبيرة . وذات ليلة قام فرناندو بسوا الذى لا يظهر أبداً عندما تكون هناك حاجة إليه بالطرق على باب شقة ريكاردو ريس . فقال له ريس : كنت قد بدأت أعتقد أننى لن أشاهدك مرة أخرى على الاطلاق . فقال بسوا : إننى لم أخرج كثيرا فى الآونة الأخيرة لأننى أصبحت أضل الطريق بسهولة كبيرة مثل امرأة عجوز متخاذلة الذاكرة والشىء الوحيد الذى ينقذنى هو الصورة الذهنية التى مازلت أحتفظ بها لتمثال كاموس فإذا ركزت ذهنى عليها أستطيع عندئذ التعرف من جديد على الاتجاهات ومن ثم لا أضل الطريق . فقال ريس : ولنأمل أن تقوم السلطات بإزالة تمثال كاموس حيث توجد فى هذه الأيام موجة جنون تنصب على ازالة الأشياء . وذهب ريكاردو ريس إلى المطبخ من أجل الحصول على بعض القهوة ثم عاد إلى المكتبة وجلس في مواجهة فرناندو بسوا وقال : أشعر دائما أنه من العجيب ألا أكون قادرا على أن أقدم لك فنجانا من القهوة . فقال بسوا : املأ فنجانا آخر بالقهوة وضعه أمامى وأنا سأكون بصحبتك أثناء قيامك بتناول القهوة . قال ريس : لا استطيع الاعتياد على الفكرة التى مفادها أنك لا توجد . فقال بسوا : سبعة شهور قد انقضت الآن وهى فترة تكفى لتكوين حياة ولكنك تعرف معلومات عن الحياة أكثر منى لأنك طبيب .

وبعد أن انتهى ريكاردو ريس من تناول القهوة راح يتناقش فيما إذا كان عليه أن يقرأ القصيدة التى أهداها إلى مارسيندا وهى القصيدة التى تبدأ بـ «متلهفة

من الآن على حلول الصيف» وعندما اتخذ قراراً في هذا الشأن وبدأ ينهض من على الأريكة قال فرناندو بسوا : من المؤكد أن لديك فضائح أخرى تريد الاعتراف بها . وعلى الفور وبدون تفكير أعلن ريكاردو ريس في سبع كلمات عن أكبر الفضائح كلها . إذ قال : إننى على وشك أن أصبح والداً . فنظر فرناندو بسوا إليه في دهشة بالغة ثم انفجر ضاحكا في صوت مدو حيث لم يستطع أن يصدق ذلك النبأ وقال : أنت تمزح . فقال ريكاردو ريس في شيء من الضيق والخشونة : إننى لا أمزح وعلاوة على ذلك فإننى لا أعرف السبب الذى يجعلك تندهش فإذا كان هناك رجل ينام بصفة منتظمة مع امرأة يصبح من المحتمل جداً أن تحبل وذلك هو ما حدث بالنسبة لحالتي . فقال فرناندو بسوا : ومن هي الأم ..؟ هل هي ليديا الخاصة بك أم مارسيندا الخاصــــة بك أم توجد هناك امـرأة ثالثة فمعك لا يمكن للمرء أن يعرف آبداً ؟ فقال ريكاردو ريس : لا توجد امرأة ثالثة كما أننى لم أتزوج مـارسيندا . فـقال بسوا : آه اذن فأنت لن تنجب من مارسيندا إلا إذا كنت متزوجا منها ؟ فقال ريكاردو ريس : حسنا هذا شيء واضح فأنت تعرف الطابع الأخلاقي المتشدد الذى تحرص عليه العائلات المتمسكة بالتقاليد . فقال فرناندو بسوا : وخادمات الغرف بالفنادق ليس لديهن مثل هذه التقاليد المتشددة ؟ فقال ريكاردو ريس : أحيانا يكون لديهن نفس التقاليد المتشددة . فقال فرناندو بسوا : هذا صحيح . أتتذكر عندما قال لنا ألفارو دى كامبوس كيف أن خادمة فندق قد سخرت منه وتهكمت عليه ؟ فقال ريكاردو ريس : ليس بذلك المعنى . فقال فرناندو بسوا : إذن بأى معنى ؟ فقال ريس : خادمة الفـندق هي أيضا امرأة . فقال بسوا : الاشياء التي يعرفها المرء بعد أن يموت . فقال ريس : أنت لا تعرف ليديا . فقال بسوا : يا عزيزى ريس لسوف أتناول دائما موضوع ابنك بكل الاحتـــرام والتبجيل ولكن نظرا لأننى شخصيا لم يسبق لى أن كنت والداً فإننى لا أستطيع أن أترجم هذه المشاعر الميتافيزيقية إلى الحقائق المضجرة للحياة

اليومية . فقال ريس : توقف عن هذه السخرية اللاذعة . فقال بسوا : من المؤكد أن أبوتك الفجائية قد جعلت حواسك متبلدة والا لكنت قد أدركت أنه لا يوجد أى تهكم لاذع فى الكلام الذى أقوله لك . ثم راح فرناندو بسوا يملس على شاربه وتساءل : أمازلت تفكر فى العودة إلى البرازيل ؟ فقال ريكاردو ريس : تجيء على أيام أشعر فيها وكأننى قد رجعت إلى البرازيل وأصبحت موجودا هناك بالفعل كما تجيء على أيام يسيطر على فيها انطباع بأننى لم يسبق لى الذهاب إلى البرازيل على الاطلاق . فقال فرناندو بسوا : أى بكلمات أخرى فأنت تطفو فى منتصف المحيط فلا أنت هنا ولا أنت هناك . فقال ريكاردو ريس : شأنى فى ذلك شأن بقية الشعب البرتغالى : فقال بسوا : ولكن هذا يعطيك فرصة عظيمة لتكوين حياة جديدة لنفسك مع زوجة وطفل . فقال ريكاردو ريس : إننى لا أنوى الزواج من ليديا بل ولم أتخذ قراراً حتى الآن بشأن ما إذا كنت سأعترف بأبوتى للطفل أم لا . فقال فرناندو بسوا : إذا سمحت لى بأن أقول لك رأيى يا عزيزى ريس فإننى أقول لك إنك وغد ونذل . فقال ريس : ربما ولكن ألفارو دى كامبوس أخذ قروضا ولم يردها على الاطلاق . فقال فرناندو بسوا : وهو أيضا كان وغدا ونذلاً . فقال ريكاردو ريس : أنت فى الحقيقة لم تكن تنسجم معه على الاطلاق . فقال بسوا : إننى فى الحقيقة لم أكن أنسجم معك على الاطلاق . فقال ريس : نحن فى حقيقة الأمر لم نكن نفهم بعضنا البعض . فقال بسوا : كان ذلك أمرا محتوما نظرا لأن كل واحد منا يضم فى داخل كيانه عددا هائلا من الناس المختلفين . فقال ريس : الذى لا أفهمه هو هذه النغمة الاخلاقية العالية الخاصة بك أو هذا النزوع إلى الطابع التقليدى ومقاومة التجديد . فقال بسوا : الرجل الميت من خلال التعريف بهويته هو رجل محافظ على التقاليد القديمة ولا يطيق أى تلاعب مع النظام القديم . فقال ريس : أنت ذات مرة وقفت بعنف ضد النظام . فقال بسوا : وأنا الآن أقف بعنف لصالح النظام . فقال ريس : لو كنت مازلت على قيد الحياة

ووجدت نفسك في مكاني وفي نفس حالتي أي موجودا مع طفل غير مرغوب فيه ومع أمه التي هي من طبقة اجتماعية منخفضة لكانت نفس الشكوك قد اعتملت في داخلك . فقال بسوا : نفس الشكوك بالضبط ؟ فقال ريس : شكوك الوغد النذل . فقال بسوا : هذا صحيح يا عزيزى ريس . شكوك الوغد الجبان النذل . فقال ريس : ربما أكون أنا وغدا ولكن ليست لدى النية في التخلي عن ليديا . فقال بسوا : ربما لأنها تجعل الأمور سهلة بالنسبة لك . فقال ريس : هذا صحيح بما فيه الكفاية فهي قد قالت لي إنني يمكن لي ألا أعترف بالطفل على أنه ابني . فقال بسوا : فلماذا تكون النساء على هذا النحو ؟ فقال ريس : كلهن على هذا النحو . فقال بسوا : أوافقك ولكن النساء فقط يمكن أن يكن على هذا النحو . فقال ريس : أي انسان يصغي اليك سيظن أنك لديك قدر كبير من الخبرات والتجارب مع النساء . فقال بسوا : التجربة الوحيدة التي مررت بها هي تجربة المشاهد أو المراقب . فقال ريس : لا . ينبغي على المرء أن ينام معهن ويسبب لهن الحمل والحبل . حتى ولو انتهى الأمر بالاجهاض فينبغي على المرء أن يشاهدهن عندما يكن في حالة حزن وسعادة وفي حالة ضحك وبكاء وفي حالة صمت وثرثرة وينبغي على المرء أن يرقبهن عندما لا يعرفن أنه تتم مراقبتهن . فقال بسوا : وما الذى يراه رجل ذو خبرة في مثل هذه اللحظات ؟ فقال ريس : يشاهد لغزا أو متاهة أو تمثيلية تحزيرية . فقال بسوا : لقد كنت دائما ممتازا في اللعبات التحزيرية . فقال ريس : ولكن الأمر يصل إلى درجة الكارثة عندما يتعلق بالنساء . فقال بسوا : سامحني يا عزيزى ريس ، أعصابي تطن مثل سلك التليفون في ليلة عاصفة . فقال ريس : إنني بدون وظيفة حاليا وليس لدى الرغبة في البحث عن وظيفة وأمضى أيامي جالسا هنا في شقتي أو جالساً في مطعم ما أو على مقعد خشبي طويل في حديقة كما لو لم يكن لدى أى شيء أفعله سوى الجلوس وانتظار مجيء الموت . فقال بسوا : دع الطفل يولد . فقال ريس : ليس الأمر متروكاً لي كما أن

ولادة الطفل لن تحل أية مشكلة . بل وأشعر أن هذا الطفل لا ينتمي إلى . فقال بسوا : أتظن أن شخصا ما آخر ربما يكون هو الأب ؟ فقال ريس : لا . إنني متأكد تماما من أنني الأب وهذه ليست هي المشكلة . المشكلة هي أن الأم هي فقط التي توجد حقاً أما الأب فهو بمثابة مصادفة أو حادث مفاجيء . فقال بسوا : مصادفة ضرورية ؟ فقال ريس : مما لا شك فيه أنه مصادفة ضرورية . ولكنه يمكن الاستغناء عنه طالما أن الشيء الضروري قد تم تقديمه بل ويمكن الاستغناء عنه تماما وبحيث يمكن له أن يموت على الفور مثل حشرة فرسة النبي التي تصلي في تضرع . فقال بسوا : أنت خائف من النساء مثلما كنت أنا خائفا منهن . فقال ريس : وربما يكون خوفي أشد . فقال بسوا : هل سمعت أية أخبار عن مارسنيدا مرة أخرى ؟ فقال ريس : ولا كلمة واحدة ولكني كتبت قصيدة من أجلها منذ أيام عديدة . فقال بسوا : أحقا ؟ فقال ريس : لكي أكون صريحا معك فإنها ليست سوى قصيدة يظهر فيها اسمها . أتود لي أن أقرأها لك ؟ فقال بسوا : لا . فقال ريس : ولم لا ؟ فقال بسوا: إنني أحفظ شعرك عن ظهر قلب سواء القصائد التي كتبتها بالفعل أو القصائد التي ستقوم بكتابتها . فقال ريس : والآن لقد جاء عليك الدور لتكون غير شفوق . فقال بسوا : ولا يمكن أن أطلب منك أن تسامحني وتلتمس لي العذر نظرا لأن أعصابي متوترة ومن هنا أقول لك اقرأ لي هذه القصيدة . فقال ريس : الشطر الأول هو «أنت متلهفة بالفعل على حلول الصيف» . فرد بسوا قائلاً : والشطر الثاني يمكن أن يكون على هذا النحو «وأنا أيضا أبكي من أجل أزهاره» . فقال ريس : هذا صحيح تماما . فقال بسوا : كما ترى فنحن نعرف كل شيء عن بعضنا البعض أو على الأقل أنا أعرف كل شيء عنك . فتساءل ريس : هل هناك أي شيء يخصني أنا فقط ؟ فقال بسوا : ربما لا . وبعد أن انصرف فرناندو بسوا تناول ريكاردو ريس ما تبقى من القهوة في فنجانه وكان ذلك الجزء المتبقي باردا ولكن كان له مذاق جيد .

وبعد مرور أيام قليلة أشارت الصحف في تقاريرها إلى أن ٢٥ من طلبة شباب هتلــر والذين يزورون بلادنا من أجل دراســة وتنشــيط وتدعــيم المثل العليــا الاشتراكية / الوطنية كانوا ضيوف شرف في «كلية تدريب المعلم» . وبعد جولة مطولة في «معرض الذكرى العاشرة للثورة الوطنية» كتبوا الآتي في ســجل الشرف : نحن لا شيء . وكان هذا يعني - وفقا لما قاله الكاتب المنوط بالخدمة الذي بادر بالتفسير - أن الشعب لا يكون له أي كيان إذا لم يتم ارشاده من خلال علية القوم والزبدة والزهرة والقلائل المختارين من مجتمعنا . لاحظ أن كلمة مختار Chosenمشتقة من كلمة اختيار Choiceالتي تعني انتخاب election. لأننا نود أن يتم ارشاد شعبنا على أيدي القلة المختارة إذا كان بمقدورهم اختيارهم في حين كان ارشادهم من خلال زهرة أو زبدة يعتبر أمرا مثيرا للسخرية على الأقل في اللغة البرتغالية لذلك هيا بنا نستخدم الكلمة الفرنسية «علية القوم elite» لحين العثور على شيء ما أفضل باللغة الألمانية . وربما مع وضع هذا في الاعتبار فإن خلق حركة الشباب البرتغالي قد صدر به قرار ولسوف تبدأ هذه الحركة نشاطها في حماس في أكتوبر ولسوف يصل أعضاء هذه الحركة إلى ٢٠٠ ألف شاب هم زهرة وزبدة وخلاصة شبابنا والذي سيبزغ منه «علية elite القوم» الذين يقدر لهم أن يحكمونا عندما ينتهي نظام الحكم الحالي . ولو قدر لابن ليديا أن يولد ويظل على قيد الحياة فإنه في خلال سنوات قليلة سيكون قادرا على أن يشارك في المواكب وينضم إلى صفوف حركة الشباب البرتغالي ويرتدي الزي الرسمي الأخضر والكاكي ويعرض على حزامه الحرف إس S الذي يرمز إلى كل من الخدمة Serve وسالازار Salazar أو إخدم سالازار Serve Salazar وبالتالي فإن مضاعفة الإس S إلى إس إس SS تعني مد اليد اليمنى للتحية على الطريقة الرومانية . ومارسيندا مع بيئتها الأرستقراطية سوف تنضم إلى المنظمة النسائية للتعليم القومي ولسوف ترفع أيضا ذراعها اليمنى طالما أن اليد اليسرى

هى المشلولة فقط. ولكى نبين كيف أن شبابنا المتفجر بالحماس الوطنى آخذ فى التشكل فإن ممثلين عن حركة الشباب البرتغالى سوف يسافر إلى برلين فى الزى الرسمى ودعونا نأمل فى أن تتاح لهم الفرصة لأن يكرروا تلك العبارة المحتفل بها : نحن لا شىء أو نحن لا أحد . ولسوف يحضرون أيضا الألعاب الأولمبية حيث لا حاجة بنا لأن نقول إنهم سيتركون انطباعا رائعا ... هؤلاء الشباب الفخور الوسيم والذى هو مجد الجنس اللوزيتانى Lusitanian Race ومرآة لمستقبلنا والذى هو شجرة مزهرة تمد أغصانها وفروعها فى تحية رومانية . وتقول ليديا موجهة كلامها لريكاردو ريس : ابنى لن تكون له علاقة بمثل هذه المسرحية الهزلية الساخرة . ومع هذه الكلمات يمكن لنا أن نبدأ فى مناقشة تستمر على مدى عشر سنوات إذا قدر لنا أن نعيش فترة طويلة كهذه .

(١٧)

فيكتور يموج بالتوتر والقلق . فهذه المهمة هى إحدى المهام الجسام التى تنطوى على مسئولية كبيرة والتى لا يمكن مقارنتها بالعمل الروتينى المنصب على تعقب الناس المشكوك فى أمرهم وتقديم الرشوة لمديرى الفنادق واستجواب الشيالين والعتالين الذين يفشون الأسرار على الفور . ويضع يده اليمنى على مفصل فخذه لكى يشعر بوجود مسدسه مما يهدىء من قلقه ويدخل الطمأنينة على نفسه . ثم يستخرج من الجيب الداخلى لجاكتته فى بطء شديد مع استخدام أطراف أصابعه قطعة حلوى مشتملة على نعناع طبى . ويفكها فى حرص شديد لأنه فى الصمت الشديد بالليل يمكن أن يسمع صوت خشخشة الورق على مسافة عشر خطوات . من غير الحكمة أن يفعل هذا لأنه بذلك ينتهك تنظيمات الأمن ولكن رائحة البصل وربما بسبب التوتر الذى يجتاحه قد أصبحت حادة للغاية وبالتالى

توجد مخاطر من أن يهرب في اللحظة الحرجة صيده نظرا لوجوده في اتجاه الريح . وكان رجال الشرطة التابعون لفيكتور مختبئين خلف جذوع الأشجار وفي مداخل المنازل ومنتظرين صدور الاشارة وكانوا يحملقون في ثبات نحو النافذة التي لا ينبعث منها سوى خيط ضئيل من الضوء لا يكاد يرى . وحقيقة أن الشيش الداخلي مغلق رغم وجود هذه الحرارة الشديدة هي في حد ذاتها دليل على المؤامرة . ويرفع أحد أتبا ع فيكتور العتلة التي سيفتح بها الباب بالقوة ويدفع آخر بأصابع يده اليسرى في البرجمية الحديدية وكلا الرجلين اللذين لهما خبرة طويلة سيترك أثرا من المفصلات المكسورة والفك المكسور . وعلى الرصيف المقابل يقف شرطي آخر يقوم بدور شخص من المارة بريء أو بالأحرى يقوم بدور مواطن مطيع للقوانين وعائد إلى منزله الموجود في هذا المبنى ولكنه لا يطرق مستخدما أكرة الباب الخارجي خشية أن تجيء زوجته وتفتح له الباب وتتساءل : ما الذي جعلك تتأخر كثيرا ؟ وفي أقل من ١٥ ثانية يفتح الباب كما لو كان قد فُتح باستخدام عتلة . لقد تم التغلب على المشكلة الأولى . وينتظر رجل الشرطة على بسطة السلم لأن مهمته أن يصغي في دقة لكي يعطي تحذيرا إذا سمع أي شيء ولكي يبلّغ فيكتور لأن فيكتور هو العقل المدبر وراء هذه العملية . وفي المدخل يظهر الهيكل الظلي لرجل الشرطة فهو يشعل سيجارة مما يعني أن كل شيء يسير على ما يرام . لم تُثر شكوك على الأرضية التي أحدقوا بها الآن . ويبصق فيكتور متخلصا من قطعة النعناع فهو يخشى من الاختناق في ذروة العمل إذا حدث تقاتل وتشابك بالأيدي ويتنفس من خلال فمه ويستمتع بعذوبة النعناع . إنه لم يعد شبيها بفيكتور . ويتم اقتحام الشقة ومحاصرة العمارة ويتم القاء القبض على أربعة أشخاص ومعهم المنشورات التي تدينهم . لقد كان ذلك مجرد جانب من التدريبات التي تقوم بها الشرطة .

ريكاردو ريس متلهف على مناقشة بعض الموضوعات مع فرناندو بسوا ولكن فرناندو لا يظهر في الأفق . الزمن يمر في بطء . الأيام والليالي تتعاقب في حرارة

شديدة تهبط من السماء وتصعد من الأرض . الرجلان العجوزان لا يظهران فى ألتو دى سانتا كاتارينا إلا فى فترة متأخرة من بعد الظهر حيث لا يمكن لهما تحمل الظلال القليلة لأشجار النخيل واللمعان المنعكس عن صفحة النهر والذى يكون شديدا للغاية بالنسبة لعيونهما المرهقة كما أن هذا الوميض الشديد يجعلهما يلهثان ويشهقان ويتنفسان بصعوبة . ويترك ريكاردو ريس شقته مبكرا قبل أن تصبح الشمس شديدة الحرارة كما استفاد أيضا من حواف الظلال اثناء انتظاره ظهور تاكسى لكى يستقله إلى كالكادا دا استريلا ومنها إلى براذارز . الزائر ليس بحاجة للسؤال عن الطريق . فهو لم ينس الموقع ولم ينس الرقم ٤٣٧١ ووصل ريكاردو ريس إلى القضبان الحديدية للبوابة ووضع يده على الحجر الساخن وعلى الرغم من أن الشمس لم ترتفع كثيرا فى كبد السماء إلا أنها قد ظلت تسخن تلك البقعة منذ الفجر . ومن ممر قريب يترامى صوت مسح بالفرشاة . إنها أرملة تختصر المسافة عند الطرف البعيد للطريق وقد توارى وجهها خلف حجاب من الحرير الكريب الصينى الرقيق . لا يوجد أى أثر آخر للحياة . ويسير ريكاردو ريس هابطا إلى أن يصل إلى المنحنى فيتوقف هناك لكى يلقى نظرة على النهر وعلى بوغاز البحر أو فم البحر وهذه كلمة ملائمة للغاية هنا . لأنه هنا فى هذا المكان يجىء البحر لكى يروى ظمأه الذى لا يشبع مع إرضاع الشفتين المضغوطتين على الأرض . مثل هذه الصورة ومثل هذه الاستعارة ستكون فى غير محلها فى البنية الصارمة لقصيدة الشعر الغنائى ولكنها تخطر على ذهننا فى الصباح الباكر عندما يستسلم العقل للشعور فى إذعان .

ولا يلتفت ريكاردو ريس فيما حوله فهو يعرف أن فرناندو بسوا واقف إلى جواره ولكنه فى هذه المرة غير مرئى وربما قد مُنع من اظهار نفسه متجليا فى الجسد بالأماكن المتاخمة للجبانة والا فإن المكان سيصبح مزدحما للغاية بجماهير الناس وتصبح الشوارع مزدحمة بالموتى . وهذه الفكرة تجعل المرء يرغب فى

الابتسام . ويترامى صوت فرنانو بسوا وهو يتساءل : ما الذى جعلك تجىء إلى هنا فى هذه الساعة المبكرة يا عزيزى ريس ؟ أليس المنظر من عند ألتو دى سانتا كاتارينا حيث يوجد تمثال آداماستور كافيا بالنسبة لك ؟ فيرد ريكاردو ريس بدون أن يرد : من هنا يمكن لنا أن نرقب جنرالا إسبانيا وهو يبحر من أجل الانضمام إلى الحرب الأهلية . وهل تعرف أن الحرب الأهلية قد تفجرت فى إسبانيا؟ فقال بسوا : استمر فى الكلام . فقال ريس : انهم يقولون لى إن هذا الجنرال الذى يسمى ميلان داسترای من المقرر له أن يتقابل مع ميجويل دى أونامونو ذات يوم ولسوف يصيح قائلا : فليعش الموت وعندئذ سيكون هناك رد على ذلك . فقال بسوا : استمر فى الكلام . فقال ريس : وأنا أود أن أعرف الرد الذى قاله دون ميجويل . فقال بسوا : وكيف أخبرك بذلك قبل أن ينطق هو بذلك الرد ؟ فقال ريس: قد يكون من المثير لك أن تعرف أن قائد سالامانكا قد وقف إلى جوار الجيش وناصر الجيش الذى ينوى الاطاحة بالحكومة والنظام . فقال بسوا : هذا لا يهمنى على الاطلاق . فقال ريس : لقد اعتقدتُ ذات يوم أن فقدان الحرية قد يكون امرأً طبيعياً وملائماً فى المجتمعات المزدهرة . والآن لا أعرف ما الذى يمكن لى أن أعتقد فيه على أنه هو الصواب . وكنت أعتمد عليك فى هذا الشأن وبذلك فأنت خيبت ظنى . فقال بسوا : إن أقصى ما يمكن لى أن أفعله هو أن أقدم افتراضا على سبيل الجدل . فقال ريس: ما هو ذلك الافتراض ؟ فقال بسوا : أن قائد سالامانكا سيرد بأن يقول إنه توجد هناك ظروف يكون فيها الالتزام بالصمت متساويا مع الكذب . فقال ريس : أسمع صيحة رهيبة تقول : يحيا الموت . فقال بسوا : هذا تناقض غير فصيح وبغيض وكريه . وقال ريس : الجنرال ميلان داسترای معوق . فقال بسوا : لا اهانة فى ذلك مقصودة . وسيرفانتيس كان أيضا معوقا ومن سوء الحظ أنه يوجد فى إسبانيا حاليا عدد كبير للغاية من الناس المعوقين .فقال ريس :يؤلمنى أن أعتقد أن الجنرال ميلان داسترای قد يحاول

البدء فى سيكولوجيا شعبية . فقال بسوا : الشخص المعوق الذى لا يمتلك الثراء الروحى الموجود لدى سيرفانتيس يجد المواساة عادة فى الضرر الذى يمكن أن يسببه للآخرين . فقال ريس : أتعتقد أنه سيقدم هذه الاجابة ؟ فقال بسوا : هذه اجابة من بين عدد غير محدود من الافتراضات . فقال ريس : هذا يتفق مع ما قاله الجندى البرتغالى . فقال بسوا: يكون الأمر مهما عندما تتفق الأشياء وتعطى معنى . فقال ريس: ما هو الإحساس الذى يمكن أن يكون موجودا فى يد مارسيندا اليسرى ؟ فقال بسوا: إذن فأنت مازلت تفكر فيها. فقال ريس: مازلت أفكر فيها من وقت لآخر. فقال بسوا: لست بحاجة لأن تنظر بعيدا للغاية فنحن جميعا معوقون.

ريكاردو ريس موجود بمفرده. وعلى الأغصان المنخفضة لأشجار الدردار تبدأ حشرات زيز الحصاد فى إحداث أصوات حادة كالصرير وهى أصوات مكتومة ولكنها تبتكر الصوت الخاص بها. وتدخل باخرة هائلة سوداء الى البوغاز ولكنها سرعان ما تختفى فى الانعكاس اللامع لصفحة الماء. البانوراما تبدو زائفة وغير حقيقية.

(١٨)

ريكاردو ريس لديه الآن صوت آخر فى شقته . إنه يمتلك «راديو» صغيرا. وهو أرخص راديو معروض فى السوق وهو من طراز بيلوت Pilot الشعبى ومصنوع من مادة الباكليت البلاستيكية التى لها لون العاج. وقد تم اختياره لأنه يشغل حيزا ضئيلا ويمكن نقله بسهولة من غرفة النوم الى غرفة المكتبة وهما الغرفتان اللتان يقضى بهما هذا الإنسان الذى يسير أثناء نومه ألا وهو ريكاردو ريس معظم أوقاته. لو كان قد قرر أن يشترى مذياعا قبل أن تنتهى متعة العيش فى مسكن جديد لكان قد اشترى الآن جهاز استقبال بالفعل المتغاير الفوقى به ١٢

قناة فضائية وقوة تكفى لاثارة الجيران وجذب جمهور للمجيء تحت نافذته، ونظر للتلهف على الاستماع للموسيقى والاصغاء للأخبار والبرامج الاذاعية فإن ربات البيوت بالمنطقة سيحضرن بما فى ذلك الرجلان العجوزان مع ابداء روح الود والامتنان على هذا الشيء الجديد غير المألوف، ولكن ريكاردو ريس يرغب فقط فى متابعة الأخبار فى سرية وفى خصوصية مع تخفيض الصوت الى درجة الهمس. وهو لا يستطيع أن يقول ما إذا كانت انتصارات الجيش الثورى بإسبانيا هى التى تدخل عليه السرور أم أن الهزائم المدوية للقوات التى تساند الحكومة هى التى تبهجه. ريكاردو ريس لا يقوم بتفحص الصراع الداخلى لديه. انه يترك قلقه مثل شخص ما تنقصه الشجاعة التى تعينه على سلخ أرنب فيطلب من شخص آخر أن يفعل ذلك نيابة عنه بينما هو يكتفى بالوقوف ومراقبة الموقف وقد تضايق مع الغثيان الذى أصابه. ويشعر بالبغض نحو الرجل الذى قام بعملية السلخ. كيف يمكن له ولى أن ننتمى الى نفس الجنس البشرى. وربما كان ذلك هو السبب فى أننا نكَره الجلاد ونرفض أن نأكل لحوم كبش الفداء.

وشعرت ليديا بالبهجة حقا، أن يكون الانسان قادرا على سماع الموسيقى فى أى وقت بالنهار أم بالليل. وهذه مبالغة من جانبها. انها بمثابة روح بسيطة قادرة على الابتهاج من أتفه الأشياء اللهم إلا إذا كان هذا بمثابة ادعاء لكى تخفى همها وقلقها لأن ريكاردو ريس قد أصبح قذرا ومهملا فى مظهره حيث لم يعد يهتم بمظهره ولم يعد يعتنى بشكله. وقالت له إن دوق آلبا ودوق ميديناسيللى قد غادرا الفندق مما أدى إلى شعور سلفادور - الذى يهتم بزبائنه وخاصة الذين يحملون الألقاب - بالإحباط الشديد وان كانوا فى هذه الحالة لا يحملون ألقابا لأن فكرة المناداة على كل من دون لورينزو ودون ألونصو بلقب الدوق لم تكن سوى نكتة من جانب ريكاردو ريس وبالتالى فقد حان الوقت للتوقف عنها. انه غير مندهش. فطالما أن يوم النصر آخذ فى الاقتراب فإنهما يعيشـــان لحظاتهمـــا الأخيرة

فى المنفى فى ترف . ومن أجل مصلحة هؤلاء الإسبان الذين يعيشون بالمنفى بالبرتغال فإن نادى الراديو البرتغالى قد استخدم أخيرا مذيعة اسبانية لها صوت سوبيريتا فى احدى الأوبرتات وتقرأ أخبار حالات التقدم الوطنية بلغة سرفانتيس الرشيقة . وتحاول ليديا أن تكون مرحة رغم أنها مثقلة بالقلق على ريكاردو ريس علاوة على القلق من الأخبار الرهيبة التى تجىء من إسبانيا والتى تتزامن مع الأخبار التى تتعلق بأخيها دانييل. ولدى سماعها من المذياع أنه يتم قصف باداجوز حتى تشرع فى البكاء وهذا سلوك غريب من جانبها اذا وضعنا فى الاعتبار انها لم يسبق لها مشاهدة باداجوز من قبل ولم يكن لها اسرة أو ممتلكات هناك، ويتساءل ريكاردو ريس: لماذا تبكين يا ليديا ؟ ولكنها لا تردّ عليه وربما كان بكاؤها يتعلق بشىء ما قاله لها أخوها دانييل ولكن من الذى أخبر أخاها وما هو مصدر معلوماته ؟ ومن المؤكد أن الحرب فى إسبانيا تناقش على ظهر الباخرة ألفونصو أثناء قيام البحارة بإنجاز الأعمال بها حيث يمررون أحدث الأنباء فيما بينهم ولا ينبغى علينا أن نصدق كل ما يجىء بالصحف او الاذاعة. ولكن ريكاردو ريس يحاول مواساة ليديا وتجفيف دموعها ويحاول كسبها لصالح وجهة نظره فيكرر عليها الأخبار التى قرأها وسمعها فيقول لها: ها أنت تبكين من أجل باداجوز هل تعرفين أن الشيوعيين قطعوا أذن ١١٠ من ملاك الأراضى واغتصبوا نساءهم ؟ فتقول ليديا : وكيف عرفت ذلك ؟ فيقول ريس: لقد قرأت ذلك فى الجريدة كما قرأت ايضا مقالا بقلم تومى فييرا وهو صحفى ومؤلف للعديد من الكتب يشير فيه إلى أن البلاشفة فقأوا عينى قسيس عجوز ثم صبوا الجازولين عليه وأشعلوا فيه النيران. فقالت ليديا : اننى لا أصدق ذلك. فقال ريس: هذا مكتوب فى الجريدة . فقالت ليديا: أخى يقول انه لا ينبغى على المرء أن يصدق دائما ما تقوله الصحف . فقال ريس: اننى لست فى وضع يسمح لى بالذهاب الى اسبانيا لكى أعرف الحقائق بنفسى وينبغى على أن أصدق ما يجىء

بالصحف ؛ فالصحف لا تكذب . وتلك الجريمة التى حدثت للقسيس تعتبر أشنع الجرائم التى يمكن ان يتخيلها الانسان. فقالت: يا دكتور أنت رجل متعلم بينما أنا لا أكاد أعرف القراءة والكتابة ولكننى تعلمت شيئا واحدا فى الحياة وهو أنه دائما ما تكون هناك حقائق كثيرة ولكنهم غالبا ما يقولون أشياء مختلفة ونحن لن نعرف من الذى يكذب الى أن تبدأ الحرب. فقال ريس: وماذا لو اتضح صدق الخبر القائل بأنهم فقأوا عينى القسيس وصبوا عليه الجازولين وأحرقوه ؟ فقالت: تلك حقيقة رهيبة ولكن أخى يقول انه اذا وقفت الكنيسة الى جانب الفقراء وساعدتهم لكى يواجهوا الحياة على هذه الأرض فإن الفقراء سيكونون أول من يضحون بحياتهم من أجل الكنيسة. فقال ريس: وماذا عن قيامهم بقطع آذان أصحاب الأراضى واغتصاب زوجاتهم؟ فتقول: تلك ستكون حقيقة رهيبة أخرى ولكن أخى يقول انه بينما يقاسى الفقراء على هذه الأرض يستمتع الأغنياء بالجنة بالفعل بدون الذهاب الى السماوات. فقال: أنت دائما تقدمين الاجابة من خلال كلمات أخيك. فقالت: وأنت يا دكتور تتكلم من خلال الكلمات التى تقرؤها فى الصحف. هذا قول صادق بما فيه الكفاية.

ومن الصحف يعرف ريكاردو ريس أن الباخرة ألفونصو قد أبحرت الى أليسانتى لكى تنقل اللاجئين ويشعر بالحزن يدب فى قلبه بسبب ارتباطه بالاقدار مع هذه الباخرة رغم أن ليديا لم تقل له إن أخاها البحار قد أبحر فى مهمة انسانية . وليديا بقدر ما يتعلق الأمر بذلك لم تظهر أخيرا. فأصبحت الأطباق المتسخة متكومة وأصبح الغبار متراكما على الأثاث وصارت الأشياء تدريجيا فاقدة شكلها كما لو كانت أصبحت مرهقة وسائمة من الوجود والذى قد يكون أيضا بمثابة التأثير الناجم عن الارهاق الذى أصاب العيون. لم يسبق لريكاردو ريس أن شعر بمثل هذه الدرجة العميقة من الشعور بالوحدة القاسية. إنه ينام طوال النهار تقريبا على قمة السرير غير المرتب او على الأريكة الموجودة فى حجرة

المكتبة. بل وحدث له ذات مرة أن نام وهو فى التواليت ولكن ذلك لم يحدث له سوى مرة واحدة فقط لأنه آنئذ استيقظ فى خوف رهيب بعد أن كان يحلم بأنه قد مات على التواليت بينما بنطلونه مسحوب لأسفل وجثته خالية تماما من مظاهر احترام الذات. ولقد قام بكتابة خطاب مطول للغاية لمارسيندا صفحة وراء صفحة منقبا عن آثار قديمة بأكملها من إحياء للذكرى ابتداء من المساء الأول بالفندق بينما الكلمات تتدفق بدون انقطاع من ذكرى لذكرى أخرى ولكن لدى الوصول الى الزمن الحاضر لا يجد ريكاردو ريس أى كلام يقوله أو أى شىء يسأل عنه او أى شىء يقدمه. ولذلك قام بتجميع الصفحات المكتوبة ونظمها وسوى بعض الزوايا التى كانت قد انطوت او تكرمشت ثم مزق الخطاب بطريقة منهجية منظمة صفحة وراء صفحة إلى أن أصبح قطعا صغيرة للغاية من الورق الممزق بحيث يتعذر قراءة كلمة واحدة. ولم يلق بهذا الورق الممزق تماما فى سلة المهملات ولكن انتظر لحين حلول الساعات المبكرة من الصباح والتى يكون فيها كل شىء غارقا فى نوم عميق ثم ذهب ونثر الورق على درابزين الحديقة فحمله نسيم الصباح الى قمم أسطح المنازل بل وسوف تجىء رياح أقوى وتلتقطها وتنقلها الى مسافات أبعد ولكن ليس الى مسافات بعيدة للغاية بحيث تصل بالفعل الى مدينة كوامبرا التى تسكن فيها مارسيندا . وبعد يومين قام بنسخ قصيدته على قصاصة ورق «متلهف بالفعل على حلول الصيف...» وهو يدرك أن هذه الحقيقة أصبحت الآن أكذوبة لأنه لا يشعر بالتلهف ونفاد الصبر ولا شىء يشعر به سوى اعياء وإرهاق لا نهائى. وكتب على المظروف اسم مارسيندا سامبيو علاوة على عبارة «يودع فى شباك البريد» بمدينة كوامبرا. فهى إذا لم تذهب لاستلام هذا الخطاب من شباك البريد فى كوامبرا فى خلال ستة شهور سيتم تدميره وذلك الموظف المخلص المجتهد الذى يعمل بمكتب البريد والذى سبق ان تحدثنا عنه إذا أخذ هذا الخطاب الى مكتب الدكتور سامبيو فلن ينجم عن ذلك أى ضرر. فلدى عودته الى المنزل وبعد

أن استخدم حقه الأبوى فى فتح الخطاب فإنه سيقول لابنته: يبدو ان هناك معجباً بك غير معروف. ولسوف تقوم مارسيندا بقراءة القصيدة ثم تبتسم لنفسها. بل ولا يخطر على ذهنها ان الخطاب مرسل من ريكاردو ريس لانه لم يسبق له أبدا أن قال لها انه شاعر وان كانت هناك تشابهات معينة فى خط اليد .

(١٩)

لقد قالت ليديا: لن أرجع اليك ومع ذلك فها هى تطرق على الباب. مفتاح الشقة موجود فى جيبها ولكنها لا تستخدمه. فهي لديها عزة نفسها وسبق لها أن قالت إنها لن ترجع اليه ولذلك قد يبدو الأمر رديئا الآن لو أنها استخدمت المفتاح كما لو أن هذه الشقة هى شقتها ويفتح ريكاردو ريس الباب ويخفى دهشته. ونظرا لأن ليديا تصاب بالتردد ولا تعرف إلى أى غرفة تتجه فإنه يتحرك نحو غرفة المكتبة وبحيث يمكن لها أن تتبعه اذا رغبت فى ذلك. عيناها حمراوان ومتورمتان. ربما تكون قد قررت فى نهاية الأمر عقب كفاح هائل مع البهجة المتعلقة بالأمومة المرتقبة أن يتم اجهاضها لأن التعبير على وجهها لا يبدو انه قد نجم عن سقوط مدينة ايرون او حصار سان سيباستيان. وتقول: يجب أن تعذرنى يا دكتور حيث لم أكن قادرة على المجيء. ولكن على الفور وفى نفس النفس تصحح كلامها قائلة: ليس بسبب هذا وإنما اعتقدت فقط أنك لم تعد بحاجة إليّ. ثم تصحح كلامها مرة أخرى قائلة: كنت أشعر بالملل والسأم من هذه الحياة. وبعد أن قالت تلك العبارة تقف هنالك فى حالة انتظار . ولأول مرة تنظر نظرات مباشرة فى وجه ريكاردو ريس وقالت لنفسها فى تفكير صامت: ربما يكون هو مريضا. وقال لها: لقد كنت أفتقدك وأشعر بالرغبة الشديدة فى أن أراك. ثم لاذ بالصمت حيث لم يجد أى كلام آخر لديه لكى يقوله. وخطت ليديا خطوتين . انها سوف تبدأ بغرفة النوم

وترتب له سريره ثم تذهب الى المطبخ وتغسل الأطباق ثم تنقع ملابسه المتسخة في حوض الغسيل ولكن هذا ليس هو السبب الذى جاءت من أجله على الرغم من أنه يمكن لها أن تفعل كل تلك الأمور فيما بعد. ويقول ريكاردو ريس : قولى لي، ما هي الأمور الخاطئة التي حدثت ؟ فتبدأ ليديا في الاجهاش بالبكاء. فيقول: أهذا كله بسبب الطفل ؟ فتهز رأسها بالنفى ثم تقول: الأمر يتعلق بأخي . ويتذكر ريكاردو ريس أن الباخرة ألفونصو قد عادت من أليسانتي وهو ميناء مازال تحت سيطرة الحكومة الإسبانية . ويجمع ٢ + ٢ فيجد أن النتيجة أربعة. وتساءل : هل أخوك ترك الخدمة العسكرية وظل باقيا في اسبانيا؟ فقالت: لا . لقد رجع مع الباخرة ولسوف تحدث كارثة. فقال: خبريني . ماذا حدث؟ فقالت بعد أن توقفت عن البكاء وجففت دموعها ومخضت أنفها: البحارة على وشك القيام بتمرد والذهاب بالباخرة الى عرض البحر. فقال: من الذى قال لك هذا الكلام؟ فقالت: أخي دانييل وطلب منى ألا أفشى هذا السر ولكن كان عليّ أن أتحدث مع أى شخص أثق به ولذلك جئت اليك هنا يا دكتور فليس لدى أى شخص آخر غيرك يمكن لي أن ألجأ اليه ووالدتي ليس لديها فكرة عن هذا الموضوع . ويندهش ريكاردو ريس عندما يكتشف أنه خال من المشاعر فربما يكون هذا هو قدراً محتوماً لا يمكن تجنبه ومع ذلك نظل صامتين ومتفرجين ونرقب مشهد العالم حتى لدى مغادرتنا لهذا العالم. وتساءل: هل أنت متأكدة من هذا الخبر؟ فأومأت برأسها بالايجاب وقد امتلأت عيناها بالدموع مع انتظار سماع الاسئلة المناسبة التي هي من نوع أن الاجابة عليها بكلمة نعم أو لا. الا ان مثل هذا الاستجواب يتطلب شجاعة تند عن القوى البشرية. فيقول ريس: وما هي خططهم .. ؟ ومن المؤكد انهم لا يتصورون ان مجرد خروجهم الى عرض البحر سيؤدى الى اسقاط الحكومة ؟ وتقول ليديا: خطتهم تتلخص في الذهاب الى أنجرا دو هيروازمو وتحرير المسجونين السياسيين الموجودين هناك والاستيلاء على هذه الجزيرة

وبعدند الانتظار لحين تفجر التمردات والثورة هناك. فقال ريس: واذا لم تحدث ثورات وتمردات ؟ فقالت : اذا لم تحدث ثورات سيذهبون الى اسبانيا وينضمون للحكومة. فقال: انهم مجانين . انهم لن يتمكنوا من الوصول الى المضايق. فقالت: وذلك هو ما قاله أخي ولكنهم يرفضون الاستماع. فقال ريس: ومتى سيحدث ذلك؟ فقالت : انه لم يخبرني بالموعد المحدد ولكن ذلك سيحدث في خلال الأيام القليلة القادمة. فقال ريس: وما هي البواخر الأخرى التي ستشارك في هذه العملية؟ فقالت: ألفونصو + دايو + بارتمولو دياس. فيقول ريكاردو ريس مرة أخرى: انهم مجانين . ولكنه لم يعد يفكر في المؤامرة التي أزيح الستار عنها بمثل هذه البراءة ولكن ما يتذكره هو يوم وصوله الى لشبونة ومشاهدته لزوارق الطوربيد بالميناء وقد طليت كلها باللون الرمادي المميت حيث قال له الشيال: هذه الباخرة القريبة منك تسمى دايو . ويأخذ ريكاردو ريس نفسا عميقا كما لو كان موجوداً على ظهر الباخرة. وراح يكرر مرة أخرى : انهم مجانين. هل يمكن أن تكون هناك اية لمحة أمل في صوته؟ ويقول ريكاردو ريس: ولكن قد تنتهي الأمور على خير في نهاية الأمر فمن يدري ولربما يقومون بإلغاء خطتهم في نهاية الأمر واذا لم يلغوا خطتهم فلربما يذهبون الى أنجرا ولسوف نرى ما تسفر عنه الأمور وأهم شيء أن تتوقفي عن البكاء فلا فائدة ترجى من وراء البكاء فالبحارة قد يغيرون رأيهم. فقالت: لا . يا دكتور أنت لا تعرفهم وأنا متأكدة من أنهم لن يغيروا رأيهم تماما مثل تأكدي من أن اسمي هو ليديا. وبعد أن نطقت باسمها أدركت على نحو فجائي أنها ينبغي عليها ألا توجد هنا فقالت: لا أستطيع القيام بأعمال التنظيف اليوم اذ ينبغي عليَّ الرجوع إلى الفندق على الفور. لقد جئت إليك من أجل أخفف من أحزاني من خلال التحدث معك وآمل ألاَّ يكون هناك أحد بالفندق قد لاحظ عدم وجودي به . فقال ريكادو ريس: أيمكن لي أن أقدم لك أية مساعدة ؟ قالت: انهم أولئك البحارة الذين يحتاجون للمساعدة طوال تلك المسافة الطويلة قبل وصولهم

إلى المضايق والشئ الوحيد الذى أريده منك هو أن تحتفظ بهذا السر ولا تفشه لأى أحد على الاطلاق. فقال: لا تقلقى. شفتاى مغلقتان بالشمع. ولكن شفتيه انفرجتا على نحو يكفى لإعطائها قبلة مواساة وتأوهت ليديا لأنها كانت تشعر بتعاسة شديدة رغم أن المرء يمكن له أن يتبيّن وجود صوت آخر عميق فى داخل تأوهاتها فنحن الآدميون نكون على هذا النحو. إذ نشعر بأشياء كثيرة فى اللحظة نفسها . ولدى نزول ليديا على السلالم نزل ريكاردو ريس وراءها حتى بسطة السلم وهو أمر غير عادى يفعله، فنظرت لأعلى نحوه وأومأ لها برأسه وابتسما معا . لحظات معينة بالحياة تبدو متقنة ورائعة وتلك هى احدى تلك اللحظات مثل صفحة كانت عليها كتابة ولكنها أصبحت الآن صفحة بيضاء مرة أخرى.

وعندما خرج ريكاردو ريس من أجل تناول طعام الغداء راح يتسكع فى الحديقة ويحملق فى البواخر الحربية الواقفة أمام توريرو دو باكو. ان معلوماته عن السفن والبواخر ضئيلة بوجه عام ولا يعرف سوى أن المراكب الرسمية لنقل الرسائل تعتبر أكبر حجما من زوارق الطوربيد ولكن من على مسافة تبدو كلها متشابهة للغاية، فلا يستطيع أن يعرف ما هى الباخرة ألفونصو ولا ما هى الباخر دياس، أما الباخرة دايو فكان يعرفها لأن الشيال قد حدثه عنها قائلا له: الدايو هى القريبة للغاية منك. من المؤكد أن ليديا كانت تحلم أو أن أخاها قد تعمد إخافتها بهذه النكتة فهذه قصة لا يمكن تصديقها عن بواخر تتجه نحو عرض البحر . ثلاث من هذا البواخر راسية عند رصيف الميناء فى هدوء شديد والفرقاطات ترتعش وتتجه نحو أعالى النهر والمعديات التى تتجه إلى كاسيلياس تلعب لعبة المجئ والذهاب على نحو لا نهائى وبينما طيور النورس تجوب السماء الزرقاء الخالية من السحب فى حين أن الشمس تسطع فى اشتراق على النهر المرتقب. فبرغم كل شئ فإن كل ما قاله دانييل لأخته صحيح فالشاعر يمكن له أن يحس بالخوف الذى يرتعد بين هذه المياه، وقال ريكاردو ريس: ومتى سيغادرون ؟

فردت عليه ليديا: فى خلال الايام القليلة القادمة . فيشعر ريكاردو ريس بالتوتر في حلقه وتمتلئ عيناه بالدموع، فتلك كانت هى الطريقة التي ابتدأ بها البكاء العظيم لدى الفنان آداماستور. إنه على وشك المغادرة عندما يسمع أصواتا تقول وتنادى في اثارة: هنالك . هنالك. انهم ينتمون إلى الرجلين العجوزين بينما أناس آخرون يتساءلون: اين وما هذا؟ وأطفال يلعبون لعبة قفزات الضفدعة يقطعون لعبتهم ويصيحون: أنظروا إلى البالون . أنظروا إلى البالون . ومسح ريكاردو ريس عينيه بظهر يده وشاهد منطادا هائلا يرتفع فى الهواء عند الجانب الآخر من النهر. من المؤكد أن هذا هو منطاد زبلن أو منطاد هايدنبرج قادما من أجل اسقاط خطابات البريد الواردة من جنوب افريقيا حيث يوجد على الدفة شعار الصليب المعقوف ذى الألوان الأبيض والأحمر والأسود مثل طائرة ورق أطلقها الأطفال في الهواء. شعار يترنح ويرفرف قد فقد معناه الأساسى حيث أصبح تهديداً بدلاً من أن يكون شهاباً . الروابط ما بين الإنسان والشعارات والرموز تكون عجيبة للغاية. علينا فقط أن نفكر في القديس فرانسيس أوف عسيسى المرتبط من خلال الدماء مع الصليب الخاص بالسيد المسيح ونفكر فى صليب السيد المسيح الموجود على أشرطة الذراع لدى موظفى البنك في الاجتماع الجماهيرى السياسى. انها معجزة ألا يضيع الانسان وسط هذه المتاهة من تداعيات المعانى . منطاد هايدنبرج الذى تزأر ماكيناته طار فوق النهر في اتجاه القلعة ثم اختفى خلف بعض المنازل وتلاشى الزئير تدريجيا . المنطاد على وشك أن يسقط الخطابات البريدية عند بورتيلا دا ساكافيم وربما ستقوم الباخرة «هايلاند بريجيد» بنقل هذه الخطابات لأن العالم به الكثير من المرات المتكررة . ويعود الرجلان العجوزان إلى المقعد الخشبى الطويل الخاص بهما ويرجع الاطفال إلى ممارسة لعبة قفزات الضفدعة وتهدأ التيارات الهوائية مرة أخرى . تقبع البواخر فى أحضان الحرارة المتراكمة لفترة ما بعد الظهر في حين كانت

مقدماتها تتجه نحو البحر . من المؤكد أن البحارة يتناولون طعام الغداء فى هذا اليوم مثل كل يوم اللهم الا اذا كان هذا اليوم هو آخر يوم لهم. وفى المطعم قام ريكاردو ريس بملء كوبه بالخمر ثم ملأ كأس ضيفه غير المرئى ولدى رفع كأسه لكى يرتشف الرشفة الأولى قام بحركة كما لو كان يشير قائلا للشخص الآخر «فى صحتك» . ونظرا لأننا لا نستطيع أن نتفحص أفكاره لكى نعرف الشئ أو الشخص الذى كان يشير بيده نحوهفدعونا نحنو حنو الجرسونات العاملين فى هذه المؤسسة الذين لا يهتمون بمثل هذه الأمور لأن الزبون ربما يكون مختل العقل بعض الشئ ولكنه ليس أكثر الزبائن جنونا على الاطلاق.

كانت فترة ما بعد الظهر مستحبة ونزل ريكاردو ريس هابطا من أجل الذهاب إلى الشيادو ومنها إلى شارع نوفا دو ألمادو من أجل أن يرقب السفن والبواخر من عند المساكن القريبة . وعلى رصيف الميناء وبينما كان يعبر التييرو دو باكو تذكر أنه طوال هذه الشهور لم يذهب إلى مقهى مارتينيو دا أركادا . وبينما كان غارقا فى أحلام يقظة تتعلق بهذا المقهى وقد نسى السبب الذى جعله يجيء إلى هذا المكان حيث كان مكتفيا بالحملقة ولا شئ سوى الحملقة سمع على نحو فجائى صوتا متراميا من ورائه قائلا له: اذن فأنت قد جئت لكى تشاهد السفن والبواخر يا دكتور؟ وتعرّف على ذلك الصوت على الفور . انه صوت فيكتور. وكان أول ردّ فعل لدى ريس هو الشعور بالحيرة والدهشة . أين كانت تلك الرائحة ؟ ثم اقتربت الرائحة لأن فيكتور كان باتجاه الريح . وشعر ريكاردو ريس بضربات قلبه وهى تدقّ فى مزيد من السرعة. أكان فيكتور يشك فى الأمور ؟ وهل انكشفت خطة تمرّد البحارة ؟ وأجاب: السفن والبواخر والنهر ولكن كان بمقدوره أيضا أن يذكر الفرقاطات وطيور النورس كم كان ايضا على وشك أن يستقل المعدية التى تذهب إلى ساسيلياس من أجل متعة العبور ومشاهدة الدولفينات وهى تقفز فى الماء ولكنه اكتفى بأن قال مكررا الكلام السابق مرة أخرى: السفن والبواخر والنهر.

ثم انسحب في جفاء قائلا لنفسه بأنه تصرف في غباء حيث كان ينبغي عليه أن يتبادل معه أطراف الحديث على نحو طبيعي . فلو كان فيكتور يعرف أن هناك شيئا ما يدور في السر لكان قد اكتشف بكل تأكيد أنه من الأمور المثيرة للشكوك ان يجد الدكتور ريس موجودا في هذا المكان وبعدئذ خطر على ذهن ريكاردو ريس أنه ينبغي عليه أن يلفت نظر ليديا وأنه مضطر لأن يفعل ذلك، ولكنه غيّر رأيه على الفور. فماذا يمكن لي أن أقوله لها؟ هل أقول لها إنني شاهدت فيكتور في توريرو دو باكوم ؟ ربما يكون ذلك قد تم بطريق المصادفة لأنه حتئ الشرطة تستمتع بالنظر إلى النهر وربما كان فيكتور في يوم أجازته وفي حالة استمتاع بالنهر والبحر التي هي حالة يشترك فيها جميع البرتغاليين وكان من الطبيعي بالنسبة لفيكتور أن يلقي بالتحية على ريس بمجرد مشاهدته بطريق المصادفة حيث توجد معرفة بينهما منذ أن ذهب ريس إلى المركز الرئيس للشرطة . ومر ريكاردو ريس من أمام مدخل فندق البراجانسيا وواصل المسير صاعدا على شارع الكريم حيث توجد عبارات محفورة على سلالم حجرية نصها كالآتي: Clinica de enfermedades de los ojos y quirurgi cas A Mascaro 1870 ولا شئ يقول لنا ما اذا كان هذا الماسكاروه Mascaro قد تخرج في كلية طبية أو كان مجرد ممارس عام ؟ ففي تلك الأيام كانت القوانين والانظمة التي تتعلق بالشهادات والدبلومات أقل صرامة بل وحتى في هذه الأيام فهي ليست صارمة بمعنى الكلمة ويكفي أن نتذكر أن ريكاردو ريس كان يعالج المرضى المصابين بالقلب بدون أن تكون لديه أية مؤهلات تسمح له بذلك

وتتبّع ريكاردو ريس خط التماثيل: ايكا دي كوايروس + شيادو + دارتانيان . مسكن تمثال أداماستور الذي لا يُرى إلاّ من الخلف . وتظاهر ريس بأنه شديد الاعجاب بالتماثيل حيث راح يمشي في بطء حول كل منها ثلاث مرات وهو يشعر بأنه كان يلعب لعبة «الشرطة واللصوص» ولكنه سرعان ما هدأ من روعه لأن فيكتور لم يكن يتتبعه.

انقضت فترة ما بعد الظهر وهبط الظلام . لشبوبة مدينة هادئة ولها نهر عظيم له شهرة أسطورية . لم يخرج ريكاردو ريس لكى يتناول طعام العشاء. اذ قام بسلق بيضتين ووضعهما فى داخل رغيف علاوة على كأس من الخمور . بل ووجد صعوبة فى ابتلاع الخمور . وبسبب التوتر والقلق نزل من شقته للذهاب إلى المتنزه عقب الساعة الحادية عشرة مساء لكى يلقى نظرة أخرى على السفن والبواخر. وكل ما استطاع مشاهدته هى أنوار المرسى وبعدئذ لم يعد بمقدوره أن يعرف الفارق ما بين زوارق البريد وزوارق الطوربيد .وكان هو المخلوق الوحيد الموجود فى ألتو دى سانتا كاتارينا اذ لا يمكن أن ندخل تمثال آداماستور ضمن عدد الناس الموجودين حيث أصبح الان متحجرا للغاية وأصبح حلقه الصارخ للأبد صامتا كما أصبح وجهه مخيفاً للناظرين . فرجع ريكاردو ريس الى شقته فالبواخر لن تغادر مكانها ليلا بسبب مخاطر الارتطام بالصخور واستلقى فى سريره وهو مرتد بعض ملابسه ونام واستيقظ ثم عاد إلى النوم مرة أخرى وقد هدأت نفسه من خلال الهدوء الشديد والصمت المطبق الذى يخيّم فى جميع أرجاء الشقة لدى تسلل أول ضوء للنهار من خلال فتحات الشيش . وعندما استيقظ لم يحدث أى شيء . وطالما أن يوما جديدا قد بدأ بدا من المستحيل أن يحدث أى شيء . وشعر بالخجل من نفسه وشعر بالترويع لأنه لم يكن قد خلع سوى حذائه وجاكتته ورباط عنقه . وقال لنفسه فى تفكير : لسوف آخذ حماما . وصمم على ذلك . وانحنى لكى يبحث عن شبشبه تحت السرير وعندئذ سمع أول تراشق بالمدفعية . ولكن ربما كان على خطأ فى تقديراته وربما سقطت قطعة أثاث بالشقة الموجودة أسفله بالدور الثانى وربما صاحبة العمارة قد أغمى عليها وسقطت فى ارتطام هائل على الأرض ، ولكن انفجاراً آخر دوى فاهتز زجاج النوافذ . البواخر الحربية تطلق النيران على المدينة : قام بفتح النافذة . لقد كان الناس فى حالة من الذعر والهلع الشديدين ، وصاحت امرأة قائلة : فليساعدنا الله . إنها ثورة .

وجرت نحو الحديقة لكى تنقذ حياتها . فوضع ريكاردو ريس قدميه فى حذائه وارتدى جاكتته حيث لم يكن قد خلع ملابسه قبل أن ينام تماما كما لو كان قد عرف ما سيحدث . وكان الجيران قد نزلوا بالفعل على السلالم وهم مرتدون الأرواب دى شامبر . وعندما شاهدوا الدكتور يبزغ من شقته وأى دكتور يمكن الاعتماد عليه فى معرفة كل شىء سألوه فى هم وقلق شديدين : هل أصيب بعض الناس بجراح يا دكتور ؟ ومن المؤكد أن مغادرته لشقته بهذه السرعة كان يعنى أن أحدا ما قد استدعاه لكى يتعامل مع حالة الطوارىء . وسارت النساء وراءه مع تغطية رقابهن حتى مدخل العمارة . وعندما وصل ريكاردو ريس الى الحديقة كانت جماهير من الناس قد تجمعت بالفعل . المقيمون فى هذا الحى لهم الحق فى الوجود لأنه لا يوجد مكان أفضل من ذلك فى لشبونة يمكن منه مشاهدة البواخر التى تدخل والتى تخرج من الميناء . لم تكن البواخر الحربية تطلق النيران على المدينة وانما كانت قلعة ألمادا هى التى تطلق النيران على البواخر الحربية . على واحدة من البواخر الحربية . فتساءل ريكاردو ريس : ما اسم هذه السفينة ؟ ومن حسن الحظ أنه سأل شخصا ما كان يعرف فقال له : إنها الباخرة ألفونصو دى البوقريق . إذن فهى الباخرة التى كان يعمل بها شقيق ليديا البحار دانييل الذى لم يتقابل معه ريس على الاطلاق . وحاول ريس أن يتخيل شكل وجهه ولكنه لم يشاهد سوى وجه ليديا . من المؤكد أن ليديا فى نفس هذه اللحظة تطل من نافذة بفندق البراجانسيا . أو ربما تكون قد انطلقت الى الشارع وهى مرتدية الزى الرسمى الخاص بفندق البراجانسيا . إنها تجرى الى كاييس دو سودريه وهى تقف الآن عند رصيف الميناء وقد ضغطت بيديها على صدرها وربما هى منخرطة فى البكاء وربما تبكى بدموع جافة وخدين ملتهبين بسبب التوتر ثم تطلق صرخة مدوية فجائية لأن ألفونصو سقطت عليها قذيفة ثم قذيفة أخرى ، شخص ما فى ألتو دى سانتا كاتارينا يقوم بالتصفيق بيديه . وفى نفس هذه اللحظة يبزغ

الرجلان العجوزان وهما يلهثان فى توتر ، كيف تمكنا من المجيء الى هنا بهذه السرعة الكبيرة بينما هما يسكنان فى أسفل التل؟ ولكنهما يفضلان الموت على أن تفوتهما فرصة مشاهدة هذه اللقطة وهذا أمر محتمل اذا وضعنا فى الاعتبار المجهود الخارق الذى بذلاه . الأمر كله يبدو شبيها بحلم . وجنحت ألفونصو فى بطء حيث ربما تكون قد أصيبت فى جزء مهم وحيوى مثل غرفة الغلاى أو الدقة . وتستمر قلعة ألمادا فى اطلاق النيران ويبدو أن ألفونصو ترد على النيران بالمثل ولكننا لسنا متأكدين من ذلك . من جانب الجانب بالمدينة يمكن سماع هدير طلقات جديدة فى مزيد من الوضوح ولكن على فترات متباعدة بعض الشيء . ويقول شخص ما فى تعليق : تلك هى قلعة ألتو دى دوق . إنهم قد ضاعوا الآن فهم لن يستطيعوا الفرار . وفى نفس تلك اللحظة تظهر باخرة أخرى . إنها زورق طوربيد. إنها دايو . من المؤكد أن دايو تحاول أن تحمى نفسها من خلال الدخان الذى تطلقه مع محاولة الالتفاف جنوبا بهدف الهروب من مدافع قلعة ألمادا ولكنها اذا ابتعدت عن ألمادا لن تستطيع الهرب من ألتو دى دوق . القذائف تنفجر بالقرب من الشاطيء . ويظهر بالفعل علم أبيض على الدايو ولكن القصف المستمر يلاحقها وبعدئذ تبدأ الباخرة الدايو تميل فى انحراف ثم ترفع ملايات بيضاء وترفع الأكفان الجنائزية . النهاية قريبة فلن يكون لدى الدايو متسع من الوقت للفرار والنجاة والابتعاد عن مرمى النيران .

الساعة الآن التاسعة . لقد انقضت مائة دقيقة على بداية الحرب والأعمال العدوانية المتبادلة . لقد انقشع ضباب الفجر وتسطع الشمس من سماء صافية . من المؤكد أنهم يبحثون الآن عن الرجال الذين قفزوا إلى مياه البحر . ومن هذا المكان المعطل على البحر لم يعد بالمستطاع مشاهدة أى شيء آخر . ولدى قيام الناس المحنكين فى الشئون العسكرية والمحاربين القدماء بشرح ما حدث من أجل بعض الناس الذين جاءوا متأخرين يجلس ريكاردو ريس على مقعد خشبى طويل ،

وينضم اليه الناس الطاعنون فى السن وهم متلهفون للدخول فى مناقشة معه ولكن الدكتور لا يقول أى كلام ويكتفى بالجلوس منكس الرأس كما لو كان هو نفس الشخص الذى حاول الابحار الى عرض البحر ولكنه وقع فى الشبكة وتم الامساك به . وأثناء تناقش الناس اليافعين مع بعضهم البعض فى هذا الشأن تخف حدة الاثارة لديهم كما يبدأ الاطفال استئناف اللعب فى لعبة «قفز الضفدعة» وتبدأ الفتيات الصغيرات فى التغنى بأغنية «لقد ذهبت الى حديقة سليستى .. من أجل ماذا ذهبت الى هناك ؟ لقد ذهبت الى هناك للبحث عن وردة» من الملائم أكثر أن تصدر الأغنية عن نزارى Nazare وتكون على هـــذا النحو «لا تذهب الى البحر يا تونيو فقد تغرق هناك يا تونيو آه يا تونيو . أنت تونيو المسكين يا لك من شخص سيىء الحظ» .

شقيق ليديا ليس هو تونيو ولكن عندما يتعلق الأمر بسوء الحظ يكون الفارق ضئيلا للغاية . ويشعر الرجال بالاستياء وينفضون عندما ينهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه . إنه يجد بعض العزاء والراحة عندما يسمع امرأة تقول من خلال الشفقة والعطف : أيتها الأرواح المسكينة . إنها تقصد بكلامها البحارة ولكن ريكاردو ريس يشعر بتلك الكلمات وكأن شخصا ما يربت عليه أو يضع يدا على جبهته أو يربت فى رفق على شعره . وفى داخل شقته يلقى بنفسه على السرير غير المرتب ويغطى عينيه بذراعه ويبكى بكاء منطلقا خاليا من القيود . إنه يبكى بدموع سخيفة لأن هذه لم تكن هى ثورته : «حكيم ذلك الرجل يكتفى بالتفرج على العالم» . ويقول لنفسه : ينبغى على أن أكرر هذه العبارة آلاف المرات . فما أهمية كل ذلك بالنسبة لرجل لم يعد يهتم بمن الذى سيكسب ومن الذى سيخسر ؟ وينهض ريكاردو ريس واقفا ويرتدى رباط عنقه . إنه على وشك الخروج ولكن لدى مـــروره بيده على وجهه يشـــعر بلحيته . إنه ليس بحاجــة للنظر فى المرآة لكى لا يعرف أن هناك شعرا أبيض اللون يلمع هنالك بين الشعر الأسود النذير بكبر

السن . لقد تم الالقاء بقطعة النرد وتمت تغطية ورقة الكوتشينة التى أُلقى بها بورقة آسى ace رابحة فمهما كنت سريعا فى الجرى لن تتمكن من انقاذ والدك من المشنقة . تلك هى أمثال شعبية من أجل مساعدة الناس العاديين على تحمل ضربات القدر المحتوم . وريكاردو ريس الذى هو رجل عادى يبدأ فى حلق ذقنه وغسل نفسه ولا ينخرط فى تفكير أثناء الحلاقة وإنما يركز على موسى الحلاقة الذى يكشط ويحتك ببشرته ويقول لنفسه : فى احدى هذه الأيام ينبغى عليه أن يشحذ الموسى . وكانت الساعة السابعة والنصف عندما غادر شقته متجها الى فندق البراجانسيا . ولم لا يذهب ؟ إذ لن يندهش أحد اذا شاهد ضيفاً سابقا ظل مقيما بالفندق على مدى حوالى ثلاثة أشهر ، وظلت تخدمه فى اخلاص خادمة بالفندق وهى الخادمة التى شارك أخوها فى التمرد . فهى نفسها قد قالت له : نعم يا دكتور لى أخ يعمل فى البحرية . ويخدم على ظهر الباخرة ألفونصو دى البوقريق ولا ينبغى أن يندهش أحد من أن ريكاردو ريس قد جاء لكى يستفسر وليرى ما اذا كان بمقدوره تقديم المساعدة . يا إلها من بنت مسكينة من المؤكد أنها قاست كثيرا . بعض الناس يولدون تعساء .

جرس الفندق يصدر أزيزا حادا أكثر من ذى قبل . أو ربما ذاكرته بدأت تخذله وتخدعه . ويظهر بيمينتا عند قمة السلالم ويتهيأ للنزول معتقدا أن زبونا جديدا قد وصل مع حقائبه ثم يتوقف عن النزول ولا يستطيع أن يعرف من هو الشخص الصاعد على السلالم . ربما يكون قد نسى إذ تدخل وجوه كثيرة للغاية إلى حياة عتال الفندق وتخرج من حياته كما ينبغى أن نضع فى الحسبان أيضا الاضاءة الضعيفة . ولكن الوصول الجديد أصبح الآن قريبا للغاية حتى أنه رغم تخفيض وتنكيس رأسه لا يوجد هناك أى قدرّ ضئيل من الشك. ويقول بيمينتا: أُقسم بشرفى أن هذا هو الدكتور ريس كيف حالك يا دكتور؟ فيقول ريس: يومك سعيد يا بيمينتا . خادمة الغرف تلك .. ما اسمها.. آه ليديا . هل ليديا هنا؟ فيقول

بيمينتا: آه . لا يا دكتور فهى قد خرجت ولم تعد وأعتقد أن أخاها كان متورطا في عملية التمرد هذه . وما أن انتهى بيمينتا من كلامه حتى ظهر سلفادور على بسطة السلم متظاهرا بأنه مندهش للغاية وقال: مرحبا بك يا دكتور . كم أنا سعيد للغاية لرؤيتك مرة أخرى. ويقول بيمينتا موجها كلامه لسلفادور: الدكتور يودّ أن يتحدث مع ليديا. فيقول سلفادور: آه ليديا ليست هنا ولكن هل يمكن لى أن أقدم لك أية مساعدة ؟ فقال ريكاردو ريس: انها كانت قد قالت لى إن لها أخاً يعمل في السلاح البحرى وأنا جئت فقط لأرى ما إذا كان بمقدورى أن أقدم خدمات كطبيب ؟ فقال سلفادور: اننى أدرك وجهة نظرك يا دكتور ولكن ليديا خرجت من الفندق بمجرد بدء التراشق بالمدفعية وهى لم تعد حتى الآن ، وسلفادور يبتسم دائما عندما يقدم معلومات لأحد فهو يحاول أن يبدو فى صورة المدير الناجح ودعونا نكرر مرة أخرى وللمرة الأخيرة أنه كان لديه سبب يدعوه للشكوى من هذا الضيف السابق الذى كان ينـــام مع إحدى خادمات الغرف بالفندق ولربما مازال مستمرا والذى يبزغ فى الأفق الآن محاولا القيام بدور البرىء واذا كان يعتقد أنه يخدع ويضلل المدير فهو على خطأ كبير . وتساءل ريكاردو ريس: أتعرف إلى أين تكون قد ذهبت ؟ فقال سلفادور: ربما تكون قريبة من هنا فى مكان ما وربما تكون قد ذهبت إلى وزارة البحرية أو إلى منزل والدتها أو إلى مـــركز الشرطة لأن الشرطة يكون لها دائما علاقة بمثل هذه الأمور ولكن لا داع لأن تتعب نفسك يا دكتور فلسوف أخبرها أن الدكتور ريس قد جاء إلى هنا وعندئذ ستنطلق هى للبحث عنك بكل تأكيد . ثم صدرت عن سلفادور ابتسامة أخرى مثل شخص قد نصب مصيدة ويرى فريسته وقد وضعت قدمها فى المصيدة بالفعل . ولكن ريكاردو ريس أجاب قائلا: نعم . قل لها أن تجئ لزيارتى وهذا هو عنوان منزلى . ثم كتب الاتجاهات التى لا جدوى منها على قصاصة ورق . وتضايق سلفادور من رد الفعل هذا وتوقف عن الابتســـامة ولكن ريكاردو ريس

لم يعرف أبداً ما الذى كان بصدد أن يقوله لأن اثنين من الإسبان قد هبطا على السلالم قادمين من الدور الثانى وكانا منهمكين فى مناقشة حامية وقال أحدهما متسائلاً : Senor Salvador los ha llevado el diablo a los marineros فقال سلفادور: نعم يا دون كاميلو . لقد أخذهم الشيطان . فقال دون كاميلو: حسنا . لقد حان الوقت لأن أقول Arriba Espana, Viva Portugal Arriba ثم أضاف بيمينتا نيابة عن الوطن الأم قائلاً : Viva . ولدى نزول ريكاردو ريس على السلالم دق صوت الباب الرئيسى فى أزيز . لقد كان يوجد جرس من نوع آخر ولكن الضيوف اشتكوا لأن صوته كان شبيها بصوت الجرس الموجود عند بوابات جبانة .

ولم تحضر ليديا فى فترة ما بعد الظهر هذه . وخرج ريكاردو ريس لكى يشترى الطبعة الأخيرة للجريدة . وألقى نظرة سريعة على المانشتات الرئيسية بالصفحة الأولى . وفى أسفل الصفحة قرأ: مقتل ١٢ بحاراً وفيما يلى أسماؤهم وأعمارهم: دانييل مارتينز . العمر ٢٣ سنة . وهنا توقف ريكاردو ريس عن المشى فى منتصف الشارع وقد أمسك بالجريدة المفتوحة بين يديه بعد أن غرق فى صمت رهيب . لقد توقفت عجلة الحياة بالمدينة أو أنها تمشى على أطراف أصابع أقدامها بينما اصبع السبابة مضغوط على الشفتين المغلقتين فى إحكام وفجأة صدرت أصوات تصم الآذان: بوق أتوموبيل ومشاجرة بين اثنين من بائعى تذاكر اليانصيب وطفل يبكى فى صراخ لأن أمه صفعته على أذنه بينما أمه تقول له: اذا كررت ذلك مرة أخرى سأضربك بالسوط . لم تكن ليديا بانتظاره بل ولم يكن هناك أى دليل على أنها جاءت اليه . لقد أسدل الليل سدوله وخيم الظلام . وتشير الجريدة إلى أن الرجال الذين ألقى القبض عليهم قد تم اصطحابهم إلى وكيل المنطقة ثم إلى ميترا Mitra وأن أجساد الموتى والذين لم يتم التعرف على بعضهم موجودة فى معرض الجثث . من المؤكد أن ليديا تبحث حاليا عن أخيها

أو ربما تكون موجودة فى منزل أمها حيث تنخرط الأم وابنتها فى البكاء المرير على هذه الكارثه الكبرى التى يتعذر تعويضها.

طرق على الباب . جرى ريكاردو ريس لكى يفتح الباب بينما يداه على استعداد لاحتضان ليديا المنخرطة فى البكاء بالدموع ولكنه وجد فرناندو بسوا واقفا أمامه فقال ريس: آه . إنه أنت ؟ فقال بسوا: أكنت تنتظر شخصا آخر؟ فقال ريس: لو أنك تعرف ما حدث لأدركت أننى أنتظر ليديا بكل تأكيد وأعتقد أننى سبق لى أن قلت لك إنها لها أخ يعمل فى البحرية . فقال بسوا: هل هو ميت ؟ فقال ريس: نعم. لقد مات . وأصبحا فى غرفة النوم حيث جلس فرناندو بسوا فى نهاية السرير فى حين جلس ريكاردو ريس على كرسى بينما الغرفة الآن قابعة تحت ظلام دامس . ومرت نصف ساعة بهذه الطريقة ثم سمعا دقات ساعة حائط مترامية من الدور الثالث الموجود فوقهما فقال ريكاردو ريس لنفسه فى تفكير صامت: لا أذكر أبداً أننى سمعت تلك الدقات من قبل أو ربما سمعت تلك الدقات ذات مرة ثم أخرجتها من داخل ذهنى . وكان فرناندو بسوا جالسا بينما وضع يديه على ركبة واحدة وقد تشابكت أصابعه وتنكس رأسه . وبدون أن يتحرك فى جلسته قال: لقد جئت لكى أقول لك إننا لن نشاهد بعضنا البعض مرة أخرى على الاطلاق . فقال ريس: ولم لا؟ فقال فرناندو بسوا: لقد انتهى الزمن المحدد لى . هل تتذكر أننى قد قلت لك ذات مرة إننى لم يتبق لى سوى شهور قليلة ؟ فقال ريس: نعم أذكر ذلك . فقال بسوا: حسنا . ذلك هو السبب فتلك الشهور قد انقضت . فقام ريكاردو ريس بإحكام غلق العقدة فى رباط عنقه ونهض واقفا على قدميه وارتدى جاكتته واتجه إلى الكومودينو وأخذ كتاب «إله المتاهة» ووضعه تحت ذراعه وقال: هيا بنا اذن . فقال بسوا: إلى أين أنت ذاهب ؟ فقال ريس: انني ذاهب معك . فقال فرناندو بسوا: ينبغى عليك البقاء هنا وانتظار ليديا . فقال ريكاردو ريس: أعرف أنه ينبغى علىّ الانتظار . فقال بسوا: لكى تواسيها

عقب فقدان أخيهـــا . فقال ريس: لا أستطيع أن أفعل أى شئ من أجلها. فقال بسوا: والكتاب ؟ لأى شئ تريد الكتاب ؟ فقال ريس: على الرغم من الوقت الذى منح لى فإننى لم أتمكن من الانتهاء من قراءته على الاطلاق . فقال بسوا: لن يكون لديك متسع من الوقت . فقال ريس: لسوف يكون لدى الوقت الذى أريده . فقال بسوا: أنت تخدع نفسك . فالقراءة هى أولى القدرات التى يفقدها الانسان قبل أن يموت . أتذكر أننى سبق أن قلت لك ذلك . ففتح ريكاردو ريس الكتاب وشاهد علامات لا معنى لها كما شاهد خربشة سوداء علاوة على مشاهدة صفحة من اللطخات والبقع الكبيــرة . فقال: ملكة القراءة قد تركتنى بالفعل ولكن لا يهم . لسوف آخذ الكتاب معى على كل حال . فقال بسوا: ولكن لماذا ؟ فقال ريس: لكى أخلص العالم من أحد الالغاز.

ولدى مغادرتهما للشقة قال فرناندو بسوا له: أنت قد نسيت قبعتك . فقال ريس: أنت تعرف على نحو أفضل منى أن القبعات لا يتم ارتداؤها فى المكان الذى نحن بصدد الذهاب اليه حاليا . وعلى الرصيف المواجه للحديقة راحا يرقبان الاضواء الشاحبة التى ترفرف على النهر . إنها الظلال المشئومة للجبال . وقال فرناندو بسوا: إذن هيا بنا . فقال ريكاردو ريس موافقاً: هيا بنا . آدأماستور لم يستدر حوله لكي ينظر . ربما كان خائفا من أنه لو فعل ذلك لأخرج فى نهاية الأمر صراخه الرهيب . هنا حيث البحر ينتهى وحيث الأرض تنتظر.

رواياتُ الهلال تقدم

أطيـــــاف

بقلم

د . رضوى عاشور

تصدر : ١٥ فبراير ١٩٩٩

رقم الايداع : ١٩٩٩/١٧١٠
I. S. B . N
977 - 07 -0631- 0

● نموذج الإشتراك فى روايات الهلال ●

يمكنكم الحصول علي خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك في روايات الهلال بإرسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفي (باقي دول العالم) بقيمة الإشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الإشتراكات .

الاســــم :

....

العنـــوان :

....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا -أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند-كندا دولار	باقي دول العالم دولار
اشـتراك سنوي	٥٤	٣١	٤٥	٤٥	٥٤
إشتراك ٦ شهور	٢٧	١٦	٢٣	٢٣	٢٧



خوسيه ساراماجو

● أول روائى برتغالى يفوز بجائزة نوبل فى الأدب هذا العام .

● مولود عام ١٩٢٢ ، فى مدينة ازينهاجا .

● بدأ حياته الأدبية فى سن متأخرة بعد طول إنقطاع حيث نشر رواية عابرة عام ١٩٤٧ ، باسم «ارض الخطيئة» .

● ذاعت شهرته فى الثمانينات من خلال مجموع رواياته ومنها «بالتزار وبليموندا» ، و«الاله الاكتع» ، و«عام موت ريكاردو ريس» ، «وانجيل يسوع» ، و«تاريخ حصار لشبونه» .

● تعدد عطاؤه فى كتابة ، الشعر ، والمسرح ، والرواية ، والقصة القصيرة ، والمقالات الفكرية .

هذه الرواية

● قبل ان يفوز ساراماجو بجائزة نوبل عام ١٩٩٨ ، فازت روايته «عام وفاة ريكاردو ريس» بجائزة الرواية الاجنبية «أندبنديت» فى بريطانيا عام ١٩٨٨ .

انها رواية عن علاقة المؤلف نفسه بالشاعر المعروف فرناندو بسوا (١٨٨٨ - ١٩٣٥) ، حيث أعجب المؤلف بشخصية صنعها ساراماجو فى شعره تسمى ريكاردو ريس ، فسعى إلى إعادة إحيائها مرة أخرى ، وكتب رواية عنها ، وجعلها ترحل عن العالم فى نفس سنة رحيل صانعها ..

اذن ، فنحن أمام ثلاثة اشخاص معا فى عمل واحد ، المؤلف ، الشاعر ، الشخصية المختلقة ، وهو عالم مزخوم بالمشاعر المتدفقة ، رائع بما يحتويه من تفاصيل مسحتها الاولى السحر : سحر العالم الذى ينتمى إليه ، وسحر الكتابة ، وبالطبع سحر الوقائع ..

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

تفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع